مجموعة الرسائل المدنية

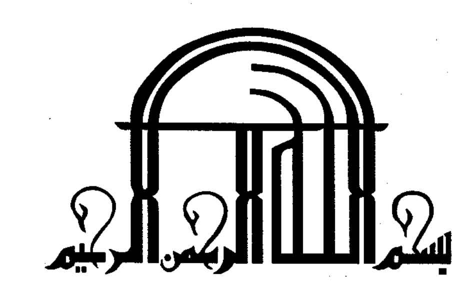
تأليف

فضيلة الشيخ عطية محمد سالم
رحمه الله تعالى (ت ١٤٢٠هـ)

الجزء الثاني

دار




بسم الله الرحمن الرحيم

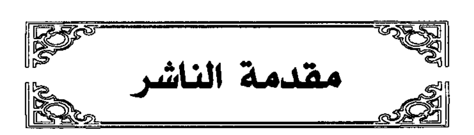
مجموعة الرسائل المدنية

(٢)

الطبعة الأولىٰ
١٤٢٦هـ



المدينة النّبويّة
شارع الملك عبدالعزيز - التّازل
هاتف : ٨٣٨١١٤٨
فاكس : ٨٣٩٠٨٣٨



مقدمة الناشر

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على أشرف خلق الله نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد..

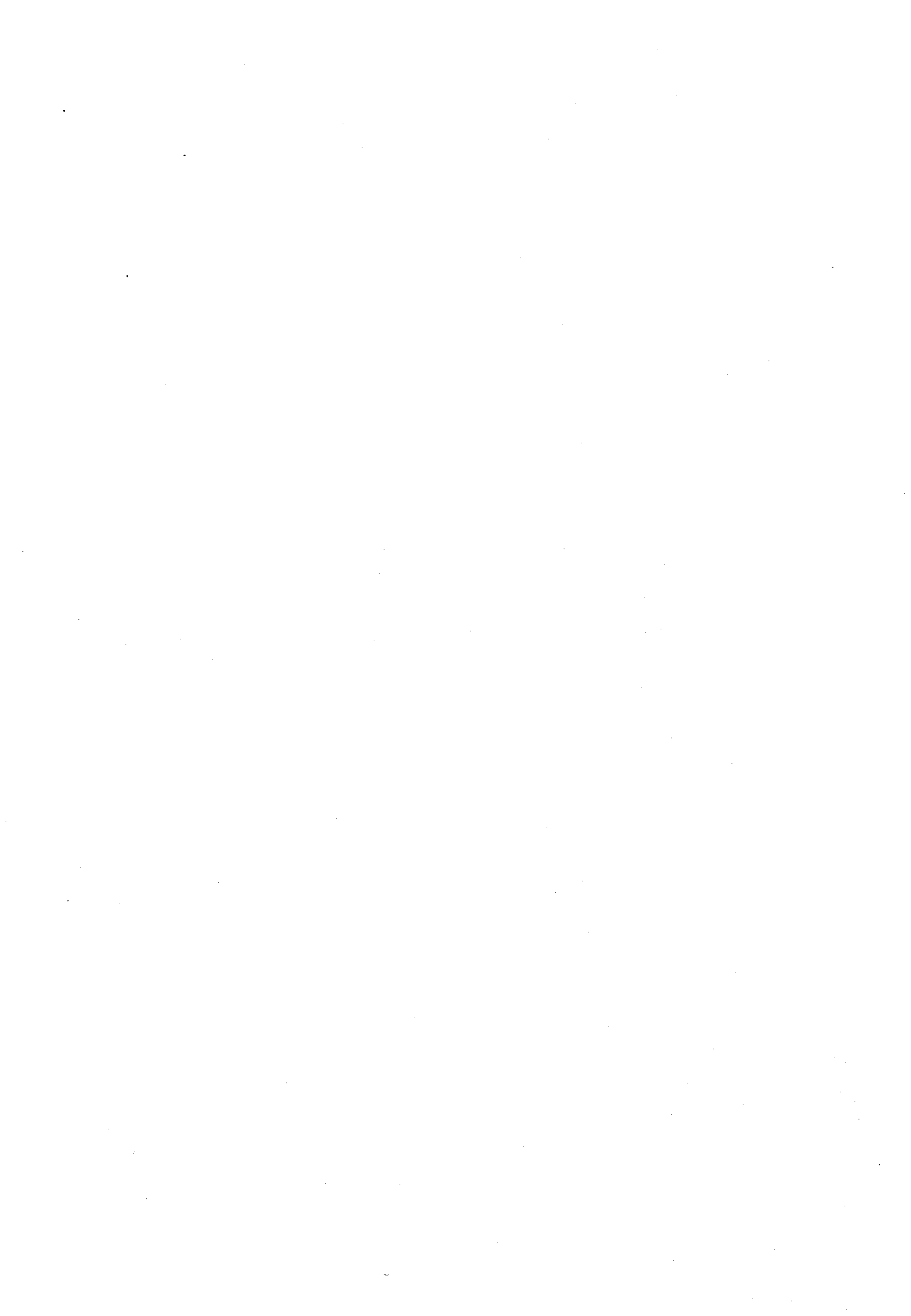
إن هذه الرسائل المدنية المباركة من مؤلفات فضيلة الشيخ عطية محمد سالم رحمه الله تعالى، لحريٌّ بالاستفادة منها، فهي في الحقيقة ثمرة خمسين عاماً من طلب العلم، من عالمٍ فرّغ جُلّ وقته للعلم، فأعطى نفسه للعلم وكانت ثمرته تلك المؤلفات وهي تدل على الهمّة العالية لطلب العلم، حيث ترىٰ في موضوعاتها الشيّقة شخصية هذا العالم المبارك.

ونظراً للطلب المتكرر والمُلِحّ من طلبة العلم ومحبي فضيلة الشيخ رحمه الله تعالى بضرورة إعادة طباعة ما طبع منها وما لم يطبع وتحقيقاً لذلك، تقرر طباعتها ليستفيد منها الخاصة والعامة، كلٌّ يجد بغيته فيها لما تمتاز به من سهولة العبارة وأسلوب فريد في الطرح.

نسأل الله ﷻ أن ينفع به المسلمين ويجعلها في ميزان حسناته إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا وصلّى الله على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المشرف العام
سالم بن عطية سالم





تَعريفٌ عامٌّ
بعموميات الإسلام



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله على نعمة الإسلام، والشكر له على الكمال والتمام، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ذو الجلال والإكرام، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله هَدى الأنام ونشر الإسلام، أرسله الله رحمة للعالمين، وختم به رسالة الأنبياء والمرسلين، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطيِّبين الطاهرين.

أما بعد:

فهذه معلومات عامة عن الإسلام، بناءً على ما قدّمه المجلس الأعلى الاستشاري للجامعة، وأقرّه مجلس الجامعة، من ضرورة تقديم معلومات عامة عن الإسلام. وقد أكد أهمية هذا الموضوع وجعلَه أولى بهذه الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وجودُ أبناء العالم الإسلامي بها من شتى الأقطار، في الوقت الذي يغزو الإسلامَ والمسلمين أفكارٌ شتى، ويتجاور في البلدان الإسلامية دياناتٌ عِدّة.

ولعلّ هذا الموضوع من أهمّ أهداف رسالة الجامعة ومهمتها، حيث أُنشئت لخدمة الإسلام ونشر تعاليمه جملةً وتفصيلاً، وحينما أتشرف بكتابة هذه الرسالة أشعر بأهمية موضوعها وما يتطلبه من عناية تفي بحقه، فكان اللازم بذل الوسع وإفراغ الجهد لتأدية الواجب وتحقيق الغاية، فإن تمّ ذلك، فبفضل من الله تعالى وتوفيقه، وإن قصّرت دونه، فالمجال متّسع والميدان فسيح، ولنا من سعة الموضوع وخطورته العذر، ومن الله نستمد العون والتوفيق.

وقد اشتملت هذه الرسالة على نقاط هامة من المباحث الآتية:

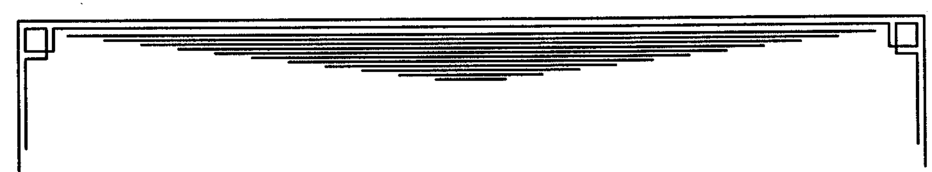
تعريف الأديان: متى وكيف نشأت، مناقشة الفلاسفة والمستشرقين والكتّاب في هذا المبحث على ضوء الإسلام.

حاجة الإنسانية إلى الدين: الإسلام دين العالمين، تقسيم الدين إلى إسلام وإيمان وإحسان، وأركان كل قسم، ما وراء كل قسم منها من المؤثرات في حياة الأمة أفراداً وجماعات.

عموميات الإسلام: عقائد ـ عبادات ـ معاملات ـ تحقيق مصالح الإنسانية كلها، صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، وما وراء ذلك كله من خير عاجل في الدنيا وسعادة في الآخرة.

واللهَ أسألُ أن يجعله عملاً خالصاً لوجهه ويكلِّله بالنجاح من فضله، وأن ينفع به إنه وليّ ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المؤلف
عطية محمد سالم



حاجة الإسلام إلى التعريف

إن الإسلام وإن كان واضح المعالم بيِّن المراسيم نيِّر السبل كالشمس في رابعة النهار كما قال عنه الرسول ﷺ: «**تركتُكم على المحجّة البيضاء ليلُها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك**»[1]، وقال عنه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال تعالى عن آثار الإيمان في القلوب: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ﴾ [النور: ٣٥].

ومعلوم أن إدراك النور أمر فطري، ولهذا كان هذا الدين دين الفطرة، وكان غنياً عن التعريف كما قال تعالى عنه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠] ولكنه مع وضوحه واستضاءته وفطريته؛ فإن حُجب المادة الكثيفة تحجب عن القلوب نورانيته.

وتيارات المدنية المتضاربة قد تشغل الأفكار عن هدايته، وتشعّبُ المذاهب المستحدثة قد تصرف الأنظار عن وجهته. فكم من دعاة للسوء ضده، وكم من متحمِّس له جاهل به، وهذا وذاك يفسد على الناس فِطَرَهم ويُبعد عن حقيقة الدين مسيرَهم، ويشغلُهم عن تعاليمه، ويُلهِهم عن جماله ومحاسنه.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٣) وليس فيه كلمة «المحجة»، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٣٧).

فأصبح الناس ما بين منصرف عنه أو جاهل به، وأصبح الدين بينهم متفرِّداً في عزلة غريباً في وحشة، غريباً عند أبنائه، مستوحشاً من أعدائه. وما أشد غربته اليوم، ولهذا فهو أحوج ما يكون إلى التعريف به كحاجة السيد الكريم وقد نزح عن وطنه فلم يعرفه أحد، أو ذهب جاهه وضاع سؤدده فهُضم حقه واستوحشت نفسه وتعطلت الاستفادة به. وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «**بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ**»[1]. فحاجة الإسلام إلى التعريف عند أبنائه وأخذ أبنائه فكرة عنه؛ لا تقلّ أهمية عن حاجته إلى التعريف عند أعدائه وإعطائهم عنه فكرة.

ويقول الغزالي: إن الأجيال الجديدة فقيرة إلى معرفة الإسلام بلغة طيِّعة ودلالة قريبة. ربما كانت الكتب القديمة مفيدة في العصور التي ظهرت فيها، وربما كانت المشكلات التي تناولتها مما يعني أُناساً مضوا ومضت معهم أزمانهم الروحية والمادية.اهـ.

لكن أبناءنا وإخواننا في هذه الأيام بحاجة ملحّة إلى أن يعرفوا دينهم معرفة تملأ الفراغ النفسي الملحوظ وتدحض الشبهات التي اختلقها سماسرة الإلحاد والتحلّل بعد زحف الاستعمار الأخير على بلادنا، ولا شك أن أبناء الإسلام هم ألزم به وهم أولى بمعرفة حقيقته من سواهم. تجديداً لإيمانهم وتقويةً لعزائمهم.

ومعلوم أن تعريف الإسلام بالأمس لأبناء الأمس قد لا يكفي اليوم لأبناء اليوم ولا الغد لأبناء الغد. وليس معنى ذلك أن الإسلام بالأمس خلاف الإسلام اليوم أو الغد، لا، فالإسلام هو الإسلام بنظامه وكماله لا يحتمل نقصاً ولا يقبل زيادةً. كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ولن يصلح آخر هذه الأُمة إلا بما صلح به أوّلها. غير أن عقلية أبناء اليوم هي خلاف عقلية أبناء الأمس وعقلية أبناء الغد خلاف عقلية أبناء اليوم، ومشاكل اليوم خلاف مشاكل الغد ومغايرة لمشاكل الأمس. والإسلام بتعاليمه

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٥) من حديث أبي هريرة، وأخرجه (١٤٦) من حديث ابن عمر.

ومنهجه صالح لكل زمان ومكان، بل هو بمعناه الأعم مصاحب للإنسانية منذ وجدت، يساير فِطرَتَها وينظِّم حياتها ويسمو بإنسانيتها، غير أنه كلما تنوعت ملابسات الحياة لأُمة وتعددت تيارات الفكر فيها، واختلفت اتجاهاتها تبعاً لظروف حياتها؛ احتاج الناس إلى مَن ينبههم إلى حقائق الإسلام، ويزيل عن أفكارهم ركام المادة، ويميط عنهم حُجُب التشاغل الطارئة، ويدعوهم إلى العودة إلى تعاليم الدين الحنيف يستقون منه مناهج حياتهم ويترسّمون فيه خطوات سعادتهم.

فتطمئن قلوبهم بعد القلق وتسكن نفوسهم بعد الاضطراب، وتهتدي أفكارهم بعد الضلال، وترتاح أرواحهم لدينها الذي ارتضته، وذلك فضلاً عن أن يتعرّف عليه أعداؤه فيجدوا فيه ضالّتهم ويلمسوا في رحابه سعادتهم؛ فيستجيبوا لندائه ويأخذوا بتعاليمه ويسلِّموا وجوههم لله رب العالمين.

والناس في هذه الآونة أشدّ حاجة إلى التعرّف على الإسلام من أيّ وقت كان. فالمسلمون على مفترق الطرق، حيث ساروا أول الأمر على الجادة المستقيمة والمنهج المبين حتى داهمتهم المدنية بزخارفها فرأوا من الصناعات المختلفة والإنتاج الحديث ما بهر عقولهم وأخذ بألبابهم وحيّر أفكارهم شأن كل جديد. وقام دُعاة السوء ينقّون في الظلام ويصطادون في الماء العكر، فشوّشوا على البسطاء وضلّلوا السذّج بعرض إنتاج الغرب والتنديد بتخلّف المسلمين، فانحجب نور الحقائق عن بصائرهم، فتعددت الطرق أمامهم فوقفوا حائرين، ولو أمعنوا النظر وتطلبوا القيم الأخلاقية والمعاني الإنسانية والمُثُل العليا لما وجدوها إلا في الطريق السويّ والصراط المستقيم في ظل الإسلام، فهي منه كالمصابيح على جوانب الطريق تنير السبيل وتهدي الضالّ.

وبقي على دُعاته وحَمَلَة لوائه أن يكشفوا أستار الوهم وينبِّهوا العقول من سُبات الغفلة ويضعوا أيديهم على مفاتيح العزّة وأسباب السعادة في مناهج الإسلام، ولا سيما في هذه الآونة. وقد انقسم أعداء الإسلام إلى معسكرين متناقضين: شيوعية حمراء في الشرق، ورأسمالية غبراء في الغرب، كلاهما من الاعتدال على طرفي نقيض؛ افتقدت في الأول القيم الإنسانية، وانقطعت في الثاني الصلات المعنوية. وأصبحت تجمعاتهما شكلاً بلا معنىً وجسداً بلا

روح، حياة يسأمها العقلاء، ويَعافها النبلاء، ولا يدركها البسطاء. فلعلهم إذا عرفوا الإسلام على حقيقته أن يرجعوا إليه أو يخفِّفوا حملاتهم عليه.

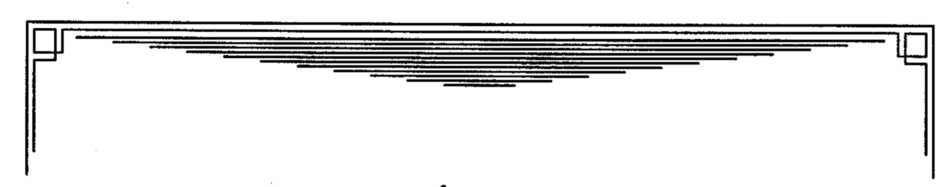
ومَن اليومَ أولى بحمل هذا العبء وأحقّ بالقيام بهذا الواجب وألزم بأداء أمانته وبتبليغ رسالته وتجديد دعوته وشرف خدمته من أبناء الجامعة الإسلامية أبناء العالم الإسلامي كلِّه؟

مَن أولى بذلك كلِّه من أبناء تلك الجامعة التي هيأ الله لها أسباب الوجود في وقت اشتدت حاجة الناس إليها فيه؟ لكثرة القلاقل وشدة الزعازع وإثارة الفتن وتعدّد الطوائف والأحزاب، وكلها إنما هي على حساب الإسلام ومصلحة المسلمين.

وأيُّ بلد أولى بمركز هذه الانطلاقة من مدينة رسول الله ﷺ، منطلق الإسلام ومعقل المسلمين ومئزر الإيمان؟

والفكرة عن الإسلام تتطلب فكرة عن الأديان: تعريفها، ونشأتها، ومتى وكيف نشأت؟





تعريف الأديان

ما هو الدين؟

إن تعريف الأديان كموضوع يدرس شيء جديد على مناهج الدراسة، فقد كانت دراسته شاملة لأجزائه وتعاليمه وأحواله وفروعه، غير أن شأن العلوم والانقسام كأي كائن آخر؛ فقد أوجدت الدراسات المختلفة والمقارنات المتعددة تطلعاً لأصل الدين ما هو؟ ومنذ وجود هذا التطلع أكثر الناس في تعريف الأديان بصفة عامة سواء منها الصحيح والباطل. وقد شارك في ذلك علماء الشرق ومستشرقو الغرب، ولسنا في حاجة إلى تتبع أقوال الغربيين في هذا الصدد لأنها لم تقم على أساس ولم تفرّق بين حق وباطل. ولا بأس من عرض نماذج منها للاطّلاع فقط:

١ ـ فمنهم مَن يقول: هو مجموعات النظم الاجتماعية والعادات ذات العقائد.

٢ ـ فمنهم مَن يقول: الإدراك الفطري في الإنسان بالسببية.

٣ ـ فمنهم مَن يقول: شعور الإنسان بالتبعية لقوة عليا.

٤ ـ فمنهم مَن يقول: مجموعة نظم العلاقات الفردية والاجتماعية والروحية الإلهية.

أما تعريفه بالمعنى الصحيح عند المسلمين فهو كالآتي: لغةً، وشرعاً.

أولاً: تطلق كلمة الدين في اللغة على عدة معانٍ: منها الجزاء والحساب، والطاعة والذل، والسياسة والتوجيه والملّة، وفي القرآن الكريم جاء استعمالها شاملاً لهذه المعاني كقوله تعالى عن الجزاء والحساب: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، وعن الطاعة والانقياد: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وعن المنهج والملّة: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

المعنى الشرعي:

فإذا أردنا تعريف الدين تعريفاً موضوعياً كان لا بدّ للتعريف من شموله على تلك المعاني السابقة من الطاعة والانقياد والمتابعة في ذل واستسلام بلا ممانعة، والإقرار بالعبودية لله تعالى وحده، والسير وفق المنهج الذي ارتضاه لخلقه، مع الإيمان بيوم الجزاء والحساب يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله.

وقد عرّفه صاحب كتاب «كشاف اصطلاحات الفنون» بقوله: (هو وضع إلٰهي سائق لذوي العقول باختيارهم إلى الصلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة. ويطلق على ملّة كل نبي، وقد يختص بالإسلام).

وعرّفه السيد قطب بقوله: (إن هذا الدين ـ يعني الإسلام ـ منهج إلٰهي للحياة البشرية).

ويمكن أن تقول: إن الدين هو: (ما شرعه الله لخلقه بوحي منه إلى رسله).

ويدل لهذه التعاريف قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

ثم يبيّن الله تعالى ما شرعه لنا وارتضاه بأنه الإسلام كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وأبطل كل ما عداه كما قال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فمَن التزم بالإسلام لزمه أن يرفض كل ما عداه من الأديان، وأن يتجنب كل ما جانب الإسلام وباعد عن نطاقه، سواء كان هوىً مطاعاً أو شحّاً متبعاً، أو رأي معجب به فلا يتخذ إلٰهه هواه ولا الناسَ أرباباً من دون الله.



فكرة عن الأديان

أولاً: ضرورتها للإنسان

اتفقت كلمة الجميع من علماء التاريخ، وعلماء الاجتماع، وعلماء الآثار، وعلماء الأديان؛ أنه لا بدّ من الدين لكل أُمة.

١ ـ يقول المؤرخ الإغريقي الشهير بلوتارك منذ ألفي سنة ما نصه: (من الممكن أن نجد مُدُناً بلا أسوار، ولا ملوك، ولا ثروة، ولا آداب، ولا مسارح؛ ولكن لم يرَ الإنسان قطُّ مدينة بلا معبد، أو لا يمارس أهلها عبادة). «بين العلم والدين» لنوفل.

٢ ـ ومثله قول هنري بروغسون: (ولقد وُجِدَت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنه لم توجد قطُّ جماعة بغير ديانة) «أُسس التربية الإسلامية».

٣ ـ ويقول الدكتور سليم حسن: (دلّت البحوث العلمية البحتة حتى الآن على أن لكل قوم من أقوام العالم مهما كانت ثقافتهم منحطّة ديناً يسيرون على هديه ويخضعون لتعاليمه).

٤ ـ ويقول الدكتور محمد يوسف موسى: (والدين مع الاختلاف في تحديده وتعريفه قديم قِدَم البشرية، فما من جماعة إنسانية كانت تعيش في تلك الأزمان القديمة إلا كان لها دين ومعبودات تتجه إليها، رهباً حيناً ورغباً حيناً آخر) إلى أن قال: (ويكفينا أن نشير إلى الأديان العديدة التي عرفتها البشرية في العصور العريقة في القدم: في مصر وبابل وآشور وما بين النهرين، وفي الهند وما حولها، وفي الصين وما والاها، وفي فارس، وفي سائر بلاد ذلك العالم القديم).

حاجة الإنسانية إلى الدين من طبيعة الإنسان:

إذا أردنا أن ندرك مدى حاجة الإنسانية إلى الإسلام فإن علينا أن نلقي نظرة على كيان الإنسان وطبيعته. فنجده من حيث أنه كائن في الوجود له متطلبات الحياة والبقاء؛ يتطلب دائماً توفّر أسباب الحياة وبقائها فيعمل جاهداً لكسب مقوّمات حياته وعوامل بقائه بأيّ وجه كان؛ فقد أصبحت الحياة وما فيها وسيلة لبقائه، فهو أسير قيودها ومتعبّد مطالبها، لم ينفك من غرائزه مهما ترقى أو تقدم. وصدق الله العظيم: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤]. فهي غايته في الحياة ويعمل من أجلها ما دام حيّاً ولو طغى وبغى، وإذا حصل على شيء منها حرص عليها وتشحُّ نفسه أن تسمح بشيء منها لمن لم يحصل عليها خشية فقدانها أو الفقر منها، وصدق الله العظيم: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨] ولم يوق هذا الشح إلا مَن وفّقه الله ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩، التغابن: ١٦].

ولو كانت النتيجة إلى هذا الحد لكان أمراً طبيعياً بالنسبة إلى الإنسان كأيّ كائن حيّ يدفعه حب البقاء إلى هذا العمل. غير أنه يتعدى حدود الطبيعة ويجانب الصفات الإنسانية فيبيح لنفسه ظلم غيره كما قال الشاعر:

والظلمُ مِن شيمِ النفوسِ فإنْ تجدْ ذا عِفّةٍ فلِعِلَّة لا يَظلم

ثم يترك لنفسه العنان لتطغى بما كسبت على مَن حُرم ذلك، وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦ ـ ٧] فلا عطف ولا حنان ولا مودّة ولا إحسان، بل قطيعة وجفاء وصلف وكبرياء، كما صوّرها الشاعر الجاهلي.

بل لا عهد ولا وفاء، ولا أمانة ولا أداء، وقد عبّر عن ذلك هتلر عندما قيل له في المعاهدة التي بينه وبين إحدى دول أوروبا: إنها حبر على ورق يُعمل بها أثناء السلم فقط.

تلك طبيعة الإنسان من ناحية كونه كائناً حيّاً له مقوّمات الحياة ومتطلباتها.

وليس هذا في الأفراد بل في الجماعات والأُمم والشعوب. وإذا ظلت الإنسانية في هذا الإطار وسارت في هذا التيار كانت النتيجة بلا شك الهلكة والدمار؛ لأن كل فرد أو جماعة أو شعب سيعمل لنفسه ويستبيح في سبيل ما يعمل له كل شيء ولو كانت حياة الآخرين. فتصبح الحياة فضلاً عن أنها مادية صرف معركةَ تطاحُن على الحياة والبقاء، والغلبة فيها للأقوى شأن الحياة في الغابات والجبال بين الوحوش والأدغال. وكما في المثل العربي: مَن عزَّ بزَّ، ومَن غلب استلب.

وأمامنا الأدلة العملية في تقدّم الحياة مادياً في الصناعات والمخترعات التي بهرت العقول كلها في سبيل الترفيه عن النفس وإرضاء الجسم والحصول على أكبر قسط مما زُيِّن للناس من حُبِّ الشهوات، حتى أدى التنافس في ذلك إلى أخطر ما وصلت إليه المخترعات من عوامل الدمار والهلاك.

في الوقت الذي لم تستطع تلك المخترعات أن تخفّف من غريزة الطغيان أو تفك من إيسار الشهوات في الإنسان. فالجانب المادي في الإنسان في تقدم باطّراد، والنتائج في خطورة بازدياد.

وإذا نظرنا إلى الإنسان كمخلوق له خصائصه ومميزاته، وأهمها العقل والفكر ومحطّ التكاليف الإلهية؛ وجدناه يسمو بالمعاني الإنسانية، ويرتقي بالقيم الخلقية، وتهزه الأريحية، ويرتاح للشعور والأحاسيس الروحية. فيرى متع الحياة قاصرة عن أهدافه، وأسباب المعيشة وسائل لغاياته، فيبذل من كسبه لسد حاجة أخيه فضلاً عن أن يمسك عن ظلمه، ويقدّم نفسه لخدمة المحتاجين فضلاً عن الطغيان في العالمين، بل يؤثر غيره على نفسه فضلاً عن الشحّ بما يمتلكه، ويصبح قلبه ممتلئاً حبّاً ومودّةً وعطفاً ورحمةً، ويرى لغيره ما يراه لنفسه.

ومجتمع هذا شأنه فهو مجتمع إنساني تغمره السعادة، وأيّ شيء يحوّل من طبيعة الإنسان كأي حيّ في الوجود إلى إنسان له أهداف سامية وعليه رسالة عالية؟ لا شيء إلا الدين والدين وحده. الدين الذي أنزله الله تعالى من عنده وارتضاه لخلقه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

ونقطة التحوّل في طبيعة الإنسان عن طريق الدين إنما هي الإيمان بالله

واليوم الآخر، فعن طريق الإيمان بالله يصدِّق بكل ما جاء عنه، وعن طريق الإيمان بالله واليوم الآخر سيتسع أُفقه وتبعد نظرته وتسخو نفسه، فيقدم في دنياه ليسعد في أُخراه. وصدق الله العظيم حيث قال في معرض البيان المقابل للناحية المادية السابقة: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١٥ ـ ٢٠].

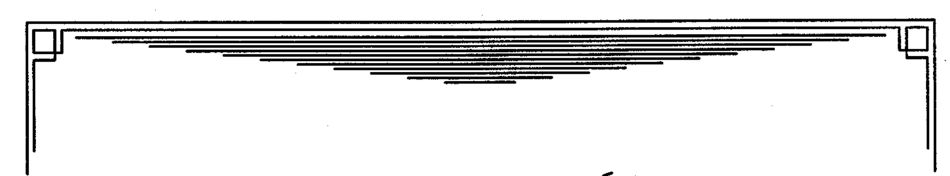
لو أمعنت النظر في سياق الآيات من هذا القسم لوجدت كما نبأ تعالى خيراً من ذلكم عنده، ولمن؟ للذين اتقوا، وما هو؟ جنات تجري من تحتها الأنهار خير من الحرث، وأزواج مطهرة خير من نساء الدنيا على سبيل الخلود. وتوّج هذا بالعناية القصوى ورضوان من الله.

ثم يصف أصحاب هذا الجزاء وهم الذين يقولون: ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقِنا عذاب النار. ولم يكن شأنهم قول واعتقاد فحسب بل وعمل: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ صبر على الأعمال، وصدق في المقال، وقنوت للرب المتعال، وإنفاق من المال، واستغفار بالأسحار ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ﴾ حقاً إن الله تعالى واحد شهد بذلك لنفسه وشهد بذلك سائر خلقه من ملائكة وجن وإنس بل وسائر الكائنات. وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد. ولكن ذكرَ صفة القيام بالقسط هنا لها أهميتها وميزتها، فكأنها إشارة إلى أن أولئك الذين آمنوا بالله واليوم الآخر والذين صبروا وصدقوا وقنتوا وأنفقوا وأنابوا واستغفروا لا بدّ أن يقوموا بالعدل، ولا بدّ أن يقيموا حياتهم

على أساس من العدل ونهج من القسط، ولهذا كان جزاؤهم بالعدل والقسط. وكان أولئك الذين لم يؤمنوا ولم يصبروا ولم يصدقوا ولم ينفقوا بل كذبوا وأخلفوا وغدروا وماتوا وطغوا وتكبروا؛ لن يقيموا عدلاً ولن يستقرّ في مجتمعهم قسط ولن تستقيم لهم حياة إلا بالرجوع إلى الدين الإسلامي الذي يمكّن للعدل والطمأنينة، وهو دين الحق الذي لا اختلاف فيه، وما اختلف فيه الذين أُوتوا الكتاب إلا بغياً بينهم والله سريع الحساب.

مما تقدم تظهر لنا أهمية الدين وضرورته؛ إذ لو تُرك الإنسانُ وطبعُه لكانت النتائج كما أسلفنا، فلا بدّ له من دين يترسَّم نهجَه ومن رسل تبلّغه وترشده. وقد نص القرآن على ذلك في كل أُمة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. ففي عبادة الله كل امتثال وانقياد. وفي تجنّب الطاغوت كل عدالة واعتدال في الأقوال والأفعال. فضلاً عمّا يفيض على الإنسان من وجدان حين يؤدي ما افترض الله عليه؛ فتخبت نفسه ويهدأ روعه وتسمو روحه وتقوى صلته بالله رب العالمين.





ثانياً: متى نشأت الأديان؟

إن الناظر في هذا المبحث والمتطلب الجواب عن هذا السؤال، ما لم يستهدِ بهدي القرآن ويسترشد بنور الوحي؛ سيسير في بيداء الجهالة ويضطرب في ظلام التخرّص، ولن يخرج إلا بإثم الظن وقلاقل الحيرة وأوهام الشكوك، ولا سيما والكتابة كلها في هذا الشأن حديثة النشأة.

جاء في كتاب نوفل «بين الدين والعلم» في ص٢٥ ما نصه: (فمتى يا تُرى بدأ الدين وكيف بدأ؟) يتساءل ثم يقول: لم يصل العلم عن طريق القطع إلى تحديد زمن بدأ فيه الدين. فإن الدراسات التي قام بها العلماء على الآثار التي خلفها الإنسان في أول تاريخ أمكن معرفته تشير إلى وجود الدين.

ويقول في نهاية الصفحة: ومن أجل ذلك كله أصبح من المستحيل تتبّع منابع أُصول أيّ دين قديم لأيّ أمة مهما عظم شأنها ومهما بلغت حضارتها من الرقي. وعلينا إذن أن لا نطمع يوماً ما في أن نضع تاريخاً محدداً تحديداً علمياً لدين أُمة من الأُمم، بل الواجب علينا في هذه الحالة أن نعتمد في بادئ الأمر على ما وصل إلينا من الأساطير المتوارثة والروايات المتتابعة.

فتراه في هذا القول أعرض عمّا دلّ عليه القرآن من بدء للأديان السماوية من الرسل المتعددة في القرآن الكريم لأنه جعل حكمه عاماً ولم يستثن أُمة من الأُمم.

ويقول في ص٣٧: فيا تُرى هل كان لإنسان ما قبل التاريخ دين وإلى أيّ عصرٍ من عصور الإنسان ترجع معرفته للدين؟اهـ. (وعصر ما قبل التاريخ عندهم ينتهي ببدء العصر التاريخي. وهذا البدء يختلف باختلاف أحوال البلاد، ففي مصر بدأ العصر التاريخي قبل ميلاد المسيح بأربعة آلاف سنة، وفي بلدان أوروبا المحاذية إلى البحر الأبيض المتوسط يبدأ قبل الميلاد بألف

سنة، وفي بقية بلدان أوروبا يبدأ بميلاد المسيح فقط) فهو يتساءل عن إنسان ما قبل التاريخ هل كان له دين؟ ثم يقول: والإجابة على هذه الأسئلة لن تكون عن طريق أدلة مقروءة أو شواهد قائمة، أو آثار ثابتة، فإن معرفة أحوال الإنسان في عصور ما قبل التاريخ إنما تعتمد على المنطق والعقل والاستنتاج والمقارنة والربط.

فنراه في هذا كله يتساءل: متى يا تُرى بدأ هذا الدين؟ وهل كان لإنسان ما قبل التاريخ دين؟؟

ويجيب بأن العلم يصل عن طريق القطع إلى تحديد زمن بدأ فيه الدين. ثم يقول: لن تكون الإجابة عن طريق أدلة مقروءة أو شواهد قائمة أو آثار ثابتة. ويقول: الواجب علينا في هذه الحالة أن نعتمد في بادئ الأمر على ما وصل إلينا من الأساطير المتوارثة والروايات المتتابعة.

ثم نجده بعد ذلك بصفحات يقول: وهكذا تدل كافة الأبحاث وتؤكد الدراسات أن الدين بدأ ببداية الإنسان وأن الإنسان الأول قد آمن بالله إيماناً كاملاً... إلخ.

فمع بطلان القول الأول قد تناقض مع القول الثاني، زيادة على أنه جعل ثبوت الدين عن طريق الإلهام، وأغفل أدلة القرآن.

ونجد للدكتور محمد يوسف في كتابه «الإسلام وحاجة الإنسانية إليه» ص٢١ في الفصل الثاني عند الكلام على الحاجة إلى الإسلام يقول: أولاً: ـ بعد كلامه عن العقل وفضله ما نصه ـ: ومن ثم كان تراث الإنسانية قبل عهد النبوّات من النظم والآراء والأفكار، في الدين والاجتماع والطبيعة ونواحي المعرفة الأخرى، إلا أن العقل يضلّ ويضلّ كثيراً حين يحاول الوصول إلى إدراك ما ليس في طاقته وبخاصة العالم الأعلى وما يتصل به.

ثم يقول في نهاية الصفحة: ولكن الله عادل يعلم أن الإنسان لا يكون شيئاً إن تركه إلى نفسه وعقله. وأن من العدل ليكون الإنسان مسؤولاً عمّا يفعل وليحقّق الغرض من وجوده؛ أن يبين له الرشد من الغيّ.. وكان على ألسنة مَن اصطفاهم من خلقه ليكونوا حاملي رسالاته.

فتراه يجعل فترة قبل عهد النبوّات، ويجعلها فترة عقل تسير في نظامه. ويجعل العقل قاصراً عن النظر فيما لا طاقة لديه. وبعد هذا كله تأتي الرسالات.

ومثل هذا كلام صاحب كتاب «تاريخ الأديان وفلسفتها» ص١٨١ ما نصّه: وإن لم يكن بالإمكان التثبّت من معرفة الزمن الذي وجدت فيه الأديان تُرى ما هو الدين الذي كان بشر الدور الحجري القديم يدين به؟

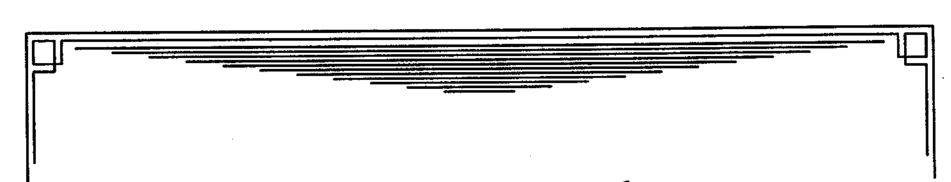
فتراه يقطع بأنه ليس بالإمكان معرفة الزمن الذي وُجدت فيه الأديان. ثم هو بعد صفحة من كتابه يعرّف الدور الحجري القديم بأنه دور البشر الأول. وهو عنده شبه البشر وكأنه يشير إلى نظرية (درون).

وإذا كان يربط الدين بهذه النظرية فلن يمكن له إثبات رسالات قديمة. ولا حاجة لمناقشته لظهور بطلانه.

ومثل ذلك أقوال الغربيين التي تقوم كلها على الاستنتاج والمقايسة فلم تسلم من الاضطراب، ولم يسلم كذلك من قلّدهم من الشرقيين. وكل الأقوال تلتقي عند نقطة واحدة هي أنه قد مضى على الإنسان فترة بدون دين ثم تديَّن فيما بعد. أما متى كان وجود الدين عنده فلم يتفقوا على زمن معين.

ولو رجعوا جميعاً إلى القرآن الكريم لوجدوه ينصّ بوضوح ومن أقرب طريق إلى وجود التديّن بوجود الخليقة. وإذا كان الدين مبناه على الأمر والنهي والتديّن مبناه على الطاعة والامتثال؛ فلا نبعد إن قلنا: إن آدم عليه السلام قد شاهد صور الديانة وهو في الملأ الأعلى حين سمع الأمر للملائكة بالسجود، ورأى امتثالهم، كما رأى مخالفة إبليس، ثم توجه إليه الأمر بسكنى الجنة والنهي عن أكل الشجر.. إلى غير ذلك.

حتى نزل إلى الأرض وتلقّى الكلمات وحصلت التوبة، ثم سار أبناؤه من بعده في نفس الطريق وعلى نفس المنهج في ديانة سماوية. وسيأتي زيادة بيان الكلام على كيفية نشأة الأديان إن شاء الله تعالى.



ثالثاً: كيف نشأت الأديان؟

جرت عادة الكتّاب حين يكتبون في هذا الموضوع أن يبحثوا عن كيفية نشأة الأديان، وينهجون في ذلك منهج الاستنتاج كمنهج علماء اللغة والخط في كيفية نشأتهما، وليس لهم إلا الحدث والتخمين، كما رأينا من حالهم في البحث السابق عن: متى نشأت الأديان؟

ومما يلفت النظر أن الكتّاب الشرقيين ـ إلا مَن شاء الله ـ يسيرون تماماً سير الكتّاب الغربيين في ذلك، وقد تلاقت آراؤهم جميعاً عند مبدأ واحد وإن اختلفت مسالكهم، ألا وهو أن مبدأ نشأة الأديان من الإنسان نتيجة لتفكيره وتأمله فيما حوله وتطلعه لتعليل القوى الكونية لمعالم المظاهر الطبيعية. فبدأ ساذجاً عند الإنسان الأول ثم تطور كأي شيء آخر حتى جاءت الأديان السماوية فأكملت ذلك. بل إن منهم مَن يعتبر الأديان والأخلاق من إبداع الجمعيات البشرية التي لا غنى عنها. أما كيف وضعتها، أو كيف نشأت؟ فهذا محل اختلافهم وافتراقهم:

١ ـ فمن قائل: إن الروح هي الأصل وهذا رأي العالِم الديني الغربي تايلور، وتنشأ الفكرة عند الإنسان من مقارنته بين الجسد وهو حيّ ثم وهو ميت. فإنه يتطلع إلى سر اختلافه من حركة وفكر وحيوية إلى سكون وهمود وعدم. ثم هو يرى في منامه صور الأشخاص وأطياف الأحداث، وربما كانت لأشخاص ماتوا من زمن، وأحداث مرت في الماضي، فيربط بينها وبين ما يشاهده فاعتقد بوجود عامل أساسي لحركة كل حيّ إنساناً أو حيواناً أو نباتاً، وهو ما نسمّيه الروح. ورأى الأمراض والمعافاة، فظن أن منشأها من ذاك الروح، فرغبه ورهبه وقرّب إليه القرابين رغبة في العافية ومخافة من المرض، فنشأت فكرة العبادة للأرواح.

ثم انتقل من عبادة الأرواح الخفية إلى مظاهرها الجليّة فعبد الحيوانات والنباتات. . . إلخ.

٢ ـ ومن قائل: إن نشأتها عن طريق (الطوطم) والطوطم اسم لما يتخذ شعاراً، قبلياً أو عائلياً أو فردياً، تجتمع عليه القبيلة أو العشيرة أو يخصّ الفرد. ويكون ذلك الشعار من حيوان أو نبات، وقد يكون من غيرهما قليلاً مما له أثره؛ كالشمس والقمر والرعد والريح والنجم... إلخ. وهي نظرية (دركهايم). ونشأة ذلك عندهم اعتقادهم أن حيوان الطوطم يحمي العشيرة أو الفرد أو أنه يتفق معه في أصل الروح. ولعلك تشعر أن منشأ الطوطمية هي الروح كذلك، أو لها صلة قوية بها.

٣ ـ ومن قائل: إن نشأتها عن طريق القوى الطبيعية؛ وهذه نظرية (درماكس مالر). ونشأة الدين عندهم عن هذا الطريق، باسترعاء انتباه الإنسان ودهشته من مظاهر الكون الطبيعية القاهرة كالبرق الخاطف والرعد القاصف والمطر الغزير والشمس المشعّة والقمر المنير... إلخ. فتطلّع إليها أيضاً رغبة ورهبة وإجلالاً ثم عبدها... إلخ.

أما كيف عبد الله تعالى:

فمنهم مَن قال: لقد تطورت نشأة الدين من مظاهر كونية إلى وثنية إلى تعدّد أُلوهية؛ إلٰه للزرع وإلٰه للمطر وإلٰه للفن وإلٰه للجمال وإلٰه للخير وإلٰه للشر... إلخ. ثم إلى وحدة أُلوهية.

ومنهم مَن قال: إنها منبعثة من نظرة الإنسان الأول. وهذه النظرية حديثة الوجود للباحث الإسكتلندي في أوائل القرن الميلادي.

تلك فكرة موجزة عن نماذج لنظريات الغربيين في كيفية نشأة الأديان، ثم نجد للكتّاب الشرقيين ما يلي:

١ ـ يقول عبد الرزاق نوفل: إن منشأ الدين عند الإنسان يرجع إلى اللحظة التي أخذ يفكر فيها في نفسه ويتساءل: يا تُرى مَن أنا؟ ولماذا أنا هنا ومن أين جئت وإلى أين أذهب؟ وهذه الأشجار بل هذه الشمس وهذا القمر... إلخ مَن أنشأها؟ وبديهي أنه لا إجابة على وجه الإطلاق إلا أن هنالك خالقاً لكل ما في الكون.

ثم يقول: ورأى الإنسان غيره قد مات فسأل نفسه: تُرى مَن الذي يبقيني

حيّاً فلم أمت كغيري؟ بل لماذا نموت؟ وإلى أين نذهب بالموت؟. . . إلخ.

وقطعاً لا إجابة على هذا إلا أن الذي خلق الإنسان قدّر مدة حياته ثم كتب عليه الموت. . . إلخ. ثم ينتهي إلى النتيجة عنده بقوله: فالدين بذلك فطري في الإنسان، أودعه الله ﷻ فيه منذ أن خلقه. ثم يقول: ولقد قرر الفلاسفة والبحّاث أن الإنسان يؤمن بربه ويعرفه إيماناً فطرياً ومعرفة غريزة ولو لم تصله أية رسالة تهديه، وينقل كلام سقراط: يشعر الإنسان بحاجته الماسّة إلى الهواء والماء والطعام، وكذلك تشعر روحه أنها في حاجة مبرمة أيضاً إلى غذاء روحي. وهذا الشعور هو في عُرفنا الدين الذين اهتدى إليه أَول إنسان. اهـ.

فنراه يأتي بنظريتي الروحية والطبيعية، ويلتقي مع مَن سبق في أن الدين نشأ عن فكرة الإنسان ولو لم تأته أية رسالة تهديه.

ويقول الدكتور محمد يوسف موسى «الإسلام وحاجة الإنسان» ص١٧: ويكفينا هنا أن نشير إلى الأديان العديدة التي عرفتها البشرية في العصور العريقة في القدم، في مصر والهند وبابل وآشور والصين. . . إلخ، ذلك بأن الإنسان طلعة بطبعه، فليس هناك جماعة إنسانية عاشت في أيّ زمن من الأزمان إلا كان لها تفكيرها في تعليل ظواهر الكون وأحداثه وفي مبدأ الإنسان والمصير الذي ينتهي إليه.

ومن ثم يكون لها رأي حق أو باطل في هذا وذاك كله، ويكون لها تصورها للقوة التي تهيمن على تلك الظواهر والأحداث، وحينئذٍ تخافها وترجوها وتقدّم لها القرابين والعبادات رجاء خيرها وتجنّب شرّها، وليس هذا كله إلا الدين في بعض معانيه وصوره.

فتراه أيضاً يشير إلى النظرية الكونية والروحية في كيفية نشأة الأديان، ويلتقي مع غيره في أن الدين نشأ عن عقل الإنسان، ويؤكد هذا في قوله (ص٢١) ـ عن عقل الإنسان ـ: ولهذا لم يتركه الله سدى بل زوّده بالعقل يهديه سبيل الخير ويقفه على النهج الواضح. وبهذه الإرادة الربانية، حاول أن يعرف الكون ومكانه منه. . . إلخ.

ومن ثم كان تراث الإنسانية قبل عهد النبوّات من النظم والآراء والأفكار، في الدين والاجتماع والطبيعة ونواحي المعرفة الأخرى.

ثم يقول: إلا أن العقل يضلّ، ويضلّ كثيراً حين يحاول الوصول لإدراك ما ليس في طاقته، وبخاصة العالم الأعلى وما يتصل به، ومن أجل ذلك كان ما نعرفه من الفلسفات الإلٰهية للأُمم والأجيال التي حرمت من نور الوحي الإلٰهي سخرية بالعقل السليم؛ إذ تجعل من البشر بل من الحيوان والجماد آلهة... إلخ. ولكن الله عادل حكيم يعلم أن الإنسان لا يكون شيئاً إن تركه إلى نفسه وعقله. وأن من العدل ـ ليكون الإنسان مسؤولاً عمّا يفعل وليحقّق الغرض من وجوده ـ أن يبين له الرشد من الغي ويفصل له بين الحق والباطل، وقد كان ذلك على ألسنة مَن اصطفاهم من خلقه ليكونوا حاملي رسالته.

فهو مع مجاراته للآخرين يصعب علينا التوفيق بين أقواله حيث قال: أولاً: بل زوّده بالعقل يهديه سبيل الخير ويقفه على النهج الواضح، ومن ثم كان تراث الإنسانية قبل عهد النبوات من النظم والآراء والأفكار في الدين والاجتماع... إلخ. وقوله: ثانياً: إلا أن العقل يضلّ ويضلّ كثيراً حين يحاول الوصول لإدراك ما ليس في طاقته، وإن فلسفات الأُمم التي حرمت نور الوحي الإلٰهي سخرية بالعقل السليم. ولكن الله عادل حكيم يعلم أن الإنسان لا يكون شيئاً إن تركه ونفسه وعقله. وإن العدالة أن يبين له الرشد من الغي والحق من الباطل وقد كان ذلك على ألسنة مَن اصطفاهم. فكيف أن زود بالعقل يهديه سبيل الخير، وأن تراث الإنسانية قبل عهد النبوّات في الدين والاجتماع والعلوم الأخرى، وكيف أن الإنسان لا يكون شيئاً إن ترك نفسه وعقله، وأن العقل يضل ويضل كثيراً. فإن لم يكن هذا خطأً فهو تناقض.

وعلى كلٍّ فهذه خلاصة أقوال الغربيين ومَن قلَّدهم مِن الشرقيين قديماً وحديثاً؛ من أن نشأة الأديان كانت نتيجة لتأملات في صفحات الكون... إلخ. وكلها تقوم على منهج الاستنتاج ونظريات تقديرية. ومثل ذلك لا يوصل إلى حقائق علمية ثابتة.

وقد نصّ على ذلك الهاشمي (ص٥٧) بقوله: وقد لا يتيسر الوصول إلى حقيقة منشأ الأديان؛ لأن البحث عنها يقوم على فرضيات لا على عناصر علمية ثابتة.

هذا نهاية المطاف مع أولئك الكتّاب.

بيان القرآن لنشأة الأديان:

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم وجدناه يُشير إلى أن أصل نشأة الأديان كانت من الله تعالى، وأن كيفيتها كانت بتوقيف وتكليف للإنسان الأول أبي الخليقة آدم عليه السلام، ثم لذريته وهم في عالم الذر، وأخذ عليهم العهد بذلك كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقد نصّ القرآن على أن آدم عرف ربه قبل أن يهبط إلى الأرض وبعده فقال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٣٥ ـ ٣٦].

فقد عرف ربه، وتلقى أوامره وسكن الجنة، ونواهيه عن الأكل من الشجرة فأزلّهما الشيطان ودلّاهما بغرور، وهبط آدم إلى الأرض ولم يزل عارفاً بربه على صلة به حيث قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣]، فهو مع هبوطه من الجنة إلى الأرض على صلة بربه ووعد منه بمجيء الهدى له ولذريته. وقد أنجز الله له الوعد وأنزل إليه الهدى واجتباه ربه فتاب عليه كما قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢١ ـ ١٢٢] وقال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧].

فأوضح القرآن الكريم كيفية نشأة الأديان، وأن الأصل فيها توقيف من الله تعالى لأول الخليقة آدم عليه السلام؛ عرف ربه قبل أن يهبط إلى الأرض وحين الهبوط إليها وبعد الاستقرار عليها، ولم تمضِ فترة من حياة آدم كان فيها جاهلاً بربه ثم فكر في الكون حوله حتى اهتدى إلى وجود خالق له، حاشا وكلّا. هذا في خصوص آدم من نفسه.

ثم سارت ذريته من بعده على نهجه وأخذت عنه ما كان، بدليل قصة ولديه في قوله تعالى: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ

مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣٢].

ففي هذا السياق الكريم إثبات ما قلناه ونفي ما عداه.

وجه الإثبات في قوله تعالى: ﴿نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾ أي لصُلبه، ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾، فكونهما ابني آدم لصُلبه يثبت مبدأ الخلافة، وكونهما قرّبا قرباناً فلِمَن القربان وممّن القبول أللأرواح والطواطم؟ كلا، بل لله وحده، إنما يتقبل الله من المتقين. وكذلك قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾، يخاف من الأرواح الشريرة؟ كلا، بل إني أخاف الله رب العالمين. وهو تمام التوحيد. ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

فالتأثّم وكون الآثم من أصحاب النار جزاء الظالمين، وخوف الله؛ كلها دلائل على الإيمان بالله، ووجود شريعة فيها حرام وحلال وأنهم يؤمنون بالبعث والجزاء؛ وهذا جملة الدين.

وقوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾؛ فيه تسجيل على قصر عقله وعدم اهتدائه بفكره إلى أمر أبسط هو نتيجة ما ارتكبه من قتل أخيه، حتى يُريه غراب طائر بسيط كيف يواري سوأة أخيه، فازدرى نفسه وعبّر عن موقفه بقوله: ﴿يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾؛ بيان لارتباط الشرائع وتواليها وتعاقب الأحكام، والبيان على أيدي رسله تعالى في الأمم كما يشير إليه قوله تعالى في نهاية السياق: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾. ثم بيّن حال الأمم بعد حال بني آدم وأنها توالت عليها الرسالات وتعاقبت فيها الرسل فقال تعالى:

١ - ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦﴾ [الزخرف: ٦]، فـ(كم) للتكثير و(من) للتأكيد.

٢ - وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

٣ - ثم قصّ على آحاد بعضهم ابتداء من نوح عليه وعليهم السلام فقال: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۝١٦٣ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۝١٦٤ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٦٥﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٥].

لقد تقدّم لنا سلسلة البيان القرآني من ابتداء آدم، ثم نبأ ابنيْه، ثم أحوال الأمم. وقد عرفنا ما بين آدم إلى نوح، وأنها فترة وحدة وتوحيد حتى نشأ فيها الغلو ونتج عنه الانحراف، فجاءهم نوح ثم من بعده ممّن قصّ الله علينا ومَن لم يقصص؛ فعلمنا قطعاً أن نشأة الدين سماوية، وأنها سلسلة متصلة الحلقات من آدم عليه السلام إلى مجيء محمد ﷺ بالإسلام.

وهنا يأتي سؤال وهو: إذاً كيف نشأت عبادة الأوثان ما دامت الأديان سماوية وبوحي من آدم ثم تسلسلت في الأمم؟

والجواب من جانبين:

الأول: ما قاله علماء الآثار المحقِّقون من أن أصل العبادات سماوية طرأ عليها التحريف، مستدلين على ذلك بما وجد في الحفريات من إثبات مراسيم دينية ونصوص تتعلق بالبعث والجزاء لا يمكن أن تكون من وضع

البشر ولا يستطيع تصورها عن طريق الفكر البشري، كوسائل الحساب والوزن والمكافأة بالخير والمجازاة بالشر... إلخ. فعبادتهم لآلهتهم في زعمهم وسائل لإرضاء ربهم، يزعمه الآخرون بالعكس.

الثاني: ما بيّنه القرآن الكريم من أن الناس قد ساروا على النهج المستقيم على دين واحد حتى نشأت الوثنية بسبب الغلوّ والانحراف. فعبدوا الأصنام كوسيلة لعبادة الله ثم عُبدت من دون الله.

قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣] أي: على التوحيد والنهج القويم.

فانحرفوا وعبدوا الأوثان كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٣ ـ ٢٤]. وقال علماء التفسير: هذه أسماء رجال صالحين ما بين آدم ونوح أحبهم أتباعهم، فلما ماتوا غلوا فيهم، وصوّروا لهم الصور ليتذكروهم بها، ثم تعلقوا بتلك الصور، ثم وضعوها في معابدهم تكريماً لها وتشجيعاً برؤيتها على العبادة، ثم جاء مَن بعدهم فخصّها بشيء من القربات، ثم جاء مَن بعدهم فعبدوها مع اعتقادهم أنها لا تبتّ في شيء من دون الله[1]، كما قال الشاعر:

يريش اللهُ في الدنيا ويبري ... ولا يبري يغوثُ ولا يريشُ

وهذا كله يثبت لنا أن كيفية نشأة الأديان إنما هي سماوية وعن الله تعالى، ثم لطول العهد قد يقع فيها التحريف كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦]. فحثّ المؤمنين على خشوع القلب لذكر الله وهو الأصل، ثم حذّرهم من أن يكونوا كغيرهم الذين قست قلوبهم بسبب طول الأمد، ثم يبيّن أن كثيراً منهم فسقوا وخرجوا عن الجادة السويّة والصراط المستقيم وذلك بطول الأمد المذكور. فطول الزمن يوقع التحريف وقليل الانحراف مع طول الزمن يبعد كثيراً عن خط الاستقامة والاعتدال.

---

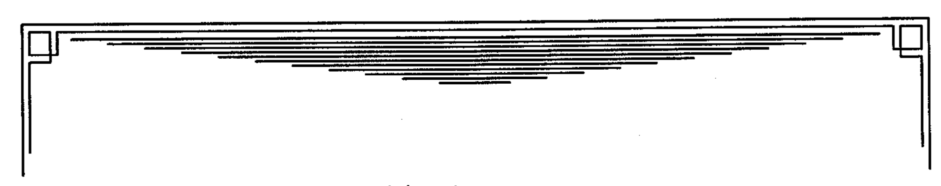
(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).

وقد يبعد هذا الانحراف بأهله حتى يصبحوا أجانب عن الدين الأصلي، فتنشأ الديانات المتعددة والعبادات المختلفة. وعندئذٍ يبعث الله مَن شاء من رسله في الأُمم يهدونهم ويرشدونهم ويردّونهم إلى الصراط السويّ ويعيدونهم إلى الأصل الذي كانوا عليه ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦﴾ [الزخرف: ٦] ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وإلى هنا يكفينا في هذا الصدد ما نستطيع أن نجزم به ونقنع به أولئك؛ بأن كيفية نشأة الأديان سماوية، وأن الرسل توالت في أُممها تبيّن لها دين الله الذي ارتضاه، وأن ما حدث سوى ذلك إنما هو من انحراف المغالين وتحريف المبطلين مهما اختلفت دياناتهم وتنوعت مناهجهم، وأنه لا عبرة للقول بأن العقل أو الفكر أساس في أصل نشأة الدين ابتداء.

عرفنا مما تقدم ضرورة الأديان، ومتى وكيف نشأت، ومناقشة الكتَّاب في ذلك. وكان الحديث عن الأديان بصفة عامة وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] فما هو الإسلام وما حقيقته؟





تعريف الإسلام

الإسلام لغة: إذا نظرنا إلى مادة هذه الكلمة في اللغة وجدنا اشتقاقها يربطها بعدة معانٍ:

أسلم، إسلاماً، سالم، مسالمة، سلم، سليماً، سلم، سلامة، سالم.

وكلها تدور على الطمأنينة والعافية والاستقرار، والفوز والنجاة.

وعليه فتكون كلمة (إسلام) إطاراً لكل فضيلة ومكرمة، وصيانة ومنجاة من كل رذيلة ومنقصة، وخروجاً من كل جهالة وسفه، وبراءة من كل حماقة وطيش، وحماية من كل كبر وصلف، وسياجاً من كل جبروت وظلم، وإقراراً لكل عدالة وطمأنينة وأمن.

وإذا أردت أن تعرف شمول الإسلام لهذه الفضائل؛ فانظر إلى ما كان عليه العرب قبل البعثة من فوضى وقلاقل وظلم وعدوان وسفه وطيش... إلخ.

فعنون عنها بجاهلية كما في قول الشاعر:

ألا لا يجهلَنْ أحدٌ علينا ... فنجهلَ فوقَ جهلِ الجاهِلينا

ولما نزل الوحي وبُعث محمد ﷺ وجاء الخير كل الخير عنون عنه بالإسلام، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣]. وهؤلاء لهم دار السلام عند ربهم، وهي الجنة سلمت من كل عيب وسلم أهلها من كل سوء... هذا هو الإسلام بمدلوله اللغوي.

وتصوّر لنا الحالتين وتبيّن الفارق بينهما مقالة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي حين سأله عن هذا الدين الذي اعتنقوه فخالفوا به ما كانوا عليه. فقال: أيها الملك كنّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي

الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منّا الضعيف. فكنّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. . ـ فعدّد عليه أُمور الإسلام ـ فصدّقناه وآمنّا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا وأحللنا ما أحلّ لنا(١).

والإسلام شرعاً: هو كما عرّفه الشريف الجرجاني: الخضوع والانقياد لما أخبر به الرسول ﷺ، والإسلام في نصوص القرآن: استسلام لكل ما جاءت به كافة الرسل، كما قال تعالى عن نوح أبي البشر الثاني عليه السلام: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾ ـ إلى قوله ـ: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: ٧١ ـ ٧٢].

وفي وصية إبراهيم عليه السلام أبي الرسل: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢].

وقال في أتباع عيسى عليه السلام: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وعمّ في عموم الأنبياء بقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤] وعموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ﴾ [آل عمران: ١٩]. ثم نصّ على هذه الأمة بقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣].

وإذا كان الإسلام استسلاماً وانقياداً؛ فإننا نستطيع أن نقول: كل العوالم مسلمة لله؛ إنسها، وجنّها، وحيوانها، وجمادها، طوعاً أو كرهاً. قال تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٠١ ـ ٢٠٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣١٩٠).

ـ إلى قوله تعالى ـ: ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٠]. وقوله: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤].

فقد صارت هذه الكلمة (الإسلام) شاملة لكل ما جاء به الرسل ونزلت به الكتب، ثم أصبحت عَلَماً لما جاء به محمد ﷺ؛ لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين وما جاء به شامل لها ومبين، والدخول فيه دخول في السلم وحصول على الأمن. والدعوة إليه دعوة إلى السلم كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [البقرة: ٢٠٨] فمن لم يدخل في نطاق دعوته انقاد لهواه، وكان هلاكه فيما جناه، ولن يُقبل منه ملءُ الأرض ذهباً ولو افتدى به. ولذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ومن هذا العرض نستطيع أن نقول: إن لكلمة (الإسلام) مدلولين عام وخاص:

العام: في العام ينتظم جميع الأديان السماوية في إطار وحدة دينية كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾ [المؤمنون: ٥١ ـ ٥٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [آل عمران: ٦٨] وقوله ﷺ لليهود: «**ونحن أحقّ بموسى منكم**»[١] وقوله: «**إن أولى الناس بابن مريم الأنبياء**»[٢]. وقوله ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء أبناء علات ديننا واحد**»[٣].

تعريفه بالمعنى الخاص: مما تقدم ظهر لنا شمول مسمى الإسلام إلى جميع الأديان السماوية.

أما تعريف الإسلام بالمعنى الخاص فهو ما جاء به رسول الله محمد بن

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٤٢ ـ ٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) بلفظين، الأول: «**الأنبياء أولاد علات**»، والثاني: «**الأنبياء إخوة لعلّات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد**». وليس في أحد اللفظين قوله: «**نحن معاشر**».

عبد الله صلوات الله عليه وسلامه من كتاب كريم أو سنّة مطهّرة. وقد وجب الأخذ به حيث إنه الحق؛ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد؛ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

وهذا الدين الذي اصطفاه الله رب العالمين لأُمة سيد المرسلين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]. وأوحاه لصفيِّه مِن خلقِه محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه كما قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]. هذا الرسول الكريم الذي ترجم له القرآن بقوله تعالى مبيناً نشأته ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ثم بيّن نفسيته وموقفه، لجلب الخير ودفع الضر: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، أنزله عليه في حرم آمن ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. وفي ليلة مباركة ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ﴾ [القدر: ٤ ـ ٥]، فهو أمن وطمأنينة. وسلام وسكينة ورحمة للعالمين قال تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾ [الدخان: ٢ ـ ٦].

وقد كان اختيار هذا الدين وبعثة هذا النبي رحمة للعالمين كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أنقذ الله به الإنسانية من التردّي في الهاوية، وأخرجها من الظلمات إلى النور ومِن ظلم الإنسان إلى عدل الرحمٰن، ومِن الذلة والهوان إلى العزّة والسؤدد.

فقد كانت الجزيرة تشبه التنور يتقد، يأكل قويُّها ضعيفها، وتقضي الرذائل فيها على الفضائل، كما وصفها جعفر بن أبي طالب للنجاشي سابقاً. وكانت الأقطار المجاورة ترزح تحت نير الاستبداد والطغيان وتسير في طريق ملتوية لا تدري أين تسير، فمن نصرانية منحرفة في الشمال عند الروم، وثنوية فاسدة عند الفرس، ومزدكية ضالة تبيح الأموال والنساء كإباحة الماء والكلأ.

وطبقية طاغية يضيع فيها الفقير ويهلك الضعيف. بل في البلاد التي كانت لها ديانة سماوية كالمسيحية واليهودية حدثت الانقسامات البغيضة والفِرَق المتعادية، مما جعل العالم كله يضطرب كالسفينة التائهة وسط الأمواج

المتلاطمة تتلاعب بها الرياح الهائجة وقد افتقدت ربانها.

فكانت بعثة الرسول ﷺ قيادة حميدة وتعاليم رشيدة قادت العالم إلى وجهة سليمة واتجهت به إلى شاطئ السلام، على يد خير خلقه وأحبهم إليه عرَّفه إليهم بشخصه وبيّن لهم حقيقته، ومما لا يدع مجالاً للشك ولا يوجد رِيبة في الصدق، ولا يستلزم أناة في الأخذ عنه، ما جاء به. قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية. ثم عرّفهم بالكتاب الذي أنزله عليه، مما يوجب الإسراع بتصديقه والحرص على الأخذ بتعاليمه، فعبّر عن القرآن بأنه هدىً تارة ونور تارة وروح تارة أُخرى. كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣].

فانبثق هذا النور وبزغ فجر هذا الدين وتفجر في هذه الرسالة ووضع غرسها بمكة المكرمة، وتأثلت دوحتها بالمدينة المنورة، وامتدت أغصانها إلى العالم كله وآتت ثمارها للعالمين. هذا هو دين الإسلام بخصوصه وحاجة الناس لمجيئه ظهر من أفضل بقعة في أفضل ليلة على أفضل رسول. فكان أتمّ نعمة والآخذين به أكمل أُمة ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣]. ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران: ١١٠].

هذا هو الإسلام في عمومه وخصوصه، أما هو في حقيقته وتفصيله وتعاليمه ومميزاته فالحديث عنه حديث عن الرسالة المحمدية بأكملها؛ لأن الإسلام متعدّد الجوانب فسيح الأرجاء حيث شمل الإنسان من كل ناحية، في معتقده بقلبه، أقواله بلسانه، أعماله بجوارحه، عباداته، معاملاته، صِلاته بغيره شخصية جماعية فردية أو دولية فهو بحق: الدين الجامع؛ مساجد وأسواق كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ٩ ـ ١٠].

ومع ذلك فالناس يتساءلون ما الإسلام وما حقيقته؟ والناس في حاجة إلى معرفته. وقد جاء هذا السؤال مِن جبريل عليه السلام، وتلقى الإجابة من الرسول عليه الصلاة والسلام، كما في حديث عمر رضي الله عنه، حيث قال: بينما نحن ذات يوم عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منّا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفّيه على فخذيه. ثم قال: يا محمد أخبرني عن الإسلام... الحديث[1].

فهذا سؤال جبريل عليه السلام قصد به تعليم السامعين الإسلام وهذا جواب الرسول ﷺ بيّناً واضحاً كافياً شافياً ـ وقد قال ﷺ أيضاً ـ: «**بُنِيَ الإسلام على خمس**»[2].

فسؤال جبريل هو عين سؤالنا: ما الإسلام؟

وجواب الرسول ﷺ هو أُصول وأُسس مجملة للجواب الذي نرجوه ونبحث عنه، والفكرة التي ننشدها. غير أن لهذه الأُصول فروعاً ولهذا الإجمال تفصيلاً بيّنها الرسول ﷺ في غير هذا الموقف.

عناصر السؤال والجواب

بالنظر في حديث جبريل نجده يتناول ثلاثة مواضيع:

١ ـ الإسلام.

٢ ـ الإيمان.

٣ ـ الإحسان.

وقد جاء الجواب طبقاً للسؤال وتمشياً معه وإقراراً له فكانت عناصره كالآتي:

أجاب عن الإسلام بأنه أقوال وأفعال:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة، وأخرجه مسلم (٨) من حديث عمر.

(٢) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

الأقوال: أن تشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله. ولم يتعرض في ذلك لعلاقته بالقلب أو أحاسيس الوجدان.

الأفعال:

١ـ أن تقيم الصلاة.

٢ ـ وأن تصوم رمضان، وهو عمل بحت ـ بصرف النظر عن المقصد وما وراءه ـ كما عرّفه الفقهاء: إمساك عن شهوتي البطن والفرج نهار رمضان.

٣ ـ وإيتاء الزكاة، وهو عمل مالي يستوي فيه الكبير والصغير والذكر والأُنثى.

٤ ـ وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً، وهو عمل شامل لكل ما تقدم من قول في التلبية والذكر، وصلاة وإنفاق وصيام بدلاً من بعض الأنساك.

وهذا في جملته امتثال وانقياد لله تعالى، واتباع لما جاء به رسول الله ﷺ، تُرى آثاره وتُعرف مِن صاحبها، فالشهادتان اعتراف والتزام واستسلام لما جاء عن الله أو عن رسوله. والصلاة خضوع لرب العالمين ماثل في الركوع والسجود والابتهال بالدعاء. والزكاة نزول عن جزء من المال لا لشيء سوى طاعة الله تعالى وطاعة رسوله، ثم رحمة بالضعيف ورفقاً بالمسكين. والصوم حرمان النفس من ملذاتها المباحة وتحمُّلها مشقة الألم في الجوع والعطش... إلخ، لا لشيء إلا للطاعة والامتثال وتهذيباً للنفس وسموّاً بها. ومثل ذلك في الحج وإن كان أثقل عبئاً للسفر والنفقة والحلّ والترحال، فهو أعظم نفعاً وأكبر أجراً.

الإيمان

أما الإجابة عن الإيمان فكلّها عن أُمور غيبية، أي تصديق بما غاب عنك مما أخبر به الله تعالى في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كما أخبر به رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

ومجمل ذلك ستة أشياء:

١ ـ أن تؤمن بالله: وأنه رب كل شيء ومليكه ومعبود العالمين ومألوههم.

٢ ـ أن تؤمن بملائكته: وهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

٣ ـ أن تؤمن بكتبه: وهي الكتب المُنزَلة على رسله سابقاً كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى... إلخ.

٤ ـ أن تؤمن برسله: الذي اصطفاهم برسالته في الأمم الماضية منذ نوح عليه السلام إلى نبينا محمد ﷺ، لا تفرّق بين أحد مِن رسله مَن عرفنا منهم ومَن لم نعرف.

٥ ـ أن تؤمن بالبعث والجزاء والحساب: بالحياة بعد الموت وملاقاة كلٍّ جزاء عمله.

٦ ـ أن تؤمن بالقدر خيره وشره: وأن كل ما كان وما يكون إنما هو من عند الله قدّره في الأزل. كما في حديث: **«أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن وما سيكون إلى يوم القيامة»**[(١)]. وكما قال ﷺ: **«ما كان لك سوف يأتيك، وما كان لغيرك فلا يصل إليك، جفّت الأقلام وطُويت الصحف إلى يوم القيامة»**[(٢)].

وقال: **«لو أن أهل الأرض اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»**[(٣)].

وأنت ترى أن كل عناصر الإيمان غيبية عن الحسّ:

- فالإيمان بالله تصديق بوجوده وإذعان بحقوقه، وإننا وإن لم نره فقد رأينا آياته وبراهين وجوده.

- والإيمان بملائكته: ولو لم نرهم، إنما هو اعتماد على إخبار الله تعالى وإخبار رسوله.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥) وقال: حديث غريب، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٧٤٩).

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٠٤٣).

- والإيمان بكتبه: فإننا لم نشاهدها ولم نطّلع عليها، وقد يكون منها الموجود ولكن قد جرى عليه التحريف والتغيير؛ ولكنه أخبر في كتابه الذي قد حفظه من كل ذلك عن كل ما تقدم.
- وكذلك رسله: وإن لم نعاصرهم أو يتركوا لنا آثاراً شخصية فقد أخبر عنهم كتابُ الله تعالى.
- وكذلك الإيمان بالبعث وما بعده من جزاء فيه مثوبة للإحسان وعقوبة للإساءة؛ فإنه يوم غيبي وما فيه غيب عنّا وعن حياتنا كلها لم نشهد منه إلا الموت، أما وما وراءه فهو غيب آمنّا به.
- أما القضاء والقدر فهما من لازم العلم والحكمة التامَّين والقدرة والإرادة. وقد وقع تقدير الكائنات قبل وجودها.

أما الإحسان فهو تمام المراقبة في جميع الأعمال، وهو إقامة الرقيب من كل شخص على نفسه سواء في العبادات أو في المعاملات ومجموع هذا كله: الإسلام. الإحسان. إنما هو الدين الذي ارتضاه الله تعالى لهذه الأمة.

ما وراء ذلك كله

عرفنا أن الإسلام: عقيدة وقول وعمل، وأنه: عبادة ومعاملة.

أما المعاملة فهي تنظيم علاقة الفرد بالآخر، والجماعة بغيرها، والأُمة بالعالَم بأسره، فهي محض مصلحة للإنسانية كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ولكن العبادات التي هي محض حق لله تعالى سبحانه، وهو غني عن خلقه لا تنفعه الطاعة كما لا تضرّه المعصية كما هي في الحديث القدسي: **«لو أن أوّلكم وآخركم على أتقى قلب رجل منكم ما زاد في ملكي شيئاً...»** إلخ[١].

فلو تساءل متسائل: ما وراءها وما صلتها بالفرد وما حظ النفس منها؟ كما جاء عن ابن أبي أوفى ﷺ قال: قال أعرابي: يا رسول الله، إني عالجت القرآن فلم أستطعه؛ فعلّمني شيئاً يجزئ عن القرآن. قال: **«قل:**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر» فقالها وأمسكها بأصابعه فقال: يا رسول الله، هذا لربي فما لي؟ قال: «**تقول: اللَّهمَّ اغفر لي وارحمني وعافني وارزقني**». وأحسبه قال: «**واهدني...**» إلخ(١).

إن السؤال عن ذلك لا يكون عن شك للتثبت، ولكنه استيضاح وتقوية يقين وطمأنينة، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]. ومهما يكن من شيء فإن مبدأ الإسلام هو الاستسلام والانقياد، ومبدأ الإيمان التصديق واليقين. فهو مسلم مستسلم لأوامر الإسلام ولو لم يدرك منتهاها.

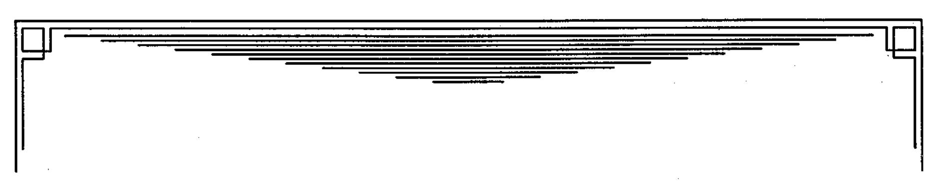
وهو مؤمن مصدّق وموقن مطمئن إلى تعاليم دينه لأنه يعلم أنها من حكيم عليم.

فما هي آثار ذلك كله؟

غير أن النفس طلعة وإبانة الدقائق تجلي الحقائق.



(١) أخرجه أبو داود (٨٣٢)، والنسائي (٩٢٤)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (٣٠٣) وصحيح الترغيب والترهيب (١٥٦١).



العقائد

عموميات الإسلام:

ما من شك أن اتجاه كل فرد وغاية أيّة أُمة إنما هي من وحي عقائدهم أيّاً كانت؛ سياسية أو دينية أو غير ذلك من الميادين، ويعمل لها ويضحّي في سبيلها بارتياح وإقبال.

وعليه فالمسلم إنما يسير في حياته ويعمل وفق عقيدته، ويعمل لنصرتها وتأييدها ويضحّي في سبيلها بالنفس والنفيس.

والعقيدة الدينية كانت هي الطاقة الدافعة لكل مسلم، وتثبيتها كان الهدف للرسول ﷺ، فظلّ ثلاث عشرة سنة بمكة لإرساء قواعدها والعمل على إيضاحها. ولولا قوة عقيدته هو ﷺ ما صبر على شدّتهم ولا واصل دعوته، ولكن كما قال تعالى عنه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فصدع بما أُمر وبلَّغ رسالة ربه، وهكذا المؤمنون معه، منذ أن تخالط العقيدة قلوبهم تنقلب شخصياتهم وتتبدل أحوالهم، مِن قساة جفاة إلى رحماء رقاق القلوب، ومِن خصوم أَلِدّاء إلى أولياء أتقياء، يصوّر ذلك عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه، فما كان أَشدَّ إيذائه وعدائه للدعوة قبل أن يسلم، وما أشد عطفه وحرصه ونصرته بعد إسلامه.

كما تنقل من ضعف وذلّة إلى قوة وعزّة، كما وقع من وفد الأنصار عند بيعة العقبة الثانية؛ قوم تسللوا أفراداً تحت جنح الليل ليلتقوا برسول الله ﷺ، ثم بعد أن تمّت البيعة يستأذنون رسول الله ﷺ أن يميلوا على أهل الموسم جميعاً بسيوفهم[1].

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٤٠ ـ ٤٤٢ و٢/٤٤٧ ـ ٤٤٨)، وصححه الألباني في فقه السيرة (ص١٥٩ و١٦٢).

ثم بعد ذلك أمثلة رائعة في الإقدام والتحمّل والتضحية في بدر، يقول سعد بن معاذ: والله يا رسول الله، لو خضتَ بنا هذا البحرَ لخضناه معك[١]. ويأتي أبو عبيدة فيخوض البحر بالفعل في البحرين. ويقول عمير بن الحمام الأنصاري يوم بدر: لئن حييتُ حتى آكل هذه التمرات إنها لحياة طويلة[٢]. ويستهين خبّاب بن الأرتّ الموت ويملأ سمع الزمان عزّة وإباء بقوله:

ولست أُبالي حين أُقتلُ مسلماً ... على أيِّ جنبٍ كان في اللّه مصرعي[٣]

لم يُحدث هذا كلّه في نفوس أولئك رضوان الله تعالى عليهم إلا العقيدة القوية المتكاملة.

والعقيدة المتكاملة هي: يقين المرء بما هو عليه كما هو على حقيقته، وعقيدة المسلم لا تكمل إلا باعتقاده الجازم بالله تعالى رباً وأنه لا ربّ سواه، وبمحمد ﷺ نبياً وأنه خاتم الأنبياء، وبالإسلام ديناً وأنه خاتم الأديان وأتمها، وبالقرآن كتاباً من عند الله وأنه شامل لخَيري الدنيا والآخرة، نوَّر قلوب المؤمنين حين نزل القرآن فخرجوا من الظلمات إلى النور، وأصبحوا هُداة مهديين بعد أن كانوا ضلالاً مضلّين، وصاروا السادة والقادة. فالعقيدة تنقل الفرد من طور الحيوانات النامية إلى مستوى الإنسانية المتكاملة؛ يسير على منهج ويعمل لمبدأ ويسعى لغاية. وبقدر اعتقاده في الله تكون استقامته في منهجه وتمسُّكه بمبدئه ووصوله إلى غايته.

فسيرفض كل نهج سوى كتاب الله وسنّة رسوله، ولا يلتفت إلى غير مبادئ الإسلام السامية ولا يقصد لغير مرضاة الله تعالى، فيصبح عبداً ربانياً فيما يأتي ويدَعُ، كما قال الله تعالى عن أمثاله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩١] فنطقُهم ذكرُ الله، ونظرُهم في آيات الله، وتفكيرُهم في صنع الله، وآمالُهم الفوز برضوان الله والنجاة من عذاب النار: تلك آثار العقيدة السليمة ونتائجها في حق الفرد.

---

(١) في صحيح مسلم (١٧٧٩) أن القائل هو سعد بن عبادة.
(٢) أخرجه مسلم (١٩٠١).
(٣) في صحيح البخاري (٣٠٤٥) أن الصحابي هو خبيب بن عدي الأنصاري.

أثر العقيدة في الجماعة:

أما آثارها في الجماعة: فإنها أعظم من أن تصوَّر في عبارات أو يعبَّر عنها في كلمات، كيف وهي التي تجمع الشتيت وتلمّ الشعث وتربط كل فرد بالآخر بدون نسب ولا صلة، وتُذيب كل الفوارق وتُزيل كل الحواجز حتى تصبح الأفراد جماعات والجماعات أُمة؛ كما كانت العرب قبل الإسلام شعوباً وقبائل، لم تربطهم جنسية، ولم تجمعهم قومية، ولا أَثَّر فيهم وطن، ولا وحّدتهم لغة، ولا جمعتهم مصالح، بل كانوا متعادين متقاتلين:

وأحياناً على بكر أخِينا ... إذا لم نجدْ إلَّا أخانا

فجاء الإسلام بمبدأ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وكذلك كان أثرها في الأُمم حين انطلق الإسلام إلى أقطار العالم؛ فالتقى العربيّ بالعجميّ والفارسيّ بالروميّ؛ جعل منهم أُمة واحدة لا فضل لعربيّ على عجميّ إلا بالتقوى. كلكم لآدم وآدم من تراب. الناس سواسية كأسنان المشط. العقيدة تجمعهم وإن اختلفت أجناسهم. الكفر يفرّقهم وإن اتّحد مولدهم.

وبهذه العقيدة أصبح الحُفاة العراة رعاة الشاة سادةً وقادةً، وأصبحت الأُمة الإسلامية موفورة الكرامة مرهوبة الجانب، أقامت في ظل عقيدتها حضارة شامخة وحياة سعيدة، لم يشهد العالم قبلها ولم يشاهد بعدها أفضل ولا أكمل منها.

وما ذهبت دولة الإسلام وضاع سلطان المسلمين إلا بانحرافهم عن عقيدتهم، وبقدر ما تزعزعت العقيدة من قلوبهم بقدر ما تزعزع سلطانهم. وبقدر ما بعدوا عن دينهم بقدر ما بعد عنهم عزّهم، حتى أصبحوا اسماً لا كيان له كما أصبحت العقيدة شبحاً لا قوام لها، فأصبح العالم الإسلامي على كثرة عدده إمّعة وتبعاً لغيره، بعد أن كانوا على قلّتهم أئمة والناس تبع لهم، وهكذا يجب أن يكونوا وكما قال إقبال شاعر الإسلام في القرن الرابع عشر:

إن المسلم لم يُخلق ليندفع مع التيار، بل ليوجِّه العالم ويفرض عليه اتجاهه وإرادته؛ لأنه صاحب الرسالة والعلم اليقين. ويقول أيضاً: لأنه صاحب العقيدة الراسخة. فهو خلف للسلف ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤].

وما أحوج العالم اليوم إلى عقيدة سليمة ودُعاة مخلصين يبيِّنون للناس حقيقتها وآثارها وأهدافها، حيث تربط العبد بربه وتخلِّصه من روابط الذلّة والمهانة لأي مخلوق أيّاً كان، وتجمع الأُمة وتوحِّدها، وترفع الأُمة إلى عزّ الدنيا وفَلَاح الآخرة؛ ولا يحقّق ذلك إلا عقيدة الإسلام.

فالعقيدة الإسلامية وإن كانت عقيدة توحيد الله تعالى في أُلوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ووحدة رسوله ﷺ في اتباعه؛ فهي عقيدة وحدة وارتباط بالأديان السماوية كلها؛ فوجب الأخذ بها، حيث شملت كلَّ ما تقدَّمها واحتوت على ما لم تُسبق إليه ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣] فهي نهج جميع الأُمم ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فمَن أخذ بها أخذ بكل الشرائع لا كما قالت اليهود والنصارى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣] ومَن أخذ بها ارتبط بجميع الأُمم، لا كما قالت اليهود والنصارى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ﴾ [البقرة: ١١١]، بل المسلم وغيره ممّن آمن بالله واتّبع رسوله الذي أُرسل إليه؛ سواء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢].

وقد كثرت العقائد اليوم وكثر دُعاتها ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة: ١٣٥] فمَن أولى

بحمل هذه العقيدة الإسلامية والدعوة إليها ممّن توجهوا إلى معقل الإسلام ومطلع فجره. فلئن كان واجبَ كل مسلم في أيّ مكان من العالم؛ فلهو واجبكم أنتم أبناء الجامعة الإسلامية وأنتم أولى بها وأحقّ.

جوانب العقيدة الإسلامية:

أولاً: الجانب الإلٰهي:

أي الإيمان بالله تعالى. وفي هذا الجانب ثلاث مسائل:

١ ـ إثبات وجود الله: وهذا أمر فطري تدل عليه الكائنات كما يقول علماء الكلام: تغير الموجودات يدل على حدوثها، وحدوثها يدل على وجود محدث لها قطعاً. والقرآن الكريم يلزم المانعين بطريق أقرب وهو قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥]. وكونُهم خُلقوا من غير شيء ممتنع، وكونُهم خَلقوا أنفسهم باطل، إذاً لا بدّ لهم من خالق وهو الله تعالى. ثم القرآن يأتي بالدلالة على وجود الله تعالى.

٢ ـ إثبات صفات الكمال لله تعالى: وهذا أمر عقلي ونقلي.

أما العقلي: فالخالق للعالَم لا بدّ أن يكون موجوداً حيّاً قادراً عالماً مريداً سميعاً بصيراً حكيماً، والمالك للعالَم لا بدّ أن يكون عزيزاً غنياً قوياً إلى غير ذلك من صفات الكمال. فالإيمان بالله يستوجب الإيمان بكل ما جاء عنه في كتابه أو أخبر عنه رسوله.

وأمّا النقلي: فقد قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٣ ـ ٢٤].

٣ ـ إفراد الله تعالى بالعبادة: وهذا أيضاً يقتضيه العقل والنقل.

أما العقل: فإن المنفرد بالخلق والرزق والإنعام كله هو وحده الذي يستحق أن يُتوجَّه إليه رغبة ورهبة، وهو المستحق وحده بصرف الطاعة والامتثال إليه. ومن الخطل في الرأي أن يحسن إليك محسنٌ فتُوجِّه الشكر

لسواه، ومن السفه والطيش أن تطلب الخير ممّن لا يملكه، ومن الحماقة والذلّة أن ترهب الشر ممّن لا يقدر عليه، ولهذا جاء في الحديث القدسي: **«أنا والملأ في نبأ عظيم؛ أَخلُقُ ويُعْبَدُ غيري وأرزقُ ويُشكر سوايَ، خيري إلى العباد نازل وشرُّهم إليَّ صاعد...»** إلخ[1].

ويشير القرآن إلى أن صفات الكمال تستوجب العبادة بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٢ ـ ٦].

وبقوله تعالى في أول نداء يوجَّه من القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ ثم ينبّه على موجب ذلك بعد الربوبية والخلق بتعدّد النعم في قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٢].

ولذا فقد شفع القرآن على مَن عبد غير الله تعالى بضرب الأمثال حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾ [الحج: ٧٣].

كما أبطل عبادتهم إياهم بقوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٢﴾ [الأعراف: ١٩١ ـ ١٩٢]. ثم بيَّن عواقب عبادة غير الله من الحيرة والاضطراب في قوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾ [الأنعام: ٧١].

---

(١) الشطر الأول عزاه الألباني في السلسلة الضعيفة (٢٣٧١) إلى البيهقي في الشعب وتاريخ ابن عساكر؛ وضعفه.
والشطر الثاني ـ قوله: «خيري...» ـ عزاه في السلسلة الضعيفة (٣٢٨٧) إلى تاريخ قزوين للرافعي وفردوس الديلمي؛ وقال: موضوع.

ومِن هذه الآية الكريمة تعلم أن إفراد الله تعالى بالعبادة علاوة على ما هو حق لله يستحقه على عباده كما في حديث معاذ: «**أتدري ما حق الله على العباد؟**» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً**»(١)، علاوة على ذلك فهي موجبة الاستقرار والثبات، وعبادة غيره تستوجب الحيرة بين أصحابه الذين يدعونه إلى الهدى ائتنا، ليس أحدهم بأولى من الآخر، وإذا كان الأمر كذلك؛ فإن هدى الله هو الهدى، وهو موجب الاستسلام لرب العالمين.

الإيمان بالبعث:

والإيمان بالبعث من أقوى أسباب الإقدام على الخير والإقلاع عن الشر؛ لأنه يقدم رغبة فيما عند الله آنذاك، ويقلع رهبة مما في ذاك.

أما إثباته فيعتمد على النقل أكثر منه على العقل، وإن كان للعقل أن يقول: إن البعث لازم للعدالة الإلٰهية، حيث أن الناس في الدنيا كأُجراء يعملون ولا بدّ في نهاية الأمر أن يحاسَب الأجير على عمله، إن أحسن فله الإحسان وإن أساء فعليه الخسران. ولكن القرآن الكريم أكثَرَ من نصوص إثبات البعث مستدلّاً بالموجود على قدرة الله تعالى على ذلك، فبدأنا بالمسلَّم به ومنه إلى ما لم يؤمنوا به كما في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨ ـ ٧٩].

وعموم الأدلة على البعث تنحصر في أربعة أنواع هي:

أدلة إثبات البعث:

١ ـ خَلْقُ الإنسان أول مرة. وقد تقدم النص في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]. بل أفرد له سورة هي سورة القيامة، وفي نهاية السورة قوله

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠١)، ومسلم (٣٠).

تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٤٠].

٢ ـ إحياءُ الأرض بعد موتها كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ [الحج: ٥ ـ ٦]. وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٣٩].

٣ ـ خلقُ السمٰوات والأرض: كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣].

بل خلق السمٰوات والأرض كان لإثباته كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٨١ ـ ٨٣]، فبيَّن تعالى أن الذي خلق السمٰوات المُشاهَدة بالعين والأرض المحسوسة قادر على أن يخلق مثلهم، ثم بيّن أن مرجعهم إليه وذلك بالبعث، وأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن، فيكون. ولذا قال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ﴾ [النازعات: ٢٧] ومعلوم أن خلق السماء أشد وأكبر كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

وقال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ﴾ [لقمان: ٢٨].

٤ ـ إحياء الموتى بالعقل في الدنيا، ومشاهدة ذلك عياناً في الطير والحيوان والإنسان:

أ ـ أما الطير فكما في قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ب ـ وأما الحيوان فعن قصة العزير في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩].

ج ـ أما الإنسانُ نفسه فأمثلتُه عدة فرادى وجماعات:

أولاً: العزير بنفسه حيث قال تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾. وقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾.

ثانياً: قتيل بني إسرائيل: كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٧٢ ـ ٧٣] أي: أحياه، وكذلك الإحياء بعد الموت يحيى الله الموتى جميعاً لأنها صورة واحدة.

وأما الجماعات: فأهل الكهف لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعاً، فهم وإن كانوا نياماً قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: ١٨]. إلا أن هذه المدة الطويلة آية على إحياء الموتى كما قال تعالى عنهم أيضاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ [الكهف: ٢١]. وكذلك الألُوف الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت فأماتهم الله ثم أحياهم؛ المنصوص عليهم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

تلك هي عقيدة البعث في الإسلام: استدلال بالمحسوس وبالمثول على مثيله مما لا يقوى العقل على دفعه.

أما آثارها في نفس المؤمن بها فهي العمل لوعد الله والفرار من وعيده. وقد صوّرت سورة من القرآن مواقف ذلك في صورة مرعبة وهي سورة الزلزلة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا

لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

الإيمان بالقدر:

والكلام عن القدر كثير لأنه من أهم المسائل، والحديث فيه من أحرج المباحث، ولا سيما بعد قوله ﷺ: «**إذا ذُكر القضاء فأمسِكوا**»[1] ولذا نكتفي فيه بأُمور ثلاثة: إثباته، وضرورة الإيمان به، ثم نتائج الإيمان به.

أما إثباته فعقلاً ونقلاً:

أما عقلاً: فإن الواقع يحتِّمه حيث إنك في نفسك لا تعمل شيئاً إلا بعد تقديره، فلا تخيط ثوباً إلا بعد تقديره ومعرفة كنهه قبل إعمال المقصّ فيه.

وكذلك البيت لا يُبنى إلا بعد معرفة جوانبه وأبعاده وما يحتاج إليه. ومَن أراد أن يقيم مأدبة لجماعة من الناس فلا بدّ من معرفة عددهم، وعليه يقدّر ما يلزم تهيئته من مكان وطعام كفايتهم، وما يستلزمه طعامهم من أوانٍ وغير ذلك. فلا تتم مأدبته إلا إذا كان قد قَدّر لها كل ما يلزمها، وإلا فسدت أو كانت ناقصة؛ هذا في عمل الفرد في نفسه.

وإذا نظرنا إلى مشروع من مشاريع الحكومات وجدناهم يُعِدُّون له العدّة قبل سنوات، وأهم شيء يعملونه إنما هو التقدير والدراسة ووضع الخرائط ورسم المخططات ثم الميزانيات المالية آخر شيء.

وإذا كان ذلك في مسائل مهما عظمت فهي صغيرة، فما بالنا بالكَوْن كلِّه: علويِّه وسفليِّه، سماواته وأرضه، طيره وحيوانه، إنسه وجِنِّه، جماده ونباته، وما يحتاجه من نظام وتدبير بل من رزق وتقدير؛ قطعاً لا بدّ من تقدير سابق على إيجاده وإلا اضطربت بعض أحواله واختلّ توازنه.

وأما نقلاً: فالنصوص متضافرة على إثبات القدر في الأزل منها:

---

(١) قال الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٤): روي من حديث ابن مسعود، وثوبان، وابن عمر، وطاوس مرسلاً، وكلها ضعيفة الأسانيد، ولكن بعضها يشد بعضاً. ولفظه: «**إذا ذُكِرَ القدر فأمسكوا**».

١ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]. وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]. وقوله: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ٣].

٢ ـ ونرى نتيجة ذلك عملياً كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]. فكم من مريض تعافى وكم من صحيح عاجله الموت. لا تملك قوة في العالم تمديد حياة إنسان ساعة من النهار كما تحدّاهم الله تعالى في ذلك بقوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٧]. وفي الحديث: «**أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب. قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن وما سيكون إلى يوم القيامة**»(١).

أثر الإيمان بالقدر: أما أثره في النفس فإنه تبع لمدى الإيمان؛ لأن العبد إذا اعتقد جازماً أن كل شيء من الله تعالى، وأنّ الله لا يفعل إلا الخير؛ اطمأنت نفسه وتقبّل ما قُدِّر عليه بارتياح.

ونحن إزاء القدر نجهل الغيب ونجهل المصلحة الغائبة، فإذا وكّلنا الأمر لله عالم السر وأخفى، سواء انكشفت لنا الحقائق وميّزنا الصالح منها أو لم تنكشف لنا ولم نميِّزها، نجزم بأن الخير فيما اختاره الله تعالى كما قال ﷺ: «**لو اطّلعتم على الغيب لاخترتم الواقع**»(٢).

ثم لو تتبعنا واقع الحياة لوجدنا صوراً عديدة تتكشف بها الحقائق عن أن المصلحة في خلاف ما يراه الإنسان في الحاضر من ذلك:

١ ـ في غزوة تبوك قال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة: ٤٦].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥) وقال: حديث غريب. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٧٤٩).
(٢) لم أقف عليه.

ولو كان الأمر لاختيار الإنسان لأسف لقعودهم في الوقت الذي يخرج فيه المسلمون لقتال الأعداء مع بُعْد الشقّة وقوة حصون العدو، مما يستلزم زيادةَ عددٍ وعُدّة في جيش المسلمين لا قعود البعض عن المسير وعدم الخروج. ولكن حين يكشف الله عن حقيقة الموقف ويبيّن آثار خروجهم لو خرجوا بقوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ إذاً يذهب الأسف ويحلّ محلّه الرضا ويردّ الأمر إلى الله العالم بهم كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧].

٢ ـ ومن ذلك أيضاً عمرة الحديبية[١] حين خرج رسول الله ﷺ معتمراً إثر الرؤيا التي رآها كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: ٢٧]. وبعد خروجه ﷺ صدّه المشركون عن البيت فعظم ذلك على المسلمين وتساءلوا عن صدق الرؤيا فنزل القرآن محدّثاً ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ ثم بيّن لهم رسول الله ﷺ أنهم داخلونه إن شاء الله فيما بعد، فتحللوا في أماكنهم ونحروا هديَهم ورجعوا من غير وصولهم إلى البيت. ولو تُرك ذلك واختيار الإنسان لاستاء وأسف على فوات العمرة وجزم أن المصلحة كانت في دخولهم ولو عنوة وإتمام عمرتهم. ولكن الله تعالى بيّن لهم الحكمة في القدر الذي أراده الله ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ رجع المسلمون بعد معاهدة كان لها أثرها. يقول بعض المفسِّرين لقد دخل الإسلامَ بين عمرة الحديبية وعمرة القضاء من العام الآتي ما يقرب أو يزيد عمّن دخلوا في الإسلام طيلة مدته السابقة.

٣ ـ وقصة نزول التيمّم المشهورة حين ضاع عقد لعائشة رضي الله عنها، وليس معهم ماء أي لطلب العقد الذي ضاع منها حتى أنزل الله آية التيمّم نعمة إلى يوم القيامة، ثم لما بعثوا بعيرها فإذا بالعقد تحته. فلو تُرك الأمر للعقل لما اختار النزول بجيش في طلب عقد، ولكن فعل الله تعالى واختياره أولى وأتمّ.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

فأرسل رسول الله ﷺ مَن يطلبه ومكث ينتظر فجاء أبو بكر رضي الله عنه يعنِّف ابنته في شدة وغضب عليها ويقول لها: حبستِ رسولَ الله ﷺ ومَن معه على غير ماء وليس معهم؟!.. فأنزل الله تعالى آية التيمّم، ثم بعثوا بعيرها فوجدوه تحته[1].

فلو كان الحكم للعقل قبل أن ينكشف الغيب لأسف لضياع العقد وحبسِ الناس، كما وقع مع أبي بكر رضي الله عنه. ولكن اختيار الله أولى أتمّ.

٤ ـ وكذلك قصة الرجلين الواردة في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ...﴾ [الكهف: ٣٢] إلى آخر سياق القصة وحوارهما معاً، حيث آمن الآخر بقضاء الله، ورضي بعطائه. فكانت مواقفه طمأنينةً وارتياحاً، بينما الآخر مُعرِض عن الإيمان بالله وبقضاء الله، فكانت مواقفه ونتائجه أسف وحزن وقلق واضطراب.

وعليه فنتيجة الإيمان بالقدر هي الارتياح والسعادة والطمأنينة كما قال ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن أمره كله خير إن أصابه سرّاء، شكر فكان خيراً له، وإن أصابه ضرّاء صبر فكان خيراً له**»[2].

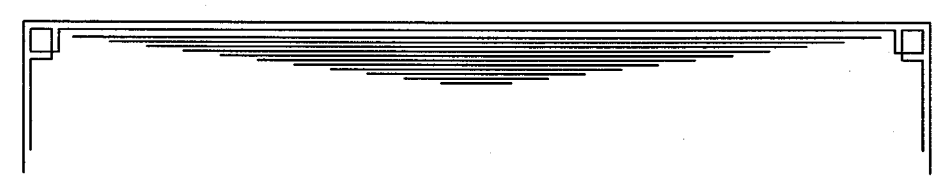
وبهذا يتم الكلام عن آثار الإيمان بالمغيّبات كلها من أركان الإيمان، وظهر لنا بعض ثمرات الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء خيره وشرِّه.

نأتي بالحديث عن العبادات وما وراء أركان الإسلام الخمسة بعد الشهادتين.



(١) أخرجه البخاري (٣٣٤)، ومسلم (٣٦٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).



العبادات في الإسلام

للعبادات في الإسلام وإن اختلفت أشكالها من صلاة وزكاة وصيام وحج أثرٌ عظيم عاجل، سواء على الأفراد أو على الجماعات، بجانب حق الله تعالى على عباده الذين خلقهم من العدم ورباهم على النعم، فكانت لله شكراً وعليهم حقاً كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

وآثارها على الأفراد إنما هي في جملتها انعكاس لروح الطاعة لله تصدع في القلب كالروافد تمدّه بحيوية ونور الإيمان تقوّي بصيرته وتغذّي روحه وتقوّي صلته بالله خالقه تعالى، وبها يزداد الإيمان ويتجدد نوره كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

ولكل فريضة آثارها الخاصة كما أن لكل غذاء خواصَّه. ينبّه عليها قوله ﷺ: «**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملأ ـ أو تملآن ـ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء...**» إلخ(١).

فقد بيّن أن الطهور حسّاً أو معنىً شطر الإيمان لما في الطهارة الحسيّة من نزاهة ونظافة ومجانبة الأقذار والأخباث.

ولما في الطهارة المعنوية من طهارة القلب من أدران العلل وأمراض المجتمعات، من الكبر والحقد والحسد ونحو ذلك مما يقطع أواصر الإخاء

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣).

ويعزل الأفراد ويورث الأنانية، يشهد لذلك حديث: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه**»(١).

ثم يتناول عمل اللسان، بعد سلامة القلب، فنطق اللسان بالذكر من تسبيح وتحميد يُكسبه من الأجر ما يملأ بين السماء والأرض، وهذا اللسان الذي يشغل بمثل ذلك لا يطاوع النفس في النطق بالسوء من القول من سبّ أو فسوق أو بذاءة.

والصلاة نور: تنوّر القلب والبصيرة، ونور على الوجه يكسبه بهاءً وجلالاً: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

والصدقة برهان: يصدِّق ما وقر في القلب من الإيمان، تظهر آثاره عملياً بالبذل من ماله أحبّ شيء إليه وأشحّ ما يكون عليه، فيخرج عن سلطان الشحّ، ويسلم من مذلة البخل، ويكتسب محمدة البذل والسخاء كعنصر فعّال في المجتمع. «**واليد العليا خير من اليد السفلى**»(٢).

وللعبادات أثرها في الأُمم على مدى الأزمان، فكأنها عامل ارتباط بينها يطاول الأجيال ويساير الأزمان يجمعها في وحدة دينية.

فكما وجدنا وحدة العقيدة تجمع الأمم في قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] فقد وجدت أيضاً وحدة العبادات، تجمع الأُمم وتربط هذه الأُمة المحمدية بما مضى من الأُمم الماضية، فما من عبادة إلا وهي موجودة عند الماضية من الصلاة والصيام والزكاة والحج.

١ ـ الصلاة:

أ ـ فمِن أول بناء البيت عَهِدَ الله لإبراهيم وإسماعيل في قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).
(٢) أخرجه البخاري (١٤٢٩)، ومسلم (١٠٣٣).

ب ـ وفي خصوص إسماعيل نفسه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريم: ٥٤ ـ ٥٥]. ولقمان يقول لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [لقمان: ١٧].

جـ ـ وجاء الخطاب إلى النبي ﷺ كذلك في خصوص أهله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

د ـ وفي حق عيسى عليه السلام: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

هـ ـ وفي عموم بني إسرائيل وهم أكثر الأمم أنبياءً: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝﴾ [البقرة: ٤٠ ـ ٤٣]. وقد ختم هذا الربط بأقوى رباط شخصي على أيدي الأنبياء جميعاً في بيت المقدس ليلة الإسراء بإمامة الرسول ﷺ[(١)]، فكانت صلاته بهم جميعاً إتماماً لحلقة الترابط العامة في هذه العبادة.

٢ ـ الزكاة:

وكذلك الزكاة: وجدناها مقرونة في الذكر فيما جاء عن موسى وعيسى وبني إسرائيل عموماً.

٣ ـ الصيام:

جاء عن موسى عليه السلام صيام يوم عاشوراء، وقدِم النبيُّ ﷺ المدينةَ فوجد اليهود يصومون فسألهم فقالوا: يوماً نجى الله فيه موسى من فرعون فصامه شكراً لله، فصمناه. فصامه ﷺ[(٢)].

وجاء عن مريم عليها السلام: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦].

وجاء نص الصيام لهذه الأُمة كخاتمة في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣] والذين من قبلنا يمتد مدلولها إلى آدم عليه السلام، فكأنها أيضاً تتمة لحلقة الارتباط بين الأُمم في هذه العبادة.

---

(١) انظر تخريج الحديث في: رسالة (الإسراء والمعراج).
(٢) أخرجه البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠).

٤ ـ الحج:

أ ـ في قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: ٢٧] بيان على أنه مشروع منذ بناء البيت على يد إبراهيم عليه السلام.

ب ـ وجاء من بعده موسى عليه السلام، ففي الحديث ما معناه: «**كأني بموسى بن عمران على جمل أورق شداده الليف يجأر إلى الله**» أي بالتلبية[(١)].

جـ ـ وعن عيسى في نهاية الزمن كما في الحديث: «**ليهلّن عيسى ابن مريم من فج الروحاء بحج أو عمرة أو بهما معاً**»[(٢)].

هـ ـ وجاءت آية مشروعيتها لهذه الأُمة: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] فلفظ الناس عام شامل، وكأنه أيضاً تتمة لحلقة الاتصال في عموم الناس ليشهدوا منافع لهم.

هذا هو ربط العبادات بين الأُمم ماضيها وحاضرها، ولها آثارها في هذه الأُمة كل عبادة على حدة بمثابة الغذاء الحسّي، كل نوع له خصائصه سواء في الأفراد أو الجماعات.

أولاً: الصلاة

أ ـ هي العامل الوقائي للأفراد والمجتمع من أن تتفشى المنكرات أو الفواحش كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ب ـ وهي عامل تطهير لما يسبق من زلّات كالماء ينقّي الثياب كما في الحديث: «**مثل الصلوات الخمس كنهر جارٍ أمام بيت أحدكم يغتسل فيه خمس مرات، أترون يبقى على جسده شيء من الدرن؟**»[(٣)].

جـ ـ وفي الآخرة عهد وبرهان ونور؛ كما في الحديث: «**مَن حافظ عليها**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٥)، ومسلم (١٦٦)، بنحوه.

(٢) أخرجه مسلم (١٢٥٢).

(٣) أخرجه مسلم (٦٦٨).

كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة»[١]، وفي الحديث أيضاً: «**إن أُمتي يأتون يوم القيامة غُرّاً محجلين من آثار الوضوء»**[٢].

وهي بالنسبة إلى الجماعة عامل يربط بين أطرافها لما تؤدّى في جماعة خمس مرات كل يوم وليلة، فتجمع أهل الحيّ كل يوم، ثم في نهاية الأسبوع تجمع أهل البلد، وفي نهاية العام تجمع أهل الضواحي، فهم دائماً في ارتباط وتواصل.

ثانياً: الزكاة

والزكاة أُخت الصلاة وهي حق المال. قال ﷺ: «**أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله..»**[٣]. وقاتل الصدِّيقُ مَن منعها.

أوجبها الله على الأغنياء وبيّن حكمتها في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] وبَيَّن مصارفَها في أصناف ثمانية بقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة: ٦٠].

ففي حكمتها ما يعود على الفرد بالطهارة والنماء، وفي مصارفها ما يعود على الأمة في نطاق المصالح العامة لجميع طبقات المجتمع، فقد ربطت مصارفها بين الآتي:

١ ـ ربطت بين الغني والفقير: «**تؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم»**[٤]، رفعاً لمستواهم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٤٠١)، والنسائي (٤٦١)، وأبو داود (٤٢٥)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٧٠): صحيح لغيره.
(٢) أخرجه البخاري (١٣٦)، ومسلم (٢٤٦).
(٣) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).
(٤) أخرجه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

٢ ـ ربطت بين العامل وصاحب المال: ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾، تشغيلاً للأيدي.
٣ ـ ربطت بين المؤمنين ومَن يرجى إيمانه: ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾، تكثيراً للأُمة.
٤ ـ ربطت بين الحرّ والعبد في المكاتَب: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾، تحريراً للأرقّاء.
٥ ـ ربطت بين المدين الغارم ومجتمعه: ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾، تشجيعاً على فعل المروءة.
٦ ـ ربطت بين السلم والحرب في تجهيز الغزاة: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، تقوية للجيش صيانة للدعوة ونشرها.
٧ ـ ربطت بين المسافر والمقيم: ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾، تأميناً للمواصلات وتنشيطاً للحركة.

وكل ذلك مرافق حيوية بالنسبة إلى الأُمة كما ترى، ولو نظرنا إلى تلك الجهات لوجدناها بنود ميزانية مكتملة لدولة عظيمة في السلم وفي الحرب.

والفرق جدٌّ بعيد بينها وبين نظام الضرائب في القوانين المدنية، سواء في نسبتها أو مصاريفها.

ففي الزكاة نسبة ثابتة: ٢,٥ في المائة في النقدين وما ألحق بهما من عروض التجارة، و١٠ في المائة، أو ٥ في المائة في الحبوب والثمار.

بينما في الضرائب نظام تصاعدي ربما يصل إلى ٩٥ في المائة من الأرباح، وسواء في مصارفها مما لا يتسع له هذا المقام من التفصيل والبيان.

ثالثاً: الصيام

وهو صيام شهر رمضان من كل سنة، وجعلُه في هذا الشهر المبارك الذي أنزل فيه القرآن تجديدٌ لروابط الأُمة بمبدأ رسالتها ومستهلّ كتابها ومطلع فجر تاريخها. وجاء نص مشروعيتها مع ربط الأُمة بمَن سبقها في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]. وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وللصيام آثاره العديدة على الأفراد، أطال فيها الكتَّاب وأكثر فيها

المؤلفون، ويكفي إشارة القرآن لأهمها في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. وحصول التقوى أمر جامع لكل خير عاجل وآجل، وأهم ما يكسب الفرد من خِلال حميدة: الرأفة والرحمة والعطف وصقل النفس وتزكية الروح.

وما يعود معها على الجماعة؛ فمن روابط في وحدة الإمساك والإفطار في وقت لكل بلد، وعيد واحد لكل قطر، وتعاطف فيما بينهم تكون زكاة الفطر ثمرة له. وكان ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان[1].

رابعاً: الحج

والحج هو الركن الخامس لأركان الإسلام وهو مشتمل على جميع أعمال الإسلام الأُخرى فلكأنه تطبيق عملي لها:

أ - ففيه العقائد معلنة في التلبية: لبيك اللّهمّ لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك... إلخ.

ب - وفيه الصلاة: ركعتيّ الطواف.

جـ - وفيه الصيام: لمن لم يجد هدي التمتع.

د - وفيه البذل أكثر من الزكاة حيث كان وجوبه على المستطيع.

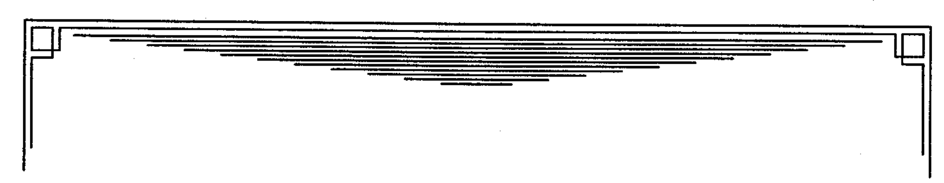
وقد جاء رابطة للناس جميعاً في جميع العصور منذ أن أعلن إبراهيم عليه السلام نداءه: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: ٢٧].

وقد جعل الله البيت الحرام مركز أمن وموطن طمأنينة ومثابة للناس: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥] وقد أجمل القرآن الكريم مآثر الحج على الجميع في قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨].

والحج بحق أعظم مؤتمر عالمي يمكن للأمة الإسلامية تنظيم حياتها كلها في برنامج شامل يضم القاصي والداني في لقاء يتجدد كل سنة.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٢)، ومسلم (٢٣٠٨).



المعاملات

أما ما عدا العبادات من أنواع المعاملات والعلاقات الاجتماعية والأحوال الشخصية؛ فالإسلام دين الشمول لم يقتصر على العقائد والعبادات بل شمل جميع نظم الحياة بشتى مرافقها.

ولا يسعنا الحديث عن كل نوع منها على التفصيل، غير أن الإسلام وضع قواعد عامة لجميع نظم الحياة ومتطلباتها تدور على أصلين هما: جلب المنافع، ودرء المفاسد، فما من منفعة إلا ودعا إليها وما من مفسدة إلا ونهى عنها.

وقد عبّر الأصوليون عن الأول «جلب المنافع» بالحاجيات، أي ما يحتاجه الإنسان ويسهّل حياته برفق، وهذا ينظم إباحة العقود من بيع وإجارة وشركة وكافة عقود المعاوضات.

وشرح بجانبها ما يتمّمها ويصونها؛ من توثيق العقود بالرهن والكفالة والضمان، والحثّ على الوفاء والصدق، والتحذير من الغش والكذب... إلخ.

وعبّروا عن الثاني «درء المفاسد» بالضروريات، أي ما تقتضي الضرورة حفظه، وما حفظها إلا ضرورة للإنسان في الحياة، وعددها ستة أشياء:

١ ـ الدين: لأنه عقيدة ومبدأ يقوم عليه كيان الأُمة ووحدتها، فحرّم الردّة والزندقة والإلحاد، وأوجب قتل المرتدّ إن لم يرجع.

٢ ـ النفس: لأنها كيان الإنسان وعمار الكون، فحرّم القتل وشرع القصاص من القاتل والمعتدي.

٣ ـ العقل: لأنه قوام الإنسان وخصوصيته من الحيوان، فحرّم كل مسكِر وأقام الحدّ على الشارب.

٤ ـ النسب: لأنه عقد نظام الأُمة، فحرَّم الزنا وأمر بحدّ الزاني.

٥ ـ المال: لأنه عصب الحياة وقوامها، فحرّم أكل أموال الناس بالباطل، سواء في الظاهر كالغصب والسلب والنهب أو الباطن كالاختلاس والسرقة.

٦ ـ العِرض: وهو إطار الفضيلة الذي يعيش فيه الإنسان ومساسه مساس لكرامته، فحرّم القذف وأمر بحدّ القاذف.

وكما شرع تتميمات للحاجيات السابقة؛ شرع هنا أيضاً تتميمات هذه الضروريات الست زيادة في صيانتها والحفاظ عليها.

فمن صيانة العقائد حرّم البِدَع وزجر المبتدِع.

ومن صيانة النفس حرّم كل اعتداء، وجعل التعزير فيما لا حدّ فيه.

ومن صيانة العقل حرّم قليل المسكر سدّاً للباب، ولو لم يقع به سُكر يقيناً.

ومن تتمة صيانة المال حرّم الرِّبا، وكل تحيُّل على أموال الناس، وكل كسب غير مشروع في مقابل عوض له.

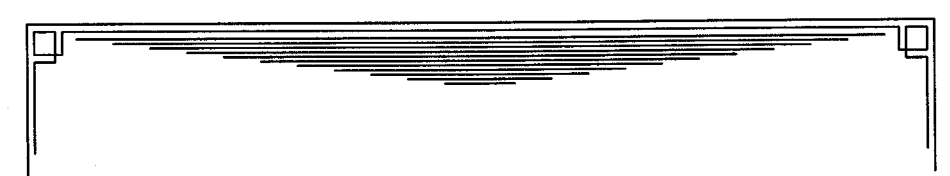
ومن تتمة صيانة الأنساب حرّم الخلوة بالأجنبيات، وأوجب العِدّة لاستبراء الرَّحِم ولو كانت صغيرة أو يائسة... إلخ.

ومن تتمة صيانة الأعراض حرّم الغمز واللمز والسخرية... إلخ.

ولا شك أن ديناً هذه مبادئه يكون عظيماً، ويضمن لنفسه البقاء والخلود، ويقوى على مسايرة الإنسان طيلة الأزمان في كل مكان.

وصدق عليه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣].





الدين الإسلامي خاتمة الأديان ويجب أن يكون كذلك

لقد جاء الإسلام ليكون خاتمة الأديان، وختمُه إياها أمر طبيعي ونتيجة حتمية لواقع بقية الأديان التي كانت من قبله. وكان أشهرها اليهودية والنصرانية، وكلاهما قد طرأ عليه التغيير والتبديل تبعاً لأهواء المسيطرين وانسياقاً وراء الحطام الفاني وحفاظاً على السلطان الزائف.

فكانوا كما أخبر الله عنهم: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦، المائدة: ١٣] وكانوا يشترون به ثمناً قليلاً كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩].

نتائج هذا التغيير:

لما غيّر اليهود كتابهم وخاصة الجانب الروحي والالتزامي؛ تغلب عليهم الجانب المادي وأصبحوا خلواً من المعاني الروحية ومنساقين إلى التسابق المادي بقلوب جوفاء كما قال تعالى عنهم: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤] جماد لا روح فيه.

حينئذٍ جاء عيسى عليه السلام بتعاليم إنسانية ووصايا أخلاقية ومعانٍ روحية تغذي تلك القلوب وتبلّ صداها. فكان تكملة لما بقي من توراة موسى.

فأخذ الحواريون بما جاء به عيسى عليه السلام، وتركوا ما بقي من تحريف اليهود في كتابهم، ومن هنا حصل الانقسام الفكري، اليهود رفضوا أخذ ما جاء به عيسى وهو الجانب الروحي، والنصارى رفضوا أخذ ما بقي من تحريف اليهود وهو الجانب المادي، وكان كل قسم يكمل الآخر فوقع النقص على الجميع.

ثم ظلّ اليهود في نقصهم ماديين إلى أبعد حدود المادية.

وحاول النصارى استكمال شأنهم فوضعوا لأنفسهم ما يحتاجون من الأنظمة ولا يزالون يزيدون وينقصون ويغيِّرون ويبدِّلون حسب ما تمليه عليهم حياتهم، فما أخذوا به اليوم تركوه في الغد وهكذا.

وبسبب هذا الانقسام سارت كل أُمة في طريق مغاير للآخر، فضلّت وضلّلت الأُخرى كما حكى تعالى عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ﴾ [البقرة: ١١٣].

ثم جاء في نفس السياق قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ﴾ [البقرة: ١١٩].

وبالنظر إلى مقالة كل طائفة في الأُخرى نجدهما بين أمرين، إما صادقتين أو كاذبتين ولا ثالث. فإن كانتا صادقتين فليست واحدة منهما على شيء فلا تصلح واحدة منهما للاتباع ولا تستطيع البقاء. وإن كانتا كاذبتين فالكذب يكفي لإسقاطهما وعدم اعتبارهما، وبهما معاً يتم الحكم عليهما بعدم الصلاحية.

ومن ثم جاء الدين بالحق الذي يصلح للعالم، فجاء في نفس السياق بعد أسطر في المصحف قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ﴾ أي: بالدين الثابت والقول الصادق وذلك مقابلاً لقولهم في بعضهم: ليست على شيء.

ولو افترض قائل أنهما على حق أو واحدة منهما هي التي على حق وكان يمكن اتباعها، لقيل: لا يمكن أيضاً اتباع واحدة منهما دون الأُخرى. كما بيّن القرآن الكريم حالة كلتا الطائفتين من الأنانية في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ﴾ [البقرة: ١٢٠].

إذاً يمتنع عقلاً وشرعاً وفعلاً اتباع الرسول لواحدة منهما وهو يريد الخير للجميع ومبعثه رحمة للعالمين.

فاليهود لن يرضوا عنه إلا باتباعه دينهم وذلك يغضب النصارى عليه.

والنصارى أيضاً كذلك لن ترضى عنه إلا باتباعه دينهم. وذلك يغضب اليهود عليه؟

ومن هنا يستطيع أن يتبع واحدة منهما وبالتالي لا يستطيع اتباعهما معاً.

إذاً لا بدّ أن يكون له دين مستقل يفوقهما، مبناه على التراحم والتآلف، لا مكان للأنانية فيه ولا مجال للشخصية، فيه ترجم الله لرسوله ﷺ بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

فكانت رسالة رأفة ورحمة، وكان ﷺ بالمؤمنين رؤوف رحيم.

ولهذا قال تعالى في تمام السياق: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

فأثبت تعالى أن الهدى هدى الله لا الهوى والأغراض الطائفية أو الشخصية.

فقابل أهواءهم التي فرّقت بينهم وتعصّبوا لها؛ بالعلم والرحمة وما جاء بها رسول الإسلام ﷺ.

وحدة الدين الإسلامي:

تقدمت الإشارة إلى هذا المعنى من توحيد الإسلام للبشر كله في ديانة واحدة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ [آل عمران: ١٩] وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وبيّن وحدة الشريعة في أُصولها في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣].

ثم تأتي دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بعد الفراغ من بناء البيت ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٨].

وقد وصّى إبراهيم بها بنيه، وعمل يعقوب عليه السلام بالوصية فوصى أبناءه بذلك كما قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣].

وبعد هذا كله يأتي اليهود والنصارى بجهالة أو عناد يقولون:

﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ فيردّهم القرآن إلى جادّة الصواب التي شهد لها الأولون وتواصوا بها ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]. برّأه الله من شِرك الأمّتين فلم يقل ما قالته اليهود: عزير ابن الله. ولم يقل ما قالته النصارى: عيسى ابن الله. ولهذا كان إماماً وأُمّة ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠].

ثم جاء رسم الطريق السليم الذي فيه وحدة الأُمة وترابط الإنسانية وينتج الفوز المحقّق، فيأمرهم بإعلانه في قوله تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].





الخاتمة

نستنتج مما تقدم خاتمة هذا البحث وهي: أن الإسلام مِلّة إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ وموسى وعيسى وجميع الأنبياء بدون تغيير ولا تبديل، ووجب على اليهود والنصارى وغيرهم الأخذ به لأنه شمل جميع الأديان ووحّد بين جميع الأُمم، فربط آخرها بأولها وشمل ما بين ذلك، وإذا كان الأمر كذلك فإن مَن رغب عنه يكون سفيهاً أحمقاً أو جاهلاً أو معانداً كما قال تعالى عن أمثاله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة: ١٣٠] وكان مَن أخذ به مهتدياً إلى صراط مستقيم كما قال تعالى عن مثله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وقد أكرم الله المسلمين بالهداية والتوفيق لهذا الدين والتصديق بما أُنزل إليهم وإلى غيرهم مِن قبلهم كما قال تعالى شاهداً لهم بذلك: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وبهذا الإيمان وبهذا التصديق وبهذا الانقياد كانوا خير الأُمم وأعدلها في الدنيا والآخرة كما قال تعالى عن حالهم في الدنيا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال عن حالهم في الآخرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ [البقرة: ١٤٣].

والوسط العدل، والعدل التوسط بين طرفين والاستقامة بين منحرفين كما تعبدنا الله تعالى في كل ركعة من صلواتنا بقوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ

ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧].

وصلى الله وسلم وبارك على سيد الأنبياء وخاتم المرسلين سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، ورضي الله عن أصحابه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين وعنّا معهم برحمته وكرمه وفضله، وجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، آمين.







معالم على طريق الهجرة



الإهداء

إلى كل داعية واجهته الصعاب.

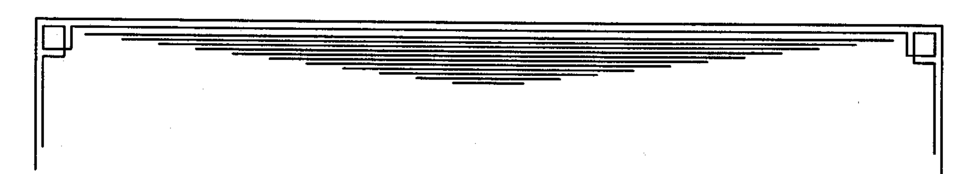
إلى كل مُصلح اعترضته العقبات.

إلى كل مَن استطال الطريق واستبعد الغاية.

إلى كل مَن ساورته الشكوك واكتنفته الأوهام.

أضع أمام هؤلاء جميعاً معالم الطريق السويّ معالم على طريق الهجرة.

ليترسّموا خطاه ﷺ.



معالم على طريق الهجرة

تمهيد:

إن طريق الهجرة طويل ومعالمه عديدة. وليست قاصرة على إنسان، ولا وقفاً على فرد، فالناس كلهم فيها سواء. وليس لإنسان أن يدّعي الإحاطة بها ولا استيعابها. ولم أجمع في كتابتي هذه كل شيء، إنما أخذت أعظمها والأهم فالأهم منها، وكلها هامة للغاية.

وإذا سارت جماعة في أيّ طريق، فليس لأيّ فرد منها أن يدّعي استيعاب جميع معالمها، بل في نهاية الطريق يجلسون ويستعرضون ما شاهدوا، فيذكّر كل واحد منهم الآخر ويحدّثه بما رآه. وهكذا نحن في نهاية هذا الطريق ـ بعد عرضه ـ فلكل سامع أن يذكر ما وعاه، ويذكّر الآخر بما نسيه. وبالله تعالى التوفيق.

معالم الطريق: وكل طريق عظمت مهمته تعظم معالمه وبها يهتدي السائرون، ولا سيما إن كان طويل المدى. فمعالم الطريق عوامل صيانة تحميه، وأمارات تبديه، ولولاها لعفّت الرياح آثاره، ولضلّ من سلكه أو ساره.

وطريق الهجرة من أطول الطرق مسافة، وأقدمها عهداً، وأبرزها معالم. امتد عبر القرون، وساير الأجيال منذ الخليل إبراهيم عليه السلام، إلى سيّد ولد آدم وخاتم النبيين ﷺ. فجدّد معالمها، وأزكى سرجه، ومهّد عقباته، وذلّل صعابه، وأعلى مناره. فأصبحت معالمه في القلوب. تنير البصائر، وتهدي الحائر، ويحار في كنهها الناظر. معالم أرست قواعد دعوة، وثبّتت قوائم دين، وغيّرت مجرى تاريخ، ونقلت أُمة ـ في عقائدها ـ من شرك إلى توحيد، وفي عاداتها من جهالة عمياء إلى استنارة بوحي السماء. وغيّرت مجرى تاريخ

الدعوة فأصبح بعدها المستجير مُجيراً، والمطرود سيداً، أبدله الله قوماً بقوم. وشتّان: فمن قوم قُساة ضيّقوا عليه، إلى قوم أُساة رحبوا به. قوم يبغضون وجوده فيهم، إلى قوم يحبّون من هاجر إليهم. من قوم ألجؤوه إلى الغار، إلى قوم يستقبلونه على رؤوس النخيل وأسطحة البيوت حتى ارتفاع النهار. من قوم يضعون جُعُلاً لمَن أتاهم به، إلى قوم يستقبلونه استقبال البدر من ثنيات الوداع، يستوجبون الشكر عليه ما دعا لله داع.

غيّرت مجرى التاريخ حقاً، فبعد أن كان يطلب السلامة لنفسه وصحبه، أصبح قوياً مطارِداً لخصمه يقطع طريقهم، ويأخذ عِيرهم؛ كان يستشفع عليهم بساداتهم، فأصبحوا يستشفعون به من ضعفائهم، خرج فارّاً من وجوههم، ثم عاد إليهم فاتحاً لبلدهم. يخرج متخفياً ليلاً، فيدخل جهرة نهاراً. بالأمس يطردونه ويطاردونه، ومن الغد يطلبون عفوه وإحسانه. حين يقول عام الفتح: ماذا ترون أني فاعل بكم؟ فينزلون عن كبريائهم العالي، ويروح عنهم طغيانهم العاتي، ويقولون في انكسار المغلوب، وآمال المرتجي: أخ كريم وابن أخٍ كريم.

بالأمس يريدون دمه ويتآمرون على قتله، واليوم هم في قبضة يده، فلم تطغه نشوة انتصار، ولم تُثِرْه حمية انتقام، فيقوم في عفّة وإباء في غير مخيلة ولا كبرياء: اذهبوا فأنتم الطلقاء[1]. كل ذلك من آثار ما جاءت به طريق الهجرة، وقد تركت معالم على الطريق تتّضح لمَن تأملها، وتصكّ وجه مَن يجهلها، ويصطدم بها مَن يغفلها.

هجرة الأنبياء قبله: ولم يكن النبي ﷺ أول من هاجر بدينه، ولم تكن مكة منطلق الهجرة الدينية، بل كان الخليل إبراهيم عليه السلام من قبل، وكانت هجرته من بابل في أطراف الجزيرة شمالاً، فهي أقدم عهداً وأبعد مدى؛ بدأها الخليل عليه السلام. كما قال تعالى عنه: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾ [العنكبوت: ٢٦]. وكان طريقه من بابل إلى بيت

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ٤/٤١٢)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١١٦٣).

المقدس، ثم إلى مصر، ثم عاد إلى بيت المقدس، ثم هاجر بولده إسماعيل إلى مكة المكرمة. هاجر من بابل بعد أن حطم لاهوت نمرود وأخمد نيرانه، ورجع من مصر بعد أن هذّب مَلِكَها وكبح جماحه.

واستقر ببيت المقدس بعد أن استودع الله عند بيته المحرم أهلَه وفلذة كبده، وأحاطهما بدعوة مباركة، تبيّن الغرض من هجرته بهم ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧].

فكان في الإتيان بإسماعيل عليه السلام إلى مكة نقل النبوّة من أرض النبوّات بالشام إلى قلب الجزيرة بمكة المكرّمة.

ما كان من نتائج هذه الهجرة: وكان من نتائج هجرته عليه السلام ما أخبر الله تعالى عنه في قوله: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧١ ـ ٧٣] واستجاب الله دعوته في ولده إسماعيل فأنبت به غرس الدعوة في ذلك الوادي قبل أن ينبت زرعه، وكان من ذريته نبيّنا محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

هجرة لوط عليه السلام: ثم جاءت هجرة لوط عليه السلام لما تفشّت الرذيلة في قومه وفسدت أوضاعهم قام ينهاهم عن الرذيلة ويدعوهم إلى الفضيلة، آذوه، وكان جوابهم عليه: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦] فواعجباً إنهم أُناس يتطهرون، يستوجب ـ في نظر أولئك ـ إخراجهم من قريتهم! ولا عجب في ذلك، فقد شهد التاريخ دائماً أنه في كل زمان ومكان إذا تعفنت الأذواق، وماتت الضمائر، ومسخت الإنسانية، فسدت المقاييس. فتصبح كل رذيلة فاضلة، وكل مَن دعا إلى فضيلة مرذول، ومَن لم يسايرهم في نقائضهم خامل مجهول.

غير أن نبيّ الله لوطاً عليه السلام لم يُبالِ بهم، فظل على مبدئه، وأعلن سخطه واستنكاره، قائلاً: ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

[الشعراء: ١٦٨ ـ ١٦٩] فاستجاب الله تعالى له ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ ولما يئس منهم بعث الله إليه رُسُلاً لنصرته وإهلاك عدوه ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود: ٨١].

النتيجة: فكانت النتيجة: نجاة لوط ومن معه وإهلاك عدوّه كما قال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الشعراء: ١٧٠ ـ ١٧٤] وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنبياء: ٧٤ ـ ٧٥].

فهنا مجاهرة بالحق واستنكار للباطل أورثت حكماً وعلماً ونجاة ورحمة. فكانت درساً لكل داعية، وعزاء لكل صابر على الحق.

هجرة موسى عليه السلام: ثم سلك موسى عليه السلام طريق الهجرة إلى مصر، وخرج إلى الأرض المباركة. سلك طريق أبيه إبراهيم، ولم يخرج إلا بعد أن فعل بفرعون مصر كما فعل جدّه إبراهيم بنمرود بابل، من تحطيم اللاهوت وغيره، وخلّص بني إسرائيل من عدوّهم وورّثهم أرضهم وديارهم، وأعتقد أنه لا يمكن لمحاضر أو كاتب أن يسمح لنفسه أن يمرّ بطريق هجرة موسى عليه السلام بسرعة مغمض العينين، ولا يسمح لمستمعيه أو قرّائه أن يحملوه على الإسراع في هذه الطريق، لأنه فيه معالم تستلفت الأنظار، ومواقف تستوجب الاعتبار. كما أننا لا نستطيع التمهّل والوقوف عند كل نقطة، والتأمّل في كل موقف، لأنها ليست هي المقصودة بالذات، ولكنّا سنأخذ المعالم الرئيسية، وما له صلة بصلب الموضوع.

مولد موسى عليه السلام: ولد موسى عليه السلام في جوٍّ رهيب، تُنتهك فيه براءة الطفولة خشية على مُلك فرعون من طفل سيولد من بني إسرائيل. ويا للعجب! فرعون يقول: أنا ربكم الأعلى ويخشى على ملكه وربوبيته طفلاً رضيعاً.

ولنشوء هذا الخوف صلة بهجرة إبراهيم عليه السلام إلى مصر. فاعتدى ملكها بمحاولة اغتصاب زوجته منه، فأذن الله أن يُنتزَع ملك مصر على يد ولد من

ذريّة إبراهيم. فكان تقتيل فرعون الأولاد حذراً من ذلك. ولكن في الوقت الذي ترسَل فيه العملاء إلى البيوت يفتشون عن المواليد، يأتيه طفل في تابوت إلى داخل بيته ليربّيه هو بيده وهو لا يدري مَن هو. ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٧ ـ ٨].

فعناية الله بموسى تسخّر عدوّه فرعون لخدمته وتربيته. ثم امتنع عن كل مرضِعة. وهذه آية عظمى، طفل رضيع غاية ما له في الحياة ثدي يلتقمه، ولا يُسكته إلا ثدي يمتصّه، فيمتنع عن كل مرضِعة كما قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ فهذه عناية الله بأُمه تدركها قبل أن تبدي به ـ وإن كادت ـ فتردّه إليها، ليردَّ لهفة قلبها وتقرَّ به عينها ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾. وصدق وعد الله لها فكبر موسى وبلغ أشدّه واستوى وآتاه الله حكماً وعلماً. وهنا بدأت موجبات الهجرة بعد أن استغاثه الذي من شيعته على الذي هو من عدوه فوكزه موسى فقتله وأصبح في المدينة خائفاً يترقب وطلبه فرعون. وتآمروا على قتله مخافة منهم على أنفسهم ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ وهنا بدأت هجرته الأولى فراراً بنفسه ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ فتوجه تلقاء مدين لا يدري ما الذي يأتي به القدر فأسلم وجهه لله، ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ فساقه الله إلى شعيب وأصهر إليه وقضى منه أيما الأجلين ثم عاد بأهله فآنس من جانب الطور الأيمن ناراً ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾[القصص: ٢٠ ـ ٣٠]. وهناك تحمّل أعباء رسالته إلى فرعون وقومه، إلى الذين خرج من عندهم بالأمس فارّاً منهم، فيعود الآن إليهم منذراً ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ [الشعراء: ١٠ ـ ١١]. ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طـه: ٤٢ ـ ٤٤]

ولكن موسى غريم لهم يطلبونه ثأراً، فلم ينسَ ذلك فاعتذر لربه، واستوزر أخاه هارون ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٣ ـ ٣٥]. ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٥ ـ ٤٦]

فذهبا بأمر الله وعرض موسى آيات ربه الكبرى فجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً وجاء الردّ بالفعل من حاشية السوء المعبّر عنه في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف: ١٢٧] وجاءت المقابلة من جانب موسى وقومه، صبراً واستعانة بالله، وانفساح آمال الحياة بعد الاستعباد. ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨]، بدأت آيات الله تنذر فرعون وقومه لعلّهم يتذكرون ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠ ـ ١٣٣] استكبروا جميعاً، أما فرعون فلطغيانه، وأما قومه فلاستخفافه إياهم ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥٤] مجتمع كله ضائع: الراعي طاغية، والرعية فَسَقَة. مجتمع لا يؤمل منه خير.

فلما يئس منهم موسى بدأ يهيئ قومه تهيئة روحية، ويقوّي نفوسهم تقوية معنوية، وهو سلاح المؤمنين دائماً إذا قلّ عددهم عظم مددهم من الله فناشدهم تجديد العهد بالله وتقوية العزم في التوكّل عليه مستعملاً أسلوب الإثارة فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ فكان لاستثارته بتكرار الشرط مرتين ـ إن كنتم مؤمنين، إن كنتم مسلمين ـ أثره الفعّال فاستجابوا له ولبّوا نداءه حالاً ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس: ٨٤ ـ ٨٦]

وبعد هذه التهيئة النفسية جاء الأمر بالخروج وترك البلاد والأموال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾[١] [الشعراء: ٥٢] فخرج - عليه السلام - هو ومَن معه، قيل: كانوا ستمائة ألف (٦٠٠,٠٠٠) أو أقل أو أكثر، فساروا صوب سحابة تهديهم، حتى وافت بهم ساحل البحر نزلوا، فاتبعهم فرعون وجنوده، فتخوّف قوم موسى من عدوهم ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ[٢] مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ فبرز الإيمان وتجسم اليقين فأجابهم سريعاً: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ[٣] رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١ - ٦٢] وكأنه بهذا الجواب السريع يفاجئهم في هذا الموقف الحرج - البحر أمامهم والعدو خلفهم - فلم يتأنّ في الجواب، ولم يتأمل في المصير، وفاجأهم بقوله: كلا، ليذكِّرهم بقوة وبسرعة الشرط والعهد السابقين في قوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] وقولهم: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ وبسرعة أيضاً جاء الخلاص من عند الله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾[٤] فسار موسى ومَن معه يقطعون طريقاً في البحر يبساً يشاهدون قدرة الله ويعاينون نصره ولا يخافون دركاً ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧] ولست أدري كيف لجّ العدو في طغيانه حتى خاض لجّة البحر. أهو بَلَه في عقله؛ أم عَمَه في بصيرته؟ ولكنه قضاء الله إذا أراد الله نفاذ أمر سلب من ذوي العقول عقولاً، فانخدع ولم يعتبر بما عاينه

---

(١) توطئة لموسى حتى لا يفاجأ بالعدو في أثره. (حاشية في الأصل).
(٢) قالوا ذلك خوفاً لما رأوا اتباع فرعون لهم، لأن موسى نفسه يعلم ذلك مسبقاً. (حاشية في الأصل).
(٣) قد أخبره ربه من قبل إنهم متبعون ولم يفجؤه أنهم مدركون كما ظن أصحابه. (حاشية في الأصل).
(٤) إنها قدرة من بيده ملكوت كل شيء ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ وقد وعد رسله بالنصر: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ وقد جرى ما هو قريب من ذلك لأبي عبيدة رضي الله عنه حينما توجه لغزو البحرين فانحاز الأعداء بسفنهم إلى الجزيرة فخاض أبو عبيدة بجيشه البحر قائلاً: أيها البحر إنك تجري بأمر الله وإنّا جند الله في سبيل الله وإني عازم على العبور للعدو فاجمد بأمر الله. فجمد له البحر. (حاشية في الأصل).

من شقّ البحر، ولم يدرك أنها آية من الله لرسوله، فيرعوي فيرجع عن طلبه إن لم يؤمن برسالته، ولكن الجحود والطغيان اللذان أعمياه وغلّفا بصيرته عن الآيات السابقة ومنعاه عن إدراك هذه التي يشاهدها ويعاينها أمامه وكانت استدراجاً لهم ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾.

وكانت النتيجة: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء: ٦٥ ـ ٦٨] وبعد نجاتهم وإهلاك عدوهم أبدلهم الله من الذلّ عزّاً، ومن الاستعباد حرية، ومن الفقر غنًى. ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧].

* * *

تلك هي مهام معالم طريق هجرة الأنبياء عليهم السلام بدأها إبراهيم، وسارها موسى، وأوحاها الله إلى محمد ﷺ. فدرسها ووعاها وذكّره الله بها في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات: ١٥ ـ ٢٦].

وفي تذييل هذا السياق بالعبرة، إلفات للنظر، وربط بين الهجرتين العظيمتين: هجرة موسى عليه السلام، وهجرة النبي عليه الصلاة والسلام. ومما يؤكد أنه ﷺ قد انتفع منها بكل موقف فلم يدعها تمرّ عليه بدون تأمل، أو يدع نفسه تمضي فيها بدون عناية، لأنهم له قدوة وله فيهم عبرة وهو لغيره أسوة. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات: ٢٦] وعند التأمل نجد موافقات عجيبة بين الهجرتين. ومواقف عديدة ومعالم متماثلة في كِلا الطريقين. وأعتقد أنه ليس من محض الصدفة أن تأتي تلك المواقف، وتتكرر تلك المعالم، إلا لشدة الروابط من أوجه عديدة.

أوجه الربط بين الهجرتين:

وبالنظر في موجز ما أسلفنا نجد أنواع الترابط في الأسباب، والحالات، والمواقف، والنتائج:

١ ـ أما الروابط في الأسباب: فمن جهتين، الأولى: الجحود والعناد. فقوم موسى كما قال تعالى عنهم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]. يقابل هذا من أهل مكة كما قال تعالى عنهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] فالجحود عامل مشترك بينهما.

الجهة الثانية: إيذاء الداعي وأتباعه: فقوم موسى ائتمروا لقتله ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾. يقابل هذا من أهل مكة تآمرهم على قتله في دار الندوة ﴿يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾[1]. فاتحدت الأسباب وتوحدت: جحود للدعوة، وتآمر على قتل الداعي. الأمر الذي يحتّم الخروج عنهم والهجرة إلى غيرهم.

٢ ـ أما الروابط في الحالة الشخصية: فشخصية موسى أُحيطت بالمخاوف ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾.

ومثله الرسول ﷺ في حصار الشعب وليلة الهجرة أتاه جبريل وقال له: لا تبت في فراشك الليلة.

٣ ـ وفي أثناء الطريق: فموسى وقومه، البحر أمامهم، والعدو خلفهم، وقد تراءى الجمعان. والرسول وصاحبه في الغار، والرصد على أبوابه، لو نظروا تحت أقدامهم لرأوهما، فموسى وإن لم يدركه فرعون فقد تراءى له. والرسول وإن لم يدخل عليه الرصد الغار فقد وقف على بابه، ثم إن لجّة البحر وإن لم تمكّن لموسى وقومه فراراً فإن ضيق الغار لم يجعل لمن بداخله اختياراً. وهيبة البحر وظلمته لن تزيد على ظلمة الغار ورهبته. فهما بحق موقفان متشابهان، صور الموقف الأول قول أصحاب موسى حين التقى

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٨٠)، بإسناد ضعيف لجهالة شيخ ابن إسحاق، ولكن صحَّ تآمر الملأ من قريش على قتل النبي ﷺ في مسند أحمد (١/ ٣٠٣)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٢٤): إسناده جيد.

الجمعان: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ وصور الموقف الثاني قول الصدّيق لما أبصر أقدامهم وسمع حفيف نِعالهم: والله يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت أقدامه لأبصرنا[1]، أي لأدركونا وكان الجواب في الموقفين المتماثلين مع طول الزمن متّحداً ولكأنهما من مصدر واحد.

أ ـ فمن موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

ب ـ ومن محمد ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] فالمعيّة مشتركة بينهما.

٤ ـ أما النتائج فكانت متشابهة كذلك فنتيجة فرعون وقومه الغرق والهلاك. وتدمير كل ما صنعوا وما كانوا يعرشون. ونتيجة موسى وقومه، النجاة والفوز، والوصول إلى الأرض المقدسة التي وعدهم الله بها، وميراث أرض عدوهم وديارهم ومشارق الأرض ومغاربها.

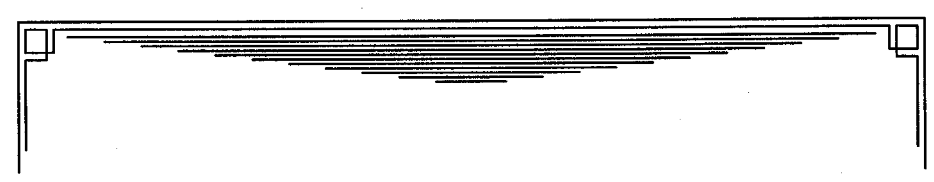
ونتيجة قريش: فصناديد قريش وطغاتها أُخذوا وقُتّلوا تقتيلاً وأُلقوا في ظلمة قليب بدر، وما هو من البحر ببعيد، ونتيجة الرسول ﷺ ومَن معه فقد أنجاه الله وأبلغه مأمنه وأعاده إلى المدينة وعوّضه خيراً مما ترك: أصحاباً وأنصاراً فأكمل الله لهم الدين، وأتمّ عليهم النعمة، ليحقّ الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون. بل وكذلك أورثهم أرض عدوهم بعد أن خربوها بأيديهم وأيدي المؤمنين ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] وقد جاء الاعتبار عقب كِلا الموقفين.

ولهذا الترابط بين الهجرتين في الأسباب والأحوال والمعالِم والنتائج والعِبَر رأيت عرض بدء الهجرة من إبراهيم عليه السلام إلى نبيِّنا محمد عليه الصلاة والسلام. فهي امتداد لما سبق وأُسوة لمَن يقوم بالدعوة من الدُّعاة ورثة الأنبياء.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٢٢)، ومسلم (٢٣٨١).





الهجرة في الإسلام

بالتأمّل فيما قدّمنا من هجرة الأنبياء، نجد لكل هجرة مقدّمة بمثابة الارتياد والترويض كخطوة عملية مسبقة فإبراهيم عليه السلام قبل أن يهاجر بأهله وولده إلى جوار البيت الحرام، خرج أولاً من بلده وأهله وجاء إلى مصر ثم عاد بعد أن خَبِر البلاد وخالط العباد ولقي ما كشف له عن جوانب النفوس وطبائع الحياة. وموسى عليه السلام قبل أن يهاجر خرج من المدينة خائفاً يترقب ووصل إلى (مدين) وعاش ما شاء الله له ثم عاد بأهله بعد أن عرك الحياة ودرس الأُمم. وها نحن أمام الهجرة في الإسلام. لم تأت إلا بعد مقدمات عديدة ودروس عملية مفيدة. فمن ذلك:

أ ـ هجرة جماعة إلى الحبشة ثم عودتهم.

ب ـ خروج النبي ﷺ بنفسه إلى الطائف ورجوعه[1].

جـ ـ هجرة الصحابة إلى المدينة وإقامتهم.

د ـ وأخيراً هجرته ﷺ وافتتاح عهد جديد للدعوة.

ومما يستوقف النظر: أن الهجرة المحمدية كانت على مرحلتين، وفي اتجاهين متغايرين:

الأولى: اتجهت إلى الجنوب الغربي عبر البحر فخاضت غماره من الجزيرة إلى الحبشة من أفريقيا.

---

(١) وكان الخروج إلى الطائف قبل الإسراء. قال الزرقاني في المواهب: كان بعد وفاة خديجة بثلاثة أشهر. وقال صاحب الإصابة: توفيت خديجة في السنة العاشرة من البعثة.

أما الإسراء، فقال في شرح الطحاوية: كان قبل الهجرة بسنة وقيل: بسنة وشهرين. حكاه عن ابن عبد البرّ. (حاشية في الأصل).

والثانية: اتجهت إلى الشمال الشرقي عبر الصحراء قطعت وِهادها واجتازت مفاوزها من مكة إلى المدينة. أما الهجرة الأولى فهي كمقدمة للثانية، وهي بمثابة تجربة للدعوة في بلد غير البلد الذي نشأت فيه، وهي مؤقتة. تقول كتب السِيَر[١]: إن سببها أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه لما رأى شدّة حالهم وما هم عليه من ضيق: «**لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه**». فخرج إليها أولاً خمسة عشر شخصاً، رجالاً ونساءً، خرجوا في رجب من السنة الخامسة بعد البعثة، وانتهوا إلى البحر ما بين ماشٍ وراكب ثم استأجروا سفينة بنصف دينار إلى الحبشة، ثم لحق بهم آخرون حتى صار عددهم بضعاً وثمانين شخصاً. غير أني لا أستطيع أن أجعل هذا هو كل السبب، لأني أرى فيهم مَن هم أهل منعة في قومهم كعثمان بن عفان، وابن عوف، وأمثالهما ممّن هم في الذروة من النسب. وقد وجدنا عمر بن الخطاب في الحديبية يمتنع من الذهاب إلى قريش يفاوضهم ويقدّم عثمان رضي الله عنه لهذه المهمة لما لعثمان من شوكة ومنعة. وبالفعل فقد استقبلوه بمكة وسمحوا له بالطواف دون غيره وهو الذي امتنع ما لم يطف النبي ﷺ وصحبه رضي الله عنهم[٢].

وهذا مما يحملني على القول بأن إيذاء الضعفة ليس هو كل شيء بل كانت هناك عوامل أخرى منها تجربة عملية لنشر الدعوة في موطن جديد بجانب الإبقاء على بعض ضعفة المسلمين. ويؤيد هذا القول أنها جاءت بعد أن لم يستجب أحد للدعوة إلا النفر القليل. ويشهد لهذا أيضاً أنه لم يهاجر كل الضعفة. فليس فيهم بلال، ولا صهيب مثلاً، وعمّار مشكوك في ذهابه.

وكذلك ما كلّ مستضعف كان يلوذ بالفرار، بدليل قصة عثمان بن مظعون؛ كان في جوار من الوليد بن المغيرة فلما رأى ما فيه أصحاب

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٣٠١)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٣١٩٠): إسناده جيد.
(٢) أخرجه أحمد (٤/٣٢٣ ـ ٣٢٦)، وصححه الألباني في فقه السيرة (ص٣٣٧).

رسول الله ﷺ من البلاء وهو يروح ويغدو في أمان، قال: والله إن غدوي ورواحي في جوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني لنقص كبير في نفسي، فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له: يا أبا عبد شمس وفَتْ ذمّتك وقد رددت إليك جوارك، قال: لِمَ يا بن أخي؟ لعلّه آذاك أحد، قال: لا ولكن أرضى بجوار الله ﷻ ولا أُريد أن أستجير بغيره، قال: فانطلق إلى المسجد، فاردد عليّ جواري علانية كما أجَرْتُك علانية، فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجد، فقال الوليد بن المغيرة: هذا عثمان جاء يردّ عليّ جواري، قال: صدق، قد وجدته وفياً كريم الجوار ولكني أحببت أن لا أستجير بغير الله فقد رددت عليه جواره(١)، ثم انصرف عثمان رضي الله عنه فمرّ بلبيد ينشد شعراً في مجلس من قريش قوله:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل   وكل نعيم لا محالة زائل

فصدقه في الشطر الأول، وكذّبه في الشطر الثاني وقال: بلى إن نعيم الجنة لا يزول. فغضب لبيد وقال: ما هذا يا معشر قريش الذي حدث فيكم. فقال رجل: لا تأخذ عليه إنه سفيه من سفهائنا، وتلاحا معه فقام الرجل إلى عثمان فضربه على عينه فخضرها، والوليد بن المغيرة قريب ينظر فقال له: والله يا بن أخي إن كانت عينك عمّا أصابها لغنية ولقد كنت في ذمة منيعة، فقال عثمان: بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله وإني لفي جوار من هو أعزّ منك وأقدر يا أبا عبد شمس، فدعاه الوليد إلى الرجوع إلى جواره مرة أُخرى فأبى(٢). ولهذا قلنا لم يكن الإيذاء كل شيء في الهجرة بل كان بجانبه مقاصد أُخرى منها التجربة العملية لنشر الدعوة في

---

(١) هذا الوصف نفسه وفاء وكرم واعتراف بالجميل من عثمان رضي الله عنه إلى الوليد. فما منعه إيمانه أن يعترف بمعروف لمن أسداه إليه ولو كان مشركاً. ومنعه إيمانه أن يغبط إنساناً حقه وإن كان على غير دينه لأن عدالة الإسلام فوق اختلاف الأديان. وقد سبق لنا وصف النبي ﷺ للنجاشي بأنه ملك لا يظلم أحد عنده وأن أرضه أرض صدق. مما يوجّهنا إلى أن نعرف المعروف لأهله وألا نغبط الناس حقّهم وإن اختلفوا معنا في الدين، فضلاً عن المخالفة في الرأي. (حاشية في الأصل).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ١/ ٣٧٠). وإسناده ضعيف لأن فيه رجل مجهول.

موطن جديد ولدى أُمة جديدة، ومنها مناورة قريش بملك يعرفون مكانته، يدلّ على هذه المناورة أن قريشاً ما لبثت أن أرسلت وفداً بهدايا إلى النجاشي ليردّهم عليهم ولا يدعهم يستقرون عنده. فلما لم يفلحوا في ذلك عمدوا إلى الحصار والصحيفة الظالمة وكأنه ردّ فعل انتقامي على ذاك المتنفَّس الجديد للمسلمين خارج مكة. كل ذلك كان ضمن محاولاتهم في مقابل وصول المسلمين إلى الحبشة وإعلانهم عن الإسلام في بلاط الملك هناك. ولندع المسلمين في ظل الملك العادل في الحبشة لنعود إلى خبر الصحيفة الظالمة، إلى مكة حيث تآخى المشركون على محاصرة بني هاشم في الشعب تضييقاً عليهم ليسلموا محمداً ﷺ أو ينصرفوا عنه. أو يمكّنهم الحصار من تراجع محمد ﷺ عن دعوته. وكتبوا صحيفة وعلقوها في الكعبة[1]. ولكن الله سلّم وردّ كيدهم في نحورهم.

ولن نستطيع مواصلة السير مع الأحداث من مكة إلى الحبشة فلنمض بسرعة إلى بلاط الملك لنشهد تلك التجربة الحاسمة، والمشهد الرهيب. فنجد هناك قوى الشر والخير يتقابلان وجهاً لوجه ويصطرعان أمام الملك ليحكم بينهم. جاءت قوى الشر ماثلة في وفد قريش لاسترجاع المهاجرين ليردّوهم إلى الوثنية. وقوى الحق ماثلة في جعفر وصحبه المهاجرين، فتقدّم وفد قريش إلى الملك قائلين له: أيّها الملك إن فتية منّا سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه. ولقد لجؤوا إلى بلادك وقد بعثنا إليك فيهم عشائرهم لتردّهم عليهم، فغضب الملك لجواره وقال: لا لعمر الله لا أردّهم حتى أعلم ما هم عليه، قوم لجؤوا إلى بلادي واختاروا جواري على

(١) ذكر الصحيفة ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ١/ ٣٥٠). بدون إسناد.
وأخرج البخاري (١٥٩٠) من حديث أبي هريرة قال: قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بمنى: **«نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة، حيث تقاسموا على الكفر»**، وذلك أن قريشاً وبني كنانة تحالفت على بني هاشم وبني المطلب: أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يُسْلِموا إليهم النبي ﷺ.
قال ابن حجر في فتح الباري (٧/ ١٩٣): ولما لم يثبت عند الإمام البخاري شيء من هذه القصة اكتفى بإيراد حديث أبي هريرة، لأن فيه دلالة على أصل القصة، لأن الذي أورده أهل المغازي في ذلك كالشرح لقوله في الحديث: **«تقاسموا على الكفر»**.

جوار غيري. فبعث إليهم ليسمع منهم، وهنا نستمع إلى جعفر ﵁ حيث تولى الموقف فقال للمهاجرين: لا يتكلم منكم أحد، أنا خطيبكم اليوم. فانتهينا إلى النجاشي، وهو جالس في مجلسه وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقسيسون حوله جلوس. وقد قال له عمرو محرِّضاً: إنهم لن يسجدوا إليك، فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين والرّهبان: اسجدوا للملك، فقال جعفر: لا نسجد إلا لله ﷻ، فلما انتهينا إلى النجاشي قال: ما منعك أن تسجد؟ قال له: لا نسجد إلا لله، فقال له النجاشي: وما ذاك؟ قال: إن الله بعث فينا رسولاً. وهو الرسول الذي بشّر به عيسى ابن مريم عليه السلام من بعده، اسمه أحمد. فأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، ونقيم الصلاة، ونؤتي الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهانا عن المنكر، فأعجب النجاشي قوله.

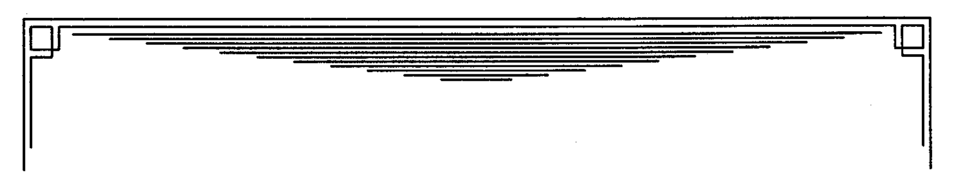
فلما رأى ذلك عمرو بن العاص قال: أصلح الله الملك إنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم، فقال النجاشي لجعفر: ما يقول صاحبكم في ابن مريم؟ قال: يقول فيه قول الله هو روح الله وكلمته، أخرجه من العذراء البتول التي لم يقربْها بشر ولم يفرضها ولد. وهنا انتهت جولة الباطل، وابتدأت صولة الحق ـ ماثلان في الجانبين عمرو وصحبه، وجعفر وقومه ـ ثم يأتي الحكم من الملك العادل. فتناول النجاشي عوداً من الأرض فرفعه وقال: يا معشر القسيسين والرّهبان ما يزيد هؤلاء على ما نقول في ابن مريم ولا وزن هذه. ثم رحّب بوفد الحق وناصرهم قائلاً: مرحباً بكم وبمَن جئتم من عنده، ثم يتوّج هذا المجلس ويُجمِل هذا المشهد بإعلانه الشهادة قائلاً: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله وأنه الذي بشّر به عيسى. ثم نراه يعقد مقارنة بين ما هو فيه من المُلْك وما عليه أصحاب الرسول من جواره وصحبته فيقول: ولولا ما أنا فيه من المُلْك لأتيته حتى أُقبّل نعليه. ثم أقبل على المهاجرين قائلاً: امكثوا في أرضي ما شئتم. وأمر لهم بطعام وكساء وانقلب إلى وفد قريش وقال للقسيسين: ردّوا على هذين هداياهما[1].

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٣١٩٠): إسناده جيد.

نخرج من هذه التجربة القاسية والصراع العنيف بتلك النتيجة العظمى.

وفد يدلّ بالصداقة والهدايا، ويستثير الملك وحاشيته ووفد لاجئ لا جاه له في الغربة، ولا مال يقدّمه قربة. ولكن الحق أنطقهم، وربط الله على قلوبهم، إذ قاموا فلم يتهيبوا سلطان الملك، ولم تُثْنِهم غربتهم. وكان سلطان الدين على قلوبهم أقوى، واستيناسهم بالله أعظم. فجاء الحق وزهق الباطل وطُرد وفده، ورُدَّت هداياه. وأُكرم وفد الحق وعظمت رفادته. وانقلب الملك الذي استُثيرت حميته حامياً للدين وداعياً إليه. مما أعزّ الإسلام وثبّت المسلمين، وتواطأ الدينان المسيحي والإسلامي على بعثة محمد ﷺ.





النجاشي يدعو إلى الإسلام

ثم نجد النجاشي بعد ذلك يدعو إلى الإسلام فبعد منصرف قريش من غزوة الخندق، لحق عمرو بن العاص ونفر معه بالنجاشي ليكونوا في جواره، لما رأوا ارتفاع شأن الرسول ﷺ حتى ينتهي ما بين المشركين والمسلمين، فإن كانت النتيجة للمسلمين، فهم في جوار ملك يعرفهم، وإن كانت لقومهم رجعوا إليهم. وصحبوا معهم هدايا. قال عمرو: فوالله إنّا لعنده إذا جاءه عمرو بن أمية الضميري وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه، قال: فدخل عليه ثم خرج من عنده. فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أُمية لو قد دخلت على النجاشي فسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه فإذا فعلت ذلك رأت قريش أنني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد. قال: فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أفعل. فقال: مرحباً بصديقي، هل أهديت لي من بلادك شيئاً؟ قال: قلت: نعم. وقدّم إليه ما أعجبه، ثم سأله أن يعطيه الرجل ليقتله، قال: فغضب، ثم مدّ يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره فلو انشقت الأرض لدخلت فيها فرقاً ثم قلت: أيّها الملك والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه. قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى فتقتله. قال: قلت: أيّها الملك أكذلك هو؟ فقال: ويحك يا عمرو أطعني واتبعه والله إنه على الحق وليظهرنّ على ما خالفه كما ظهر موسى بن عمران على فرعون وجنوده. قال: قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم. فبسط يده فبايعته على الإسلام ثم خرجت على أصحابي وكتمتهم إسلامي ثم خرجت عامداً إلى رسول الله ﷺ فلقيت خالد بن الوليد. وكان من أمرهما أنهما قَدِما إلى المدينة وبايعا رسول الله ﷺ على الإسلام[1].

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ٣/ ٢٧٦ ـ ٢٧٨)، ومن طريقه أحمد (٤/ ١٩٨ ـ ١٩٩)، وقال الألباني في إرواء الغليل (٤/ ١٢٢ ـ ١٢٣): إسناده حسن أو قريب منه.

فيذهب عمرو إلى النجاشي مشركاً ملتبساً عليه أمره، ويرجع مؤمناً قد اتّضح إليه الحق على يد النجاشي ويأخذ في طريقه خالد بن الوليد فيبايعان على الإسلام. ثم قَدِمَ وفد من الحبشة على رسول الله ﷺ وأعلنوا إسلامهم.

وبناء على ما تقدّم لم تكن الهجرة إلى الحبشة ارتياد موطن للدعوة فحسب، بل كانت لاكتساب دُعاة، ومنطلق لها. ثم توالى الإسلام وعاد المهاجرون بعد السابعة من الهجرة، أي بعد دخولها، وقد أمضوا ما يقرب من اثني عشر عاماً. عادوا في حفاوة بالغة، وبصحبة ابن أخي الملك، ليقرئ الرسول ﷺ عنه السلام، ويسأله له الدعاء. فقام ﷺ على خدمتهم بنفسه إكراماً لوفد النجاشي[1]، ودعا له، وأصحابه يؤمّنون عليه طلباً في مكافأته بالحسنى، ولما توفي النجاشي في سنة تسع من الهجرة نعاه ﷺ لأصحابه وصلى عليه[2].

هذه كانت الهجرة الأولى في الجنوب الغربي إلى الحبشة وملكها العادل. وقد شهدنا معالم تملأ القلوب إيماناً، وتهزّ النفوس إجلالاً. أما ما يملأ القلوب إيماناً فإعلان الملك إسلامه، وشهادته أن محمداً رسول الله، وأنه الذي بشّر به عيسى؛ وأن يقع هذا الإعلان في موقف التحدّي من قريش.

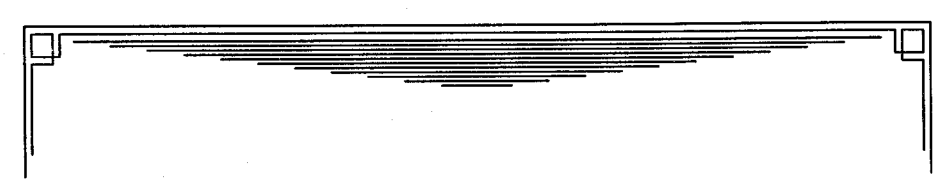
وأما ما يهزّ النفوس إجلالاً فتلك الصورة التي ارتسمت في آمال الملك، والأُمنية التي استشرف لها. نراها صورة واضحة تتمثل في رؤية التاج الحبشي يطأطئ على رأس النجاشي يقبّل نعليّ رسول الله ﷺ. فكانت التجربة ناجحة والنتائج مرضية[3] وكانت طليعة الهجرة ومقدمة للهجرة الثانية إلى المدينة المنورة.

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٠٧)، وفي إسناده العلاء بن هلال الباهلي؛ قال أبو حاتم: منكر الحديث، ضعيف الحديث. وقال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به بحال. انظر: تهذيب الكمال (٥١٧٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٣١٨).

(٣) في الوقت الذي أذِنَ فيه الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة، لم يخلد في بيته ولا بلده، ولم يركن إلى الدَّعة، بل خرج بنفسه هو أيضاً إلى الطائف يعرض دعوته على ثقيف علّه يجد منفذاً قريباً وموطناً فسيحاً تشرق فيه شمس الإسلام دون ما سُحُب أو قتام والقصة معروفة فصّلتها كتب السيرة. وأعقبها حادثة الإسراء. (حاشية في الأصل).



الهجرة إلى المدينة

اختيار المدينة. وهل كانت الهجرة إلى المدينة محض صدفة؟ وهل كان مجيء الأوس والخزرج عادياً كأفراد الحجيج؟ لا نبعد إن قلنا: لا في الموضعين، ولا نغرب إن قلنا: إن اختيار المدينة المنورة مهاجر الرسول ﷺ أمر ماضٍ من قبل، وقضاء سابق. وقد نصّت كتب السيرة أن تُبَّعاً لما مرّ بالمدينة ـ وكان بينه وبين أهلها ما كان من حروب ـ أراد إفناءهم، فخرج له حَبْران من اليهود وكلّماه في شأنها وأفهماه أنه لن يتمكن من ذلك، لأنها مهاجر آخر نبي سيخرج من أرض الحرم من قريش. فصدّقهما وأوصياه بها خيراً، فابتنى بها بيتاً يكون سكناه إذا أتى إليها، ويقال: إنه البيت الذي كان به أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه فيما بعد. وكذلك سلمان الفارسي لما قَدِمَ من بلاده ينتظر هجرة النبي ﷺ. لقد جاء إلى المدينة المنورة قبل وصول النبي ﷺ إليها. وقد أخبر ﷺ أنه رأى دار الهجرة: أنها أرض سبخة بين ظهراني حرّة، فإما أن تكون هجر وإما أن تكون يثرب[١]، وفي رواية: «أُوحي إليّ أي هؤلاء الثلاث نزلتَ فهي دار هجرتك: المدينة أو البحرين أو قنسرين»[٢]. ورواية البخاري: «رأيت في المنام أني أُهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر فإذا هي المدينة يثرب»[٣].

وقَدِمَ عليه الطفيل بن عمرو الدوسي وهو بمكة ورأى ما هو عليه وأصحابه.

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٤٠٠)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٢٧٤٩)، وأخرجه البخاري (٣٩٠٥)، وأحمد (٦/ ١٩٨) بلفظ: «رأيت دار هجرتكم، أريت سبخة ذات نخل بين لابتين، وهما حرّتان» واللفظ لأحمد.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٩٢٣) وقال: هذا حديث غريب. وقال الألباني في ضعيف الجامع (١٥٧٣): موضوع.

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٢٢)، ومسلم (٢٢٧٢).

فقال: يا رسول الله هل لك في حصن حصين ومنعة؟ وكان حصن لدوس في الجاهلية فأبى ذلك رسول الله ﷺ. لما أعدّه الله من إكرام الأنصار بالمدينة[١].

أما لماذا كانت المدينة دار الهجرة؟ فهذا يُجاب عليه مع سؤال أعمّ: لماذا انتقلت الرسالة من أرض النبوّات بالشام إلى قلب الجزيرة؟ وهذا باب واسع.

لقد كانت لهجرة النبي ﷺ بوادر ومقدمات عديدة يطول شرحها، يشقّ حصرها. وكبريات معالمها موسم الحج عند العقبة. فلم يزل الحج مجمع الأُمم، وملتقى الأفراد، ومعرِض الآراء، وكان النبي ﷺ يعرض نفسه على القبائل، فساق الله نفراً من الأوس والخزرج، فعرض ﷺ عليهم بنفسه وكلّمهم عن الإسلام، فعرفوا أنه النبي الذي تحدّثهم عنه يهود، فسبقوهم إليه ووعدوه أنهم يدعون قومهم إليه[٢].

ومن العام الثاني قَدِمَ اثنا عشر رجلاً منهم، وبايعوا رسول الله ﷺ عند العقبة على التوحيد، وترك الموبقات. ولذا سمِّيت بيعة النساء لعدم ذكر القتال فيها[٣]. ورجعوا إلى بلادهم ومعهم مصعب بن عمير، يقرئهم القرآن، ويفقههم في الدين. فأُقيمت الصلوات. وصلِّيت أول جمعة في المدينة[٤]، ولم يبق بيت إلا واستضاء بنور الإسلام.

أعمال مصعب بالمدينة

لم يكن مصعب مجرد مقرئ وفقيه للتعليم والفتوى فحسب. بل كان داعياً إلى الله، مجدّاً في الدعوة، يخرج إلى الناس في ديارهم، ويأتي إليهم على مياههم. فيعرض عليهم الإسلام، وقد فتح الله على يديه الكثير من قلوب الناس، وقد خرج يوماً مع أسعد بن زرارة إلى دار بني عبد الأشهل ودار بني

---

(١) أخرجه مسلم (١١٦).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٢٨)، وحسّن إسناده الألباني في فقه السيرة (ص١٥٤).

(٣) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٣٣)، وإسناده صحيح.

(٤) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٣٥)، ومن طريقه أبو داود (١٠٦٩)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٩٨٠).

ظفر وهناك أسيد بن حضير وسعد بن معاذ سيِّدا قومهما فقال سعد لأُسيد: اذهب إليهما فازجرهما عن أن يأتيا دارينا فيسفِّها ضعفاءنا. فلما أقبل أُسيد بن حضير قال صاحب مصعب إليه: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه، فوقف عليهما متشتماً وتهددهما في أنفسهما، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهت كفّ عنك ما تكره. فقال: أنصفت. ثم ركّز حِربته وجلس إليهما، فكلّمه مصعب وقرأ عليه القرآن، فعرفا في وجهه الإسلام، ولم يقم إلا متشهداً شهادة الحق، مصلياً ركعتين. ثم ودّعهما قائلاً: إن ورائي رجلاً لو اتبعكما لم يتخلّف عنكم أحد من قومه، ثم ذهب إلى سعد بن معاذ وقومه في ناديهم فلما رآه سعد قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم. ثم سأله ماذا فعل بهما؟ قال: تهددتُهما. وقال: نفعل ما أحببت، وكلّمه حديثاً آخر أحفزه على القيام فأخذ هو أيضاً حربته وقام إليهما ووقف عليهما متشتماً، وقال له مصعب: أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته. وإن كرهت عزلنا عنك ما تكره، قال سعد: أنصفت. ثم ركّز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن. فما قام من عندهما إلا معلناً شهادة الحق ومصطحباً معه واحداً منهما إلى نادي قومه فقال لهم: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا.. إلخ. قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنون بالله ورسوله. قال: فوالله ما أمسى في دار عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة. ولم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون[1]، فكان في بيعة العقبة الأولى بوادر نصر، وفي إرسال مصعب مبادئ فتح.

وكان نتيجة هذا أن ذهب في العام الثاني نيّف وسبعون شخصاً. تواعدوا مع رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق ليلاً فتسللوا إلى العقبة تسلّل القطا وجاءهم رسول الله ﷺ ومعه عمّه العباس، وهو يومئذ على دين قومه. فتبادل الحديث بين الطرفين وتمّت البيعة على الدفاع والمنعة إن هو جاء إليهم وقد استوثق العباس لرسول الله واستوثق البراء للأنصار. فقال البراء: يا رسول الله

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٣٥ ـ ٤٣٧)، مرسلاً.

إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإننا لقاطِعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك؟ فتبسّم رسول الله ﷺ، ثم قال: «**بل الدم الدم والهدم الهدم. أنا منكم وأنتم منّي، أُحارب من حاربتم، وأُسالم مَن سالمتم**»[١]. ثم نظم منهم اثني عشر نقيباً وقال لهم: ارفضوا إلى رحالكم فقال له العباس بن عبادة: والله الذي بعثك الحق إن شئت لنميلنّ على أهل منى غداً بأسيافنا. فقال رسول الله ﷺ: لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم. فرجعوا فناموا عليها حتى أصبحوا. وقد نمي إلى أهل مكة خبر هذه البيعة ولكنهم لم يدركوا شيئاً[٢].

ولئن وجدنا في الحج ـ على طول الزمن ـ متنفساً للأُمم، ونافذة لكل فكرة مكبوتة، أو حرية مسلوبة تطلّ منها على العالم. وتستنشق منها عبير الحرية ـ ولا يزال الحج كذلك حتى يومنا هذا ـ لئن لمسنا هذا في بيعة العقبة، ومجيء الأوس والخزرج بسبب الحج. وإلا فما الذي يأتي بهم إلى مكة، فيجمعهم برسول الله ﷺ إن لم يكن مثل هذا الحج؟

ثم إننا قد رأينا قوة الإيمان في موقف جعفر أمام ملك الحبشة فهنا نجد عملاً إيجابياً من ثلاثة وسبعين رجلاً يشكِّلون قوة ضاربة بين يدي رسول الله ﷺ تطلب السماح لها أن تميل على أهل منى كلهم؛ إنه إن لم يكن قد تمّ بالفعل فقد كان عرضاً فائقاً أقرّ عين رسول الله ﷺ، وعبّر عن مدى صدقهم في الدفاع عنه، إن هو ذهب إليهم. وهذه آية كبرى ومعالم عظمى. قوة ضاربة تحت أُذنه قبل أن يغادر مكة أو يصل المدينة. وتساندها حكمة النبوّة وسياسة الدعوة: إنّا لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رِحالكم، فلم تُثِرْه نشوة النصر، ولم تدفعه حمية القوة، ولم ينسه ما هو فيه من لزوم امتثال الأمر. «لم نؤمر بذلك».

وينكشف الموقف عن قوة مندفعة، وحكمة موجّهة، وبالأولى: انتشر الإسلام في المدينة. وبالثانية حوفظ عليه في مكة. وبانتشار الإسلام في

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٤٠ ـ ٤٤٢)، وصححه الألباني في فقه السيرة (ص١٥٩).

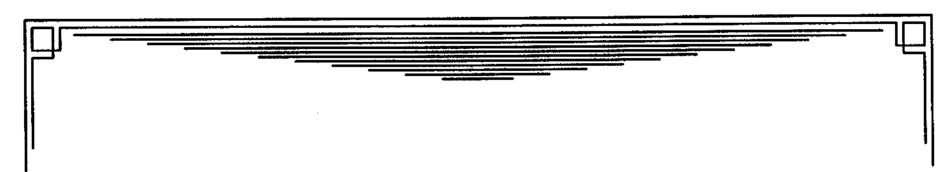
(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨)، وصححه الألباني في فقه السيرة (ص١٦٢).

المدينة تتابع المهاجرون من مكة إليها، وكان مع كل هجرة آية ومعالم إلى أن جاءت الهجرة المحمدية.

وهنا يأتي سؤال أيضاً هل كانت هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة خوفاً على أنفسهم أو توسعاً في معاشهم؟ وأعتقد أنه ليس هذا هو كل شيء بل كانت هجرة دينية لتأسيس دولة جديدة، وإيجاد مجتمع إسلامي أعظم وأقوى. أما الخوف على أنفسهم فهذا عمر خرج قبل الرسول ﷺ وجاءَ إلى قريش حول الكعبة، وأعلن هجرته وقال: مَن أراد أن تثكله أُمه فليَلْقني خلف ذاك الكثيب[١]. وأما ضائقة المال فقد تواعد عمر وهشام بن العاص وعيّاش بن أبي ربيعة بسرف، ولحق أبو جهل بعياش ليردّه من أجل أُمه، فلان معه وقال: إن لي مالاً فأرجع لأخذه، فقال له هشام بن العاص: إنما يريد القوم ليفتنوك أما مالك فقد علمت أني من أكثر قريش مالاً فلك نصف مالي ولا ترجع[٢]، وصهيب حين أراد الهجرة قال له كفّار قريش: أتيتنا صعلوكاً فكثر مالك عندنا وبلغت الذي بلغت فتريد أن تخرج بمالك ونفسك والله لا يكون ذلك. فقال: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فإني جعلت لكم مالي فاذهبوا فخذوه. فهل بذلك غنمت قريش أو خسر صهيب؟ لا. بل قال ﷺ فيما روي: **«ربح صهيب ربح صهيب»**[٣]. ومن هنا نرى أن محاربة المسلمين في أرزاقهم، أو التضييق عليهم، أو سلب أموالهم. أسلوب الجاهليين وسلاح العاجزين. ولن يوقف دعوة الحق، لأن مع هذا كله فقد استمرت هجرة المسلمين تاركين ديارهم وأموالهم، وقد عوّضهم الله تعالى عن ذلك ما أرضاهم واسترضاهم به في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠] صدق في القصد، وعظم في الأجر. ثم توّجت هجرة الأفراد بهجرة النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (ترجمة عمر بن الخطاب/ ص٤٥).
(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥) وإسناده صحيح.
(٣) أخرجه الحاكم (٣/٣٩٨) من حديث عكرمة مرسلاً، وصححه بشواهده الألباني في فقه السيرة (ص١٦٦).



الهجرة المحمدية

كان لاستقرار المسلمين بأرض الحبشة ردّ فعلٍ شديد على أهل مكة. شدّدوا الحصار على الرسول وصحبه، وكتبوا صحيفتهم الظالمة كما تقدّم. والآن أصبحت المدينة دار إسلام لا مقرّاً للمسلمين فحسب. فقد انتشر الإسلام فيها، وعلم أهل مكة بالبيعة الأخيرة، واشتد خوفهم أن يخرج إليهم محمد يقاتلهم بها. فاستطارت عقولهم، واجتمعوا في دار الندوة ليتشاوروا فيما بينهم، وقلدوا الشيطان أمرهم، وانتهوا بقرار شيطاني وهو: أن يقتل بأيدي شباب من قبائل عدّة، ليتفرّق دمه، فيقبل أهله الديّة. وحسبوا أن يتمّ مكرهم في خفاء. فأطلع الله نبيّه على ما بيّتوه بينهم، فأنزل عليه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠] وجاءه جبريل فقال له: لا تبتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه.

وفي ظلمة الليل جاؤوا لينفِّذوا ظلمهم. فاجتمعوا على بابه، يرصدون نومه. فقال رسول الله ﷺ لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: **«نم على فراشي، وتسجّى ببُردي هذا الحضرمي الأخضر. فإنه لن يصل إليك شيء تكره منهم»**[(١)].

إنها مقابلة أُخرى بين الحق والباطل، وصراع عنيف ليس بعده إلا الحياة أو الموت. والموقف الآن:

علي في بُرد رسول الله ﷺ مسجّى على فراشه، والرسول يخرج في ظلمة الليل تحت بريق السيوف وكأنها اللهب، فلم يُبالِ بها. ويقرأ قوله

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٨٠ ـ ٤٨٣)، وإسناده ضعيف لجهالة شيخ ابن إسحاق. ولكن صحَّ اتفاق الملأ من قريش على قتل النبي ﷺ عند أحمد (١/٣٠٣)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٢٤): إسناده جيد.

تـعـالـى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝﴾ [يس: ٩] فقد أعماهم الله. لا عنه فحسب. بل وعن التراب الذي وضعه على رؤوسهم عند خروجه، إذلالاً لهم. وهنا التساؤل: لِمَ ترك الرسول ﷺ علياً في الفراش وخرج بنفسه؟ هل افتدى نفسه بعليّ؟ وإلا: فَلِمَ لم يأخذه معه؟ هل جازف بنفسه بين السيوف؟ وإلا: لِمَ ترك علياً ولم يستنصره؟

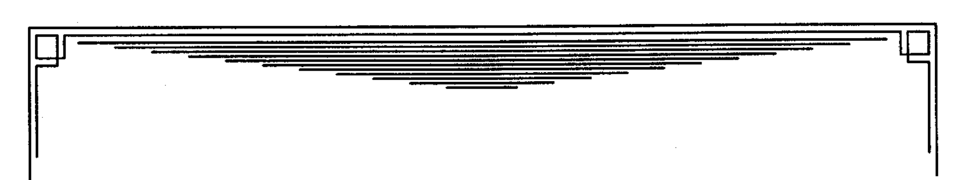
أما تركُ عليّ في فراش الرسول ﷺ: فنهاية تجارب سابقة، كان يُجريها أبو طالب في الشعب عند الحصار الظالم، حفاظاً على رسول الله ﷺ، خشية أن يصاب ليلاً بأذى. فكان يدعه ينام على فراشه في أول الليل، حتى يراه من يريد به سوءاً فإذا غفل الناس أيقظه، وذهب به خفية إلى فراش أحد أبنائه أو أبناء أخيه، وبادل بينهما في فراشهما.

وأما عدم أخذه معه: فهو ليس في حاجته، لأن الله أعمى عيون الرصد عنه، ولم يخش عليه، لأنه أخبره أنه لن يصل إليه منهم ما يكره. ولكن تَرْكه إياه جزء من الخطة المرسومة، وليشغل الرصد عن طلبه حتى الصباح، وإلى أن يصل إلى الغار.

وهي تضحية بالفعل، تضحية وأمانة ووفاء. تضحية من الرسول نفسه بابن عمّه، وفداء ـ لا لنفسه بل لذمّته وأمانته ـ ووفاء ـ لا لحقه بل لحق أعدائه. فقد خلفه ليردّ الأمانات التي عنده لأهل مكة، فما كان أحد بمكة عنده شيء يخاف عليه إلا استودعه عند رسول الله ﷺ وائتمنه عليه.

ففي الوقت الذي يدبّرون لخيانته والغدر به، يدبّر هو لردّ أماناتهم والوفاء بذمته، ليرسم للإنسانية طريق المُثُل العليا ـ ولو مع العدو أو في أحرج المواقف ـ وأن لؤم الأعداء لا يمسّ من فضل النبلاء. أما خروجه ﷺ تحت لمعان السيوف: فهي بداية تجربة مقبلة ستجري أحداثها أمام الغار.





الذهاب إلى الغار

خرج النبي ﷺ من بيته إلى غار ثور بعد وضع الخطة مسبقاً مع أبي بكر رضي الله عنه في مخطط يطول شرحه، وتكثر عِبَره. تشترك في بطولاته أسماء بنت الصدّيق ذات النِطاقين رضي الله عنهما. خطة ترسم الطريق للآخرين، وتمهد السبيل للدّاعين، في حدود الطاقة الإنسانية، ليمكن فيها التأسّي والاقتداء. تجلّت فيها العناية الإلّهية. وقبل مواصلتنا السير من مكة إلى الغار مسافة سبعة كيلو متراً تقريباً يستوقفنا الموقف الراهن، والملابسات الحالية، فتثير الأسئلة الآتية:

١ ـ إن كلّ مَن هاجر سواء إلى الحبشة أو إلى المدينة ما عدا رسول الله ﷺ كانت هجرته شخصية، وإن كانت في هجرته دعوة وتبليغ. أما هجرته هو ﷺ فإنما هي هجرة دين ودعوة، فليست هجرته كغيره كما قال الصدّيق له: إن أهلك أهلك وحدي وإن تصب أنت تصب الدعوة إلى الله كلها.

بين الهجرة والإسراء

فكانت هذه الهجرة ـ كما أسلفنا ـ نقطة تحوّل، ومبدأ تاريخ جديد، وانطلاقة أُمة. فلِمَ كان طريقها شائكاً؟ تحت ظلال السيوف، وفي وحشة الغار، وتحت إرهاب الطلب. تحفّها وعثاء السفر على الرواحل وسط الصحراء. بدلالة مشرك في طريق غير مأهول. بينما في العام السابق أو نحوه، كانت هناك هجرة أخرى، أطول مدى، وأبعد كنهاً، وأكثر استطلاعاً، وكانت أسرع زمناً وأقلّ مؤونة، بعيدة عن المخاوف، مجانبة الأخطار. رحلة امتدت من مكة إلى أرض النبوّات بيت المقدس. واتصلت إلى السماء رأى فيها من آيات ربه الكبرى. فجيء إليه بالبُراق، يضع رجله حيث ينتهي طرفه. وكان رفيقه ودليله جبريل عليه السلام. فبالأمس رحلة شخصية يأتيه فيها البُراق. واليوم رحلة دعوة وتثبيت دين يرحل فيها على بعيره.

وبالأمس دليله جبريل، واليوم عبد الله بن أُريقط وهو على دين قومه..!

بالأمس يخرج من بيته إلى بيت المقدس والرسل في استقباله. واليوم يخرج من بيته إلى الغار، والطلب من خلفه. بالأمس يؤمّ الأنبياء في قبلتهم، واليوم يصلّي وحده في الغار!

بالأمس رفيقه جبريل، يبيّن له أحوال الملأ الأعلى، ويشرح له ما يشاهده في السماء. واليوم يطمئن روع صاحبه: **«لا تحزن إن الله معنا»**. فهل كانت الرحلة الأولى أعظم خطراً أو هو في الثانية أقل شأناً؟ حاشا وكلا. ولكنه النمو في الدعوة، والكمال في الداعي، والتعليم السماوي، وتكريم الله لنبيِّه، وإهانته لعدوّه. لقد كانت الأولى رحلة بمثابة دعوة لزيارة عالم السماء تكريماً لأهل الأرض في شخصية خاتم النبيين ﷺ كما أنها بمثابة اطّلاع على أسرار هذا الكون، ونتائج تلك الأديان، وعامل ربط بين بني العلّات من الأنبياء في لقاء شخصي كأنه استطلاع عن الماضي بما كان من أُممهم معهم كما قال له موسى عليه السلام: لقد بلوت الناس قبلك فلم يطيقوا أقل ما كلّفت أنت به. ارجع إلى ربك فسَلْه التخفيف. واستطلاع للمستقبل بما رآه ﷺ من الجنة وأهلها والنار وأهلها وما سيؤول إليه كل فريق. فلهذا كانت تكريماً وتبجيلاً. فجاءه البُراق. ورافقه جبريل عليه السلام، والتقى بالأنبياء، واطّلع على الملأ الأعلى إلى سدرة المنتهى، وكان قاب قوسين أو أدنى، وأوحى الله إليه ما أوحى(١).

أما هذه الرحلة الثانية فهي ـ وإن كانت بأمر وإذن من الله ـ فهي في معرض التحدّي، كما يمليه الموقف ذو الطرفين. الطرف الأول: القوى المعادية، وقد تجمعت من قبائل شتى ماثلة في الشباب القائم على باب الدار بسيوفهم، والحقد الكامن في قلوبهم، والعداء المستحكم في نفوسهم، لا لشخصية محمد بن عبد الله، فهو الأمين لديهم، المستأمن على ودائعهم، والمرضي في محاكماتهم. ولكن لكيان الرسالة التي جاء بها، والدعوة التي يدعوهم إليها. والحال: إنه ﷺ لا يملك ردّ ما جاء، لأنه ليس باختياره، فالله هو الذي اصطفاه، والله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس. وليس مخيّراً في دعوتهم

---

(١) انظر تخريج هذه الأحاديث في: رسالة (الإسراء والمعراج في الكتاب والسنة).

فلا يستطيع تركها فالله هو الذي كلّفه بذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر: ١ ـ ٢]، ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤]. وعليه فالتحدّي موجّه للدعوة في شخصية مَن يدعو إليها.

فكان المقام هنا مقابلة التحدّي بتحدٍّ مثله، وإبطال كيدهم على مرأى منهم، وإظهار عجزهم وتراجعهم لا أمام جبريل يصونه، ولا ملك الجبال يهددهم، ولا بُراق يفوتهم إدراكه، ولا بخوارق عادات يعجزون عنها. ولكن بعوامل طبيعية يشهدها غار ثور. فإلى الغار.

في الطريق إلى الغار

خرج الرسول ﷺ ومعه الصدّيق رضي الله عنه. وفي الطريق إليه تظهر مكانة الصدّيق وآثار صدقه. فجعل يمشي ساعة أمام الرسول ﷺ وساعة خلفه. حتى فطن الرسول ﷺ فسأله. فقال: يا رسول الله أذكر الطلب، فأمشي خلفك، وأذكر الرصد، فأمشي أمامك. فقال: «**يا أبا بكر لو كان شيء لأحببت أن يكون بك دوني**»؟ قال: نعم والذي بعثك بالحق[1].

وقد واصلا السير ليلاً إلى سفح الجبل، وأين الغار من السفح؟ إنه مرتفع دون القمة لا بدّ من الصعود إليه نحو ساعة من الزمن تزيد أو تنقص.

وصف الغار

وعند الوصول إليه لا بدّ من الاحتباء، ليمكن الدخول إليه لعدم ارتفاع مدخله، وإن كان في الداخل يتّسع لنحو عشرة رجال، يجلس بعضهم بجوار بعض. يقع داخله على صورة مدرج إلى أعلى ـ أي إلى جوف الجبل ـ بحيث إن القائم على فم الغار لا يكاد يرى شيئاً من داخله، ومن أراد ذلك فعليه أن يلصق خدّه بالتراب، كي يطّلع على مَن بداخله. إنه غار مظلم، ولا يدخل إليه إلا حبواً، وداخله مدرج إلى أعلى ليس مسطح الأرض من داخل، مما يزيده وحشةً وضيقاً.

(١) جمع المحقق مشهور سلمان طرق هذه القصة في كتابه (قصص لا تثبت /١٩/٨ ـ ٤٦) وبيّن عللها وضعّفها.

وهنا في ظلمة الليل وسكونه، وصمت الكون حولهما، والمخاوف تنتابهما، وليس أمامهما إلا غار يلجآن إليه. لا يعلمان ما بداخله من هوام الليل وآفات الجبال. هنا يقول الصدّيق للرسول ﷺ: دونك يا رسول الله، حتى أستبرئ لك الغار، فدخل فاستبرأ ثم قال: انزل يا رسول الله، فنزل[١].

نزل الرسول وصاحبه، واستسلما لله وأسلما نفسيهما لغار ضيق، في ليل مظلم، لا يعلمان ما سيتنفس عنه الصباح. فيا لها من ليلة ليلاء، ويا له من مبيت طويل، ويا لهما من نازلين كريمين. . . !

يقول عمر في ليالي أبي بكر بالغار: لَلَيلة من ليالي الصدّيق بغار ثور تعدل آل الخطاب كلهم. وفيها يقول الصدّيق:

قال النبي: ولم أحرج يوقرني ... ونحن في صدف من ظلمة الغار
لا تخشَ شيئاً فإن الله ثالثنا ... وقد توكل لي منه بإظهار

أما المبيت: فبات ﷺ يصلي. أما النازلان: فالرسول والصدّيق تحفّهما عناية الله، وتكلؤهما رعايته. وكان من الممكن أن يعمى الطريق على قريش، وكان من الممكن أن يصرفوا عنه، ولكن جيء بهم إليه. إلى فم الغار لِيُردّوا صاغرين، وتتم حلقة التحدّي، وينتهي أمدّ الطغيان.

لقد جاء أولئك إلى الغار بعددهم، والحقد يملأ قلوبهم في طلب اثنين أعزلين. فوقف الطلب بفم الغار، وهو مفتوح أمام أعينهم، ومَن فيه بمتناول أيديهم.

وهنا مرة أخرى يلتقي الحق والباطل في أضيق المواطن وأحرج المواقف. لم يجعل لمَن بالغار اختيار من أمره، فالغار مُمسك عليهم، ولا منفذ إلا من مدخله، وعلى المدخل يقف الرصد بقلوب حانقة، ودماء ثائرة، وسيوف مشرّعة. موقف يدكّ الجبال، ويزلزل الأبطال، ويجسم الأهوال، ويثير الرعب والمخاوف. حرّك مخاوف الصدّيق بقوله: والله يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدمه لأبصرنا، فينطلق الإيمان في ثبات ويقين من الرسول ﷺ، يبدّد وحشة الموقف، ويُذهِب رهبة الغار، ويضيء ظلامه،

---

(١) انظر التعليق السابق.

فيملؤه ائتناساً بقوله: «ما بالك باثنين، الله ثالثهما؟»[١] ولعلّ من سؤال أو تساؤل هنا: لِمَ لم تسقط صخرة على فم الغار فتسدّه أمام أعينهم؟ ثم يرفعها الله عنهم، كما وقعت على فم غار الثلاثة من بني إسرائيل، ثم كشفها الله عنهم[٢]. ولِمَ لم يجعل بينه وبينهم حجاباً مستوراً؟ كما جعل عند خروجه من بيته ويوم مجيء زوجة أبي لهب[٣]. ولا شيء من ذلك حدث، وترك مفتوحاً أمام أعينهم زيادة في التحدي لهم. ولم يروا أسداً على فم الغار يروعهم كما رأى أبو جهل فحل الإبل خلف رسول الله ﷺ حين جاء يأمره بردّ الدين لصاحبه، فبادر بردّه خشية مما رأى[٤]. لم يكن شيء من ذلك أيضاً!

ولكن نسج العنكبوت ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١]، وبيض حمام مهيض[٥]، لو لامس بعضه بعضاً لتكسر. فرُدّوا أمام نسج العنكبوت لا نسج الدروع، وأمام بيض الحمام لا بيض التروس. ليكون انهزام المشركين فضيحة لهم، وتظهر عناية الله وحمايته لمن صدق في دعوته.

ولِمَ اختير العنكبوت لينسج والحمام ليبيض؟ بل ونَبْت ليتدلى؟ لعلّ الله جعل العنكبوت الواهي ازدراء لهم، كما جعل الحمام رمز السلام والخير،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

(٣) أخرجه ابن حبان (٢١٠٣ ـ موارد)، وقال الألباني في صحيح موارد الظمآن (١٧٦٢): حسن لغيره.

(٤) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ١/ ٣٨٩ ـ ٣٩٠) فقال: حدثني عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان الثقفي . . . فذكره. وعبد الملك ترجم له البخاري في التاريخ الكبير (٥/ ٤٢١)، وابن حبان في الثقات (٥/ ١١٦) ولم يذكرا فيه جرحاً أو تعديلاً؛ فهو مجهول، والحديث مرسل ضعيف.

(٥) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٢٢٨)، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (١١٢٨): منكر. وأخرجه أحمد (١/ ٣٤٨)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٣/ ٢٦١)، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (٣/ ٣٣٩): واعلم أنه لا يصح حديث في عنكبوت الغار والحمامتين على كثرة ما يُذكر ذلك في بعض الكتب والمحاضرات التي تلقى بمناسبة هجرته ﷺ إلى المدينة، فكن من ذلك على علم.

وأن الإسلام الذي يطاردونه إنما هو دين سلام وأمن. وفي البيض رمز الفطرة، خارجها بياض وبساطة، تمثّل فطرة الإسلام وسماحته وفي داخله حيوية تنمو وتخرج إلى الوجود وخير يحلّق في جو السماء، ينتشر الإسلام ما انتشر الهواء، ويحلّق أبناءه تحليق الطيور. وكأن النبات رمز الغرس والنماء والزيادة. وبعد ليالٍ ثلاث، ولعلّها مدّة الضيافة، وبعد انقطاع الطلب، يخرج الركب بعناية الله، وقد انتهت المعركة، وانتصر الرسول ﷺ، ولم يكتفِ في تحدّيه المشركين في عقر دارهم، بل استخدم واحداً منهم دليلاً له في سفره، فما كانت دلالة ابن أُريقط عن حاجة كما كانت جزءاً من انتصاره ﷺ على قومه في خروجه من بين أظهرهم، وكما كانت دليلاً عملياً على جواز استخدام الإسلام لكل ما يساعد على نصرته، ما لم يتعارض مع أهدافه وغاياته.

وفي الطريق إلى المدينة وسط أمواج السراب المتوهج وتحت جنح الظلام المطبق. تقوم الآيات، وتنصب المعالم. أولها حين لحق بهم سُراقة، وذلك أنه سمع في مجلس بني مدلج رجلاً يقول: لقد رأيت أسودة بالساحل أراهم محمداً وأصحابه. قال سُراقة: فعرفت أنهم هم فقلت: لا. ليسوا بهم ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً، انطلقوا بأعيننا. ثم لبث في المجلس ساعةً ثم انطلق إلى بيته، وخرج بفرسه خفية من قومه، ليلحق بهم. فقد صرف القوم عنهم ليحظى هو بالجُعْل من ديتهما ـ فلحق بهما ولكن لا ليرجع بهما، ولا لينال الإبل والمال. بل ليشاهد الآيات والمعالم. فعثرت به فرسه وأسقطته، واستقسم أزلامه فامتنعت عليه، وخرج السهم الذي يكره. ولكن مضى طمعاً في المال، فساخت قوائم فرسه في الأرض، وعلم أنه سيُظهر الله أمر دينه. فناداهما بالأمان وأخبرهما بما يريد الناس منهما وعرض عليهما الزاد والمتاع. فأبيا وقالا له: أخفِ عنّا[1]. وفي ذلك الموقف يقول له الرسول ﷺ: «**كيف بك يا سُراقة إذا أنت لبست سواري كسرى؟**»[2] وفي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٠٦).

(٢) ذكره ابن حجر في الإصابة في تمييز الصحابة (٢/١٩) من طريق الحسن البصري مرسلاً. ومراسيل الحسن من أوهى المراسيل، فالحديث ضعيف.

ذلك الموقف يقول سُراقة لرسول الله: اكتبوا لي كتاب أمان، فيكتبون له على قطعة أديم(١).

وهنا نجد الجُعْل من قريش يطمع سُراقة وبطمعه أكذب الذي أخبر عنهم، وبعد لحاقه بهم صرفه الله عنهم، بل بعد أن كان طامعاً في المال، صار طالباً للسلامة. وبعد أن أمنهم جانبه. طلب كتاب أمان منهم.

وفي الوقت الذي يسير فيه رسول الله ﷺ وسط صحراء مقفرة ليس معه إلا صاحبه وخادم لهما خرج من وجه قومه فراراً منهم، ويشفق عليهما سُراقة ويعرِض عليهما زاداً ومتاعاً. إذا هو يعلن استباحة كنوز كسرى، بل ويَعِدُ سُراقة بلبس سوارَيه بعد أن يؤخذا في مغانم المسلمين. ويعود سُراقة بالكتابة والوعد فينقلب مدافعاً وكلما لقيه الطلب يصرفهم بقوله: كفيتم هذا الوجه فاطلبوه في غيره ويظل الرسول ﷺ ماضياً في سبيله على بركة الله.

في خيمة أم معبد

إلى أن وصل خيمة أُم معبد. وهي امرأة بزّة تقري الأضياف في الطريق نزلا عليها عند المساء. فسألها الصديق لحماً أو لبناً يشتري فاعتذرت إليه وقالت: يا عبد الله إنما أنا امرأة وليس معي أحد، فعليكما بعظيم الحيّ إن أردتم القِرى. فلم يُجِبْها. فجاء ابن لها بأعنز يسوقها فقالت لابنها: انطلق بهذه العنز والشفرة إلى هذين الرجلين فقل لهما: تقول لكما أُمي: اذبحا هذه وكُلا وأطعِمانا. فلما جاء قال له النبي ﷺ: «**انطلق بالشفرة وجئني بالقدح**». قال: إنها قد عزبت وليس بها لبن. قال: «**انطلق**»، فانطلق فجاء بالقدح. فمسح النبي ﷺ ضرعها ثم حلب حتى ملأ القدح وسقى العجوز وشرب الجميع وأبقى عندها من الحليب. ثم باتوا ليلتهم ثم مضوا على بركة الله.

وهنا أيضاً وسط خيمة بسيطة نجد وضع مبدأ عظيم في قوله ﷺ: «**انطلق بالشفرة وائتني بقدح**» فلم يرد ﷺ إراقة دم في هذا الطريق، ولو كان الدم دم شاة. واختار الحليب ليشعر أن هجرته ورسالته ليست تعطشاً للدماء،

(١) أخرجه البخاري (٣٩٠٦).

ولا سعياً وراءه. وإنما هي الفطرة السمحة والسلامة المنشودة، ولكأنها جزء من معالم ليلة الإسراء المسبقة حيث اختار اللبن على غيره. فأخبره جبريل أنه اختار الفطرة. وقد ساق الله رجلاً من الجن يعلن هذا المشهد لأهل مكة في أبيات يتغنى بها. يسمعون صوته، ولا يرون شخصه. بدأ من أسفل مكة حتى انتهى بأعلاها وهو يقول:

جزى الله ربّ الناس خير جزائه ... رفيقين حلّا خيمة أُم معبد
هما نزلا بالبرّ ثم تروحا ... فأفلح من أمسى رفيق محمد
فيآل قصيّ ما زوى الله عنكم ... به من فعال لا تجارى وسؤدد
سَلُوا أُختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت ... له بصريح ضرّة الشاة مزبد
فغادره رهناً لديها لحالب ... يدرّ لها في مصدر ثم مورد
ليهن بني كعب مكان فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد[١]

وتقول أسماء: ما كنّا نعلم أين وجهة الرسول ﷺ إلّا بعد أن سمعنا ذلك فعرفنا أنه اتجه إلى المدينة[٢]. والآن، والرّكب قد وافى على مشارف المدينة بعد سير خمسة عشر يوماً، تحفّه عناية الله ورعايته، ليحطّ بها عصا التسيار بعد أن طوّف عبر التاريخ وانتقل مدى الأجيال لتكون المدينة المنوّرة خاتمة المطاف ومنتهى المسير، وتصبح معقل الدعوة وموئل الدعاة.

وها هم الأنصار منذ أن سمعوا بتوجّه الرسول ﷺ إليهم يخرجون كل يوم لاستقباله فيصعدون المرتفعات: رؤوس النخيل وأسطحة البيوت. يستشرفون لمقدَمه ﷺ حتى تردّهم الشمس إلى بيوتهم، ثم هم يسمعون صوت يهودي يناديهم: هذا جدّكم قد أقبل[٣]. فلم يُسكته الرسول ولم يكذِّبه الأنصار. وإن كان يهودياً يعلن عن مقدَم رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٩ ـ ١٠)، وحسنه الألباني في فقه السيرة (ص١٧٧ ـ ١٧٨).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٨٧) فقال: فحُدِّثت عن أسماء بنت أبي بكر. . . فذكره. وهذا إسناد معضل؛ فالحديث ضعيف.

(٣) أخرجه البخاري (٣٩٠٦) من حديث عروة مرسلاً، وذكر ابن حجر في فتح الباري (٧/ ٣٠٨)، أن له طرق موصولة.

في الطريق إلى المدينة

وهنا نجد في نهاية الهجرة ما لم يكن متوقعاً، ومن غير المأمول. ولكنها الإرهاصات والبشائر ومعالم متجددة على طريق الهجرة. وذلك أنه كما كان قائد الركب الميمون إلى الغاية المأمولة رجلاً مشركاً. بينما المشركون في مكة جاعلون جُعلاً ـ مائة ناقة ـ لمن يأتي به إليهم، حيّاً أو ميّتاً، مخافة أن يفلت من أيديهم، ويؤلِّب الناس عليهم وهذا واحد منهم يقود الركب به صاحبه إلى مأمنه. فهل عدم في المسلمين من يعرف الطريق؟ وكلهم أهل أسفار وتجارة في رحلتي الشتاء والصيف!

ثم ها هو عند وصوله المدينة، وقدومه إلى قباء وكان وقت الظهيرة، وكان الأنصار يخرجون في انتظار وصوله يتطلعون لمطلعه عليهم كل يوم بعد الفجر حتى يردّهم وهج الظهيرة. فلم يكن منهم أحد ساعة وصوله. ولكن يهودياً كان على أطم له فأبصر به ﷺ وعرفه فنادى في الأنصار: يا بني قيلة هذا جدّكم. وقيلة أُمهم ينسبون إليها. وجدكم، يعني حظّكم الذي تسعون إليه كل يوم.

ففي بداية الهجرة؛ المشركون يطلبونه بمائة ناقة وواحد منهم هو الذي يقود ركبه ويدلّه على الطريق لينجو منهم.

وفي نهاية الهجرة لم يعلن عن مَقدَمه إلا يهودي. فنجد التسخير لكِلا الفريقين المعاديين ـ المشركين واليهود ـ فالمشركون الذين يطاردونه هم الذين يدلّونه ويرشدونه. واليهود الذين يجحدون نبوّته ويكتمون حقيقته في توراتهم يعلنون عن مقدَمه إليهم.

إنها لمعالم مضيئة واضحة على طريق الهجرة النبوية الشريفة. تتجدد في كل خطوة، وتنير السبل في كل لحظة، وتعلن للعالم أنها رحلة دعوة وتبليغ رسالة.

وهنا نعيد إلى الأذهان ما سجّله تاريخ الفضل والمكرمة، ونسترجع صفحات التاريخ صفحة واحدة لسنة سابقة على حَدَث الهجرة، فنجد هذا الحَدَث الفريد وهو أيضاً في رحلة فريدة وأطول وأبعد من رحلة الهجرة ألا وهي رحلة الإسراء والمعراج من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. كانت رحلة استطلاع للملكوت الأعلى ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١] وقد رأى من آيات ربّه الكبرى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١٦ ـ ١٨].

كانت قبل الهجرة، وكان قائدها جبريل، وراحلته البُراق. يضع رجله منتهى بصره. بما يعادل سرعة الضوء. وفي جزء من ليلة تمّت الرحلة بين المسجدين والعروج إلى الملأ الأعلى وإلى سدرة المنتهى وإلى قاب قوسين أو أدنى. وأصبح بمكة حيث انطلق منها.

فأين جبريل؟ وأين البُراق من الهجرة المحمدية الكريمة؟ ولماذا الرواحل والزاد؟ ولماذا الغار والطريق غير المسلوك؟ وقيادة المشرك؟ وإعلان اليهودي؟ أسئلة تفرض نفسها، وتتطلب الإجابة عليها.

ولعلّ الجواب عليها كلها هو مغايرة ما بين الرحلتين الكريمتين لأن لكلٍّ موضوعها. أما رحلة الإسراء والمعراج فهي دعوة تكريم، ورحلة تثبيت، وتجديد عهد، وتوثيق نصر من الله تعالى.

رحلة تكريم حيث لم يسبقه أحد عليها. ولم يلحقه أحد إليها. وكانت تغطية لرحلة شاقة ارتحلها ﷺ ساعياً على قدميه إلى ثقيف بالطائف، وأخفاها عن أهل مكة. يرتاد موطناً جديداً للدعوة وأنصار آخرين للتبليغ. ولكن لقي منهم ما لقي: سلّطوا سفهاءهم، وأطلقوا عليه ألسنتهم، ورجع من عندهم بما لم يكن يتوقع. ووقف وقفته المشهودة وتنفس نفثة المكروب، يستنزل الرحمة من الله. يقول في ضراعة: «اللّهمّ إليك أشكو ضعف قوتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربي. إلى مَن تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدوٍّ ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أُبالي. ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت عليه الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تُنزل بي

غضبك، أو يحلّ عليّ سخطك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[١]. تلك الدعوات - في هذه الضراعة - تستنزل جبريل ومعه ملك الجبال يعرض نصرته إليه فيعفو ويصفح ويقول: «اللَّهمّ اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون»[٢].

تلك رحلة شاقة قاسية يعقبها قسوة قريش فيمنعونه ﷺ الدخول إلى مكة ويضطرونه إلى جوار رجل مشرك.

جاءت بعدها رحلة التكريم والتنعيم رحلة إلى الإسراء والمعراج، صحبة جبريل وعلى البُراق، وإلى المسجد الأقصى، وتستقبله الأنبياء، ويقدّمونه للصلاة بهم، وهو في ديارهم. ثم يعرج به إلى السماء ليرى ملكوت السماء؛ وينتهي إلى سدرة المنتهى ويرى من آيات ربه الكبرى. فيرى الجنة ويدخلها، ويرى منازل أصحابه فيها. ويطّلع على النار وأهلها، ومنازل العُصاة فيها. فيرى بعينيه ويعي بقلبه فيصبح الغيب عنّا حاضراً عنده. والخفي علينا ظاهراً ملموساً ومشهوداً لديه.

وكل آية شاهدها في الملكوت الأعلى كانت تثبيتاً وقوةً ويقيناً مجدداً بنصر الله لدينه ونفاذاً لدعوته.

ثم جاءت ساعة المواجهة مع المشركين في مكة حين يخبرهم. فتطيش أحلامهم، وتعجز عقولهم أن تتصور ما أخبرهم به. فيتساءلون ويتحدّون: صِفْ لنا بيت المقدس؟ لعلمهم أنه لم يسافر إليه من قبل، ولم يره. فلا يستطيع نعته.

ولكن الله تعالى يُظهر كرامته لنبيّه، في جلّيه له حتى ينظر إليه فيصفه لهم عن مشاهدة[٣]. ثم يزيدهم عمّا سألوا عنه، فيخبرهم بمقدَم العير من الشام وأحوالها وما جرى لها حين مرّ بها. لقد ازداد يقيناً بالله وثباتاً على طريق دعوته.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٣/ ٧٣/ ١٨١)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٢٩٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣١).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٠٢١).

ومن ثم مشى طريق الهجرة بقدم ثابتة، وخُطاً مطمئنة، ويقين راسخ. ورسم فيها منهج الدُّعاة من بعده الذين يسيرون على طريقه. فأخذ يخطّط لها ويُعدّ العدّة من أجلها وهو واثق من نجاحها.

فكانت رحلة تشريع، وهجرة دعوة. تركت لمقدور البشر من إعداد الرواحل، وتوفير الزاد، وإخفاء المسير، مع يقينه بالنصر، وضمانه للسلامة.

لقد خرج تحت ظلال السيوف غير مبالٍ. ووضع التراب على رؤوسهم، وضرب الله عليهم حجاب النوم. وقرأ عليهم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس: ٩] إنها الثقة بالله واليقين بنصره.

ويصل إلى الغار. وينزله على بركة الله ويبيت ليلته. ومن الغد يأتي المشركون إلى الغار، ويقف مجموعهم على مدخله، ويقول الصدِّيق لرسول الله: والله لو نظر أحدهم أسفل نعلَيْه لأبصرنا.

وهنا يقول ﷺ وهو في ظلمة الغار وفي ضيقه وحرجه. يقول في طمأنينة الواثق، وثقة المطمئن: **«ما بالك باثنين الله ثالثهما»**.

وقد سجّلها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. اثنان أعزلان، يتحديان جموع المشركين مدججين بالسلاح. إنها من إضفاء رحلة الإسراء والمعراج. يقيناً وثقة.

وبعد أن خرجوا من الغار، وشقّوا طريقهم في الصحراء، وفي عراء عن أيّ ستر وحجاب. يلحق بهم سُراقة طمعاً في الجعل، مائة ناقة. فلم يُبالِ به رسول الله ﷺ، ولم يلتفت إليه، فإذا بفرسه تكبو به فيستقسم أزلامه فيخرج الذي يَكره. ولكنه يُكره فرسَه على اللحاق بهم، فيحجزها الله عنهم حتى ينادي بالأمان.

يا للعجب فارس مسلح يطلب الأمان من اثنين أعزلين! فيؤمِّنه رسول الله ﷺ بل ويعِده بسواري كسرى. وهذه أعجب! أخرجه قومه، ألجؤوه إلى الغار. يعد بسواري كسرى! فيقول: اكتبوا لي. فيكتب له الصدِّيق رضي الله عنه. ويواصل الركب رحلته إلى غايته.

لم تكن الهجرة إذاً عن خوف، وقد أمّنه الله. ولا هروباً من قومه، وقد سخّرهم الله إليه. وكانت حقاً انتقالاً إلى موطن جديد. ولم تكن هي النهاية بل كانت بداية.

بداية لإقامة أُمة جديدة، وإنشاء دولة، وتثبيت قاعدة دعوة. وكانت المدينة هي المختارة لذلك. المدينة الحصينة بموقعها، الآمنة بخصائصها.

ونزل ﷺ بقباء نزولاً مؤقتاً، بنى فيها مسجدها، ثم واصل مسيره إلى مقر نزوله وإقامته.

منزل رسول الله ﷺ

وهنا ـ وفي الطريق ما بين قباء ومقر نزوله ـ يحلّق هذا التساؤل: يا تُرى أين سينزل؟ لم يكن على موعد مسبق مع أحد، وليس عنده قصد لمكان معين أو شخص بعينه. إنه قَدِمَ تلبية لمجموع قبيلتين. قبيلتان كانتا تجولان حلبة السباق قبل الإسلام. فعند مَن وعلى حساب مَن سيكون اختيار المنزل؟ موقف محيّر يتطلب حلاً سريعاً يُرضي ولا يغضب، يجمع ولا يفرّق. يؤلّف ولا ينفر.

وهنا يتولى المولى سبحانه تدارك الموقف، فيرفع عنه ﷺ مؤنة الاختيار. فكلما مرّ على بيت من بيوت الأنصار وعلى حيٍّ من أحيائهم يتلقونه في العدد والعُدد: هلمّ انزل إلينا يا رسول الله في العدد والمنعة. فيقول ﷺ: «**خلّوا سبيلها فإنها مأمورة**». يعني ناقته القصواء[1]. يا سبحان الله ناقة عجماء، ورسول يوحى إليه، يتخلى الرسول ويسند الأمر إلى الناقة!

وتمضي المأمورة إلى أن جاءت إلى موضع المسجد اليوم فبركت. ولكنه ﷺ لم ينزل عنها لأول وهلة. فقامت ودارت وتلفتت واستدارت كالمتثبّت في أمر يهمّه، ثم رجعت إلى موقعها الأول فبركت ومدّت عنقها وحلحلت بجرانها كأنها تقول: إنه المكان المعهود. فنزل عنها ﷺ قائلاً: «**إنه**

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/٢٣٦) وفي إسناده الواقدي وهو متروك، وأخرجه ابن سعد (١/٢٣٧) من حديث شرحبيل بن سعد مرسلاً؛ فالحديث ضعيف.

المنزل إن شاء الله»(١).

وفي مرة أُخرى يتحرج الموقف، وفي المحلة التي نزلت بها الناقة: إنها تحتوي عدّة بيوت وكلٌّ يقول: بيتي بيتي يا رسول الله. فمَن سيجيب؟ وعلى حساب من أيضاً؟ ولكن أبا أيوب لم يزاحم الناس في العرض على رسول الله، بل عمد إلى رَحْله ﷺ فاحتمله عن الناقة وأدخله بيته. وفي شدّة التزاحم والعروض التفت ﷺ إلى الناقة فلم يجد رَحْلَه عليها فقال: **«أين رَحْلي؟»**. قالوا: احتمله أبو أيوب إلى بيته. فقال ﷺ: **«المرء مع رَحْله»** ودخل بيت أبي أيوب(٢).

وبهذا انتهت كل الصور، وتناهت كل العقبات، واستقرّ به المطاف ﷺ إلى المكان الذي اختاره الله لرسوله ﷺ. وشرع في العمل، بدأ بشراء الأرض التي أمام بيت أبي أيوب لبناء المسجد. واشتراها ﷺ وأبى أن يقبلها هِبة. ودفع الصدِّيق ثمنها. وأُقيم بناء المسجد(٣).

المؤاخاة

وهنا تبرز قضايا هامة وخطيرة وشديدة الحساسية؛ وذلك لطبيعة مجتمع المدينة آنذاك. ففيها اليهود وهم قبائل ثلاث بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، وفيها المشركون، وفيها المنافقون، وفيها بين هؤلاء جميعاً المسلمون. ولأكثرهم عهود وأحلاف مع بعضهم البعض.

والدارس لمقدمات الهجرة يلزمه الوقوف على أحوال المدينة: اجتماعياً وعقائدياً، وفكرياً، وسياسياً، وعسكرياً، واقتصادياً، وجغرافياً.

أما الحالة الاجتماعية: فكما أوردنا جميع الطوائف والأجناس.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٠٦) من حديث عروة مرسلاً، وذكر ابن حجر في فتح الباري (٧/ ٣٠٨) أن له طرق موصولة.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٢٣٧)، وفي إسناده الواقدي وهو متروك؛ فالحديث ضعيف جداً.

(٣) أخرج البخاري (٤٢٨)، ومسلم (٥٢٤): أن بني النجار رفضوا بيعها بالمال وقالوا: لا، والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله.

وأما الحالة الدينية: فهي نتيجة للحالة الاجتماعية في تلك الطوائف: يهود حاقدون، ووثنيون متعصبون، ومنافقون مذبذبون. والمسلمون بين هؤلاء وهؤلاء جميعاً.

والحالة الفكرية: مضطربة. فاليهود يشوِّهون حقائق الإسلام. والمشركون خاضعون لمعتقداتهم. والمنافقون متخوِّفون من ظهور الإسلام وتزايده. وهم القائلون: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ [المنافقون: ٧] وكلمة رئيسهم المشهورة: ما نحن وأنتم إلا كمثل القائل: سمِّن كلبك يأكلك. والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ. وصدق الوحي مقالته. ولكن قلب الحكم عليه وبموجب ما قال. إذ قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: ٨].

والمسلمون يواجهون هذا كله.

وأما الحالة السياسية: فقد كان اليهود ينظمون خرز التاج ليتوِّجوا ابن أُبيّ ملكاً عليهم. ومجيء الرسول ﷺ فوّت عليهم تلك الفرصة[1]. والمشركون لا يعترفون بأيّ نظام سوى النظام القبلي في أعرافهم وتحاكمهم. والمسلمون خلعوا كل نظام والتزموا بتعاليم الإسلام.

وأما الحالة العسكرية: فموجودة أحلاف عسكرية بين قبائل اليهود والعرب من الأوس والخزرج ومَن أسلم ومَن لم يسلم بعد. وبين المنافقين وتلك القبائل. ظهر ذلك في قضية بني النضير كما قال تعالى في سورة الحشر: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ الآية [الحشر: ١١].

وجاء ابن أُبيّ إلى رسول الله ﷺ وكلّمه فيهم وقال: هم حلفائي تريد القضاء عليهم. فتركهم له على أن يجليهم عن المدينة[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٠٧) من قول سعد بن عبادة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ٣/ ٤٨) من حديث عاصم بن عمر بن قتادة مرسلاً.

أما الناحية الاقتصادية: وهي عصب الحياة غالباً في المجتمعات الحضارية، فقد كانت الأسواق والتجارة والصباغة بيد اليهود. وكانوا مسيطرين بتعامل الربا على سيولة الأموال في المدينة، وعنه يتحكمون حتى في زروع أهل المدينة، وقصص ديونهم على المزارعين وغيرهم مشهورة، بل ورسول الله ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى ودرعه مرهونة عند يهودي في آصع من الشعير[١].

ومن طبيعة اليهود يطاولون عميلهم، حتى يتورط، ثم هم يناهزونه ساعة حاجته بدون هوادة. وتلك قصة دين جابر بن عبد الله حين توفي أبوه ـ استشهد بأُحُد ـ وكان مديناً لليهود فجاؤوا إلى ولده جابر فدفع إليهم كل ثمرة البستان الذي لوالده فلم يرضوه في سداد ديونه. ودعاهم رسول الله ﷺ ليضعوا من ديونهم فأبوا. وطلبهم بثقل ثمرة البستان كلها فأبوا. فذهب معه ﷺ وطوّف في البستان ودعا له بالبركة وقال: «**جِدْ كل صنف على حِدة وكِلْ لهم وأوْفِهِمْ**». فأنزل الله البركة في الثمرة فأوفاهم وبقي له مقدار ما كان يحصل عليه كل سنة[٢]. وهذه صورة من صور متعددة من مداينة اليهود لأهل المدينة.

ومن هنا تبرز مشكلة تموين تلك الأعداد الوافدة على المدينة مهاجرة لله ولرسوله ولنصرة دينه. فأين موارد معيشتهم أو مجالات أعمالهم؟

وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه يمرّ بطريقه على كومة تراب مخلوطة بالتبن تهيئة لخلطها طيناً فيسأل: لمَن هذه؟ فيقولون: لفلانة، لم تجد مَن يسحب لها الماء من البئر، وقد جعلت لكل دلو ثمرة. فيمنح لها علي رضي الله عنه الدّلاء المطلوبة، ويتقاضى عليها بعددها ثمرات[٣].

وها هي بيوت أُمهات المؤمنين شهران لم توقد فيها نار. وتُسأل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: علام تعيشون؟ فقالت: الأسودان التمر والماء[٤].

بل يأتي ضيف لرسول الله ﷺ فيرسل إلى زوجاته واحدة تلو الأُخرى

(١) أخرجه البخاري (٢٩١٦). (٢) أخرجه البخاري (٢٣٩٦).
(٣) أخرجه البيهقي (٦/ ١١٩ ـ ١٢٠)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٥/ ٣١٣).
(٤) أخرجه البخاري (٢٥٦٧)، ومسلم (٢٩٧٢).

يطلب عشاء لضيفه فلم يجد حتى يقول: **«مَن يستضيف هذه الليلة وله الجنة؟»** فيذهب به المقداد إلى بيته في قصته المشهورة مع زوجته وعياله وإصلاح السراج وإطفائه والاحتيال لإشباع الضيف. ويبشّره ﷺ في الصباح: **«لقد ضحك ربك من صنيعكما البارحة»**[١].

وهذا رسول الله ﷺ بنفسه الزكية يعصب على بطنه الحجر في غزوة الخندق[٢]. وترسل امرأة بحفنة تمر لأخيها وزوجها فتمرّ بها ابنتها على رسول الله ﷺ فيسألها عن التمر فتقول: غذاء أبي وخالي فيفرغه بين كفّيه ويفرد رداءه ويضع حفنة التمر في الرداء، وينادي في الجيش الغداء![٣].

وهاك هو الصحابي الجليل يرى من حال رسول الله ﷺ، أجهده الجوع وهو يعمل معهم في الخندق فيرجع إلى بيته ويخبر زوجه وينحر عناقاً وتطحن صاعاً من شعير فتطبخ العناق وتفتّ الخبز ويذهب فيسرًّ لرسول الله ﷺ بما صنع ليتغدى عندهم فيأمر ﷺ بصارخ: أن غداءكم عند فلان[٤]. فأيّ حالة اقتصادية أشد أزمة من هذه؟

أما الناحية الجغرافية: فالمدينة محصورة بين حرّتين تحيطان بها إحاطة الحدوة بالحافر والسوار بالمِعصَم. إلا من فتحة وادي العقيق. وليست فيها الأنهار الجارية، ولا الصناعات العديدة، ولا الأشجار المتنوعة. مما يجعلها شبه حصون الحدود، محدودة الإنتاج، لا تكاد تَسَعْ غير أهلها. فكيف عالج رسول الله ﷺ الموقف؟ وكيف تغلّب على تلك العوامل مجتمعة؟

لقد كانت المعالجة بالحكمة وبما لم تشهده مدن ولا جماعة من جماعات العالم كله. علاج يداوي كل العلل، ويحلّ كل المشاكل، ويتخطى كل العقبات، ويذلّل كل الصِعاب.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٩٨)، ومسلم (٢٠٥٤) من دون تسمية الصحابي. وفي رواية لمسلم تسمية الصحابي بأبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٤١٠١).
(٣) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (٣/٢١٨) بإسناد ضعيف.
(٤) أخرجه البخاري (٤١٠١ ـ ٤١٠٢).

وهو عامل المؤاخاة بين المسلمين؛ فيربط أبناء المجتمع الواحد على اختلاف الأجناس وافتراق البلدان برباط أخوي ديني يحلّ محل أُخوّة ورابطة النسب. وزادت عليها إلى حدّ أن يُؤْثِر أحدهم أخاه على نفسه، ولو كانت بهم خصاصة.

وهكذا اتسعت صدور الأنصار لإخوانهم المهاجرين. وعفّت نفوس المهاجرين عما بأيدي إخوانهم الأنصار. وتلاحم المجتمع المدني بمبادئ الإيثار والتعفّف. وامتدح الله الفريقين في سورة الحشر من أول قوله تعالى في حق فيء بني النضير: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨﴾ [الحشر: ٨] فوصف المهاجرين بأنهم أهل ديار وأموال أُخرجوا منها وجاؤوا يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وشهد لهم بحسن النيّة والقصد، وينصرون الله ورسوله. وأنهم صادقون في هجرتهم لله تعالى.

ثم أثنى على الأنصار بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

وبهذه المؤاخاة أصبحوا جميعاً متلاحمين متراضّين، كالجسد الواحد وكالبنيان المرصوص. يتوارثون على غير أنساب، ويتراحمون على غير أرحام.

وبهذا رفرفت معالم الإسلام، وتلاشت عصبيات المشركين، وخَفَت صوت اليهود، وهبط كيد المنافقين، ومكّن الله لنبيّه، وكتب الله العزّة لدينه، وأخذ الإسلام ينطلق شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً مع جند الله ودُعاته.

وعند كتابة هذه السطور تسامعنا بأحداث لأنواع من الهجرة ولكنها هجرات سياسية مادية عسكرية خالية من هدف ديني وعامل روحي. انطلقت إحداها من فيتنام، والأُخرى من أوغندا. كانت تطوف بالمهجّرين السفن في عرض البحار فلا تسمح لهم أيّ دولة بالنزول في أراضيها حتى الدول الأُم لهؤلاء فترفض نزولهم لأزمات اقتصادية محلية.

واليوم، وفي الدول المسمّاة «النامية» التي يضطرها بعض مهاجري جيرانها من ويلات الحروب إلى أن تستصرخ بهيئات الإغاثة الدولية. وتتكرر كل يوم نداءات تقديم العون.

والمدينة المنورة ـ على ما ذكرنا ـ واجهت المشكلة لا بوفرة إنتاج ولا بفرص العمل ولكن برحابة صدر، وكرم نفس، وتعفّف أيادٍ كريمة.

وقد عالج ﷺ جانباً من البطالة بتوجيه مَن جاءه يسأله ـ ولا شيء عنده سوى حلس وقعب ـ فباعهما ﷺ عليه بدرهمين. وقال له: «**اشتر بأحدهما طعاماً لأهلك وبالآخر حبلاً وفأساً**». ثم قال له ﷺ: «**اذهب فاحتطب وبعْ ولا أرينّك خمسة عشر يوماً**». فيعود إليه بثوب جديد ودراهم تجلجل في جيبه[1]. حتى يقول ﷺ: «**لئن يأخذ أحدكم حبلاً وفأساً فيحتطب، ويبيع، ويستغني. خير من أن يتكفّف الناس السؤال، أعطوه أو منعوه**»[2]. «**ومَن يتصبّر يصبره الله**»[3].

فبهذا وذاك، وبكل الوسائل، اجتاز السلف مرحلة الفاقة والعَوَز حتى فتح الله تعالى عليهم الفتوحات، وصارت تأتيهم الأموال. لا يعرفون لها عدّاً ولا يقدّرون لها وزناً. وصار ﷺ يعطي عطاء من لا يخشى الفقر. حتى إنه ليقول: والله لا الفقر أخشاه عليكم. ولكن أن تفتح الدنيا كنوزها فتنافسوها[4].

وأصبحت المدينة عاصمة الإسلام. وأصبح المسلمون قادة العالم. وكل ذلك من آثار الهجرة. وبعد مقدمه ﷺ إليها. وتوّج الله ذلك كله بفتح مكة. وجاءت سورة النصر. وأصبح الدين كله لله.

فكانت حقاً فرحة الأنصار بمقدَم رسول الله. وكان حقاً خروجهم لاستقباله، رجالاً ونساءً، شيباً وشباباً، يعلنون بهجتهم، ويترجمون سعادتهم في أُنشودتهم الخالدة:

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٤١)، وضعفه الألباني في إرواء الغليل (٨٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٧٠)، ومسلم (١٠٤٢) من حديث أبي هريرة. وأخرجه البخاري (١٤٧١) من حديث الزبير بن العوّام.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٦٩).

(٤) أخرجه البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١).

طلع البدرُ علينا من ثنيّات الوداع
وجب الشكرُ علينا ما دعا لله داعِ
أيّها المبعوثُ فينا جئتَ بالأمر المطاع
جئتَ شرَّفْتَ المدينة مرحباً يا خير داعِ[1]

وهنا يمكن أن نقول: إن العالم الإسلامي كله ـ قديمه وحديثه ـ لَمَدين لهذه الهجرة المحمدية. وإن تاريخ الإسلام والمسلمين لهو امتداد لأحداث تلك الهجرة، ومعالم على طريقها. فما نادى مؤذن: الله أكبر، ولا كبّر مصلٍّ: الله أكبر، ولا دعا داعٍ، واستجاب مجيب: إلا ثمرة من دوحة تلك الهجرة التي رسم ﷺ خطتها، وخطا خُطاها، وثبّت مبادئها، وأرسى قواعدها بطيبة الطيبة.

صلوات الله وسلامه ورضوانه على سيّد الخلق وخاتم الرسل، وعلى آله وصحبه ومَن تبعهم على نهجهم وتابع السير على طريقهم، وعنّا معهم. إنه جواد كريم، برٌّ رحيم.

وبالله تعالى التوفيق. . .



(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٥٠٦)، من حديث عبيد الله بن محمد بن عائشة، وهذا إسناد معضل ضعيف. فابن عائشة توفي سنة ٢٢٨هـ، وبينه وبين النبي ﷺ ثلاثة رواة أو أكثر، وبذلك أعلّه العراقي في تخريج «الإحياء» (٢/ ٢٤٤)، والألباني في السلسلة الضعيفة (٥٩٨). وانظر ترجمة ابن عائشة في تقريب التهذيب (٤٣٣٤).



منهج الإسلام

في

كيفية المؤاخاة

والتحكيم بين المسلمين



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

منذ وجود الإنسانية وبنو الإنسان في نزاع وخلاف حتى ابنَيْ آدم قتل أحدهما أخاه، ثم ظلت الإنسانية تتعثر في طريقها الطويل عبر التاريخ ما بين حرب الأديان وطغيان الرومان وفلسفة اليونان، إلى أن لاح فجر الإسلام على أُمة مزقت جمعَها الوثنيةُ الضالة (فلا تمر بهم إلا على صنم قد هام في صنم).

وشتت شملهم المسيحية المحرَّفة، وأوهت قواهم العصبية المتطرِّفة، وأفنت رجالهم الحروب الطاحنة، فسئموا الحياة القلقة واستطالوا الطريق الملتوية كالتائه الحائر وسط الفلاة المشرف على الهاوية...

فشخصت أبصار الأُمة علّها تبصر هادياً، وأصاخت آذانها علّها تسمع منادياً، فأبصرت نوراً من فيحاء مكة، واستمعت منادياً من رحاب البيت الحرام يعلن:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: ٩٢] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ الآية [الحجرات: ١٣]. وبهرهم قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

فاستهدفوا الداعي رسول الله ﷺ، واستجابوا للمنادي، فجمع شملهم ووحّد هدفهم فأصبحوا بنعمة الله إخواناً. وساروا على الطريق السويّ فسادوا العالم بالعدل والإحسان وبيّنوا للناس المحجّة بساطع الحجة والبرهان؛ فتابعهم الناس ودخلوا في دين الله أفواجاً، وأصبحت روابط الإخاء وروح التسامح وبذل المعروف والإيثار على النفس والتسابق إلى الفضائل ونحو ذلك من المعاني القيِّمة هي شعار الأُمة وسيماء العصور الأوائل.

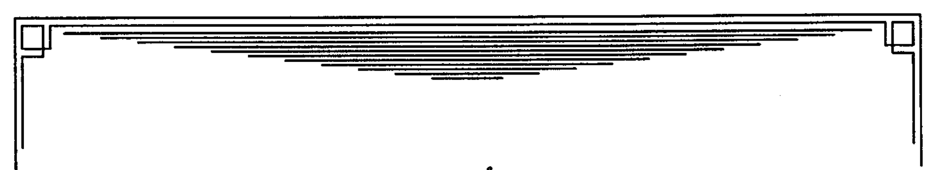
إلى أن نبتت نابتة الخلاف وراجت أفكار المخالفين، وانحرف المسلمون عن الصراط المستقيم ونهج الأولين، فتشعبت بهم السبل وتنازعتهم الأهواء وتقاسمتهم الأحزاب، وطغت قوانين المادة وانحسرت معالم الإنسانية، فأصبح الإحسان سفهاً، والمروءة ضعفاً، ولم يبق ارتباط بين الناس إلا بخيوط المادة وسلوك الذهب والفضة، حتى سئم الناس مرة أُخرى هذا اللون من الحياة، واستطال الناس الطريق أيضاً كالتائه الحائر في دوامة العواصف وتيارات الأفكار المتضاربة، فتطلعت الأنظار مرة أُخرى، وأيضاً أصاخت الآذان علّها تبصر هادياً أو تسمع داعياً.

وقد جربت الإنسانية كل التجارب الفكرية، واعتنقت كل الأديان فلم تجد تجربة ولا ديناً كتجربة المسلمين الأوائل ودين الإسلام الحنيف.

فعلى الأُمة أن تستهدف الداعي إلى الله وتسير على الصراط السويّ، وتأخذ بمنهج الإسلام في «كيفية مؤاخاته والتحكيم بين أبناء المسلمين» ليعيدوا بناء صرح عزّهم المتداعي، ويعيدوا تاريخ مجدهم الماضي.

وفي هذه الرسالة محاولة لرسم منهج الإسلام عملياً في كيفية المؤاخاة والتحكيم بين المسلمين، نسأل الله تعالى أن يجمع الشمل ويوحِّد الغاية، ويربط بين القلوب برباط المحبة والمودّة، إنه وليّ ذلك والمنعم به، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله وصفوته من خلقه سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

✍ عطية



كيفيةُ المؤاخاة

إن الدعوة إلى المؤاخاة بين بني الإنسان قاطبة دعوة طبيعية، وعقلية، ودينية، وحاجة الإنسان إليها كحاجته إلى الماء والهواء.

أما كونُها طبيعية:

فلأن طبيعة وجوده الأول كانت ترابطاً بين التراب والماء، ثم صار دوام إيجاده معلقاً بالترابط بين صنفيه المنوّه عنهما بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ١٣].

فمن الزوجية تتكوَّن الأُسرة، ومن الأُسرة تتكوَّن القبائل، ومن القبائل تتكوَّن الشعوب، ومن الشعوب تتكوَّن الأُمم، ومن الأُمم كان هذا العالم كله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

وطبيعة هذا الترابط ليس خاصاً بالإنسان، بل عام في كل ما حولنا من عوالم الأرض إلى عوالم الأفلاك، بل إن الذرّة المتناهية في الصغر لَتقوم على ارتباط بين نواتها وما حولها ارتباطاً محكماً.

والله وحده هو الفرد الصمد، وما عداه مرتبط بغيره مزدوج معه، فالإنسان مرتبط بأخيه الإنسان كما قيل عنه: (إنه مدني بطبعه)، وقد يكون هذا الارتباط مادياً على أساس تبادل المنافع والمعاوضة كقول الشاعر:

النَّاسُ للناسِ مِن بَدْوٍ وحاضرةٍ ... بعضٌ لبعضٍ وإنْ لم يشعُروا خَدَمُ

وهذا القدر يشترك فيه الحيوان مع الإنسان، كالتعاون بين التمساح وبعض الطيور، حيث يأتي التمساح عقب أكله اللحوم فتبقى بين أسنانه فضلاتها، لو تُركت لعفنت وآذته، فيأتي إلى البر ويفغر فاه، فيأتي ذاك الطائر ويوقع بين فكّيه وهو آمن فيلتقط تلك الفضلات، فتكون غذاء له وراحة للتمساح.

وقد يكون التعاون تحت سيطرة الطغيان فتسخَّر طاقات الضعفاء لخدمة الطغاة، فيكون مجتمعاً استعبادياً يستعبد القويُّ فيه الضعيف.

أما الإسلام فهو وراء المادة، وبعيد عن الطغيان ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ [النساء: ١].

وأما كونُها عقلية:

فلأن العقل يقضي بأن الاتحاد قوة، والألفة رحمة، كما يقضي بأن الاختلاف موهن للقوى. ومن هنا كان مبدأ العدوّ: (فَرِّق تَسُد).

تأبى الرماحُ إذا اجتمعْنَ تكسُّراً ... وإذا افترقْنَ تكسَّرتْ آحاداً

وقد عاب الله تعالى على المختلفين فساد عقولهم بقوله: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤] فجعل شتاتهم بسبب فساد عقولهم.

فكانت دعوة الإسلام إلى المؤاخاة بين المسلمين دعوى بمقتضى طبيعة الإنسان وخلقته ويقتضيها العقل السليم بفطرته، جاء بها كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ، وقام بها سيد الخلق ﷺ عملياً أول مقدمه إلى هذه المدينة الطيبة، فكانت هي مسرح الدعوة إلى المؤاخاة قولاً وعملاً؛ فقال ﷺ للمهاجرين والأنصار: **«تآخوا في الله أخوين أخوين»** ثم قام عملياً فأخذ بيد علي رضي الله عنه وقال: **«هذا أخي في الله»**، ثم آخى ﷺ بين حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، وبين جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل، وبين بلال وأبي رويح صاحب لواء الأمان في فتح مكة، وبين أبي بكر الصديق وخارجة بن زهير، وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك، وغيرهم رضي الله تعالى عنهم أجمعين[١].

نظرة في هذه المؤاخاة:

بالتأمل في هذه الطريقة لهذه المؤاخاة العملية نجد الآتي:

(١) ذكره ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ٢/ ٥٠٤) من دون إسناد. فهو معضل ضعيف. ولكن صحّ بعض المؤاخاة. فانظر: فتح الباري (٧/ ٣٤٤/ ح٣٩٣٧).

أولاً: حمزة عمّ الرسول ﷺ وأسد الله يؤاخَى بينه وبين مولى من الموالي.

ثانياً: ابنا أبي طالب علي وجعفر يُجعل كل واحد منهما مع شخص غير أخيه في النسب.

ثالثاً: بلال الحبشي مولى أبي بكر الصديق يؤاخَى مع أبي رويح الذي أعطاه الرسول ﷺ لواءً يوم فتح مكة ونادى المنادي: مَن دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن(١).

فلا مكانة للأحساب في الأُخوة الأولى بين حمزة وزيد، ولا عبرة للأنساب في الأُخوة الثانية؛ علي وجعفر كل واحد منهما مع غير أخيه في النسب، ولا صفة للأجناس في الأُخوة الأخيرة؛ بلال الحبشي مع أبي رويح العربي! إنما العبرة والمكانة والصفة للإسلام فحسب، ومن ثم كانت لها آثارها العظيمة.

آثارها ومكانتها في الدولة آنذاك:

كان لهذه الأُخوة مكانتها الرسمية من إثبات الحقوق المالية فكانوا يتوارثون بها، وقد أوصى حمزة رضي الله عنه عمُّ الرسول ﷺ يوم أُحُد إلى زيد إن حضره الموت، كما فعل مثله بلال لما خرج إلى الشام مجاهداً فأقام بها فسأله عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: لمن تجعل ديوانك يا بلال؟ فقال: مع أبي رويح الخثعمي لا أُفارقه أبداً للأُخوة التي كان رسول الله ﷺ عقدها بيني وبينه، فضُمّ إليه. قال ابن هشام: وضُمّ ديوان الحبشة إلى خثعم لمكان بلال منهم فهو في خثعم إلى هذا اليوم بالشام(٢).

اعتبارها رسمياً لدى مسؤولية الدولة:

وكان اعتبارها رسمياً هو توحيد الأُمة الإسلامية بالإسلام دون مَن

---

(١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (١/٥٠٨/ ترجمة ربيعة بن السكن).

(٢) ذكره ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ٢/٥٠٧) من دون إسناد.

عداهم، كما جاء في كتاب رسول الله ﷺ وهو أول صحيفة تتضمن معاهدة رسمية بين المسلمين وبين اليهود جاء فيها:

«هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المسلمين والمؤمنين من قريش ويثرب ومَن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم: إنهم أُمة واحدة من دون الناس... وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس... وإن المؤمنين المتقين على مَن بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليهم جميعاً ولو كان ولد أحدهم»(١).

هذا وجود الأُخوة عملياً، وهذه مكانتها في نظر النظام الجديد في الدولة الإسلامية الناشئة.

أما كيف عمّمها الإسلام، وكيف انتشرت، وكيف حافظ عليها حتى بقيت على طول الزمن، وكيف استثمرها، وما هي نتائجها؟ فهذا هو محل البحث، وهذا هو المقصود من البيان.

وكل شخص يعلم أن أي عمل أو مشروع يأتي ارتجالاً دون تخطيط؛ لا يُضمن له النجاح ولا يبقى طويلاً، ومن المسلَّم به أن كل مشروع لا بدّ له أيضاً من صيانة ضمن بقاءه، وقيمة كل مشروع أو عمل إنما هي بحسب نتائجه وثمراته.

والإسلام وهو دين العالمين في كل مكان وزمان إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها. تعهّد الله تعالى بحفظه، فمخططاته سليمة، ومناهجه قوية، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

فكانت مخططات المنهج الإسلامي للمؤاخاة بين المسلمين أعظم عمل في الإسلام، ونتائجها أعظم نتائج في العالم، والآن قد تقطعت أواصر الأخوة بين العباد، وغزاهم العدوّ بمعاول الإفساد، فتفرق الجمع وتشتت الشمل، وانتشر الفساد، فظهرت التكتلات، وتعددت الحزبيات؛ كل حزب بما لديهم فرحون. فعادت الأُمة في حافرتها، ورجعت إلى جاهليتها، وأصبح الناس على شفا حفرة من نار العداوة والحقد والحسد.

---

(١) قال الألباني في فقه السيرة (ص١٩٥): روى هذه الوثيقة ابن إسحاق بدون إسناد.

والسبيل الوحيد والطريق السليم لتدارك الأُمة إنما هو سبيل الإسلام وطريق محمد عليه أفضل الصلاة والسلام. «ولن يصلُح آخر هذه الأُمة إلا بما صلح به أولها»، فلنعد إلى منهج الإسلام في مؤاخاته بين المسلمين.

طبيعة المناهج البنّاءة:

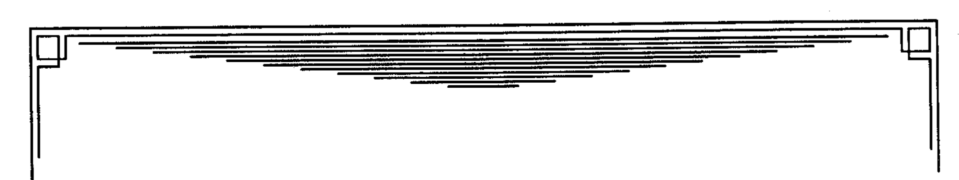
وطبيعة المناهج البنّاءة، وأساس نجاح كل منهج طويل المدى؛ إنما هو مراعاة أصل ما يوضع له. فمثلاً منهج الزراعة لا بدّ أن يراعي طبيعة الأرض والجو والماء والحاجة إلى الإنتاج، وقد لاحظ الإسلام في منهجه طبيعة الإنسان وأصله. وسنبحث المنهج الإسلامي في المؤاخاة بين المسلمين من ثلاث نقاط:

١ ـ النقطة الأولى: طبيعة تكوينه وما يلائمه في مؤاخاته.

٢ ـ النقطة الثانية: عوامل صيانة تلك الأُخوة ودواعي تنميتها.

٣ ـ النقطة الثالثة: نتيجة هذا الإخاء وآثاره.





طبيعة تكوين الإنسان

أما طبيعة تكوين الإنسان، فإنه مكوَّن من عنصرين أساسيين: «مادة، ومعنى» هما الجسد والروح مبيّنان في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٢]، فالعنصر الأول هو خلقه من طين، والعنصر الثاني هو الروح التي نفخت فيه، وعلى هذا الأساس جاءت دعوة الإسلام إلى المؤاخاة مراعية المادة والروح.

جهة المادة:

أولاً: إزالة الفوارق العنصرية وأسباب المفاخرات المادية بالتنبيه على وحدة الأصل بالنداء العام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وبالحديث الشريف: **«الناس من آدم وآدم من تراب**[١]**، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»**[٢].

وإذا كان ابتداء إيجاد الجميع من تراب، ويرجعون جميعاً لأبوين، فلا موجب للتفاضل والتباعد. وإذا كانت سنّة الخلق من زوجية فلا محيد عن التآلف والتآخي، فكون الناس جميعاً من زوجين ائتلفا يؤكد التآخي، وكونهما من تراب ينفي التفاضل، وبوحدة هذا الأصل زالت الحواجز، وتلاشت الفوارق وذابت العناصر، وأذهب الله عنّا نخوة الجاهلية الأولى، فأصبح المقياس بمقتضى المعاني والمعنويات التي يمليها العنصر الثاني، وهو تلك النعمة التي امتنّ الله تعالى بها على خلقه، وبها ألغى مقياس المادة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٩٥٥)، وأبو داود (٥١١٦)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٩٢٢): حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤١١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ٤٥٠).

ولما جاء المؤلّفةُ قلوبهم من سادات قريش يُدلون بنسبهم ويعتزّون بحسبهم إلى مجلس رسول الله ﷺ وقالوا له: أخرِجْ عنك هؤلاء - لنفر ستة من المساكين كبلال وصهيب وعمار ومَن معهم - فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٨ - ٢٩][1] أي: لا عبرة بغناهم ولا اعتبار لأحسابهم ولا أنسابهم، وإنما المعوّل على اتّباع الحق المنزّل، فمَن شاء فليؤمن ومَن شاء فليكفر.

ومن ذلك ما فعله عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه آخر حياته لما اختار نفراً للمشورة جعل ابنه يحضر وليس له شيء في الخلافة، وجعل الصلاة بالناس لصهيب بن سنان الرومي ثلاثة أيام حتى تنقضي مدة الشورى، وقال: ما أظن الناس يعدلون بعثمان وعليّ أحداً، إنهما كانا يكتبان الوحي بين يدي رسول الله ﷺ بما ينزل به جبريل عليه السلام. فلما مات عمر رضي الله تعالى عنه وأُحضرت جنازته تبادر إليها عليّ وعثمان أيّهما يصلي عليه، فقال لهما عبد الرحمٰن بن عوف: لستما من هذا في شيء، إنما هذا إلى صهيب الذي أمره عمر أن يصلي بالناس، فتقدم صهيب وصلّى عليه. فهذا عمر رضي الله عنه يقدِّم صهيب الروم لإمامة المسلمين، ثم هو يصلي على أمير المؤمنين بينما في القوم عليّ وعثمان وطلحة وغيرهم، بل وفيهم ابنه عبد الله فلم يرشحه للخلافة ولم يقدمه للإمامة، لأن الصلات المادية لا أثر لها وإنما العبرة بالمعاني.

جهة المعنى:

وجهة المعنى في هذا المنهج نعمة عظمى ومِنّة جسيمة، امتنّ الله تعالى بها على خلقه وأنعمَ بها على مَن شاء من عباده، ودعاهم للاعتصام بها ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠٣﴾ [آل عمران: ١٠٣].

(١) أخرجه مسلم (٢٤١٣).

ولكأن الله تعالى يرشدنا إلى أنه إن كان عنصر المادة من طبيعته المغايرة شعوباً وقبائل؛ فإن عنصر المعنى من طبيعته الوحدة والاعتصام، ولذا امتنّ الله تعالى بها.

موجب الامتنان بها:

لا شك أن إيجاد الإنسان من العدم نعمة؛ ولكن قد شاركه غيره من الموجودات. أما إخراج الإنسان من الكفر إلى الإيمان فهو أعظم إنعاماً لأنه أعظم أثراً وأطول أمداً ويتوقف صلاح الإيجاد الأول عليه، وقد كانوا بالإيجاد الأول قبل الثاني أعداء فصاروا بالثاني إخواناً.

وأكد هذا المعنى جعلُ التآلف للقلوب لا للأجسام ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]. وقد لاحظ الخليل ﷺ هذا المعنى في دعائه فقال: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. ومن هنا عظمت هذه النعمة واختصّت بالمِنّة، يختص الله بها مَن شاء من عباده ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]. ومن عظمة هذه النعمة لم توكل لأحد ولم تقوَ عليها قوة في الأرض ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

فمن حُرمها تأججت بينهم نار العداوة والبغضاء بما نقضوا ميثاق الله عليهم، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ ومَن قسا قلبه انتفت مودّته، وظهرت عداوته، ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المائدة: ١٣ ـ ١٤].

أما عنصر المادة:

فقد نبّهت الآية على مبدأ الإنسان وإيجاده الأول، وبيّنت لنا الغرض من جعل الشعوب والقبائل وهو: التعارف بإمكان إرجاع كل فرد إلى قبيلته، وكل قبيلة إلى شعبها، ليتمّ التعارف بين الجميع، وإلا لكانوا كالقطعان لا مرجع

لأصل، ولا معرفة لنسب فلا يحصل التضامن، ولا التعاون. ولهذا تضطر الحكومات إلى تقسيم الجيوش ألوية، واللواء إلى كتائب وسرايا.

ولما كانت القبيلة مظنّة التفاضل بحسب أو نسب، أبطلها وأوصد أبوابها بجعل التفاضل للتقوى، لأن عنصر المادة من تراب الأرض يخلد إليها، وعنصر المعنى من نور السماء يسمو نحوها.

وعلى هذا الأساس كانت مؤاخاة رسول الله ﷺ بين أصحابه، حيث آخى بين حمزة بن عبد المطلب عَمِّه ﷺ هو وأسد الله، وبين زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، فجمع بين عمه الذي هو في الذروة من النسب وبين مولاه الذي اختطف وبيع فاشتراه أبو لهب وأهداه إلى خديجة رضي الله عنها وأهدته هي إلى رسول الله ﷺ فأعتقه، ويقبل ذلك حمزة بكل ارتياح ويوصي له يوم أُحُد ولم يجعل وصيته لأحد من قريش، وكذلك فعل بلال مع أبي رويح الخثعمي، بلال الحبشي اشتراه الصدِّيق فأعتقه، يجتمع مع أبي رويح ويضم ديوانه إلى أبي رويح فينضم معه ديوان الحبش كلهم إليه لمكان بلال فيهم، ويؤكد بلال تلك الرابطة بقوله لعمر: ديواني لأبي رويح للأُخوة التي عقدها الرسول ﷺ بيني وبينه.

مثل أعلى:

وهناك مثل أعلى للأُخوة الإسلامية يقدِّمه رسول الله ﷺ حينما اختطّ الخندق في غزوة الأحزاب وقسم المجاهدين جماعات، وعقد لواءً للمهاجرين ولواءً للأنصار؛ فاختلفوا في التقسيم عند سلمان الفارسي كلٌّ يقول: هو منّا، فقال رسول الله ﷺ: **«سلمان منّا آل البيت»**[(١)].

ومَن هو سلمان؟!

هو ابن خادم بيت النار للفرس، خرج إلى المدينة لما علم أنها مُهاجَر

---

(١) قال الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٧٠٤): ضعيف جداً. روي من حديث عمرو بن عوف، وأنس بن مالك، والحسين بن علي بن أبي طالب، وزيد بن أبي أوفى... وصح الحديث موقوفاً على علي رضي الله عنه من طرق.

آخر نبي، فبِيع مراراً حتى وصل إليها. فمِن نسب خادم بيت النار إلى نسب بيت النبوة، في الوقت الذي ينزل فيه القرآن «بِتَبٍّ» سيد من سادات قريش لأنه صنديد من صناديد الكفر ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝﴾ أي: لم يغنه حسبه ولا نسبه: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝﴾ [المسد: ١ ـ ٣].

عبرة وعظة:

ومن العبر الخالدة أن تسجل تلك الملاحظة وهي أن الإسلام أخرج إنساناً فارسياً من النار إلى النور والرحمة... من نار الفرس إلى نور النبوّة..!

والكفر يُخرِج سيداً قرشياً من مطلع النور إلى غياهب الظلمة.. من بيت النبوّة إلى نار ذات لهب، وهذا كله إنما هو بموالاة الله أو موالاة الطاغوت ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقد أشار الشاعر إلى هذا المعنى بقوله:

لقد رفعَ الإسلامُ سلمانَ فارسٍ كما وضعَ الكفرُ النسيبَ أبا لهبْ

أنواع الترابط العام وطبيعته:

قد ترتبط الجماعة بأي رباط مادي أو فكري على أساس نفعي أو إنساني كتجارة أو زراعة أو صناعة، أو مذهب فكري مما يلزمهم من تعاون على عملهم، وعليه قامت النقابات وتكونت الاتحادات على المبدإ الذي التقوا عليه، وكذلك الأفكار الحزبية أيّاً كان نوعها أو اتجاه نزعتها فهو ترابط وإخاء، ولكنها كلها أُخوة محدودة ولأغراض مقصودة يقف التآخي عليها وتنتهي الأُخوة فيها بانتهائها، وقد تُورث العداوة والتبرّي؛ إذ كلٌّ يتبرى من الآخر، فينفر الصديق من صديقه، ويتبرى المتبوع من تابعه ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۝﴾ [البقرة: ١٦٦]

أي: أسباب الروابط إلا روابط الإسلام فإنها مطلقة عن الحدود وبعيدة عن الأغراض.

فهي في ذات الإلَه، وما كان في الله دام متصلاً ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف: ٦٧ ـ ٦٨]. ثم هي بعد أن تصحبهم في الدنيا تلازمهم في الآخرة حتى تدخلهم الجنة ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ٤٥ ـ ٤٧].

ومن هنا كان الإخاء في الإسلام أعمّ وأشمل أنواع الإخاء، بل وأسبقه في الوجود.

أول الإخاء:

ويمكن لنا أن نقول: إن أول إخاء لهو الإخاء في الله، وكان في عالم الذرّ قبل الإنسان والماديات، وهو ذاك الإخاء الذي شهدته أرض نعمان حينما أخرج الله ذرية آدم من ظهره: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾ [الأعراف: ١٧٢][(١)].

فآخى الله تعالى بينهم بالإيمان والعقيدة والإقرار بالربوبية لله وحده، ثم توالى هذا الإخاء بين الأُمم عن طريق الأنبياء والمرسلين بنفس الميثاق ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

وكان هذا ترابطاً بين الأُمم كذلك في بعثة الأنبياء إليهم بوحدة الدعوة ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦].

وكان هذا الارتباط مع طول الزمان وتباعد المكان كرابطة النسب الأدنى

---

(١) يُشير المؤلف ﷺ إلى الحديث الذي أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٢٣).

كما قال ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء أبناء علات ديننا واحد**»[1] وأبناء العلات هم أبناء الرجل الواحد من نساء عديدات. ولقوة هذه الأُخوة بينهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ فقد أدّوا ما أقرّوا به ونفّذوا ما التزموا به، فأوصى كل نبيّ قومه وبنيه أن يأخذوا بالإسلام وأن يلازموه حتى الموت، وأوصى كل نبي قومه باتباع كل مَن يأتي بعده من الرسل. فهذا إبراهيم عليه السلام أبو الرسل ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ وهذا يعقوب عليه السلام يستوثق من بنيه عند موته ماذا سيكونون عليه من بعده ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣١ ـ ١٣٣].

وكل نبي يوصي قومه باتباع مَن يأتي بعده، ولكأنهم جميعاً سلسلة محكمة الارتباط كل حلقة بالتي قبلها وما بعدها ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] فعيسى عليه السلام متمِّم لمن قبله مبشِّر بمن بعده.

ارتباطنا بمَن قبلنا مِن الأُمم:

كذلك ارتباطنا بمَن قبلنا من الأُمم برباط الشريعة الموحدة ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] فآمنّا بالله وبما أنزله الله علينا وبما أنزله على مَن قبلنا، قال الله تعالى:

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران: ٨٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٢ ـ ٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) بلفظين، الأول: «**الأنبياء أولاد علات**»، والثاني: «**الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد**». وليس في أحد اللفظين قوله: «**نحن معاشر**».

وقد شهد الله لهذه الأُمة بهذا الإيمان العام بقوله:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ارتباط هذه الأُمة بغيرها في أركان الإسلام:

وكما ربط الله بين الأُمم برباط العقيدة وأُصول الدين فقد ربط بيننا وبين مَن قبلنا بجميع أركان الإسلام مِن صلاة وزكاة وصيام وحج.

أ ـ الصلاة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣] أي: لعموم المؤمنين ومن لدن إبراهيم وإسماعيل، قال تعالى: ﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، إلى عيسى عليه السلام قال: ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ..﴾ [مريم: ٣١] إلى هذه الآية: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ [الإسراء: ٧٨]. وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾ [البقرة: ٤٣].

ب ـ الزكاة:

والزكاة من لدن إسماعيل عليه السلام: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾ [مريم: ٥٤ ـ ٥٥] إلى عيسى كما تقدم: ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾ [مريم: ٣١] إلى هذه الأمة: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المزمل: ٢٠] ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

جـ ـ الصيام:

قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: ١٨٣] أي: لستم وحدكم في تشريع هذا الركن عليكم.

د ـ الحج:

من أول يوم بُني فيه البيت أُمر إبراهيم عليه السلام بالنداء في الناس بالحج:

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝ ..﴾ [الحج: ٢٧] إلى هذه الأمة: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وحدة الأمة في هذه الأركان

وكما آخى الله تعالى بين هذه الأُمة والأُمم الماضية في هذه الأركان على سبيل الإجمال فقد آخى بها بين أبناء هذه الأُمة على سبيل التفصيل، ولهذا نرجع إليها مرة أُخرى.

أما الصلاة:

فقد تآخى فيها المسلمون في صفوف الجماعة لكل صلاة من الصلوات الخمس، حيث يلتقي المسلم مع إخوانه كل يوم خمس مرات، ثم تأتي الجمعة فيكون اللقاء على محيط أوسع مع عدد أكثر، ثم يأتي العيد فيكون اللقاء الأكبر على مبادئ إنسانية، ومعانٍ سامية عالية.

أما الزكاة:

فهي حق المال، فقد ربطت بين الأغنياء والفقراء برباط العطف والرحمة، فخفّفت من كثافة حجب المادة بالبذل من مال الأغنياء لسدِّ حاجة الفقراء، فتدنّي من ترفع الغنى، وترفِّع من انحطاط الفقر، مع المحافظة على شعور الفقراء واحترام أموال الأغنياء، فقرّبت بين طبقات الأُمة في شعور أخوي ومبدأ إنساني ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

أما الصيام:

فقد قال تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقال ﷺ: «**صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته**»[1] فهو توحيد عملي في هذا الشهر

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٩)، ومسلم (١٠٨١).

المبارك شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن، حيثما كان المسلم ورؤي الهلال صام، وحيثما كان المسلم ورُؤي الهلال أفطر. وتوحيد عملي في كل يوم من رمضان، وفي رمضان من كل سنة.

ومن أسرار منهج التشريع في هذا الركن ما أشار إليه سياق آياته في آخر بيانه من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ الآية. فيعقبها مباشرة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة: ١٨٧ ـ ١٨٨].

وبيان هذا السر العظيم أنه جعل الصيام يوحِّد بيننا حتى إذا ما أنهينا شهر الصوم خرجنا منه وكلّنا أُخوة، فخاطبنا تعالى بمقتضى ذلك بكاف الخطاب الجامعة لنا جميعاً: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم﴾ بإضافة الأموال إلى كاف الخطاب التي تعمّ الأمة كلّها فرداً فرداً، كأنها تشير إلى أن الأموال بيننا إنما هي أموال الإخوان كلٌّ منّا يحافظ على مال أخيه كما يحافظ على ماله بنفسه.

ثم جاء التحذير من دواعي الفرقة بقوله تعالى: ﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ أي: بالرشوة ﴿لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾ فأضاف الأموال هنا إلى الناس بدلاً من إضافتها السابقة إلى كاف الخطاب، فأصبحت أموال الناس، وأصبح كل شخص بعيداً عن الآخر، فلكأنما يُقال لنا إن الطاعة والعبادة تجمعنا وتآخي بيننا، وإن المعصية تفرِّقنا وتخالف بيننا، ولهذا جاء إثر الصيام ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم﴾ وإثر الرشوة والإثم وإفساد الضمائر ﴿لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ فالطاعة تجمعنا والمعصية تفرِّقنا، وهذا عين المؤاخاة في العبادات كلّها.

أما الحج:

فهو أعظم عمل تتجلى فيه مظاهر الأُخوة الإسلامية ووحدتها، يتجرد الحجّاج من كل مظاهر التفرقة ويبرز فيه كمال وحدتهم في ملابس الإحرام، واجتماعهم في الموقف الأعظم يوم عرفة وفي عامة مناسكهم، والتقاء القاصي بالداني وكل جنس ولون من مشارق الأرض ومغاربها في غير مشاحّة ولا شحناء، وبكل أدب وإخاء ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وبهذا المنهج كانت الأُمة الإسلامية حاضرها وماضيها بل ومستقبلها أُمة واحدة.. إلٰهها واحد..! ومعتقدها واحد..! وأنبياؤها وإن تعددوا لعلّات فدينهم واحد..!

ربط الأرض بالسماء

وبعد إكمال الأديان بالإسلام وإتمام النعمة بخاتم المرسلين وإنهاء الأُمم بخير أُمة أُخرجت للناس في ترابط وائتلاف؛ انطلقت روابط الإسلام من عالم الأرض إلى عالم السماء؛ من مجموعة الإنسان إلى ملائكة الرحمن، فربطت بين مؤمني هذه الأمة وبين حَمَلة العرش، وعطفتهم عليهم يستغفرون الله ويدعونه لهم ولذرياتهم ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر: ٧ ـ ٩].

وفي غضون هذا الدعاء الجليل نلمح معالم ربط الإنسان بمَن حوله من أُصوله وفروعه وحواشيه برباط الصلاح بقوله تعالى: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾.

كما أننا نلمح الشمول في موضوع هذا الدعاء فيما استوعبه من طلب جلب النفع ودفع الضر فسألوا لهم دخول الجنات ووقايتهم السيئات المستلزم النجاة من النار، فكان هو الفوز العظيم.

وبكل ما تقدم كمل الدين وتوصّلت حلقات إخاء من عالم الذر إلى معاشر الأنبياء إلى مجموع الأُمم إلى أُمة خاتم الرسل إلى الملائكة تحت العرش، فكأن هذا العنصر المعنوي في المنهج الإسلامي للمؤاخاة نور نزل من السماء فأفاض في الأرض وربط بين أُممها إلى هذه الأُمة، وكان في النهاية سموّاً بالإنسانية إلى أعلى درجات الرقيّ والكمال.

ومن هنا كان هذا الدين أكمل الأديان، وبه تمام النعمة. وجاءت خاتمة

المطاف ومسك الختام في أعظم مشهد ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وفيها يقول رجل من اليهود أشد الناس حسداً وعداوة للإسلام يقول لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: وأي آية؟ قال: قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية. فقال عمر رضي الله تعالى عنه: إني لأعلم متى نزلت وأين نزلت[1].

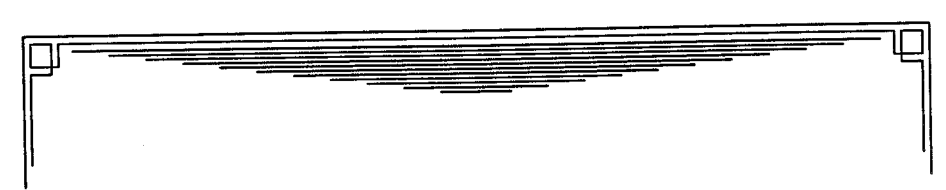
ضرورة صيانة هذا المنهج:

ولعظمة هذا المنهج وشدة خطورته كان لا بدّ له من صيانة لكي يبقى، ولا بدّ له من تنمية ليواصل سيره مع الإنسانية، ويؤتي ثماره كل حين بإذن ربه.

ولكأن المؤاخاة في نظر الإسلام بمثابة غرس نبت فأورق، فأظلّ فأثمر فأينع، ولا بدّ له من روافد الماء تغذيه، ومن عوامل صيانة تحميه، وتلك هي الخطوة الثانية من هذا المنهج الإسلامي الجليل.



(١) أخرجه البخاري (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧).



عوامل الصيانة ودواعي التنمية

أ ـ عوامل الصيانة:

كل عمل يتم ويكمل فإنه ألزم ما يكون له هو صيانته، وقد اهتم الإسلام بصيانة الأخوة الإسلامية فأوصد أبواب النزاع والخلاف «**كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه**»[١] ولو بحثنا عن أسباب النزاع كلها سواء بين الأفراد أو الجماعات لما وجدناها تخرج عن هذه الأسباب الثلاثة غالباً، ولكونها أعزّ شيء في الوجود لدى الإنسان فقد جاء تحريمها أشد تحريم كما قال الرسول ﷺ في حجة الوداع يوم الحج الأكبر: «**أي يوم هذا؟ في أي شهر هذا؟ في أي بلد هذا؟ فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذه**»[٢]، فهذا تحريم مضاعف ثلاث مرات، وعليه فإذا صينت الدماء أمن الناس واطمأنوا، وإذا صينت الأموال انتعشت الحياة، وإذا صينت الأعراض ترابطت الأُمة بروابط النسب والأرحام.

صيانتها بالحدود:

ولأهمية هذه الأمور الثلاثة وضعت الحدود؛ فيُقتصّ من الجاني، ويُحدّ الزاني، ويُقطع السارق، ويُجلد القاذف، واستتبع كل أصل بفروعه، فأُتبعت السرقة بالغش والرشوة، وأُتبع القذف باللمز والسخرية والغيبة والنميمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ١١].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩).

وقد صوّر القرآن الكريم الغيبة في أقبح صورة، فجعل المغتاب ذئباً ضارياً ينقضّ على ميت مسجًّى في أكفانه، يمزِّق ستره وينهش لحمه.

وصان الأخوة من الظنون الآثمة والأوهام الباطنة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾ [الحجرات: ١٢].

فاجتثّ أُصول الشر من جذورها واستُتبعت بفروعها.

وأمَّن الطريق للمسافر ليتواصل الناس في أمن ودعة، واعتبر قاطع الطريق مفسداً في الأرض محارباً لله ورسوله، فالله حرب عليه، وشرع في حقِّه أقصى العقوبات وأردعها ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المائدة: ٣٣].

وقد صِينت وحدة الأُمة بقتل من أراد تمزيقها بشقِّ العصا كمن وجد الناس بايعوا الإمام فقام يطلب البيعة لنفسه.

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قصة الستة الذين عيَّنهم للشورى حول اختيار الخليفة من بعده فيأمر بحبسهم ثلاثة أيام ويأمر بقتل الأقلية إن خالفت الأكثرية فيما اختارته منعاً للفرقة وصيانة للوحدة في الأُمة.

ب ـ دواعي التنمية:

لم يكتفِ الإسلام في هذا المنهج بدفع الضرّ وصيانة الوحدة، بل طلب من كل إنسان جلب النفع لإخوانه المسلمين، وأن يُنزل كل إنسان جلب النفع لإخوانه المسلمين، وأن يُنزل كل إنسان أخاه المسلم منزلة نفسه «أَحِبَّ لأخيك ما تحبُّ لنفسِك»[١] «لا يؤمنُ أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسِه»[٢]

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٥)، وابن ماجه (٤٢١٧) بلفظ: «... وأَحِب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً»، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٨٧٦).
(٢) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

وبهذا يصبح المجتمع كله كإنسان واحد وكالبنيان المرصوص. وشرع بجانب ذلك كل دواعي التآلف والتآخي والمحبة والموالاة فردية وجماعية.

أولاً: من الدواعي الفردية:

• إفشاء السلام كما قال الرسول ﷺ: «**ألا أدلُّكم على شيء لو فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**»[١] «**تُسلِّم على مَن عرفتَ ومَن لم تعرف**»[٢].

• افتراض حقوق على المسلم للمسلم يؤدِّيها ويطالَب بها لتدوم الروابط الأخوية في الله كما في الحديث: «**حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيتَه فسلّم عليه، إذا دعاكَ فأجبه، إذا استنصحك فانصح له، إذا عطس فشمِّته، إذا مرض فعُده، إذا مات فشيِّعه**»[٣].

• تبادُل الهدايا، قال ﷺ: «**تَهادُوا تحابُّوا**»[٤] وقال: «**لا تَحقِرَنَّ جارة لجارتها من المعروف شيئاً ولو فرسن شاة**»[٥].

• التزاوُر في الله، لقصة الرجل الذي خرج زائراً أخاه في الله فلقيه الملَك وقال له: أحبَّك الذي أحببته فيه[٦].

• العفو عن الزلّات ومقابلة الإساءة بالإحسان ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. وفي الحديث الشريف: «**مَن عفا عن مظلمة لأخيه لم يزدد بها إلا رفعة، فمَن عفا وأصلح فأجرُه على الله**»[٧].

• الترغيب العام «**سبعة يظلُّهم الله تحت ظِلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظِلُّه... ـ وفيه ـ اثنان تحابا في الله**»[٨].

---

(١) أخرجه مسلم (٥٤).
(٢) أخرجه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩).
(٣) أخرجه مسلم (٢١٦٢).
(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٩٤)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (١٦٠١).
(٥) أخرجه البخاري (٢٥٦٦)، ومسلم (١٠٣٠).
(٦) أخرجه مسلم (٢٥٦٧).
(٧) لم أقف عليه.
(٨) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

• النهي عن المقاطعة فوق ثلاثة أيام[١].

ثانياً: الدواعي الاجتماعية:

وهي كثيرة أيضاً فمنها في المعاملات ومنها في العبادات.

ففي المعاملات:

• النصح في التعامل، والرفق في المعاشرة، والإحسان في المعاملة **«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله»**[٢].

• ومنها الوصية بالجار[٣]؛ جار البيت أو البلدة أو القطر ليتسلسل الإحسان فيعمّ العالم.

وأما في العبادات فهو ما تقدم الكلام عليه من إيقاع الصلاة في جماعة والجمع والأعياد، وروابط الزكاة والصدقات والصيام والحج.

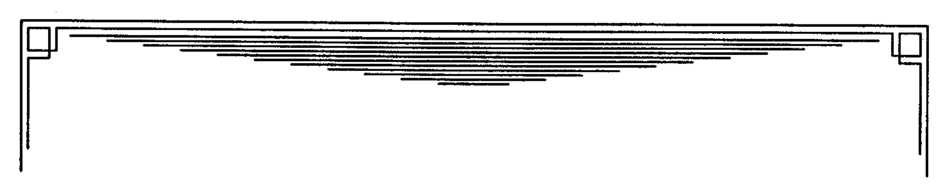


---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٧٧)، ومسلم (٢٥٦٠)

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠١٤)، ومسلم (٢٦٢٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.
وأخرجه البخاري (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.



نتائج هذا البرنامج

جاءت نتائج هذا البرنامج حسب مقدماته: مادية ومعنوية شاملة واسعة رسمياً وشعبياً... فردياً واجتماعياً.

من النتائج المادية:

الترابط الشديد بين الأفراد كترابط لبنات البناء المرصوص «**المسلم للمسلم كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً**»(١).

ومن النتائج المعنوية:

ربط القلوب بالشعور والأحاسيس ترابط الجسد الواحد في إحساسه وشعوره «**مثَل المؤمنين في تَوادِّهم وتراحُمِهم كمثَلِ الجسدِ الواحدِ إذا اشتكى منه عضوٌ تَدَاعَى له سائرُ الجسد بالسهرِ والحمّى**»(٢).

تصوير القرآن هذه النتيجة المزدوجة:

وقد صوَّر القرآن هذه النتيجة المزدوجة في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩]. فقد أنتجت هذه الأخوة في الله تلك الرحمة بين الجميع مما يُكسِب المجتمع العطف ولين الجانب وحبّ الخير للآخرين، كما جعلتهم يلتفّون حول بعضهم

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

التفاف شطأ الزرع حول أصله مما يكسب المجتمع الترابط والتماسك والقوة الحسيّة التي تغيظ الكفّار.

ومجتمع سادَتْه الرحمة فيما بينهم وتوفرت له القوة على عدوِّهم كان جديراً بالسيادة وقيادة العالم، وبالفعل وصلت الرحمة بينهم إلى حدّ الإيثار على النفس، ووصلت قوة الترابط إلى حدّ الإطاحة بعرشَي كسرى وقيصر.

من النتائج الشعبية:

ومن هذه النتيجة، وصل المجتمع الإسلامي إلى ما لم تصله الإنسانية في أيّ مجتمع مثالي في تاريخ الإنسانية الطويل، كان مسرحها هذه المدينة المنورة، وكان أبطالها أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، ظلّت حلقاتها إكليلاً في جِيد الزمان وتاجاً في جبين التاريخ.

١ ـ من ذلك لما قَدِمَ المهاجرون إلى المدينة أنزلهم الأنصار معهم في منازلهم، وأشركوهم معهم في أموالهم، وامتلأت قلوبهم لهم حبّاً وإخاءً، ولما غنم النبي ﷺ أموال بني النضير دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين ثم قال ﷺ: «**إن أحببتم قسمتُ ما أفاء الله عليَّ من بني النضير بينكم وبينهم، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنهم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتُهم وخرجوا من دياركم**» فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ: بل تقسمه بين المهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا، ونادى الأنصار: رضينا وسلّمنا يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «**اللَّهمّ ارحم الأنصار وأبناء الأنصار**» وأعطى المهاجرين ولم يُعطِ الأنصار شيئاً[1].

٢ ـ الإيثار على النفس: وخرّج مسلم في صحيحه في قصة ضيف رسول الله ﷺ الذي استضافه رجل من الأنصار وليس عنده إلا قوت عياله، فعلّلوا الأطفال حتى ناموا من غير عشاء واحتالوا على السراج فأطفؤوه،

---

(١) لم أقف عليه. أما قوله ﷺ: «**اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار**» فأخرجه أحمد (٣/ ٧٦ ـ ٧٧) في قصة اعتراض الأنصار على إعطاء الغنائم لقريش بعد قتالهم، وإسناده حسن.

وآثروا الضيف على أنفسهم وأولادهم[١].

٣ ـ إيثار جماعي: وروى عبد الله بن عمر قال: أُهدي لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة فقال: إن أخي فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منّي فبعث به إليه، فقال الآخر: إن أخي فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منّي فبعث به إليه، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها سبعة بيوت حتى رجعت إلى الأول، فهذه بيوت سبعة لا يدري بعضها عن بعض، ربطت بينهم الأُخوة الإسلامية فأنتجت هذا الإيثار حتى انطلقت الهدية فطافت عليهم جميعاً حتى انتهت إلى حيث بدأت.

فسجّل القرآن الكريم هذه السجية مفخرة لهم إلى الأبد ودرساً لِمَن بعدهم من الأجيال ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾ [الحشر: ٩].

٤ ـ ولقد امتدت معهم هذه الروح إلى ما بعد حياة الرسول ﷺ، وبقي أثر المؤاخاة معهم يصحبهم في أسفارهم وغزواتهم وفي حالة الشدّة القصوى، كما في وقعة اليرموك مما يروي لنا حذيفة العدوي قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمٍّ لي ومعي شيء من الماء وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به فقلت له: أسقيك؟ فأشار برأسه أن نعم، فإذا أنا برجل يقول: آه آه. فأشار إليَّ ابنُ عمّي أن انطلق إليه، فجئته فإذا هو هشام بن العاص فقلت: أسقيك؟ فأشار برأسه أن نعم، فإذا أنا برجل يقول: آه آه. فأشار هشام أن انطلقْ إليه، فجئته فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمّي فإذا هو قد مات. لقد صدق الله العظيم في وصفهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. ولئن مات هؤلاء النفر الثلاثة ظمآى فقد تفجّرت مِن سيرتهم ينابيع الرحمة تشفي الأرواح وتحيي القلوب.

النواحي الرسمية:

ولم تكن هذه الآثار عواطف شعبية وتبادل شعور فردي فحسب، بل كان

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٩٨)، ومسلم (٢٠٥٤).

لها آثار رسمية في مجال الدولة والمسؤولية، وعليه قال ﷺ: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على مَن سواهم**»[(١)] وقوله ﷺ لأُمّ هانئ: «**قد أجرنا مَن أجرت يا أُم هانئ**»[(٢)] فهو تصديق عملي لقوله ﷺ: «**يسعى بذمتهم أدناهم**».

نتائج فوق العادة:

لقد تخطّت رابطة الإسلام بَني الإسلام، وشملت الإنسان والحيوان، وجعلت الجميع مرتبطاً معاً، كما في قصة العلاء بن الحضرمي لما قَدِمَ البحرين ووجد العدو قد انحاز بسفنه إلى الشط الآخر، فتقدم نحو البحر وخاطبه بالروابط بينهما في الله فقال له: أيها البحر نحن جند الله خرجنا في سبيل الله وأنت مسخّر بأمر الله، عزمتُ عليك أن تجمد لنعبر إلى العدو، فجمد البحر حتى عبروا جميعاً وانتصروا على عدوّهم[(٣)].

وكما فعل سفينة مولى رسول الله ﷺ [بالأسد][(٤)] الذي اعترضهم.

ومِن قبلُ مع داود وسليمان عليهما السلام، سخر الله لهما الجبال والطير والرياح قال تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٧ ـ ١٩] لما أناب إلى الله سخر الله معه الجبال الصمّ يسبّحن بالعشيّ والإشراق، والطير البكم محشورة له كلّ له أوّاب. وقال تعالى عن سليمان: ﴿ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص: ٣٤ ـ ٣٨] لما أناب سخّر الله له الرياح والشياطين كل ذلك بعامل الروح الديني.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٧٥١)، وابن ماجه (٢٦٨٥)، وقال الألباني في إرواء الغليل (٢٢٠٨): حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٧)، ومسلم (٣٣٦).

(٣) لا تصح. انظر: قصص فيها كلام (١/ ٣٦) لفوزي الأثري.

(٤) سقطت من الأصل المطبوع. والقصة أخرجها الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٠٦) وصححها على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

إلى عالم السماء:

وبعد أن ربطت الإنسان بأخيه، وسخّرت لهم العوالم مِن حولهم؛ تسامت بهم إلى عالم السماء، فربطت بينهم وبين الملائكة عامة وحَمَلَة العرش خاصة كما تقدم، وكانت النتائج عملية:

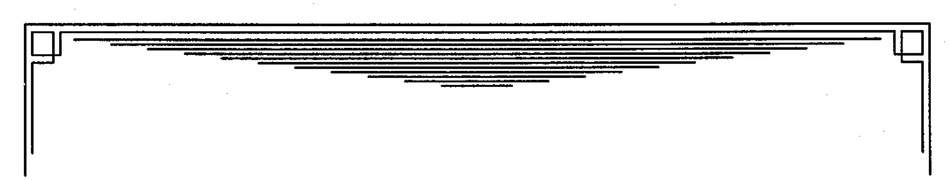
١ ـ حملة العرش يستغفرون ويدعون.

٢ ـ ومن عموم الملائكة جند ينزلون مدداً للمؤمنين في قتالهم الأعداء، وذلك لوحدة القصد وتوحيد الغاية وروابط الإيمان، فأنزل الله الملائكة مدداً وتلبية وإغاثة ونصرة للمؤمنين: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢]. وقال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ [الأنفال: ٩]. وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢٣ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝١٢٤ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝١٢٥ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١٢٦﴾ [آل عمران: ١٢٣ ـ ١٢٦].

تشير الآيات إلى موجب إنزال الملائكة: بشرى وطمأنينة ومدد للمؤمنين.

ما بين الله تعالى ورسوله ﷺ وعامة المؤمنين:

وقد جعل الإسلام للمسلمين ولاية الله تعالى لهم يرعاهم ويهديهم: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وجعل الموالاة بين المؤمنين ورسول الله ﷺ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ [الأحزاب: ٦] بل أصبحت الولاية دائرة من الطرفين ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤].



واجب المسلمين اليوم

نرى لزاماً في الوقت الحاضر، وبالأخصّ بعد تفرُّق الأُمة وتشتُّت الكلمة وشدّة غربة الإسلام وتقاطع أبناء المسلمين وتكالب أعدائهم عليهم وتداعيهم على بلادنا تداعي الأكلة على قصعتها؛ أصبح لزاماً على الأُمة الإسلامية أفراداً وجماعات، شعوباً وحكومات؛ أن تعود إلى هذا المنهج الإسلامي لتوحِّد صفوفها وتقارب بينها وتقوِّي روابطها بروح الإسلام، وأن يستجيب المسلمون جميعاً لكل داعية إسلاميّ تلبية لنداء الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وما أشدَّ احتياجنا لذلك، وأمسَّ حاجتنا إليه.

ولكي نصل إلى هذا كله لا بدّ علينا وعلى كافة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يدَعوا عنهم الدعايات وتنميق العبارات وتعدّد الخطابات وتهريج الإذاعات؛ وأن يرجعوا إلى منهج الإسلام العملي في كيفية مؤاخاته بين أبناء المسلمين، فيزيلوا أسباب الفرقة بترك العنصرية، ويحلّوا محلها دواعي الألفة بصيانة الحقوق الإنسانية حتى في المجال الدولي، فتُقام العلاقات على مبدإ المساواة واحترام الحقوق، وعدم التدخل في شؤون الآخرين، والتزام التعاون العام في المجال السياسي والاقتصادي، ليكونوا يداً واحدة وأمة واحدة فيستعيدوا مجدهم ويعيدوا للإسلام عزّه وتلوح في سماء بلادهم ألوية العزّة والكرامة والمجد والسؤدد.

كما نرى على بلاد الحرمين خاصة التي حباها الله من شرف البقاع المقدسة وحكومتها التي أكرمها الله بخدمة تلك المقدسات ملتقى المسلمين في كل عام؛ أن تفتح مراكز ثقافية في كل موطن للحجاج، مكة والمدينة ومنى؛ تقام فيها المحاضرات وتوزّع فيها النشرات بدراسة وتوجيه الأمة الإسلامية. وإنها لأحقّ البلاد بذلك لما تحتله الآن من المكانة المرموقة وموقفها الطبيعي ديناً ودنيا.

دور الجامعة والرابطة:

وإني لأخصّ المؤسستَين الإسلاميَّتَين العظيمتَين الجامعةَ الإسلامية بالمدينة المنورة ورابطة العالم الإسلاميّ بمكة، فإن دورهما عظيم.

فالجامعة عن طريق طلابها وبعثاتها، والرابطة عن طريق أعضائها ومندوبيها، فإن طلاب الجامعة الذين يمثّلون معظم دول العالم الإسلامي؛ قد وثّقت الدراسة روابطهم، فإذا عادوا إلى بلادهم بمبادئ الأخوة الإسلامية فيصبح كل قطر مرتبطاً بالآخر عن طريق هؤلاء الطلاب، والطلاب مرتبطين ببعض عن طريق الجامعة، وتصبح الجامعة معقل الدعاة، وتعود المدينة مركز الدعوة ومبعث نهضة من جديد.

وكذلك الرابطة بمكة عن طريق أعضاء المجلس التأسيسي يتعاونون معها وتتعاون معهم في بلادهم لإيجاد نشاط إسلامي موحّد، وعن طريق مؤتمراتها كما كان لمؤتمرها السابق سنة ١٣٨٤ أعظم الأثر كما شاهدتُ ذلك في كراتشي عند توجُّه بعض الأعضاء لحضور المؤتمر والروح التي أُفعمت بها في المجالات الدينية هناك.

ويمكن للرابطة أن توسّع دائرة نشاطها في المؤتمرات، فتستطيع أن تنظّم مؤتمرات إسلامية عديدة على مستويات متفاوتة وفي أوقات متعددة. ولا سيما في موسم الحج من كل عام.

وتستطيع أن تنوِّع في مؤتمراتها من مؤتمر للعلماء وآخر للأطباء وتارة لرجال السياسة، وآخر لخبراء الاقتصاد إلى غير ذلك من صحافة وإذاعة وطباعة لدراسة مشاكل العالم الإسلامي، كل مؤتمر يدرس مشاكل اختصاصه، ثم توزع نتائج تلك المؤتمرات لكافة الدول الإسلامية لتستفيد بخبرات هؤلاء الأخصائيين، ويصبح العالم الإسلامي كله أُمة واحدة في مقاصده وميادينه وإنتاجه وإن تعددت حكوماتها أو تباعدت أقطارها.

فإن الإسلام سيوحِّدها ويقارب بينها. فإن فعلوا ذلك حفظوا كيانهم، وحافظوا على مصالحهم، وأخذوا مكانهم بين أُمم العالم.

وقد جرّب العالم مناهج عديدة فلم تحقّق آمالهم، بل فرّقت جمعهم

وبدّدت شملهم وكانت كلها تخدم الأعداء. وما عليهم إلا أن يجرِّبوا هذا المنهج الذي جرّبه السابقون الأولون فحقّق لهم العزّة والسعادة.

ونسأل الله تعالى أن يهيِّء لهذه الأُمة رجالاً عامِلين، ولهذا الدين دُعاة مخلصين يهبون نفوسهم لخدمة الإسلام والمسلمين.

وصلى الله وسلم وبارك على خاتم الأنبياء والمرسلين ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.



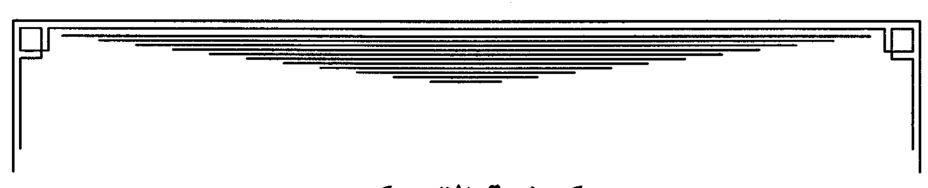


التحكيم بين المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

[الحجرات: ٩ ـ ١٠]



كيفية التحكيم

مقدمة:

بمرور أربعة عشر قرناً على تعاليم الإسلام الحنيف، وقد سجل التاريخ بشريط الأعوام أحداثاً جِساماً، منذ اللحظة الأولى من تاريخ الإسلام، سواء أحداث الهجرة في ظلمة الغار ومطاردة المشركين بالرصد والطلب، وسواء ما بعد ذلك من لقاء العدو، وتحزُّب العرب، وتأزُّم المواقف، حتى زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وما دفع المسلمون من تضحيات وشهداء في سبيل إعلاء كلمة الله؛ والإسلام يسير في طريقه المرسوم حتى تمّت كلمة ربك عدلاً وصدقاً، فكمل الدين وتمّت النعمة، وظهر الإسلام على الدين كلّه، ثم جاءت فاجعة المسلمين في انتقال الرسول الكريم ﷺ إلى الرفيق الأعلى فأخذتهم الدهشة وأذهلتهم الفاجعة، حتى أن عمر لَيهدِّد بالسيف مَن يقول: إن محمداً قد مات، واختلفوا في تغسيله ودفنه وأين يدفن(١).

ومرّت العاصفة بعد الصحوة واستجماع القوى، وواصل الإسلام سَيره، وانطلق جيش أُسامة كما عقد لواءَه رسولُ الله ﷺ في حياته، وحمل الخلفاء الراشدون لواء الدعوة بأمانة، وكانت أرواحهم ثمناً لِحقِّها وفداء لها، فقُتل الخلفاء الثلاثة عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم.

واصطدمت مسيرة الإسلام بخلافات إقليمية ووجهات نظر اجتهادية، راح ضحيتها مئات الرجال، أكلتهم رحى الحروب الطاحنة، أوقف رحاها سيد شباب أهل الجنة الحسن بن علي ابن بنت رسول الله ﷺ(٢).

---

(١) انظر: صحيح البخاري (٣٦٦٧).

(٢) يشير المؤلف رحمه الله إلى قول النبي ﷺ: **«الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة»**. أخرجه الترمذي (٣٧٦٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح. ووافقه الألباني

وانطلقت دعوة الإسلام تلمّ الشعث وتربأ الصدع وتهدي السبيل، وهكذا في كل عهد تثور فيه فتنة أو تدور رحا حرب، فما هي إلا عاصفة تمرّ، ثم تهدأ الأمور وتستقرّ، ويمضي الإسلام في طريقه.

ولم يزل الإسلام هو عامل الضمان للأُمة الإسلامية في بقائها وفي إصلاح أحوالها، ما داموا يقيمون أركانه، ويعيشون في ظلّه، حتى مضت بالمسلمين الأعوام والقرون أربعة عشر قرناً والإسلام يساير الناس ويقاوم الأحداث، وهو هو كأنه اليوم أُنزل في تمام جدَّته وعظيم قوته، لم توهنه السنون ولم تحطّ من قيمته المصادمات.

تقرأ القرآن فتجده غضّاً طرياً؛ وتسمع الأذان فلكأنك لأول مرة تسمعه يثير إحساسك وينبّه شعورك ويستجلبك لإجابته، يقدُم رمضان فتتلقاه الأُمة بالغبطة وتودّعه بالفرحة والعيد السعيد، ويأتي الحج وبرغم ما فيه من مشاق وعنت وبذل وتضحيات؛ فإن مَن حجّ مرة ـ رغم ما يعانيه ـ يتمنى لو نالها مدى حياته.

وهذا المال صنو النفس يبذل الغني حق الفقير طواعية وبطيب نفس، كل ذلك مما يثبت عملياً مدى صلاحية الإسلام وأصالته وقوة إصلاحه للإنسانية.

لم يأتِ العالمُ رغم تقدمه وتحضُّره بما يحلّ محلّ تعاليمه اجتماعياً أو أخلاقياً أو اقتصادياً، أو حتى عسكرياً، ولا في أيّ مجال كان.

وإذ كنّا على أبواب القرن الخامس عشر وفي أوائله وبعد أربعة عشر قرناً؛ فإننا يجب علينا أن نقف وقفة طويلة نسترجع عِبَر الماضي ونأخذ منها دروس المستقبل.

ونجزم بأنه لا حصن ولا وقاية ولا مأمن للعالم الإسلامي إلا بالإسلام.

وإذا كنّا في هذا القرن الماضي قد حاولنا مع محاولات العالم أن نعالج قضايانا ضمن قضايا العالم الآخر، وشُكِّلت هيئات، وكُوِّنت مؤسسات كهيئة الأُمم كافة، وجامعة الدول العربية خاصة.

= في السلسلة الصحيحة (٧٩٦).

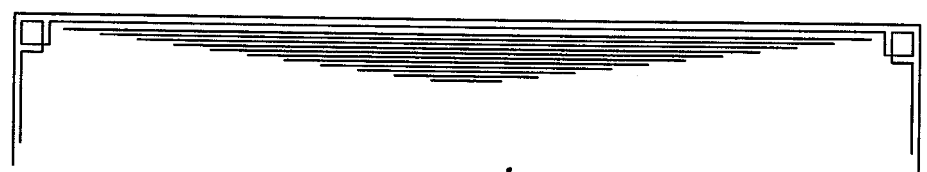
فلم نحصل على حق لنا مسلوب، ولم نجد نصرة لمظلوم ولا إنقاذاً لمعدوم، فإننا لو رجعنا إلى ديننا لوجدنا الحلول ووجدنا الهيئات والنظم العادلة البنّاءة، لا تُحاجي ولا تداجي، ولا تمييز بين قضية وأُخرى، ولا بين شخصية وشخصية، لا نقض فيها لقوي على ضعيف، ولا تمييز فيها لغني على فقير، دستورها الحق، ومنهجها العدل والقسط، وروحها الإخاء والمحبة.

وذلك فيما سبق أن قدّمناه في عام ١٣٨٧هـ بعنوان هيئة أُمم إسلامية من نصوص قرآنية: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ٩ ـ ١٠] وما يلزم الهيئة المذكورة من محكمة عدل إسلامية أو بوليس دولي إسلامي وما إلى ذلك في إطار الإسلام.

وإن الحاجة اليوم لهي أشدّ مساساً وألزم لقيام هذه الهيئة.

وسيرى القارئ جميع جوانب إقامتها من نظام وميثاق هيئة الأُمم وميثاق جامعة الدول العربية، أي إمكان قيام ذلك شرعاً ونظاماً. وبالله تعالى التوفيق.





هيئة أمم إسلاميّة

بسم الله الرحمن الرحيم. ربنا آتنا من لدنك رحمةً، وهيِّء لنا من أمرنا رَشَداً، ربِّ اشرح لي صدري، نحمدك اللَّهمّ يا رب العالمين وإياك نعبد وبك نستعين، ونستهديك الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والصدِّيقين.

ونصلِّي ونسلِّم على عبدك ورسولك محمد المبعوثِ رحمة للعالمين، الدَّاعي إلى الحق والمقيم للعدل المبين، وعلى آله وأصحابه وأنصاره وأتباعه إلى يوم الدين.

وبعد: إن الحالة التي تسود العالم اليوم لَتُثير الشكوك في إمكان استتباب أمن عالمي. وإن أحداث الساعة العامة والخاصة من حروب محلّية في كل منطقة من شرق أو غرب، عسكرياً أو اقتصادياً، فكرياً أو مادياً، ولا سيما مع التعصّب المحموم للمبادئ المتضادة في العالم، لَيهدِّد بحرب عالمية بين عشية وضحاها مما يحتّم على الإنسانية كلّها العمل الحثيث لإيجاد حلول عملية للمشاكل العالمية كلّها حلّاً سليماً على مبادئ قويمة يرتضيها الجميع.

وقد مرّ العالم بحالات مناسبة إبان الحربين العالميتين الأولى والثانية، فكانت مُوحِية بإيجاد هيئة دولية كمنظمة عامة تعمل على سلامة أمن الأعضاء فيها والحفاظ على مصالحهم، فتكوّنت عصبة الأُمم عقب الحرب العالمية الأولى في مطلع هذا القرن الذي نعيش فيه.

ولكن هذه المنظمة لم تستطع تحقيق ما أُقيمت من أجله، فوُجدت التكتلات وتمزَّق العالم، وانقسم إلى معسكرات دخلت مع بعضها في منافسات أدَّت إلى الحرب العالمية الثانية. وانتهت بالقضاء على البعض منها، واقتسم المحاربون بقية العالم فيما بينهم، مما أوجد تكتلات إقليمية للعمل

على تحقيق نفس الغاية الأولى، فأُنشئت المنظمات الإقليمية لتعمل في أبعاد منطقتها، وفي حدود إمكانياتها فقط، منها الجامعة العربية التي أُنشئت سنة ١٩٤٥م - ١٣٦٧هـ، إلَّا أنها منظمة إقليمية ينصّ ميثاقها على أن مهمتها ودّية وتوجيهية استشارية، وليست قراراتها ملزمة إلّا في حالات معينة، وليس لها الحق في استعمال القوة لحل مشاكلها ومشاكل الدول الأعضاء فيها كسائر المنظمات الإقليمية الأُخرى. وفي مقدمة ميثاقها ما نصَّه:

إن رؤساء سوريا، شرق الأردن، العراق، المملكة العربية السعودية، لبنان، مصر، اليمن. تثبيتاً للعلاقات الوثيقة والروابط العديدة بين الدول العربية، وحرصاً على دعم هذه الروابط وتوطيدها على أساس احترام استقلال تلك الدول وسيادتها، وتوجيهاً لجهودها إلى ما فيه خير البلاد العربية قاطبة وصلاح أحوالها وتأمين مستقبلها وتحقيق أمانيها وآمالها، واستجابة للرأي العربي العام في جميع الأقطار العربية؛ قد اتفقوا على عقد ميثاق لهذه الغاية. . . إلخ.

وتنص المادة الأولى من ميثاق الجامعة أنها تتألف من الدول العربية المستقلة الموقِّعة على هذا الميثاق.

وبهذه الاعتبارات الأساسية في إنشاء الجامعة العربية كانت مؤسسة إقليمية لا يتأتى لها التدخل في حلّ المشاكل العالمية تدخلاً مباشراً.

وقد وجدت منظمات أُخرى إقليمية في أمريكا وأفريقيا، وكلّها محلية محدودة النطاق والإمكانيات.

ثم أُنشئت هيئة الأُمم المتحدة سنة ١٩٤٦ بدلاً من عصبة الأُمم، كمنظمة عالمية تسمح لكل دولة في العالم معترَف بها أن تنضم إليها وفق نصوص ميثاقها العام.

ولكن، هل أدَّت تلك المنظمات رسالتها وحقّقت الغاية التي أُنشئت من أجلها؟ إن الجواب ما نرى وما يجري في العالَمين العربي والأوروبي.

وليس ذلك تنقُّصاً للجامعة العربية، أو نقداً للهيئة الدولية. ولكن إحالة على الواقع الذي لا يخفي نفسه. وسواء كان السبب هو ضعف ميثاق الجامعة العربية أو هو عدم تعاون أعضائها على تحقيقه. ومثل ذلك يقال بالنسبة إلى

هيئة الأُمم. أي: سواء كان من قبيل تغلُّب بعض العناصر عليها أو إعطاء ميثاقها بعض المميزات لبعض الأعضاء على غيرهم، فإن النتيجة النهائية واحدة تلتقي عند عدم تجنيب العالم أسباب القلق والاضطراب.

ولست أذكر قضية واحدة من قضايا العالم الإسلامي حُلَّت في هيئة الأُمم المتحدة لصالح أصحابها، وتلك فلسطين الدامية جرحت بوعد بلفور بمشهد من عصبة الأُمم، وقُسِّمت بإشراف هيئة الأُمم، واعتدى الصهاينة أخيراً على مقدسات المسلمين (ثالث الحرمين)[١] بمسمع ومرأى من العالم كله.

وتلك (كشمير) سيف بحدَّين يفلّ عزيمة المسلمين، أوجدتها هيئة الأُمم، ومن قبل كانت معارك الجزائر وزنجبار والحبشة، وحالياً في نيجيريا وفي أفريقيا وفي كل مكان.

فماذا فعلت هيئة الأُمم للمسلمين في هذا كله؟ وماذا فعل العالم الإسلامي للجماعات المسلمة تحت حكم الدول الاستعمارية. وكانت تستصرخ فلا يسمع لها، وتلتمس من بعض الدول المشتركة في هيئة الأُمم أن ترفع لها شكواها إلى هيئة الأُمم؛ فلا تجد مَن يشفق عليها في ذلك، الأمر الذي جعل المسلمين في ضياع بين الدول وإهمال بين الأُمم، يُقتلون ويُشرَّدون فلا يُدرى عنهم، وإن درى عنهم أحد لا يملك لهم من أمرهم شيئاً. بينما جميع الطوائف في العالم على اختلاف أديانهم ومبادئهم لهم ارتباط وبينهم تعاون، وفيهم تكتّل لمبادئهم ومصالحهم، وأحداث التاريخ شواهد.

أولاً: التكتل اليهودي:

في عهد ستالين اعتُقل عشرة علماء يهود في روسيا وقُدِّموا للمحاكمة

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وأما المسجد الأقصى فهو أحد المساجد الثلاثة التي تُشد إليها الرحال. . . والأقصى اسم للمسجد كله، ولا يُسَمَّى هو ولا غيره حرماً، وإنما الحرم بمكة والمدينة خاصة. اهـ.

وحيث إن المسجد الأقصى لا يسمى «حرماً» فلا يُقالُ حينئذٍ: «ثالث الحرمين».

وانظر: اقتضاء الصراط المستقيم (ص٤٣٤)، مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٧/ ١٤ ـ ١٥)، معجم المناهي اللفظية (ص٢٠٩).

لقضايا وطنية ضده، وخشي يهود العالم أن يكون سبباً لإعدامهم، فتكتلوا وأقاموا الدنيا وأقعدوها حتى توقف ستالين عن المضي في محاكمتهم ومات أثناءها، وجاء خلفه خرتشوف فأخرجهم من المعتقل واعتذر للعالم بأنها غلطة ستالين. وظلَّ ذلك التكتل حتى أسفر عن قيام إسرائيل في قلب العرب والاستيلاء على ثالث الحرمين غدراً، في الوقت الذي كانت روسيا تهجِّر المسلمين من بلادهم إلى سيبيريا، فهجَّرت مسلمي القرم وشاشان والقرشاي؛ حوالي مليون وربع من المسلمين رجالاً ونساءً، شيوخاً وأطفالاً، دون أن يتحرك لهم مسلم واحد في العالم الإسلامي، بل إن خرتشوف نفسه قد أعاد البعض منهم لمصلحة الدفاع عن البلاد. (وخطّأ ستالين أيضاً في ذلك). ومن دواعي العجب أن ترتكب روسيا هذا الجرم الشنيع في حق الأبرياء العزَّل في الوقت الذي كان مندوبها في هيئة الأُمم يوقِّع ميثاق حقوق الإنسان. ولكأن هؤلاء ليسوا من عالم الإنسان عندهم.

ثانياً: التكتل المسيحي:

ليس من التكتل الديني ما هو أعظم من تكتل المسيحية في دولة الفاتيكان بزعامة البابا في روما، لها خصائص الدولة واستقلال الأُمة، تَرعى مصالح المسيحيين في كل مكان من العالم، وتشرف على حركات التبشير وتدافع عن جماعة المبشِّرين. وفي القريب حين وقفت السودان من المبشِّرين في الجنوب موقفها الحازم بعد أن تعدَّوا رسالتهم إلى التدخل في الشؤون الداخلية وأجلتهم من البلاد بوجه قانوني؛ قامت دولة الفاتيكان معهم ودافعت عنهم، لا لشيء إلَّا تعصباً دينياً لا غير. وبالأمس الأقرب في الحرب الحالية في نيجيريا؛ أرسل البابا مندوبه الشخصي ليدخل إقليم (بيافرا) المنشق ليتصل بزعيمه حرصاً على أرواح المسيحيين هناك، بينما الإقليم الشمالي المسلم وغيره من المسلمين بنيجيريا لم يتقدم أحد بأيّ تدخل من أجلهم.

ثالثاً: التكتل البوذي:

لمَّا هاجم الصينيون هضبة التبت واضطر الزعيم الديني للبوذيين (دلاي لاما) أن يفّر إلى الهند؛ استُقبل استقبال الزعماء الدينيين وعومل كرئيس دولة

وزعيم ديني، له قداسته ومكانته. وفي كشمير كم تعصبت الهند للأقلية الهندوكية فيها، وغير ذلك مما يجري في البلاد وعرقل حل القضية إلى اليوم، لا لشيء أكثر من التعصب البوذي أو الهندوكي، وأخيراً الاعتداء على الباكستان.

رابعاً: التكتل الشيوعي:

ومما هو غني عن البيان التكتل الشيوعي في كل مكان في الوقت الذي يحاربون فيه الأديان وكل عمل باسم الدِّين من كل وجهة استطاعوا، بأقلامهم وأفلامهم واقتصادهم وسياستهم، وفي الوقت نفسه نراهم يعقدون المجتمعات والمؤتمرات لتوثيق العلاقة بينهم، ولتقريب وجهات أنظارهم كما يقع في موسكو وبكين لتقريب وجهة النظر بين روسيا والصين واجتماعهما على مساندة أتباع مبدئهم.

وآخر مؤتمراتهم مؤتمر كوريا الأخير حيث اجتمع (مئات) المندوبين الشيوعيين وأعلنوا مناصرتهم للشيوعية والشيوعيين في العالم، وتلك إمدادات روسيا لفيتنام الشمالية بما يقرب من مليون دولار يومياً، وقريب منها في كوريا الشمالية، لا لشيء بينهما من قومية ولا دين، ولكن لمبدأ الشيوعية الذي وافقوهم فيه. وبالأمس يعلن الرئيس السوفيتي أنه يؤيد وجود إسرائيل كدولة. ويعلن أن بلاده لا توافق على قيام حرب في الشرق الأوسط؛ أي: تساند إسرائيل في موقفها.

وبجانب ذلك ما نشاهده من التعاون والترابط السياسي مثل الكومنولث البريطاني للدول التي كانت تحت سيطرة بريطانيا ثم نالت استقلالها (ما تزال في ترابط شكلي مع بريطانيا تواليها وتسير في فلكها بوجه ما).

ومثلها الولايات المتحدة في أمريكا.

ومثلها مجموعة دول أفريقيا الناطقة بالفرنسية.

كل ذلك مما يضع بين أيدينا ترابط دول العالم على مبادئها أو دياناتها أو مصالحها، بينما العالم الإسلامي كله مفكَّك الأجزاء ومقطّع الأوصال مما أضاع حقوقه وأطمع فيه عدوّه، وتداعت عليهم الأُمم كما تداعى الأَكَلَة على

قصعتها، وماذا فعلت هيئة الأُمم في ذلك؟ إن الجواب كما قلنا هو ما يجري في العالم لا ما يدَّعيه إنسان.

تكتّل كل طائفة لمصالحها، وتعصّب ضد مَن يخالف مبادئها مما أثار القلاقل وهدَّد بأخطار الحرب العامة. وبناءً على ذلك فليس غريباً أن يتطلع العالم إلى وسائل جديدة لحل مشاكله المستعصية، وبالأخص العالم الإسلامي الذي هو موضع أكثر هذه المشاكل وميدان للكثير من تلك الاضطرابات والقلاقل.

وبالنسبة إلى العالم الإسلامي بالذات، فإنه أول ما يتجه إليه في ذلك إنما يتجه إلى الإسلام الذي يدين به ويلتزم بمبادئه. فهل يجد فيه نظاماً لهيئة عالمية تكون هيئة أُمم إسلامية عالمية يجد فيها مطلبه وتحقّق له غايته؟

إن هذا هو موضع البحث والدافع إلى كتابة هذا الموضوع.

ولتحديده يجب بيان الآتي:

أولاً: ما هي حقيقة الهيئة الدولية؟

ثانياً: ما أهدافها؟

ثالثاً: ما أثرها أو خطرها على الدول؟

رابعاً: ما موقف ميثاق هيئة الأُمم المتحدة من إيجاد مثل تلك الهيئة الجديدة؟

أما حقيقة الهيئات الدولية: فهي تنقسم إلى قسمين: أ ـ هيئة إقليمية، ب ـ وهيئة عامة.

والهيئة الإقليمية هي الهيئة التي تقتصر عضويتها على جماعة من الدول ترتبط برابطة معينة جغرافية: كاتحاد دول أفريقيا ـ مثلاً ـ أو سياسية: كدول الجامعة العربية فيهما، أو اقتصادياً: كالسوق الأوروبية المشتركة، أو دول البترول والحديد والصلب.

والهيئة العامة هي التي تسمح لأية دولة بالانضمام إليها وفق الميثاق الذي قامت عليه، سواء في المجال السياسي كهيئة الأُمم، أو الثقافي كمنظمة الأُمم المتحدة للثقافة والتربية، أو الاقتصادي كدول البترول والحديد والصلب ونحو ذلك.

أما أهدافها: فهي العمل على تحقيق غايتها ضمن ميثاقها الذي قامت عليه، وليس بموضع بحث وإفاضة قول.

وأما آثارها أو خطرها على الدول الأُخرى: فمن السياسيين مَن يعتبر المنظمات وسيلة إلى التكتل الذي يوجِد منافسة قد تؤدي إلى عداوة وحرب، والبعض الآخر يعتبرها أداة للتعاون على تحقيق أهداف لا يمكن لدولة منفردة أن تحقِّقها.

والذي يظهر للمتأمل أن هذا راجع إلى مبادئها وتعاون أعضائها، فإن كان المبدأ سليماً كانت أكبر عون للمجتمعات الدولية، ولا سيما وأن العالم أصبح كالبلد الواحد لسرعة الاتصال: فما كان مسيرة شهر أصبح رحلة ساعة، ولشدة الارتباط فكلّ منتجات بلد تُسَوَّق في بلد آخر مما يؤكد ترابط العالم كله، وأن المستوى الدولي فقط لا يكفي لتضامن العالم وتعاونه ومسايرته حسب تطوره الحديث، بل لا بدّ من مستوى أعلى يضم الكثير من الدول في روابط أعلى وأواصر أوثق.

وإذا كان المبدأ غير سليم لوجود خلل فيه كتمييز بعض الأعضاء أو إقامة المنظمة ضد جهة معينة، فهذه لا بدّ أن تكون نتيجتها عكسية تماماً. كحلفي: (الأطلنطي)، و(وارسو).

وإذا رجعنا إلى الإسلام نستطلع موقفه من المنظمات العامة من حيث الوجود ومن حيث التكوين فإننا نجد الآتي:

أولاً: من حيث الوجود: سنجد أن الإنسان ما وُجِدَ في هذا العالم إلَّا تحت نظام عام وخلافة شاملة كما قال تعالى عن آدم أبي البشر: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. ثم تتابع هذا النظام إلى إبراهيم أبي الرسل عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]. ثم من بعده إلى داود عليه السلام كما قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦].

ثانياً: من حيث الإيجاد: سنجد كذلك ما يدهش الفكر من وجود كيان ماثل مشخص لمنظمة عالمية بمناهج كاملة وافية وعدالة تامة ونتائج فائقة لم

يشهد التاريخ لها شبيهاً ولم يتوصل الإنسان إلى ما يدانيها.

وأول ما يطالعنا من ذلك في تاريخ الإسلام من شكل قائم لمنظمة تامة ما نراه ماثلاً في حلف الفضول بمكة المكرمة. ولن نبعد إن سمّيناه أول ميثاق لأول جامعة في أول هيئة لما نحن بصدده منذ أربعة عشر قرناً، أي: من قبل أن تُكتَشف أمريكا وتتحضر أوروبا. ذلك الميثاق الذي أبرمته جماعة من أهل المروءة بمكة المكرمة بعد مشاورات واتصالات طبق ما يجري اليوم في طريقة إنشاء الهيئات الإقليمية والدولية. إذ تتصل بعض الدول ببعض وتدعو غيرها إليها حتى يتكامل عددٌ من الدول يوافق على الفكرة فيوضَع ميثاق ويوقَّع عليه، فيصبح نافذ المفعول ويصبحون معترفين به. وهكذا طبق الأصل كان وجود حلف الفضول[1].

أما سببه فهو عين السبب الذي ندعو من أجله لإقامة هيئة إسلامية؛ وهو نصرة المظلوم وردّ المعتدي ونحو ذلك. وذلك أن رجلاً من زبيد قدِمَ مكة ببضاعة له فاشتراها منه العاص بن وائل فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيديُّ الأحلاف: عبد الدار، ومخزوماً، وجمحاً، وسهماً، وعدي بن كعب. فأبَوْا أن يُعينوا على العاص بن وائل وزبروه[2]، فلما رأى الزبيديُّ الشرَّ، أوى على جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس وقريش في أنديتهم حول الكعبة فنادى بأعلى صوته:

يا آلَ فهرٍ لمظلوم بضاعتُه ... ببطنِ مكةَ نائي الدارِ والنفرِ
ومحرمٍ أشعثَ لم يقضِ عمرته ... يا للرجالِ وبين الحِجْر والحَجَرِ
إن الحرامَ لِمَنْ تَمَّتْ كرامتُه ... ولا حرامَ لثوبِ الفاجِرِ الغَدِرِ

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال: ما لهذا مترك، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرّة في دار عبد الله بن جدعان، فصنع لهم طعاماً وتحالفوا في ذي القعدة، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونُنَّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم

---

(١) انظر: خبر حلف الفضول في: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٣٣). والقصة الآتي ذكرها نقلها محققو السيرة النبوية في الحاشية عن «الروض الأنف».

(٢) منعوه. (حاشية في الأصل).

حتى يؤدى إليه حقّه «ما بلَّ بحرٌ صوفةً وما رسى ثبير وحراء مكانهما» وعلى التأسّي في المعاش، ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيديّ فدفعوها إليه.

وقال الزبير بن عبد المطلب في ذلك:

حلفتُ لنعقدن حلفاً عليهم ... وإن كنا جميعاً أهلَ دارِ
نسمّيه الفضولَ إذا عقدنا ... يُعَزّ به الغريب لذي الجوارِ
ويعلمُ مَن حوالي البيتِ أنّا ... أُباة الضيم نمنع كلَّ عارِ

فهذا حلف إنساني، وعمل اجتماعي لم يُسمع بأفضل منه في العرب، وكان قيامه بمكة المكرّمة ولهدفين ساميين، الأول: ردع الظالم، والثاني: السلم الدائم. أوجزهما الزبير بنفسه في بيتين آخرين هما قوله:

إن الفضولَ تعاقَدُوا وتحالَفُوا ... أَلَّا يقيمَ ببطنِ مكةَ ظالمُ
أمرٌ عليه تعاقدوا وتواثقوا ... فالجارُ والمعتر فيهم سالمُ

الشاهد لنا من هذا الحلف هو أنه وإن كان عربياً جاهلياً وقع قبل البعثة بعشرين عاماً، إلّا أن النبي ﷺ قد حضره آنذاك وأقرَّه بعد مجيء الإسلام، كما روي عنه ﷺ في ذلك قوله: **«لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دُعيتُ به في الإسلام لأجبتُ»**[(١)]. تحالفوا أن يردّوا الفضول على أهلها وألّا يعزّ ظالم مظلوماً.

فهو وإن كان عربي النشأة إلّا أنه إسلامي النزعة، وبقيت آثاره إلى العهد الأموي، لما وقع بين الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وكان أمير المدينة آنذاك، طالبه الحسين بحقٍّ له فمطله لسلطانه، فقال الحسين: أحلف بالله لتنصفني من حقي أو لآخذنّ سيفي ثم لأقومنَّ في مسجد الرسول ﷺ ثم لأدعونَّ بحلف الفضول. فقال عبد الله بن الزبير، وكان عند الوليد في مجلسه: وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذنَّ سيفي ثم لأقومنَّ معه حتى ينصَف من حقه أو نموت جميعاً. وبلغت المسوّر بن

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ١/ ١٣٤) من حديث طلحة الزهري مرسلاً. وقال الألباني في فقه السيرة (ص٧٧): صحيح مرسل وله شواهد تقويه.

مخرمة الزهري فقال مثلها. وبلغت عبد الرحمٰن بن عثمان فقال مثل ذلك. فلما بلغ ذلك الوليد أنصف الحسين من حقه حتى رضي(١).

فهذا حلف نشأ في الجاهلية وأُقِرَّ في الإسلام. وهدَّد باللجوء إليه الحسين في عهد بني أُمية.

يلي ذلك من هذا القبيل في صدر الإسلام وبالمدينة المنورة في أوائل تكوين المجتمع الإسلامي بين عناصر مختلفة من يهود ومشركين، فتبرم أول معاهدة تضمن لكلٍّ حقه، جاء في مستهلها قوله ﷺ: «**بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومَن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أُمة واحدة من دون الناس**». وفيها: «**إن المؤمنين المتقين على مَن بغى منهم أو ابتغى دسيسة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم**».

ومنها: «**إنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردَّه إلى الله ﷻ وإلى محمد ﷺ**».

ومنها: «**إنه ما بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مردَّه إلى الله ﷻ وإلى محمد ﷺ**»(٢).

مما يضع أيدينا ولأول مرة على أول نص لأول قانون دولي يشتمل على معاهدة تبيّن حقوق المواطنين، وتوطّد الأمن، وتجعلهم يداً واحدة على الباغي، ولو كان ولد أحدهم.

ثم يأتي بعد ذلك عموم نصوص الإسلام، فتضع العدالة والحكم بالقسط وأداء الأمانة في الدرجة الأولى من الأهمية في أحكامه ونظامه وفي ظل حكم الله تعالى لا حكم لسواه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾. ويجعل الإسلام تجاوز ذلك وتعدّيه ظلماً وكفراً، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ١/١٣٤)، وقال الألباني في صحيح السيرة النبوية (ص٣٦): سنده جيد.

(٢) روى هذه الوثيقة ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ٢/٥٠١) بدون إسناد.

ولم يكتف الإسلام بذلك الحد، بل جعلها مهمة الرسل في جميع الأمم ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقد مرّت كل أُمة بحلقةٍ من حلق التاريخ بما لها وما عليها حتى جاء دور هذه الأمة وكان موضعها حيث أنزلها الله بقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ثم حمّلهم تبعة العلم لمصلحة غيرهم في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وألزمهم بأداء الأمانة والحكم بالعدل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]. ألزمهم ذلك حتى ولو مع الأعداء، لأنه قيامٌ بحق الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

كما نجده في القضايا الجزئية في مسائل الزوجية حيث يشرع التحكيم للإصلاح بين الزوجين: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٣٥]. ثم ينبّه على عامل أساسي وهو حسن النية وبغية الخير: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾.

وفي هذه النصوص جملةً وتفصيلاً نجد الإسلام رسالة حكم وعدالة وتحكيم في عظام الأمور وصغارها. كما نجده يكلّف الأمة الإسلامية بدور العلم الإيجابي بأن تخصّص منها أُمة تقوم بالدعوة إلى الخير، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

وهذا في مدلوله العام يشكّل هيئة متميزة من الأُمة الإسلامية تقوم بهذه المهمة على أوسع نطاق! فتكون بمثابة المنظمة الدولية العامة الحديثة.

ثم يأتي لنصوص الحكم والعدل والأمانة فيسوقها بصيغة الأمر والإلزام: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾.

فقد أعطاهم الله سلطة الحكم، وألزمهم فيه بالعدل والحاكمية بين الناس هنا عامَّة لسائر الأُمة لا لخصوص المخاطبين في الصدر الأول فقط. ولن تحصل هذه الحاكمية باستعباد غيرهم أو استعمار بلادهم. ولكنها تكون بالحكم لمن تحاكم إليهم. سواء ممّن لهم سلطان عليهم أو من غيرهم. لأنه حق الله تعالى عليهم: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٤٢].

ومن هذه النصوص نجد الإسلام ألزم المسلمين برسالة عامة في الناس كافة. وهي رسالة الإصلاح الماثلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأداء الأمانة، والحكم بين الناس بالقسط، وكلُّ ذلك بالطبع يتطلب إنشاء هيئة خاصة تستقل بهذا العمل وتؤديه على أتمّه، وتحافظ عليه، وتسأل عنه. وهو منصوص قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾. أي جماعة خاصة.

بعد الحصول على النتيجة الهامة التي هي وضع الأُمة الإسلامية موضع القيادة العامة، وجعل دينها دين العدالة والأمانة، ورسالتها رسالة السلم؛ بقي علينا البحث عن كيفية منهج العمل الإسلامي لإقامة (هيئة أُمم إسلامية) لها خصائص الهيئات العامة اليوم، في صبغتها الإسلامية وعدالتها السماوية.

إنَّا بإمعان النظر في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات: ٩].

فسنجد في هذا النص القرآني مع ما سبق من نصوص معاهدة المدينة وحلف مكة مقوِّمات هيئة إسلامية عامة. لها خصائصها ومميزاتها، مع ما يحقِّق أهدافها من فضِّ النزاع بين المتنازعين وإنصاف المظلومين، وردع الباغين، وإقرار الأمن والسلام في ظل المبادئ الإسلامية العادلة التي لا تعرف تحيّزاً ولا محاباة ولو كان لولد أحدهم. وذلك للآتي:

أولاً: إن مدلول الطائفتين في الآية ليتسع لاشتمال الشعبين والقطرين والدولتين في عرف العصر الحاضر، وذلك بعد انقضاء عصر الخلافة الإسلامية التي كانت تظلِّل العالم الإسلامي كله.

ثانياً: سنجد العناية التامة والاهتمام الشديد بما يقع بين طوائف الأُمة من نزاع يؤدي إلى القتال، والمبادرة السريعة إلى التدخل للصلح وإنهاء القتال. بل أخصّ من ذلك وهو لمطلق اشتجار أو حدث يُخاف فساده.

ثالثاً: الوقوف بجانب الطائفة المعتدى عليها حتى ينتصف لها، وردع الطائفة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله.

رابعاً: التزام الحكم بالعدلِ والقسط بين الطرفين المتنازعين على السواء.

وهذه المقوّمات يستلزم كلّ منها الآتي:

أولاً: اتساع نطاق مدلول الطائفتين يتطلب عملاً واسع النطاق على الصعيد الدولي العام.

ثانياً: العناية والاهتمام بما يقع بين الطوائف من نزاع، والمبادرة بالتدخل للصلح تتطلب إيجاد هيئة خاصة تتفرد بالقيام بذلك، ترقب أحوال الأُمة وتسهر على مصالحها وتعمل على استتباب الأمن فيها.

ثالثاً: إن الصلح بين الطوائف المتنازعة يتطلب تشكيل هيئة قضائية للنظر في أسباب النزاع الذي أدّى إلى القتال، يلزم لهذه الهيئة بحُكم مهمتها توفّر الطاقات الأخصائية اقتصادياً، وسياسياً، وعسكرياً، ولكل ما يمكن أن يكون سبباً للنزاع، مما هو متوفر لهيئة محكمة العدل الدولية اليوم، كي تتمكن من تحقيق النظر في كل ما يُعرض عليها وليمكنها الوصول إلى الأحكام النهائية من تحديد المسؤوليات وتقرير الالتزامات بعد الدراسات العميقة وعلى أُسس سليمة.

رابعاً: إن الوقوف بجانب الطائفة المعتدى عليها قد يكون وقوفاً أدبياً تفيد فيه الخطابة والدعاية أو الأساليب الدبلوماسية والحلول السياسية، إلّا أن ردع الباغي المعرِض عن الصلح وغير الملتزم بقرارات تلك الهيئة القضائية قد لا تُجدي فيه السياسة، ولا سيما بعد وقوع القتال وسفك الدماء مما يثير الحمية والعصبية ويجعلها تركب رأسها وتتمادى في غيّها وتصمُّ أُذنها عن كل نداء. فحينئذٍ لا مناص من القتال ويكون السيف أصدق أنباءً من الكتب، ولغة المدفع أفصح من أساليب الصلح.

وعليه فلا بدّ من وجود قوة ضاربة تقوم بهذه المهمة: تنفيذ القرارات، التحاكم، وردعاً لطوائف البغي، تفوق مهمتها مهمة البوليس الدولي اليوم، وقد كان هذا كله سهلاً وميسّراً حتى كان الخطاب التكليفي لهذه المهمة في صدر الإسلام موجهاً لمن بيده الحل والعقد، وله السلطة على الأُمة المسلمة والمنفِّذ لأوامر الله: وهو شخصية الرسول ﷺ، ثم قام به خلفاؤه الراشدون ﭫ من بعده.

أما في هذه الآونة، وبعد عصر الخلافة الإسلامية العامة فلا يمكن تكليف جهة معينة بذلك. ولا تقوى أية دولة بانفرادها على القيام به لما يتطلبه من إمكانيات فوق مستوى الدولة المنفردة أيّاً كانت إمكانياتها، لضخامة المسؤولية وخطورة المهمة، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى، عدم صلاحية أية دولة للتدخل في شؤون غيرها للاعتراف باستقلالها وسيادتها الذاتية.

ثم إننا بالعودة إلى النصوص السابقة نجد في أسلوب الخطاب صيغ الجمع المتعددة في كلٍّ من الأمر بالصلح: (فأصلحوا)، وفي القتال: (فقاتلوا) وبالأمر للعدالة في الحكم: (وأقسطوا) مما يحمّل الأُمة الإسلامية كلها مسؤولية هذا العمل الضخم، وعليه فمن الضروري لتحقيق هذا كله على المستوى الدولي اليوم أن تنشأ هيئة أُمم تمثّل جميع الدول الإسلامية، لتقوم تلك الهيئة بهذا الواجب الضخم على أوسع نطاق للأُمة الإسلامية أولاً وللعالم كله ثانياً.

هذه هي مقوّمات الهيئة الإسلامية من هذه النصوص القرآنية، وتلك حاجة المسلمين الملحّة إليها لحل قضاياهم المعلقة، والتي لم تجد حلاً في الهيئات العامة الأُخرى.

بقي علينا بيان منهج هذه الهيئة، أو ما يسمى ميثاقاً نقدّمه للعالم، ليرى مدى صلاحية هذه الهيئة ومدى اقتدارها على أداء مهمتها، ليكون الاقتراح عملياً والدعوة إليه بيّنة، وأن الإسلام كفيل بها وأولى من غيره.

إن أول ما يواجهها من نصوص تصلح لصياغة ميثاق لهذه الهيئة لهو قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ

اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾... إلى قوله تعالى في نفس السياق: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٥٨ ـ ٦٥].

فمن هذا النص يمكن أن نأخذ ميثاق هيئة الأمم الإسلامية على سبيل الإجمال والإيجاز كالآتي:

١ ـ السلطة التشريعية الأولى لله تعالى وحده: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧].

٢ ـ التزام العدالة في الحكم: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾.

٣ ـ المساواة بين مَن يوالي أو يُعادي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨].

٤ ـ الأعضاء ملزمون بالطاعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

٥ ـ نظام التحاكم في هذه الهيئة هو الكتاب والسنّة: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

٦ ـ كل نظام سواه مرفوض والتحاكم إليه ضلال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾.

٧ ـ أحكام هذه الهيئة ملزمة ويجب التسليم بها: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

٨ ـ للهيئة الحق في رفض أو قبول النظر فيما يعرض عليها من قضايا غير المسلمين: ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢].

٩ ـ التزام الهيئة بما قطعته على نفسها من العهود: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

١٠ ـ التزام الهيئة الحياد التام بين أعضائها وأعدائها: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾.

١١ ـ هذه الهيئة تتمتع بالاستقلال الذاتي ولا تبعية لأي دولة عليها: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ [المائدة: ٨]. ومثلها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس: ١٤].

١٢ ـ مقر هذه الهيئة ورجال الأعمال فيها حسب ما يتفق عليه الأعضاء.

١٣ ـ يكون للهيئة سكرتارية دائمة، وتكون الرئاسة في كل جلسة لأعلم الحاضرين بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ والأوضاع العامة.

١٤ ـ تمويل الهيئة من أموال المسلمين العامة ومن سهم الزكاة (في سبيل الله) والتبرعات. ولعلنا بهذا القدر نكون قد وُفّقنا إلى إعطاء صورة ما تصورناه من إمكان قيام (هيئة أُمم إسلامية) تستمد نظامها من تعاليم الإسلام وتقيم حكمها على عدالة السماء.

بعد ذلك يجدر بنا أن نورد مقارنة سريعة بين هذه الهيئة وهيئة الأُمم المتحدة القائمة الآن. وذلك بالنسبة إلى النقاط الرئيسية فحسب وبإيجاز:

أولاً: من حيث الشكلية والعضوية:

أ ـ بالنظر لأول وهلة إلى هيئة الأُمم المتحدة في تشكيلها وفي أعضائها؛ فإننا نجد الطوائف المختلفة غاية الاختلاف في المبادئ العامة، من شيوعية متطرفة إلى رأسمالية متعصبة، ومن مسيحية إلى مسلمة، وكلٌّ منها لا يأمن جانب الآخر على مصالحه الخاصة، مما ينزع الثقة بين أعضائها، ويثير القلاقل بينها، بل يوجِد التكتلات داخل أروقتها وبين جدرانها.

ب ـ بينما الهيئة الإسلامية المنشودة، فإنها وإن اختلفت أقطارها وتنوّعت مصالحها؛ فإن بينها مبدأً واحداً اجتمعت عليه يوحّد بينها هو الإسلام

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾. ومثلها: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾؛ مما يوطِّد الثقة بين أعضائها ويوفِّر الطمأنينة لأهلها ويقارب بين وجهات النظر فيها، على العكس تماماً من تلك.

ثانياً: من حيث الميثاق:

أ ـ بالنظر إلى ميثاق هيئة الأُمم المتحدة نجده قام لأول وهلة على التحيّز، وإلى جانب الدول الكبرى بالذات، حيث أعطاها حق النقض (الفيتو) لكل ما لا ترتضيه من القرارات، وقد تستعمله بعض تلك الدول الكبرى لمصلحة غيرها ممّن يسير في فلكها مجاملة لها، مما أوجد تفرقة في الصف وتشتيتاً للكلمة، ولا يتأتى للهيئة أن تحقِّق غايتها أو تقيم عدالة ضد إحدى تلك الدول؛ مما يعطّل الهيئة عن مهمتها، ويجعلها خاضعة لسلطة بعض الأعضاء. وذلك مما يثير الحقد ويولِّد التعصب والعناد والتمادي في النزاع.

ب ـ بينما الهيئة الإسلامية قامت لأول وهلة على مبدأ المساواة، وليس فيها دولة صغرى ولا كبرى، ولا بينهم قوي وضعيف، بل إن أضعفهم القوي حتى يؤخذ الحق منه، وأقواهم الضعيف حتى يؤخذ الحق له. وليست خاضعة إلا للسلطة التشريعية العليا: لله ولرسوله.

مما يطمئن المتخاصمين على حقهما والعدالة بينهما، ويقرّب مدى النزاع ويسهّل مهمة الصلح. لأن الرجوع سيكون لله، والتحاكم لكتاب الله وسنَّة رسوله لا لأحد أو جهة ما، تستوجب غضاضة أو إباءً.

ثالثاً: من حيث الولاء لنظام كلٍّ منهما:

وهذه الحقيقة بالذات هي أهم الحيثيات من وجهة الكيان الدولي العام والخاص، لأن من أهم عوامل الكيان الدولي لأي دولة أو منظمة في عرف الأنظمة الدولية الحديثة هو الولاء للنظام القائم فيها، فكل نظام يقوم في أيّ مكان لأي منظمة إن لم يجد ولاءً من الأفراد المعنيين؛ فإنه لا يستطيع البقاء طويلاً، لأنه سيفرض بالقوة، وسيتخلصون منه في أقرب فرصة تمكِّنهم، بل وسيعملون على تعطيله، ويضعون العراقيل في طريقه.

أ ـ وبالنظر إلى نظام هيئة الأُمم المتحدة؛ نجد معظم الدول في العالم البالغ عددها مائة وعشرين دولة فأكثر لا تكنُّ ولاءً تاماً لهذا النظام، بل ولا عادياً إلَّا بقدر ما يحقّق لها من مصالح. ونستطيع أن نلمس استنكار الدول الإسلامية كلها وبعض دول أوروبا وآسيا غير المسلمة المحِبّة للسلام والعدالة أو المجاملة للمسلمين. وذلك بسبب التمييز ضد القضايا الحالية في الشرق الأوسط، وبالأخص لبعض دول المسلمين، وفي مقدمة ذلك كله فلسطين ثم كشمير وقبرص وأرتريا، وغيرها مما لم تستطع الهيئة العامة أن تتخلص في موضوعها من التحيّز ضد المسلمين في كل تلك البلاد، ولست أذكر ولا قضية واحدة لأُمة مسلمة في أيّ قطر عرضت على هيئة الأُمم المتحدة ووجدت حلّاً مرضياً أو منصفاً، الأمر الذي أوجد يأساً في نفوس العالم من هذه المنظمة؛ حتى يكاد يدبّ الشعور نحوها بأنها أداة في يد الدول الكبرى لتحقيق مصالحها فقط.

ب ـ بينما موقف العالم الإسلامي من الهيئة الإسلامية لن يكون موقف الموالاة فحسب، بل سيكون موقف الإذعان والقبول والرضا والتسليم بدون أيّ حرج في النفوس ولا كراهية في القلوب، لأنه موقف منبعث من صميم الدين ومرتبط بأصل العقيدة، ويعبّر عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ.

ولعلَّ بهذه المقارنة الموجزة ظهر الفرق بعيد المدى والبون الشاسع بين المنظمتين، وبقي سؤال وهو: ما هي عوامل الصيانة لهذه الهيئة؟

لو نظرنا إلى عوامل صيانة هيئة الأُمم المتحدة وجدناها بلا شك عوامل مادية، سواء في المجال السياسي أو الاقتصادي أو العسكري، وأنها حافظت على بقائها بشتى الوسائل؛ غير الولاء والرضا.

ولهذا فإن كل خصمين التجآ إليها سيدخلانها متخاصمين ويخرجان منها متفرقين، لأنهما مختلفان في المبدأ غير مخلصين لكيانها، وهذا هدم لها أو تعطيل لمهمتها.

بينما عوامل صيانة الهيئة الإسلامية منبعثة من صميم الشعور والوجدان الإنساني وما وراء الماديات، يؤديها المعتقد الإسلامي.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] سيربط بين الخصمين المتنازعين من جهة وبين الهيئة الحاكمة من جهة أُخرى برباط الإخاء، وهو أقوى رباط إنساني. فحينما يدخل الطرفان المتنازعان لتلك الهيئة يحتكمان إليها سيدخلانها في قالب الأُخوة، وإذا اختلفت وجهات نظرهما في أمر ما، فيلجآن إليها بكل ارتياح لتبيّن لهم ما التبس عليهم.

يحيط هذا الشعور الإنساني إيمان بالله وتقوى الله ومراقبته: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ يسمع همسات الشفاه، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وهذه الروابط الوثيقة، مما يضمن بقاء تلك الهيئة ويساندها في أداء مهمتها، وهناك ضمان فوق قوى البشر أنعم الله به المولى ﷻ، يشمل النصر والتأييد لمن نصر الحق وناصر الدعاة إليه. وعدٌ من الله تعالى: ومَن أصدق وعداً من الله؟

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

وبعد هذا العرض السريع للهيئة الإسلامية والمقارنة بينها وبين غيرها وعوامل صيانتها؛ نجد أمامنا سؤالاً يفرض نفسه وهو: ما علاقة هذه الهيئة من ميثاق هيئة الأُمم المتحدة الذي التزمناه ووقّعنا عليه. لعلَّ المجال في هذا للسياسيين أوسع وخبرتهم فيه أدق. على أن الواقع لا يخرجها عن أحد أمرين:

أ ـ إما اعتبارها هيئة عامة لها كمال الشخصية الذاتية لاستقلال الدول أعضائها وسيادتها التامة على أراضيها وفي بلادها.

ب ـ وإما اعتبارها منظمة إقليمية تختص بعضوية على مبدأ خاص وهو الإسلام، وهذه تعتبر منظمة مشروعة وفق الفصل الثامن من ميثاق هيئة الأُمم المتحدة الذي لا يمنع وجود تنظيمات أو وكالات إقليمية تعالج من الأُمور المتعلقة بحفظ السلام والأمن الدولي؛ ما دامت هذه التنظيمات تتلاءم مع مقاصد مبادئ الأُمم المتحدة، وتقوم تلك المنظمات بتدبير الحل السلمي للمنازعات المحلية، وينص على أن مجلس الأمن يشجِّع على هذا النوع من الحل، بل إنه قد يحيل عليها بعض القضايا لحلها.

وتنص المادة (٥١) من ميثاق هيئة الأُمم على أن المنظمات التي تشكّل وفق هذه المادة تعتبر مستقلة عن الأُمم المتحدة.

وكان هذا السماح وهذا الاستقلال إثر الشكوك التي ثارت في مؤتمر سان فرانسيسكو حول جدوى الاعتماد كلية على مجلس الأمن بعد أن مُنحت الدول الكبرى حق الاعتراض على قراراته، فوجدت المنظمات الدولية خارج نطاق الفصل الثامن من الميثاق وفق المادة ٥١ لمباشرة حق الدفاع الجماعي عن النفس.

وتكوَّن بالفعل منظمات وأحلاف أهمها حلف شمال الأطلنطي، وما يقابله كحلف وارسو.

وأمام هذه النصوص لميثاق الأُمم نجد أن هيئة إسلامية عمل سليم وإسلامي بنصوص قرآنية، ودفاعي بنصوص قانونية، وإنساني ضروري بمقتضى قضايانا الواقعية في المنطقة وغيرها. وقد آن الأوان بعد ما وجد من وعي إسلامي عام نتيجة للحركات الإسلامية الأخيرة، مما هيأ الأذهان إلى استيعاب الفكرة وهيأ الأمم للاستجابة إليها.

وقد ظهرت بوادر هذه الاستجابة عملياً في خطوات عدّة منها: وجود هذه الرابطة الإسلامية، ومدى تجاوب العالم الإسلامي معها، وتزايد عدد الذين يشتركون في مؤتمراتها وتلقِّي العالم الإسلامي لقراراتها بالارتياح الشديد. كما أصبح ملموساً في دول أفريقيا وفي باكستان وغيرها مدى تطلع المسلمين هناك إلى هذه المؤسسة الإسلامية، وعظم الآمال المتعلقة بها بعد الله تعالى.

ثم كانت الانطلاقة الملكية الكريمة من عاهل البلاد وخادم الحرمين حفظه الله، من الدعوة إلى التضامن الإسلامي وكانت فكرة منبعثة من مؤتمرات هذه الرابطة، فأصبحت خطوة عملية ظهرت إلى حيِّز الوجود انطلقت إلى العالم الإسلامي من جوانب بيت الله الحرام، فتردد صداها في كثير من أقطار العالم الإسلامي.

وتلك الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة تجاوب معها العالم الإسلامي كذلك، فتوافد إليها من أبناء المسلمين، مما يجعلنا من خلال ذلك كله نلمس آثار العمل الإسلامي ويعظم في نفوسنا الأمل في نجاح الفكرة، ويساعد على

ذلك كله العمل الدائم في ركن الإسلام الخامس أثناء فريضة الحج؛ مما يوثِّق الروابط بين المسلمين عند بيت الله الحرام، ويجدِّد الصلة بينهم كل عام.

ولعلّ قيام هيئة أُمم إسلامية يكون هو الخطوة التالية من الدول الإسلامية إن شاء الله.

عَوْد على بدء:

ولئن كان الزبيدي في الجاهلية استعدى على العاص بن وائل الأحلاف ولم يعينوا على العاص في عصبية أو حمية أو مهابة أو لأيّ معنى آخر، وزجروه لضعفه أو لغربته أو لأي معنًى آخر أيضاً، مما أثار المروءة والهمّة العالية عند الزبير وأعوانه لعقد ذلك الحلف الذي خلّص حق المظلوم من الظالم، وأصبح الجار والمعتمر بمكة المكرمة سالماً.

والآن فما أشبه الليلة بالبارحة فقد استعدت الدول الصغرى هيئة الأُمم على المستعمرين وعلى الغاصبين والمعتدين؛ فلم يختلف موقفها عن موقف الأحلاف مع العاص بن وائل سابقاً.

فهل للمسلمين من فضول آخر يتناسب مع العصر الحاضر يتمثل في هيئة أُمم إسلامية عامة ويصدق عليهم وعد الله للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

وعندئذٍ يكون للمسلمين كيانهم الذاتي ومركزهم العالمي، ويصبحون موضع حفظ التوازن بين القوى المتعادية فيما بينها والمختلفة في مبادئها، وتقدم للعالم نماذج لحلول إسلامية عادلة ليطمئن إليها المسلمون ويرضى بها غير المسلمين. فتصبح هيئة عالمية في صبغة إسلامية.

وقد كان التحاكم إلى الإسلام موضع الطمأنينة للعالم كله مسلمين وغير مسلمين، كما وقع في صدر الإسلام وعصر الخلفاء والفتوحات الإسلامية.

وفي تاريخنا الحديث من عهد ليس ببعيد وفي المنطقة بالذات في الحرب اليمنية بين الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ والإمام يحيى حين تفاقم الأمر بينهما، فتدخلت جماعة من كبار الشخصيات الإسلامية، منها السيد الحاج

أمين الحسيني والأمير شكيب أرسلان، وتوصلوا إلى حل سلمي، وانتهت القضية بالصلح وانقلب الموقف من عداء إلى ولاء. وقد نشرت مجلة (النداء الإسلامي) التي كانت تصدر بمكة المكرمة في عددها الممتاز عن شهر رمضان وشوال سنة ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م ص٢١ في صفحة الأخبار ما نصه: (وعقدت المملكة العربية السعودية اتفاقاً عاماً بينها وبين المملكة اليمانية للقضايا التي تعرض بين رعايا الحكومتين. وهذا الاتفاق مملوء بروح العدل والأُخوة).

والآن، ولكأني أنتظر سهاماً عديدة منطلقة بسرعة من أنحاء البلاد الإسلامية تحمل معها علامات استفهام عريضة تتجه إلى هذه الهيئة: هل تسمح ظروف تلك الدول بالانضمام إلى هذه الهيئة المنتظرة؟؟

وخير إجابة على هذه الاستفسارات إنما هو توجيه الأنظار إلى خارطة العالم الإسلامي لنرى موقعها الجغرافي الموحّد، وترابطها الإقليمي وتشابكها الاقتصادي، واتجاهاتها العامة المتشابهة لنستخلص ضرورة العمل لصالحها، إن لم يكن باسم الإسلام في ظل هيئة إسلامية عامة فباسم المصالح المشتركة بينها.

ولئن كان حلف الفضول لردّ المظالم، ونصرة المظلوم، فإن العالم الإسلامي اليوم في أمسّ الحاجة لهيئة إسلامية تدفع عنه هو بنفسه ظلم الظالمين، وتمحو عنه إثم المعتدين، وتردّ إليه الحق من أيدي الغاصبين.

وهذه إسرائيل قد استهانت بجاراتها من الدول العربية وتهدد بالاستيلاء على عواصم بلادها، ولا تبالي بالعالم الإسلامي كله بعد استيلائها على أُولى القبلتين.

وهذا لا لقلة المسلمين، ولا لعدم إمكانياتهم، ولكن لتفكّك جمعهم وتشتّت كلمتهم.

ولا طريق بعد اليوم لإنصاف المسلمين من عدوّهم إلا في هيئة أُمم إسلامية، تجمع الشمل، وتوحّد الصف، وتربط بين المسلمين في كل مكان، ثم تقودهم إلى ميادين العزّة والكرامة وتمكّنهم من استعادة حقوقهم والحفاظ على كيانهم.

والله أسأل أن يهّيء الأسباب لتحقيق الآمال إنه سميع مجيب، وصلى الله وبارك على عبده ورسوله محمد ﷺ.

مع الرسول ﷺ في حجة الوداع



مقدمة المؤلف

بسم الله والحمد لله. نحمده على واسع فضله وامتنانه، وإكمال دينه وواسع إحسانه، ونُصلِّي ونسلم على أفضل خلقه وخاتم رسله. بَلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، وجاهد في الله حقَّ جهاده، وترك الأمة على المحجَّة البيضاء، ليلها كنهارها، وكان خاتمة أعماله ومسك ختامه: حجته إلى بيت الله، ودَّع فيها الأمة ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وشرح للناس ما أجملَ من شريعة الإسلام، وحثَّهم على قواعد الإسلام مفصلاً لهم الحلال من الحرام، وقال لهم: «**خُذوا عني مناسككم، لَعَلِّي لا ألقاكُم بعدَ عامي هذا**»[1]. ورضي الله عن آله وأصحابه الذين آزروه وناصروه واستضاؤوا بالنور الذي جاء به، وحملوا لواء الدعوة من بعده امتثالاً لقوله ﷺ: «**ألا فليُبلِّغ الشاهدُ منكم الغائبَ**»[2]. ورضي الله عن التابعين الذين حملوا إلينا هذا الدين، وحفظوه وحافظوا عليه؛ يتوارثونه جيلاً بعد جيل إلى اليوم، وإلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها، وجزاهم الله عنا وعن الإسلام والمسلمين أحسن الجزاء؛ وبعد:

فإن من المعلوم أن كلَّ مسلم في مشارق الأرض ومغاربها ليتطلع إلى أداء فريضة الحج بدوافع متعددة. منها: أنه خاتمةُ أركان الإسلام. ومنها: أنه قد ضمن له رسولُ الله ﷺ الإفاضة من عرفات مغفوراً له[3]. ومنها: إرواءُ غليله، وتمتع نظره بالمشاهد في المناسك حول بيت الله، وفي المشاعر

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٩٧)، وأبو داود (١٩٧٠) ـ واللفظ له ـ، وابن ماجه (٣٠٢٣)، والنسائي (٣٠٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة.
وأخرجه البخاري (١٧٣٩) من حديث ابن عباس.

(٣) أخرجه ابن حبان (٩٦٣ ـ موارد)، والبزار (٧٣٠ ـ مختصر زوائده)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١١٥٥).

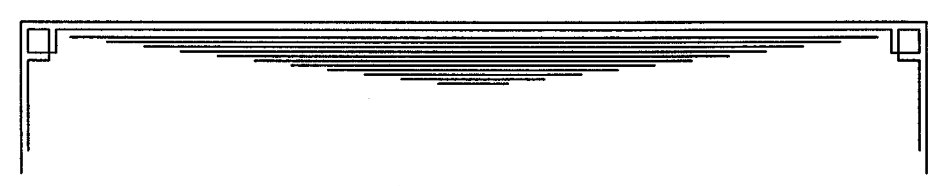
الحرام. ومنها أن يخطو بأقدامه أرضاً شَرُفت بأقدام رسول الله ﷺ، وبوجوده عليها. لما في ذلك من تجديد عهده، وتزكية روحه، وتطهير نفسه، وفوزه بخيري الدنيا والآخرة. كما قال ﷺ: **«من أراد الدنيا والآخرة فَلْيَؤُمَّنَّ هذا البيت»**(١).

وكلُّ حاجٍّ هذه حالُه، لا شكَّ أن يلتمسَ أقومَ المناهج، وأقربَ الطرق، وأيسرَ المذاهب؛ للوصول إلى حاجته، وتحقيق أمنيته، وإن أقومَ طريق، وأيسرَ سبيل؛ لهو بلا شك: طريقُ رسول الله ﷺ، وسبيلُه الذي سلكَه في حجته، بعيدة عما يُوجد من خلاف في الآراء أو اختلاف في الروايات، وإن كان جلُّها أو كلُّها صحيحاً، ومرجعُها واحداً، إلا أننا نستعين الله في تيسير إيراد ما كان موضع اتفاق الجميع من أعماله ﷺ، وما ينبغي للحاجّ اليوم أن يعمله.

عطية محمد سالم

---

(١) لم أقف عليه.



بيان حكم الحج

إنه من المعلوم من الدين بالضرورة، أن الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام. كما قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، ولحديث جبريل الطويل وفيه: «**وأن تحجَ البيتَ إنِ استطعتَ إليه سَبيلاً**» وهو الركن المشروط بالاستطاعة:

والاستطاعة تكون: **بالبدن**؛ أي القدرة على السفر حسب حالة الشخص: ماشياً أو راكباً أو بأي نوع من وسائل المواصلات. **وبالمال**؛ الذي يكفيه للنفقة حتى يرجع، مع ما يكفي كلَّ من تجب عليه نفقته حتى يرجع، ولا يقصِّر لا في حق نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ ولا في حق عياله، لقوله ﷺ: «**كفى بالمَرْءِ إثماً أن يضيع مَنْ يَعُولُ**»(١).

فإن توفر له المال وعجز عن السفر لأي عذر آخر، فإنه يعتبر مستطيعاً بمال، فيُخرج من يحج نيابة عنه من بلده، ومن عجز ببدنه وماله، أو بماله، فقد سقط عنه الحج. وتزيد المرأة ـ في اعتبارها مستطيعة ـ وجود المَحرم معها.

فإذا توفرت الاستطاعة، عليه المبادرة إلى أداء الحج، لقوله ﷺ: «**حُجُّوا قبلَ أَلَّا تَحُجُّوا**»(٢)؛ فقد تنفد النفقة أو تضلُّ الدابة، أي فقد تطرأ الأعذار والموانع، ولأن المولى سبحانه قال: ﴿وَسَارِعُوٓا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ . . .﴾

(١) أخرجه أبو داود (١٦٩٢)، وأحمد (٢/ ١٦٠)، والحاكم (٤/ ٥٠٠) ـ واللفظ له ـ، وحسنه بشواهده الألباني في إرواء الغليل (٣/ ٤٠٧).

(٢) أخرجه الدارقطني (٢٧٦٩)، من حديث أبي هريرة، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (٥٤٣): باطل.
وأخرجه الحاكم (١/ ٤٤٨) من حديث علي، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (٥٤٤): موضوع.

الآية [آل عمران: ١٣٣]، ولخروجه من عهدة التكليف، وعدم ضمانه على الله عمره ولا عافيته.

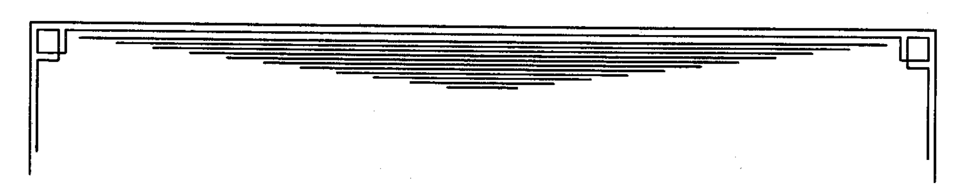
والواجب على المسلم: أن يراعي في عنصر الاستطاعة هذا، ما أرشد إليه النبي ﷺ في قوله: «**مَنْ حَجَّ مِنْ مالٍ حلالٍ، وبراحلةٍ حلالٍ، فوضعَ رِجْلَه في الغَرْزِ، فقال: لبيكَ اللهم لبيكَ. قيل له: لبيكَ وسعديْك، حَجُّكَ مبرورٌ، وسعيُكَ مشكورٌ. ومن حجَّ من مالٍ حرام، وزادٍ حرام، وراحلتُه حرام، فوضع رِجْلَه في الغَرْزِ، فقال: لبيكَ اللهم لبيكَ. قيلَ له: ارجعْ مأزوراً لا مأجوراً، لا لبيكَ ولا سعديْكَ**»[١]. وقال ﷺ: «**إن الله طيِّبٌ لا يقبلُ إلا طيِّباً**»[٢]. يعني الكسب الحلال.

ومن هنا يأتي أول تعليم وفائدة من الحج، وهو: أن من عزم على الحج سيتحرى الحلال الذي لا شبهةَ فيه. وإن كان متحرياً من قبل، فسيزداد تحرياً وحرصاً. فتحسنُ المعاملات، وتحفظ الحقوق، وتُؤدَّى الأماناتُ، وتقوى الثقة بين المسلمين.

وهنا وقفة مع كل حاج قد خرجَ من بلده ووصل إلى الأراضي المقدسة، نستوقفه مع نفسه، وندعوه إلى إعادة النظر في المال الذي قدم به من أجرة إركاب، أو أجور وأتعاب، أو ثمناً لطعام وشراب، فإن كان حلالاً ومن كسب حلال، فإنا نزف إليه تلك البشرى: بحج مبرور وذنب مغفور، وإن كان قد غلبت عليه نوازع المادة، وسيطرَ عليه حبُّ المال، ولم يُوق شُحَّ نفسه، فليتدارك نفسه بالعزم الأكيد على رد الحقوق إلى أهلها، إن كانت هناك حقوق للآخرين، وليقدم توبة نصوحاً إلى الله ﷻ مما كان منه، مما لا يعلمه إلا الله في معاملاته مِن غش أو تدليس، أو تطفيف كيل، أو بخس وزن، أو تقصير في عمل ما، مما وجب عليه أداؤه، سواء في مجال الوظيفة للدولة، أو العمل مع الناس، وليبرئ نفسه من كل حقٍّ لَحِقَ ذمته، لعله بذلك يطرق باباً من أبواب اللجوء إلى الله؛ فيتحمل الله عنه ما يعجز عن ردِّه لأهله.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٥٢٢٨)، والبزار (١٠٧٩ ـ كشف الأستار)، وقال الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٧١١): ضعيف جداً.
(٢) أخرجه مسلم (١٠١٥).



آداب السفر والحج

وإنا لندعو كل حاجٍ أو معتمر أو مسافر من بلده لأي عمل يبتغي فيه فضل الله، في دينه أو دنياه؛ أن يراعي آداب السفر التي نص عليها علماء المسلمين.

أولاً وقبل كل شيء **حسن النية** في قصده، ثم **تَخيُّر الرفقة** الذين يصاحبهم من أهل الصلاح والعلم؛ إن جهل علّموه، وإن نسي ذكّروه، وإن أخطأ فاعتذر قبلوا منه... إلخ.

ثم **يردُّ الأمانات** التي عنده للناس، **ويُسَدِّدُ الديونَ** التي عليه إذا كان قد حلَّ أجلُها، أو يُشهد عليها إن لم تكن موثقة بالكتابة. ثم **يودِّعُ الصالحينَ** من أهل بلده، ويستوصيهم الدعوات الصالحة. ويُسائلُ العلماء عن أركان الحج وأهم أعماله. ويُؤمِّن لأهله ما يلزمهم، وقبل مغادرة منزله **يُصلِّي ركعتين** لله تعالى(١). ثم يأخذ كل أموره **بالرفق** في نفسه وفي رفقائه وفي معاملاته؛ في حِلِّه وترحاله ومشترياته وجميع شؤونه؛ لأن الرفق ما وجد في شيء إلا زانه، ويحافظ على **الصلوات**، وفي جماعة إن أمكن، ويُكثر من **ذكر الله** ويستشعر الأدبَ القرآني الكريم في حقِّ الحاج الوارد في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: ١٩٧]، إنها آدابٌ هامة، ولكنها في الحج أهم؛ لأن من خرج من بلده، وخلّف أهله وولده يؤم بيت ربه؛ لا يليق به، ولا ينبغي له أن يرفث

---

(١) أخرج البزار (٥١٤ ـ مختصر زوائده) عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «**إذا خرجت من منزلك فصَلِّ ركعتين يمنعانك من مخرج السوء**»، وجوّد إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٢٣).

أو يفسق. **والرفث**: كل حديث يتعلق بالنساء. **والفسوق**: كل خروج عن جادة الاستقامة، قولاً أو فعلاً. والحج يأتيه المسلمون من كل فج عميق على تباعد ديارهم، وتنوع عاداتهم؛ فلا يليقُ بهم إثارة الجدل، حرصاً على وئامهم وأخوّتهم. والحث على فعل الخير؛ لأنه ميدان التعاون والتناصح، والمسارعة إلى الطاعات من أنواع العبادات؛ وكل فعل يصدق عليه قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾. ولعل بهذه الآداب وتلك التوجيهات يصطبغُ الحاج بالصبغة التي أرادها الله له: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾.

ثم لتعلم: أن لتلك البقاع المقدسة حرمتها، وأنها لما كانت مُلتقى المسلمين من كل فجٍّ عميق، وكانت هي حرمُ الله وفيها البيتُ الحرام، فقد عظَّمَ الله خطرَها وخطرَ المخالفة فيها، حتى إنه ليؤاخذ فيها على مجرد الإرادة، لتسلم نفوس الناس ونياتهم وإراداتهم من أن يخطر عليها ما لا يُرضي الله. فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٥﴾ [الحج: ٢٥] فمجرد إرادة الإلحاد والظلم فيه يُذيقه الله من عذاب أليم.

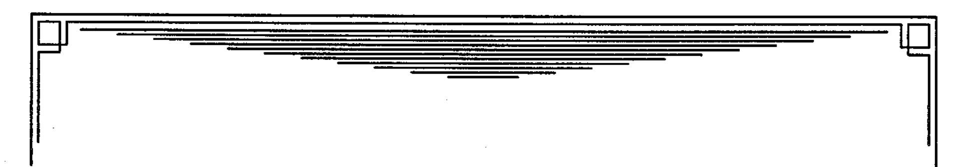
إن هذا البيت أعتقه الله من الجبابرة فسُمِّي البيت [البيت العتيق]. وأصبح أمناً وأماناً وكذلك أمّن الله به أهله، وأمّن كلَّ من دخله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. حتى الطير في الهواء، والوحش في الخلاء، بل والشجر في منابته، كما قال ﷺ: **«لا يُقتل صيدُه، ولا يُقطع شجرُه ولا يُختلى خَلاه»**[1]. واستثنى من ذلك الإذخر لحاجتهم إليه.

فكيف بضيوف الرحمٰن الوافدين إليه؟!

ولقد كان العرب في جاهليتهم يعظمون حرمته. فقد يلقى الرجل عدوه ـ قاتل أبيه أو أخيه ـ فلا يمدُّ إليه يدَه، تعظيماً لحرمة البيت. وكانوا يُعِدُّون الشراب والسقاية للوافدين، فيضعون التمر والزبيب في حياض من ماء زمزم؛ إكراماً لضيوف الرحمٰن، فكيف بمن يؤذيهم؟ فلا تنس أخي الحاج الكريم هذه الآداب في رحلتك كلها.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٤٩)، ومسلم (١٣٥٣).



بداية مسيره ﷺ للحج

أخي الحاج: كأنك الآن ـ بعد اكتمال الاستطاعة واستيعاب الآداب للحج ـ أصبحتَ على أُهبةِ المسير لبيت الله الحرام؛ وكما وعدناكَ أن نسيرَ معاً في رحاب حجة رسول الله ﷺ تقتفي آثارَه، وتقتدي بأفعاله صلوات الله وسلامه عليه. فإن كان قدومك إلى المدينة أولاً. فسيكون طريقك طريقه، وميقاتُك ميقاتُه. فلنبدأ من المدينة المنورة، وعلى بركة الله.

جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه ﷺ لما أرادَ الحجَّ سنةَ عشرٍ من الهجرة، آذنَ الناس، وحثَّهم على الذهاب معه، ليتعلموا منه مناسك الحج، وأرسلَ في القبائل على مياههم قائلاً لهم: «**إنِّي حَاجٌّ ـ هذا العام ـ فمن أرادَ أن يحجَّ معي فليوافِني**». فاجتمع له خلق كثير[١] ووافاه على مكة خلق كثير.

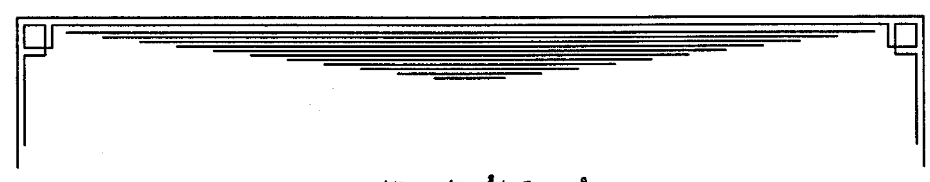
قال جابر رضي الله عنه، يصفُ الكثرة معه، وكان هو قائد ناقة رسول الله ﷺ: كنتُ أنظرُ عن يمينهِ ﷺ فأرى خلقاً لا يقطعُهم البصرُ، وأنظرُ عن شماله كذلك، وعن أمامه ومن خلفه كذلك[٢].

وكان خروجُه ﷺ من المدينة لخمس بقين من ذي القعدة؛ أي في خمسٍ وعشرين منه. وقبل خروجه تجرَّدَ من ملابسه، واغتسلَ ولبسَ لباسَ الإحرام ـ الإزار والرداء ـ وصلَّى الظهرَ بالمسجد النبوي أربعاً، وجاء إلى ذي الحُلَيْفة وصلَّى بها العصر ركعتين، وبات بها. ومن الغد أحرمَ ـ أي: عقد نية الإحرام ـ وأهلّ ملبياً بعد صلاة الصبح على الصحيح. وفي تلك الليلة نَفِسَتْ أسماءُ ـ زوجُ أبي بكر الصديق ـ فسأل لها: ماذا تفعل؟ فأمره أن يخبرَها فتغتسل وتحرم وتُلبِّي، ولا تطوف بالبيت حتى تطهرَ[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨)، بمعناه من حديث جابر.

(٢)(٣) أخرجه مسلم (١٢١٨).



أحكامُ الميقات

وهنا وقفة في هذا الميقات المبارك نتتبع أحكام العمل فيه لكل حاج مر به، وكذلك بقية المواقيت تبعاً له.

أولاً: بدأ ﷺ قصر الصلاة، بصلاة العصر ركعتين. وهكذا كل مسافر غادر ضواحي بلدته التي يقطنها، فإنه يبدأ قصر الصلاة إذا كان سفره مرحلتين، نحو السبعين كيلومتراً، كما بين مكة وجدة، ولا يقصر الصلاة قبل مغادرة بيوت قريته، ويظل يقصر حتى يعود؛ إلا إذا أقام ببلدة مثل مكة أو المدينة في هذا السفر المبارك أكثر من أربعة أيام، فإنه يتم صلاته من أول يوم يصلها، وكذلك يتم صلاته إذا صلَّى خلف إمام مقيم، فيتم تبعاً له.

ثانياً: الاغتسال، هو سنّة بالاتفاق للرجال وللنساء، فإن تعذَّر فالوضوء يكفي، والأفضل الاغتسال في مسكن الإنسان بالمدينة، وهذا الغسل سنة من سنن الإحرام، ولهذا فالحائض أو النفساء تغتسل، وإن كان غسلها هذا لا يرفع حدثها لوجود سببه عليها.

ثالثاً: لباس الإحرام، وهو الإزار والرداء، والسنة فيهما أن يكونا أبيضين لطيفين ولو مستعملين من قبل، ونهى ﷺ عن المصبوغ، خاصة بالزعفران أو ما يشابهه في لونه أو ريحه. وقد سُئل ﷺ عما يلبس المحرِم، فقال: «**لا تلبسوا القمصَ ولا العمائم، ولا السراويلَ ولا البرانسَ ولا الخِفافَ، إلا أحدٌ لم يجد نعلين، فليلبسْ الخفين وليقطعْهما أسفلَ الكعبين**»[1]. ومن هذا الحديث، أخذ العلماء أنواع الممنوعات، ويكون ما عداها من الملبوسات، فيمتنع على المحرم لبس القميص، وهو: كل ملبوس له أكمام وعلى هيئة الجسم كالثوب و(الفنيلة والجكت) ونحو ذلك. والعمامة: كل لفافة على

(١) أخرجه البخاري (١٥٤٢)، ومسلم (١١٧٧).

الرأس بأي هيئة كانت، وشملت كل غطاء للرأس يلبس عليها؛ كالقلنسوة والطاقية والطربوش ونحو ذلك. والسراويل: ويشمل القصير والطويل (الشرط والبنطلون والكلسون)، والبرانس: وهو ما يلبس فوق الثياب وله غطاء للرأس موصولاً به، ويشمل الجبة والعباءة والدرّاعة ونحو ذلك، والخفاف: حذاء الرجل يغطي ما يغطيه الجورب، فيشمل كل ما يلبسه في القدمين يغطي موضع الغسل من القدم في الوضوء.

ويلحق بهذا القفاز في اليدين، وكذلك تغطية الوجه، تلحق بتغطية الرأس في المنع، وقد قال الفقهاء في مجموع ذلك كله: يحرم على الرجل لبس كل محيط؛ من الإحاطة، أي ولو لم يكن مخيطاً؛ أما المخيط من الخياطة فلا يمنع لمجرد وجود الخياطة فيه، إلا إذا كان مفصلاً على هيئة الجسم وخِيطَ طرفاه فأصبح محيطاً بالجسم مثل الثوب والكم ونحو ما تقدم. ولو احتاج المحرم أن يتغطى من البرد بلحاف فلا مانع ما لم يغطِّ رأسه. وله أن يلبس الحزام الذي فيه نقوده. ويحمل على عاتقه الشنطة التي فيها أوراقه ولوازمه. وكذلك له إبقاء الخاتم في أصبعه، والساعة في يده، والنظارة على عينيه، وله أن يستظل بمظلة، أو يقف تحت خيمة، كما يركب السيارة والطائرة. كل ذلك في حق الرجال، الصغير والكبير في ذلك سواء، حتى لو كان معك طفل، وأردت الإحرام له، فتجرده، وتمنعه مما تمنع نفسك منه.

لباس المرأة:

أما المرأة فإن منهجها الستر، والتستر عن الأجانب، وقد كرمها الإسلام في لباس الإحرام؛ فأباح لها لبس كل ما كانت تلبسه من قبل، ولم يخصص لها نوعاً معيناً، لا في لونه ولا في تفصيله. وكل ما فيه سترها تلبسه، إلا أمرين فقط: القفاز في اليدين والنقاب أو البرقع على الوجه، وتلبس الجورب، وتبقي حليَّها عليها، وكل ما كان لها لبسه، ولكن عليها مراعاة وجود الأجانب عنها، فتغطي وجهها، وتستر كفيها، ولا تبدي حليَّها، وذلك لما جاء عن عائشة رضي الله عنها وهي في الحج مع النبي ﷺ، قالت: كنا إذا لقينا

الركبان أسدلنا، وإذا فارقونا كشفنا[1]، وهكذا المرأة اليوم، إذا كانت مع محارمها فقط في سيارتهم أو مسكنهم أو خيمتهم كشفت، ولا تلبس البرقع ولا النقاب، ولا تغطي وجهها بخمار ولا بغيره.

أما إذا كانت في الطائرة أو في سيارة وفيها غير محارمها أو في مسكنها أو في الخيمة أو في الطريق ولقيها أجانب، فإنها تسدل على وجهها ما يغطيه عنهم.

من حكمة التجرد والاغتسال:

وإذا كنا بمعرض التجرد ولباس الإحرام والاغتسال، فيجدر بنا أن نذكّر إخواننا الحجاج بعظمة وأهمية هذه الأمور الثلاثة، وما ينبغي أن تعود على الإنسان في سلوكه بصفة عامة؛ وليستشعرَ عند تجرده من لباسه الذي تعوَّد عليه، أن يتجرد من كل عادة كان قد تعوَّد عيها ليست من دين الله؛ وأنه قد خرج مبدئياً من كل مظاهر التميز والحواجز بين شرقي وغربي، وبين غني وفقير، وبين قريب وبعيد؛ وأنه قد رجع إلى اللحظة التي جاء إلى الدنيا عليها. فإذا اغتسل سنة للإحرام وتنظف وتطهر في بدنه، فليستشعر ضرورة هذا العمل في داخليته، فليطهر ولينظف قلبه ونفسه من كل دَخَل؛ من حقد أو حسد أو غل أو كراهية وليملأ قلبه محبة ومودة وكل معاني الخير لإخوانه المسلمين.

فإذا ما لبس الإزار والرداء الأبيضين الجديدين فليتذكر الفطرة والسماحة في دين الإسلام، وليتذكر الطهر والنقاء ماثلين في هذا اللباس، ويستشعر أن هذا هو لباسه الذي سيخرج به من الدنيا، وأنه مقدم على رحلة تنتهي بالوقوف بعرفة شبيهة برحلة الموت التي تنتهي بالموقف العظيم. فليتزود من هذه لتلك، وهكذا يجعل من لحظات تواجده في الميقات، وأداء تلك الأعمال عملية تحوير في شخصيته، فيصبح المسلم المثالي الصادق في قوله، المخلص في

---

(١) أخرجه أبو داود (١٨٣٣)، وابن ماجه (٢٩٣٥)، وضعفه الألباني في إرواء الغليل (١٠٢٤).

عمله، المتأدب في سلوكه، المدبر عن الدنيا، المقبل على الآخرة، وهناك يطلقها مدوية تملأ الأرجاء، وتصعد إلى عنان السماء: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمدَ والنعمةَ لك والملك، لا شريك لك. وعندئذٍ تأتيه البشرى: «لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ» وهو ـ حقاً ـ حري بذلك.

رابعاً: كيفية الإهلال:

أخي الحاج لكأني بك وأنت في الميقات، وقد تغيرت شخصيتك، وتسامت نفسك، وأقبلتَ على ربِّك تجأر إليه بالتلبية، وقد تخيَّرتَ النسكَ الذي تُريده من الأنساك الثلاثة، والتي هي: الإفرادُ والقرانُ والتمتّعُ. وكأنك تستوقفني تسأل عن أيّها أفضل؟ وبأيها أهلَّ رسول الله ﷺ؟ وكيف كان إهلالُه؟

اعلمْ أن كيفية إهلاله عند الجمهور، أنه ﷺ ـ بعد أن صلَّى صلاة الصبح ـ أهلَّ بنسكه، والصحيح أنه بدأ مهلّاً بالحج مفرداً، ولكن جبريل عليه السلام أتاه، فقال: يا محمد، قل: حجة في عمرة[1]. فأدخل العمرة على الحج، فصارَ قارِناً، ومع ذلك فكما في حديث عائشة رضي الله عنها: فمنا من أهلَّ بحج، ومنا من أهلَّ بعمرة، ومنا من أهل بحج وعمرة معاً[2]. هكذا كان الأمر في الميقات في بداية الطريق، وسيأتي ما كان في نهايته إن شاء الله.

وإيقاعه ﷺ إهلاله عقب صلاته الفريضة، جعل الفقهاء يقولون: السنة أن تُهِلَّ عقبَ صلاة، فإن صادفت فريضة كما صادفت مع رسولَ الله ﷺ فبها، وإلا فتُصلِّي ركعتين، وتهلُّ بعدهما لتوافقَ في الشكل إهلالَ رسول الله ﷺ، وينبغي أن يُعلم أن هاتين الركعتين ممنوعتان في الأوقات المنهي عنها وهي: بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس، وبعد صلاة العصر حتى تغرب الشمس[3]، وعند الشروق حتى يرتفع قرص الشمس قدرَ رمحٍ، وعند الغروب

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٣٤) بلفظ: «أتاني الليلة آتٍ من ربي...»، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٤/ ٥٠١): هو جبريل.

(٢) أخرجه البخاري (١٥٦٢)، ومسلم (١٢١١).

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٨)، ومسلم (٨٢٥) من حديث أبي هريرة.
وأخرجه البخاري (٥٨١)، ومسلم (٨٢٦) من حيث عمر. =

حتى يتكامل غياب قرص الشمس[(١)]، فإذا وصلَ الحاجُّ إلى الميقات في هذه الأوقات فإنه لا يُصلِّي، ويهلُّ بدون صلاة. وإذا أحبَّ أن ينتظر حتى تجوزَ الصَّلاةُ فلا بأس، وفي أي مكان من منطقة الميقات صلَّى أجزَأه.

وإذا كان الحاج سيسافر من المدينة جواً، فإنه يتهيَّأ بالتجرد والغسل ولباس الإحرام في بيته بالمدينة حيث يسكن، ثم إذا جاء إلى المطار عمل ما يعمله غيره في الميقات من صلاة وإهلال، ولكن الأحوط له أن لا يُهِلَّ إلا بعد أن يصعدَ الطائرةَ، وتتأكدَ عنده الرحلة، وعليه أن يُبادرَ بالإهلال قبل أن تبرحَ الطائرةُ مكانها، حتى لا تجتاز به الميقات؛ لأن المسافة بينهما في حساب الطائرة شيء يسير.

أنواع النسك:

أما أنواع النسك، والذي يختاره منها، فهي ثلاثة:

١ ـ **الإفراد بالحج**: بأن يقول: لبيك اللهم حجاً. وحينئذٍ يبقى على إحرامه حتى يقف بعرفة، ويرمي جمرة العقبة، ويطوف طواف الإفاضة، ويتحلل من إحرامه، سواء التحلل الأصغر أم الحل كله على ما سيأتي.

٢ ـ **القران**: وهو أن يقول: لبيك اللهم حجاً وعمرة معاً، أو يدخل العمرة على الحج كما فعل ﷺ. وهذا كذلك يبقى محرماً حتى ينهي مناسكه ويتحلل. ويكفيه في قرانه هذا طواف واحد لحجه وعمرته. وسعي واحد لحجه وعمرته. وحلق مرة واحدة أو تقصير لهما معاً.

٣ ـ **التمتع**: وهذا يقول فيه: لبيك اللهم عمرة. وهذا المتمتع إن أتى إلى مكة أتى بأعمال العمرة من طواف وسعي وحلق أو تقصير، ثم تحلل ولبس ثيابه وحلَّ له كل شيء حتى النساء، لو كانت زوجته معه ـ وهي متمتعة مثله ـ لحلّت له كما لو كانا في بلدهما.

هذه الأنساك الثلاثة جائزة بإجماع المسلمين، وليس هناك إلا الاختلاف

= وأخرجه البخاري (٥٨٦)، ومسلم (٨٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري.

(١) أخرجه مسلم (٨٣١) من حديث عقبة بن عامر.

فيما هو الأفضل منها، والأفضلية ترجع إلى ترجيح النصوص عند الأئمة الأربعة رحمهم الله، وهو مبحث أصولي لا مجال له هنا، ولكن بياناً لما توصلوا إليه ـ كل حسب ما ترجح عنده ـ نورد لك أقوالهم: قال مالك والشافعي رحمهما الله: إن الإهلال بالحج مفرداً أفضل لأن النبي ﷺ بدأ به، وبه أهلَّ مَنْ بعده أبو بكر وعمر في جموع أصحاب رسول الله ﷺ.

وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التمتع أفضل لمن يسوقُ الهدي؛ لأن جبريل أخبر النبي ﷺ وأمره بذلك، فأدخل العمرة على الحج فصارَ قارناً بعد أن كان مفرداً.

وقال أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإهلال بالعمرة أفضل لأن النبي ﷺ لمَّا وصل مكة، وطاف وسعى، قال لأصحابه: بعد السعي: **«من لم يسقِ الهديَ فليجعلْها عمرة»**[1]، وقال: **«لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ لما سقتُ الهديَ، ولجعلتُها عمرة»**[2]. ولكل فريق جواب على اختيار الآخر، والمهم أن الكل جائز فلينظر الحاجُّ ما هو الأيسر عليه، لحديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «ما خُيِّرَ رسولُ الله ﷺ بين أمرين إلا واختارَ أيسرَهما»[3].

معاني التلبية:

والآن وقد تخيَّرتَ أيها الحاج نسككَ الذي أهللتَ به، وأعلنتَ ذلك في هذا الشعار[4] الكريم: «لبيك اللهم لبيك» فلنعرض معاً لمعاني هذه التلبية:

إن معنى **لبيك**: أجبتك، وأقمتُ على طاعتك وإجابة دعائك، وهي في الأصل إجابة للنداء، كما لو ناداك إنسان فأردت إجابته، قلت: لبيك. وهي

(١) أخرجه البخاري (١٥٦٠)، ومسلم (١٢١١)، من حديث عائشة.
وأخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر.
(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨).
(٣) أخرجه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).
(٤) عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«أتاني جبريل فقال: مُرْ أصحابك فليرفعوا أصواتهم بالتلبية فإنها شعارُ الحج»**. (ابن ماجه ـ ابن خزيمة، الترغيب ١/ ١٨٩). (المؤلف). وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١١٣٥ ـ ١١٣٦).

ـ اليوم ـ جواب منك لنداء سابق حين أمرَ الله خليلَه إبراهيم عليه السلام أن يؤذِّنَ في الناس بالحج فقال له: نادِ في الناس: إنَّ الله ابتنى لكم بيتاً فحجُّوه. فقال إبراهيم: وأين يبلغُ ندائي يا ربِّي؟ فقال الله له: عليكَ النداءُ وعلينا البلاغُ، فصعِدَ جبلَ أبي قبيسٍ ونادى ما أمَرَه اللهُ به، فأبلغ الله صوتَه للخلائق حتى الذراري في الأصلابَ إلى يوم القيامة، فمنهم من لبَّى مرة ومنهم من لبَّى مرتين، ومنهم من لبّى أكثر. وكلٌّ يحجُّ بعدد ما لبّى[1]. فها أنت أيها الحاج تجدِّدُ الإجابة وأنتَ في عالم الحسِّ والوجود: لبيك يا ربي أتيتُك طائعاً ممتثلاً، لبيك اللهم لبيك. **واللهم** بمعنى: يا الله، حذفت يا النداء، وعوض عنها بالميم.

لا شريك لك: هذا هو لب التوحيد، وهو حقُّ الله على العباد. كما في حديث معاذ: «**أتدري يا معاذُ ما حقُّ الله على العباد، وما حق العباد على الله؟**» قال: الله ورسوله أعلمُ. فقال ﷺ: «**حقُّ الله على العباد أن يعبُدوه ولا يُشركوا به شيئاً، وحقُّ العباد على الله أن لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشركُ به شيئاً**»[2]. وها أنت تجدِّد العهدَ مع الله في هذا الملأ والمشهد، أنك لا تشركُ بالله أحداً، وأن الله تعالى هو المعبود وحده؛ كما تكرِّرها في صلواتك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾؛ أي: لا نعبد ولا نستعين بغيرك. ولكنك في الصلاة تقولها فيما بينك وبين نفسك، وفي الحج تقولُها تشهد عليها العالم كله، من حجر وشجر ومدر. كما قال ﷺ: «**لا يسمعُ تلبيةَ الملبِّي حجرٌ ولا شجر ولا مدر، إلا شهد له يوم القيامة**»[3].

إن الحمد والنعمة لك. **الحمد**: هو الثناء على الله تعالى لكمال ذاته وصفاته، فهو سبحانه المنزه عن كل نقص. فإذا قلت: الحمد لله، أو: إنه الحمد لله، تكون أثنيتَ على الله، ونزهته، فجمعت أطراف الذكر كله. ولذا

---

(١) انظر تفسير: الطبري، وابن أبي حاتم، وابن كثير للآية ٢٧ من سورة الحج.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٨٢٨)، وابن ماجه (٢٩٢٤) بلفظ: «**ما من مسلم يُلَبّي إلا لبّى مَنْ عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مدر**». وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٦٦٢).

قال ﷺ: «**كلمتان خفيفتانِ على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتانِ إلى الرحمٰن: سبحانَ الله وبحمده، سبحانَ الله العظيم**»(١).

والنعمة: كل ما أنعم الله به عليك وعلى غيرك. فهو أصلاً من الله: وهي وإن كان لفظها مفرداً، إلا أنها بالتعريف صارت جمعاً، أي: جنسُ الإنعام لله، يُنعم به على من يشاء، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وأعظم ما أنعم الله به على العبد ثلاث. وبدون كسب من العبد، بل محض تفضل من الله.

١ ـ إيجادُك من العدم، لا كسب لك أنت فيه، ولا قدرة لأبويك عليه، بل هبةٌ من الله لهما.

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾ [الشورى: ٤٩].

٢ ـ نعمة الإسلام لمجيئك من أبوين مسلمين، فلو جئتَ من أبوين غير مسلمين لنشأتَ على دينهما، للحديث: «**فأبواه يُهَوِّدَانِه أو يُنصِّرانه...**»(٢).

٣ ـ نعمة دخول الجنة، كما قال ﷺ: «**والله لن يدخلَ أحدُكم الجنَّةَ بعمله**»، قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أنْ يتغمَّدَني الله برحمتِه**»(٣).

ولا شك أن نعمة الإسلام أعظم من نعمة الإيجاد؛ لأن الموجود بدون إسلام يقول يقوم القيامة: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠] والإسلام مع الإيجاد يجعلُه وجوداً دائماً، ينتقل به من الدنيا إلى الجنة، وأعظم نعمة في الإسلام هذا الحج الذي تؤدّيه، حيث يمنن عليك به؛ لأن مجيئك ليس بمالك، فكم خلَّفتَ في بلدك من هو أغنى منك! ولا بجاهِكَ، فكم في بلدك من هو أكبر جاهاً! ولا بشيء من ذلك، وإنما هي دعوةٌ لمائدةِ الإكرام في رحاب بيت الله

---

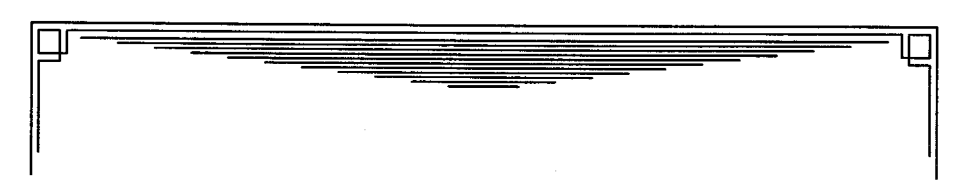
(١) أخرجه البخاري (٧٥٦٣)، ومسلم (٢٦٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٩)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

الحرام. وينبغي أن تستشعرَ هذا المعنى في حياتِك كلها، وتوقنَ أنه إذا كانت النعمة كل النعمة لله، والملك لله يتصرف في ملكه كيف يشاء، لا مانع لما يُعطي، ولا مُعطي لما يمنع، فهل لك أن تذلَّ السؤال لغير الله في رجاء دفع ضُرٍّ؟ لا، وكلا. إنك بهذه التلبية تعتز بعزة الله، وتستغني بغنى الله، ويصغر في عينك كل ما سوى الله، وتصبح ـ حقاً ـ مسلماً مثالياً قوي الصلة بالله، وهذا من أعظم ما يفيضُ عليك من أعمال الحج، وأنت لا زلتَ في الميقات.





محظورات الإحرام

أيها الحاج الكريم، بعد أن انطلقتَ من الميقات ملبياً متواضعاً لربك داعياً، فإن للإحرام حرماته، لا يليق بك انتهاكها، ومحظوراته لا يحقُّ لك ارتكابها؛ ليكمل حجُّك، ويبرّ سعيُك، وهذه المحظورات هي:

١ ـ **لبس المخيط**: الذي عرفته عند لبس ثياب الإحرام، تغطية الرأس بما يلبس عادة، لا بحمل متاعك ولا الاستظلال بمظلة، فإن حمل المتاع على الرأس ليس تغطية له.

٢ ـ **حلق الشعر أو تقليم الأظافر**: سواء من الرأس أو اللحية أو البدن، سواء كان حلقاً أو قصاً أو بأي أنواع الإزالة، وما سقط من نفسه أو عند مسح الرأس للوضوء ونحوها، فلا شيء فيه، وكذلك الظفر في اليد أو الرجل إذا عرض له ما يوجب قصّه، فقصصتَ ما يؤلمك فلا بأس به.

٣ ـ **مسُّ الطيب**: سواء ببدنك أو في لباس إحرامك، أما شمُّه من غيرك كطيب الكعبة، أو مررت بمن معه طيب فوجدت ريحه، أو مررتَ ببستان فيه زهور طيِّبة الرائحة، فلا بأس في ذلك؛ لأن الممنوع استعمال الطيب ولو في الصابون الذي تغسل به يديك ووجهك، فتستعمل صابوناً بدون رائحة.

٤ ـ **النساء**: من مباشرة وكل ما يدعو إليها، فيحرم على المحرم كل ذلك من زوجته، كما يحرم عليها هي أيضاً من زوجها، وكذلك عقد النكاح، لا يعقدُ لنفسِه ولا لغيره، فلا يتزوَّج هو، ولا يُزوِّجُ ابنته ولا أخته وهو محرم. وكذلك المرأة لا يُعقَد عليها وهي محرمة بخلاف الرجعة من طلاق، فله مراجعة زوجته؛ لأن ارتجاعها ليس إنشاء لزواجها.

٥ ـ **قتل الصيد**: وهو كل حيوان أو طير برِّي، ليس بحرياً ولا أنيساً يُربى في البيوت.

هذا كله بالنسبة للرجال والنساء على السواء إلا في اللباس، فالمرأة لا يُحظرُ عليها لبسُ شيء إلا ما تقدم؛ وهو القُفَّازُ والبرقعُ أو النقابُ.

وهنا أخي الحاج وقفة تأمل واعتبار مع هذه المحظورات. حكمةً وأحكاماً.

أما **الحكمة**: فإن التجرُّدَ من الثياب التي اعتادَها الإنسان، والتي تميز الشرقي من الغربي، والشامي من الهندي ـ حسب عادات البلاد ـ فيه تجرد من فوارق الأجناس، والعودة بالإنسان إلى الأصل الذي يشملُ جميع الناس، فيعود الحجيج إلى الأصل الأول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فلا فوارق تحجز بينهم، وفي لباس الإحرام مساواة الكبير بالصغير، والغني بالفقير، والمأمور بالأمير، لا فضل لعربي على عجمي إلّا بالتقوى. ثم إن فيه رداً على عقلاء الجاهلية، الذين كانوا يطوفون بالبيت عرايا كيوم ولدتهم أمهاتهم، الرجال والنساء سواء، وكانت خدعة من إبليس حيث أوهمهم أن ثيابهم التي عليهم قد شاركت معهم في ارتكاب المعاصي، فيلزمهم نزعها، ليطهرهم الله من ذنوبهم، وكان من يستحي أن يطوف عرياناً ـ رجلاً كان أو امرأة ـ إما أن يستعيرَ ثوباً من أهل الحرم بناء على أنهم جيران الله، فيطوف فيه، ويردُّه عليه، أو يشتري ثوباً لم يُباشر معصية به، فيطوف فيه، ثم ينزعه ويتركه عند الكعبة، فتأخذه سدنةُ البيت، ومن لم يجد من يعيره أو لا يستطيع الشراء، تجرَّدَ وطاف عرياناً، وهذا امتهان للإنسانية وفي ظل الكعبة، إنها فتنة إبليس الأولى كما استزلَّ أبوينا، وحذَّرَنا الله من ذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧].

فكرَّم الله المسلمَ بلباس الإحرام، في بساطته يُمَثِّلُ الفطرةَ، ويُذَكِّرُ بيوم البعث.

أما تحريم الحلق: فهو كفُّ يَد الإنسان عن نفسه، إشعاراً له بأنه لا يملك في نفسه ولا حتى شعرة من شعره، فيزيلها عن مكانها، فتتحقق فيه صفة العبودية لله حساً ومعنى.

وأما تحريم الصيد: فإن فيه كفَّ يد المحرم عن غيره بأي أذى، حتى الصيد الذي هو أحلُّ الحلال، فهي فترة تدريب على كفِّ الأذى مطلقاً، وهو حقيقة ابتلاء من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ [المائدة: ٩٤].

ثم يبين الحكمة وراء ذلك بقوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾، وذلك لأن الصيد محبَّبٌ للنفس، فهل يكفُّ يده امتثالاً لأمر الله في قوله تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ٩٥] أم لا؛ لأن بني إسرائيل امتُحِنُوا في الصيد فأخفقوا، أو احتالوا على ما حرَّمَ الله.

وطالوت امتُحِن من كان معه في الشُّرْبِ من النهر، فشربوا منه إلا قليلاً منهم. وقد نجحت هذه الأمة فامتثلتْ أمر الله ولم تمتدّ يدُها إلى شيء من الصيد حالةَ الإحرام.

أما النساء: فهي أيضاً فترة فطام عن أشد ما هو محبب للإنسان، ليكون أقدرَ على التعفف، لا تحل له لا ليلاً ولا نهاراً، حتى يتم نسكه، فلكأنه قد تخلص من كل نوازع النفس الأمَّارة من بطش واعتداء وحب للتملك وغريزة استمتاع، وتوجَّه بروحه ووجدانه إلى الله تعالى، حتى إذا ما أنهى حجه كان مؤمناً مثالياً، ويأتي إلى البيت الحرام وقد سما إلى مصافِّ الكمال، ويقف بعرفة وهو حري أن يباهي الله به ملائكة السماء.

أما أحكام هذه المحظورات:

فمن حيث اللباس: إن من احتاج للبس شيء أو تغطية رأسه فإن له عند الضرورة لبس ما اضطر إليه، وعليه الفدية، وكذلك في تغطية الرأس، وكذلك في حلق الشعر، إن اضطر لحلق شيء منه ـ لجرح أو حجامة ـ فله ذلك، وعليه الفدية؛ لحديث كعب بن عُجْرَة رضي الله عنه قال: أُتي بي محمولاً إلى رسول الله ﷺ ـ أي محموماً من هوام رأسه ـ فقال ﷺ: **«ما كنتُ أرى أن بلغ**

بك ما أرى». فرخَّصَ له ﷺ بحلق شعره، وأمره أن ينسكَ شاة، أو يُطعمَ ستة مساكين، أو يصومَ ثلاثة أيام[١].

وأما قتل الصيد، فكما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ﴾ [المائدة: ٩٥]، ﴿عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا﴾ بتقدير قيمة الصيد، ثم ينظرُ ما يشتري بها طعام مساكين، ثم يصومُ عن طعام كل مسكين يوماً، الصوم يصومُه في أي مكان وفي أي وقت، إلا صوم التمتع فسيأتي بيانه في محلِّه. وكل إطعام فلا يكون إلا بمكة. لقوله تعالى: ﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾.

أما محظورات النساء: وهي الوطء ومقدماته، فمن وطئ وهو محرمٌ وقبل التحلل فقد فسد حجُّه، الرجل والمرأة سواء، وعليهما بدنة، ويمضيان في أعمال حجِّهما حتى النهاية، وعليهما قضاء الحج من العام القادم. ويُفرَّقُ بينهما في حجة القضاء حتى لا يُفسداها أيضاً، فإن باشرَ ولم يطأ ولم يُنزلْ، فعليه شاة، ولا يفسد حجه. فإن أنزل بدون وطء بأي تسبب منه، فعند أحمد رواية ببطلان حجه، ولا يُفَرّق بين قبل الوقوف ولا بعدَه. فإذا لم يجد بدنة، قال النووي: عليه بقرة، فإن لم يجد فسبعٌ من الغنم، فإن لم يجد قُوِّمتْ البدنة دراهمَ، واشترى بالدراهم طعاماً يتصدق به، فإن لم يجد صام عن كل مدٍّ من هذا الطعام يوماً، ولهذا فعلى المحرم أن يحفَظَ إحرامَه، ويجتنب محظوراته ليبرَّ حجُّه، ويعظمَ أجرُه، كما قال ﷺ: **«والحجُّ المبرورُ ليس له جزاءٌ إلا الجنّة»**[٢].

ولا يحل له شيء من تلك المحظورات حتى يتحلَّلُ. والتحلُّل يكون بفعل أمور ثلاثة: الرمي، والحلق، وطواف الإفاضة.

فإن فعل ذلك حلَّ له كلُّ شيء حتى النساء، وإن فعلَ اثنين منهما حلَّ له كلُّ شيء إلا النساء.

---

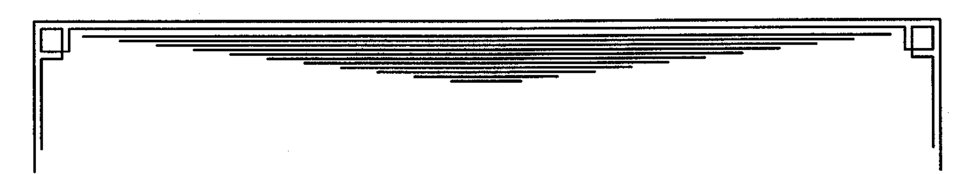
(١) أخرجه البخاري (١٨١٦)، ومسلم (١٢٠١).

(٢) أخرجه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩).

وينبغي للحاج ألّا يقطعَ شَجَر الحرم، ولا يقتلَ صيدَه، سواءٌ كان مُحرماً أو بعدَ التحلّل، لما جاء في ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ [آل عمران: ٩٧]. وقوله ﷺ: **«لا يُقطعُ شجرُه ولا يُختلى خَلاؤُه»**[1].



(١) تقدم تخريجه (ص١٩٠).



دخول مكة والطواف

وصل ﷺ مكة صبح الرابع من شهر ذي الحجة، وبات بذي طُوى أوائل مداخل مكة، واغتسلَ، ولما أصبحَ دخل مكة وكان أولَ ما بدأ به الطواف.

وأنت أيها الحاج إن كنت متمكناً من أمر نفسك وباستطاعتك ذلك فبها ـ ومكان ذي طُوى هو المعروف الآن ببستان الزاهر ـ وإلا فإنك تدخل إلى مكة أي وقت وصلت إليها، فتعمد إلى مكان مسكنك وتؤمِّن متاعك وتتوضأ أو تغتسلُ ثم تأتي إلى الطواف.

وقد دخل ﷺ إلى الحرم من باب بني شيبة المقابل لباب الكعبة تقريباً، وفي محاذاة باب السلام، وأنت من أي أبواب المسجد دخلت صحَّ لك. وعندما رأى النبيُّ ﷺ الكعبة قال: **«اللهم زِدْ بيتَك هذا تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابةً»**[1].

بدء الطواف: وبدأ ﷺ طوافَه باستلام الحجر الأسود، فقبَّله واستلَمه وكبَّر، ثم اضطبعَ ورملَ في الأشواط الثلاثة، وكان يستلم الركنَ اليمانيَّ، ولا يستلمُ غيره من الركنين الشاميين المحاذيين لحِجْر إسماعيل؛ لأنهما دون قواعد إبراهيم عليه السلام.

وكان ﷺ كلما حاذى الحجر في أشواط طوافه استلمَه بالمِحْجن وقبَّله.

فكان أول عمل منه ﷺ عند دخول الحرم هو الطواف، فلم يُصَلِّ تحيَّةَ المسجد، مع أن دخوله كان ضحى؛ لأن تحية البيت الطواف، وبدأ طوافَه باستلام الحجر، وكان يستلمه كلَّ شوط، واضطبع، ورملَ؛ ولما فرغ من طوافه جاء إلى خلف المقام وقرأ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]. وصلّى ركعتي الطواف، وقرأ في الأولى بعد الفاتحة ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣/ ٢٠١/ ٣٠٥٣)، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (٤٢١٥): موضوع.

﴿ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، وفي الثانية ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾. وبعد صلاته الركعتين استلمَ الحجر، ووقف بالملتزم، ثم شربَ من ماء زمزم، ثم خرجَ إلى السعي[١].

وهنا وقفة مع أحكام الطواف وحكمة الاضطباع والرمل والصلاة خلف المقام... إلخ.

أحكام الطواف:

أما أحكام الطواف فالأئمة الأربعة يتفقون على اشتراط الطهارة فيه، وإن اختلفوا في اعتبارها، فالجمهور يعتبرونها شرطاً لصحته، وأبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ يعتبرها شرطاً مستقلاً بذاته تجبر بدم على تفصيلٍ عنده.

والصحيح ما ذهب إليه الجمهور لفعله ﷺ كما أسلفنا من وجوب الأخذ به، وقد جاء عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنه ﷺ أول ما بدأ به الوضوء، ثم طاف[٢]. ولقوله ﷺ: «**الطَّوافُ صَلاةٌ إلا أنه أُبيحَ فيه الكَلام**»[٣]. ويمكن الاستشهاد للجمهور من قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

ووجه ذلك أن الله تعالى عهد إلى نَبِيَّيْنِ كريمين بتطهير البيت لكلٍ من الطائفينَ ـ وبدأ بهم ـ والعاكفينَ والرُّكَّعِ السجود. فسوَّى بين الطائفين والمُصلِّين، وإذا كانت طهارة المكان لأجل الصلاة والطواف فلأن يَتَطَهَّرَ الطائفُ والمُصلِّي من باب أولى، ومعلومٌ أن الطهارةَ في الصلاة مشروطةٌ مع المكان للثياب والبدن من النجس والحدث. والطوافُ جاء هنا قَرينَ الصلاة فليأخذ حكمها.

استلام الحجر: وهو سنة بالإجماع، فإن لم يتيسر له فلا نقصَ عليه، وينبغي أن لا يزاحمَ عليه. لقوله ﷺ لعمر: «**إنَّكَ رجلٌ قويٌّ فلا تُزاحِمَنَّ على الحَجَر**»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٦٤١)، ومسلم (١٢٣٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٩٦٠)، وابن خزيمة (٢٧٣٩)، وابن حبان (٩٩٨ ـ موارد)، والحاكم (١/ ٤٥٩)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (١٢١).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٢٤١): مرسل. فإن هذا أبا يعفور الصغير ولم يدرك الصحابة.

واتفق العلماء على أن استلامه متفاوت، فأكملُه: استلامُه باليدين وتقبيلُه بالشفتين بدون أن يُسمع له صوت تقبيل، ثم يضع جبهته عليه. يلي ذلك استلامُه بيده ثم يُقبِّل يدَه. يلي ذلك استلامُه بواسطة مِحْجن كما فعلَ ﷺ[(١)] ـ وهذا عند أمنِ إيذاء الناس في حالة الزحام ـ ويقبِّل تلك الواسطة، ولو بطرفِ ردائه يُرسلُه عليه. فإن لم يتيسر هذا كله أشارَ إليه من بعيد ولا يُقبِّل يده عند الإشارة؛ لأنها لم تلامسه. وليعلم أن تقبيلَ الحجر غاية التسليم لأمر الله، علمنا الحكمة أو لم نعلم. كما صرَّحَ بذلك عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه بقوله عند استلام الحجر: إني لأعلمُ أنَّك حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفعُ ولولا أني رأيتُ رسول الله ﷺ يُقَبِّلُكَ ما قبلتُك[(٢)]. فعمر يقبِّله تأسياً واقتداءً برسول الله ﷺ.

وقد جاء أن علياً رضي الله عنه سمعه فقال: بلى يا أميرَ المؤمنين إنه ينفعُ، فما من أحد يقبِّله أو يستلمُه إلا شهدَ له يوم القيامة. وقيل: «**يأتي القيامة له عينان ولسان يشهد لمن قبَّلَه**»[(٣)].

وقد جاءت في خصوص هذا الحجر المبارك آثار عديدة منها: أنه أُنزل من الجنة[(٤)]، ومنها أن الله تعالى لما أخذَ الميثاق على ذرية آدم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]؛ فقالوا: بلى. كتبَ ذلك في كتاب وأودعَه ذلك الحجر. وينبغي أن يكون موقفنا من ذلك كله موقف إيمان وتصديق بقدر ما تصحُّ النصوص في ذلك.

وبهذه المناسبة نذكر كلاماً يشكك به أعداء الإسلام في خصوص استلام الحجر الأسود وهو قولهم: كيف نؤمر بتقبيل حجر في الوقت الذي تُكَسَّر فيه الحجارةُ؟ أي: الأصنام.

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٠٧)، ومسلم (١٢٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٩٦١) ـ وقال: حديث حسن ـ وابن ماجه (٢٩٤٤)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١١٤٤).

(٤) أخرجه الترمذي (٨٧٧) ـ وقال: حديث حسن صحيح ـ والنسائي (٢٩٣٥)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١١٤٦): صحيح لغيره.

والجواب:

أولاً: من مقالة عمر، ومن فعله ﷺ.

ثانياً: أليستِ الكعبةُ مبنيَّةً بحجارةٍ معلومة أماكنها؟ فهل يعترضون على الطواف حولَها؟

ثالثاً: إن الذي كسَّر الأصنام هو الذي كرَّم الحجر.

رابعاً: لقد جاء في السُّنّة تأكيد الرد على ذلك عملياً وبصورة سريعة، وذلك في العمل في ركعتي الطواف من جانبين، الأول: أنهما خلف مقام إبراهيم. لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ ومعلوم أن أساسَ منهج إبراهيم عليه السلام واضحٌ في قوله تعالى عنه: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. والجانب الثاني: أن السُّنّة في هاتين الركعتين قراءة كل من سورتي (الكافرون والإخلاص) وكلاهما فيهما براءة من الشرك. فالأولى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ① لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ②﴾، ومن ذلك عبادتهم للأصنام، إلى آخر السورة. وفي الثانية: إعلان الوحدانية لله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ فلا شريك معه، ولا ندّ له، إلى آخر السورة. وعليه فتقبيلُ الحجر سنة وطاعة لله واقتداء برسول الله ﷺ.

الاضطباع: من أحكام الطواف الاضطباع، وهو جعل وسط الرداء تحت الإبط الإيمن وطرفيه على العاتق الأيسر، ويبقى الكتف الأيمن مكشوفاً. ولا يكون ذلك إلا في صحن المطاف فقط لا قبله ولا بعده.

الرمَل: وهو المشي في خطى متقاربة في هيئة الإسراع ولو لم يكن مسرعاً، وهذا خاص بالرجال دون النساء، ويكون في الأشواط الثلاثة الأولى فقط، ويمشي مشياً عادياً بين الركنين اليماني والحَجَر الأسود، وسبب هذا الرمل والحكمة فيه، ما جاء في عمرة القضاء سنة سبع من الهجرة بعد صلح الحديبية في سنة ست، وكان مشروطاً على المسلمين أن لا يحملوا معهم سلاحاً إذا جاؤوا للعمرة في العام القادم، ولما وصل المسلمون إلى الحرم، خرج أهل مكة على رؤوس الجبال ينظرون ماذا سيفعل المسلمون في طوافهم؟ فوسوس إليهم الشيطان أن يغدروا بهم. وقال: إنهم متعبون أنهكتهم حمى

يثرب، وأضناهم طول السفر، فلو ملتم عليهم ميلة رجل واحد لقتلتموهم جميعاً واسترحتم منهم. فجاء جبريلُ وأخبرَ رسول الله ﷺ بتلك المؤامرة ضدهم، وهناك أبطل ﷺ كيد الشيطان بقوله لأصحابه: «**أروهم اليوم منكم قوة**». وأمرهم بالهرولة. فلما رأى المشركون منهم ذلك، أنكر بعضهم على بعض، وقالوا: والله ما أنهكتهم الحمى ولا أعياهم السفر، وإنهم لكأنهم الجن. وجبنوا أن يحركوا ساكناً[١]، وبقي الرمَل سنّة في الطواف إلى اليوم.

صلاة الركعتين: السنة أن يوقعهما خلف المقام. فإن لم يتيسر ففي أي مكان من المسجد، وفي أي وقت كان ولو بعد العصر وغيره من أوقات النهي فلا يشملهما.

وهناك أحكام عامة للطواف:

منها صحة الطواف راكباً أو محمولاً أو في الطابق الثاني من الحرم ولو من وراء زمزم ونحو ذلك.

ومنها صحة الطواف إذا أقيمت صلاة مكتوبة، وأنت أثناء الطواف صففتَ مكانك من الشوط، وصليت الفريضة ثم قمت وأتممت شوطك من مكانك الذي صَلَّيت فيه[٢].

ومنها صحة الطواف مع الكلام مع الغير كسؤال أو جواب أو نحوه.

ومنها جواز الاستراحة بين الأشواط للمُتْعَب.

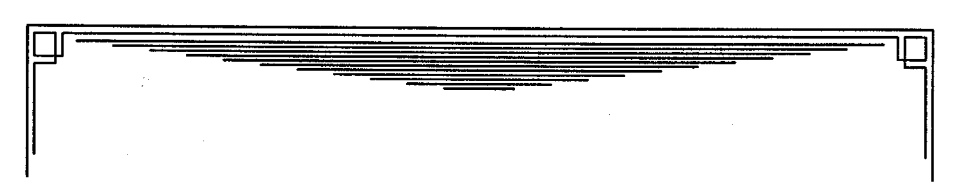
ومما يكثر السؤال عنه هو المحافظة على الوضوء مع زحام النساء، مع القول بأن لمسهن ينقض الوضوء، فالصحيح من السنة أن اللمس العادي غير المقصود كالذي يقع في الطواف عفواً أنه لا ينقض، وعند القائلين بالنقض يأخذون بأقوال الأئمة الآخرين خروجاً من المشقة.

وليُعلم أنه لا يطوف أحد عن أحد إلا في الحج عن الغير، وطواف الصغير والكبير سواء، ويلزم طهارة الصغير من كل ما يلزم طهارة الكبير منه إلا الحدث، فلا حدث على الصغير.

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٠٢)، ومسلم (١٢٦٦)، بنحوه.

(٢) وعند الحنابلة من عند الحَجَر من أول الشوط الذي قطعته بالصلاة. (المؤلف).



السعي بين الصفا والمروة

ولما أتم ﷺ طوافه، أتى الملتزم ـ وهو ما بين الباب والركن ـ وألصق صدره وبكى. فقال له عمر: أتبكي يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «**ها هنا تُسْكَبُ العبرات يا عمر**»[١]. ثم استلم الحجر الأسود وخرجَ إلى السعي. فبدأ بالصفا. فلما دنا منه قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٨] وقال: «**أبدأ بما بدأ الله به**». ثم رقي عليه واستقبلَ الكعبة فكبَّر ودعا طويلاً، ثم نزل إلى المروة، يمشي مشياً فلما انصبّت قدماه في بطنِ الوادي سعى، ولما وصل إلى المروة ارتقى عليه واستقبلَ البيتَ وكبَّر[٢].

وأحكام السعي كالآتي:

أولاً: لا تشترط له الطهارة. فلو طافت المرأة وعند صعودها الصفا للسعي فاجأتها الحيضة فلها أن تسعى، وإن كانت الطهارة أفضل لغير الحائض لما فيه من ذكر الله تعالى.

ثانياً: البداءة بالصفا: لقوله ﷺ: «**أبدأُ**» بصيغة الإخبار، وفي رواية: «**ابْدؤوا بما بدأ الله به**»[٣]. يعني في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

ثالثاً: الذهاب من الصفا إلى المروة شوط، والعودة من المروة إلى الصفا شوط آخر.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٩٤٥)، وقال الألباني في إرواء الغليل (١١١١): ضعيف جداً.
(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨).
(٣) قال الألباني في إرواء الغليل (٤/٣١٨): إن هذا اللفظ «**ابدؤوا**» شاذ لا يثبت... و[لفظ] «**نبدأ**» هو الصواب.

رابعاً: الهرولة في بطن الوادي ـ وهو الآن ما بين العلمين الأخضرين في جدار المسعى ـ سنّة في حق الرجال.

خامساً: الصعود على الصفا والمروة: والغرض منه التأكد من استيعاب ما بينهما من المسافة.

سادساً: ليس في السعي ذكر معين، والذي أثر عنه ﷺ قوله بعد التكبير: **«لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إلٰه إلا الله وحده، أنجز وعدَه، ونصر عبده، وهزمَ الأحزابَ وحده»**(١). زاد ابن عمر: «ولا نعبدُ إلا إيَّاه، مخلصينَ له الدين ولو كره الكافرون».

سابعاً: جواز السعي ماشياً وراكباً، والطفل يسعى به وليُّه.

ثامناً: لا يسعى أحد عن أحد إلا في الحج عن الغير كالطواف.

تاسعاً: والسعي ركن في الحج أو العمرة.

عاشراً: لو أقيمت الصلاة وأنت أثناء سعيك وقفت حيث انتهى بك الصف، وبعد إتمام الصلاة قمت من مكانك وأتممت شوطك.

أحد عشر: يجوز الفصل بين السعي والطواف للراحة أو الطعام ولا يُبطلُه ذلك.

اثنا عشر: لا يُتطوَّع بالسعي في غير نُسكٍ، بخلاف الطواف فهو عبادة مستقلة في غير النسك.

* * *

وللسعي والرمل قصة فيها موعظة وعبرة: وذلك أن إبراهيم الخليل عليه السلام لما أمره الله بالإتيان بذريته إلى هذا المكان في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ . . .﴾ الآية [إبراهيم: ٣٧]، كانت هاجر وابنها إسماعيل ولم يكن بالوادي ماء ولا زرع ولا سكن ولا مقيم، فلما أراد الخليل العودة، قالت له هاجر: لمن تدعنا هنا؟ قال: لله. قالت: آلله أمرَكَ بهذا؟ قال: نعم.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).

قالت: إذن فاذهبْ فلن يضيعنا الله. ولم يكن معها إلا سقاء من الماء، فلما انتهى ماؤها ذهبت تتطلب الماء من حولها، فلما لم تجد صعدت الصفا ـ وهو أقرب مرتفع إليها ـ لعلَّه يكشفُ لها عن ماء حوله، فلما لم تجد أيضاً تطلعت إلى المروة ـ وهو أقرب جبل إلى الصفا ـ فذهبت لتصعده فلما انصبت قدماها في بطن الوادي اختفى عنها طفلها، فأسرعت حتى قطعت الوادي إلى الجانب الآخر فرأته، فمشت مشياً عادياً، فصعدت المروة وتلفتت حولها فلم تجد ماء، فرجعت مرة أخرى إلى الصفا. وهكذا سبع مرات. وهناك ـ بعد المرة السابعة ـ رأت الماء عند ولدها إسماعيل فأسرعت إليه، ووجدت الماء يفيض على وجه الأرض، فجمعتاه بيدها وهي تقول: زمي، زمي. فسميت «زمزم». وقال ﷺ: **«رحمَ الله هاجرَ لو تركتها لفاضَ بها الوادي»**[1]. تلك هي القصة.

أمَّا الموعظة والعبرة فمنها:

إبراهيم ـ وهو الشيخ الكبير ـ يُودع طفلَه وأمَّه بمكان يقول هو فيه: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾، أي: ولا ماء؛ لأن الزرع أصلُه الماء، وذلك امتثالاً لأمر الله وطاعة ربه، ومنها إيمان ويقين تلك الأم الطاهرة الذي يحملها أن تجلس بمثل هذا المكان يقيناً منها أن الله لن يضيعها ما دامَ هو الذي أمر بذلك، ومنها بيان الغرض من هذه الهجرة من الشام إلى الحجاز: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. ولكأن إبراهيم عليه السلام قد يئس من سكان تلك البلاد وتطلع إلى موطن جديد للتمكن فيه من عبادة الله، وهو عند بيت الله الحرام، ورغب أن يكون أساس نشأة الأمة الجديدة في الموطن الجديد ذرية طاهرة من ذرية إبراهيم الخليل عليه السلام، وفي نهاية هذا السياق نهاية لهذه البداية إذ قال:

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩].

وبمجموع النصين تمت القصة.

أما الحكمة والعبرة، فهي مع هذا الأم الكريمة، فإنها مع قوة يقينها

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٤).

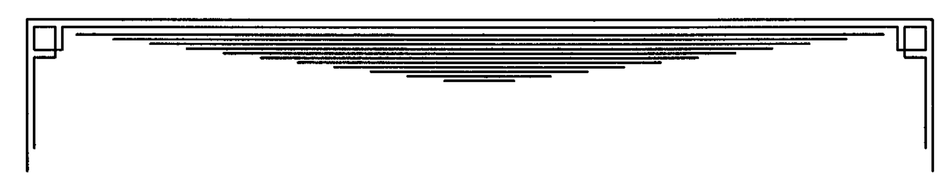
بالله؛ أنه لن يضيعها، لما انتهى الماء قامت تسعى في طلبه، أي تأخذ بالأسباب بما في وسعها، ولم تتواكل بدون عمل منها، وقد أعادت الطلب سبع مرات، وفي هذا تمحيص لنفسها وقطع على نفسها بأسباب الأرض. تركت حتى عجزت أو كادت، وفي كل مرة كان يدنو منها اليأس قليلاً قليلاً، وبقدر ما تيأس من الخلق يشتد الرجاء بالخالق، حتى إذا اكتمل يأسُها من الناس، أيقنت أنه لا مُغيث لها إلا الله؛ فتوجهت إليه بقلب لا تشوبه العلائق، وبيقين لا تخامره الشكوك، فلم يبق بينها وبين الله حواجز، وهنا كانت الصرخة الصادقة إلى الله، وكانت الإغاثة المباركة.

جبريل ينزل فيشق الأرض، وينبع الماء، ثم تظل مسقًى للمسلمين إلى اليوم وإلى ما شاء الله. وكانت «**طَعامُ طُعْمٍ، وشِفاءُ سُقْمٍ**»[1]، «**زمزم لما شُرب له**»[2]، ولله الحمد والمنة.



(١) أخرجه ابن ماجه (٣٠٦٢)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١١٦٥): حسن لغيره.

(٢) أخرجه البزار (٨٠٠ ـ مختصر زوائده)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١١٦٢).



ما بعد السعي وقبل الخروج إلى عرفات

أخي الحاج: إلى هنا وبعد الطواف والسعي قدر يشترك فيه جميع الحجاج، المفرد والقارن والمتمتع، ومن هنا يفترق العمل بحسب الأنساك الثلاثة.

فالمفرد والقارن يبقى كل منهما على إحرامه إلى أن يقف بعرفة، ويقيم بمكة وهو محرم إلى يوم الثامن من ذي الحجة.

أما المتمتع فإنه يحلُّ من إحرامه، بحلقٍ أو تقصير شعر رأسه، والتقصير هنا أولى ليوفر الحلق للحج، ثم يلبس ثيابه وتحل له زوجه، لو كانت معه ومتمتعةً مثله.

ثم هذا المتمتع يُحْرِمُ للحج يوم الثامن من ذي الحجة، ويذهب الجميع من مكة إلى عرفة مارين بمنى يبيتون فيها، ومن الغد يذهبون إلى عرفات.

وإحرام هذا المتمتع يكون من بيته حيث يسكن، وليس بلازم أن يأتي إلى الحرم، ولا يوجد طواف بعد هذا الإحرام وقبل الذهاب إلى منى، ويفعل لإحرامه في بيته للحج ما فعل لإحرامه أولاً في الميقات، من التجرد والاغتسال ولبس الإزار والرداء، وهو لباسه الذي أحرم فيه لعمرته إن كان صالحاً للباس.

والنبي ﷺ لما أنهى سعيه، أمر من لم يكن ساق الهدي أن يجعلَها عمرة[١]، وقال الأئمة: ليبين لهم جواز فعل العمرة في أشهر الحج، ولما أنهى سعيه ذهب ونزل بالأبطح وهو في طرف مكة من جهة مِنى.

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٩٧).

والذهاب إلى مِنى قبل عرفة سنة بالإجماع، فإذا لم يتيسر، فلا فدية فيه، والصلاة في مِنى تكون قصراً، بدون جمع، والخروج منها يكون بعد طلوع الشمس صبيحة عرفة.

الذهاب إلى عرفات

يقال: «عرفات» بالتاء للمكان، ويقال: «عرفة» لليوم، ويصح كل منهما محل الآخر. وقد واصلنا السير معاً إثرَ مسيرة النبي ﷺ في حجته هذه إلى أن وصلنا إلى مِنى يوم الثامن، وقد بات ﷺ ليلة التاسع، فلما أصبحَ وطلعت شمس ذلك اليوم ـ وهو يوم الوقوف ـ توجَّه إلى عرفات، وكان المسلمون معه ﷺ، يُلبي الملبي ويُكبِّر المكبر، فلا يُنكر على واحد منهم[١].

فلما وصل ﷺ إلى عرفات وكان قبل الظهر، نزل بنمرة في أوائل عرفات، ووجد قبَّةً قد ضُربت له هناك فنزل فيها، حتى إذا حانت صلاة الظهر راحَ ﷺ مُهجِّراً، وأمر بلالاً فأذَّنَ، ثم أقام فصلَّى الظهر ركعتين، ثم أقامَ بلال فصلَّى العصرَ ركعتين جمع تقديم، ثم خطبَ النَّاس، ثم راح فوقفَ على الموقف من عرفات، وظلَّ يومَه راكباً على ناقته حتى أفاضَ إلى المزدلفة[٢].

وهنا أطولُ وقفةٍ مع هذا الموقف لعِظَم مكانته، ولنستعرض الأحكام والحِكم.

أولاً: حُكم هذا الوقوف: هو أهم أركان الحج، لقوله ﷺ: «**الحجُّ عرفة**»[٣]. وأوّل وقت الوقوف: من بعد الزوال إلى فجر يوم العيد، وأفضلُه أن تجمع بين النهار والليل ولا يجوز النزول قبل الغروب بدون عذر.

ثانياً: لا يُشترط لهذا الوقوف طهارة، ولكنها فضيلة، فقد جاء أنه ﷺ اغتسل للوقوف[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٩٧٠)، ومسلم (١٢٨٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٣) أخرجه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، وابن ماجه (٣٠١٥)، والنسائي (٣٠٤٤)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (١٠٦٤).

(٤) لم أقف عليه من فعل النبي ﷺ، ولكن ورد من فعل ابن مسعود، فانظره في فضل =

ثالثاً: لا يُسنُّ الصوم فيه لمن شهده.

رابعاً: ليس له دعاء معين، ولكن يجتهد ما وسعه. وجاء عنه ﷺ قوله: **«أفضلُ ما قلتُه أنا والنبيّونَ قبلي في هذا اليوم: لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ بيده الخير وهو على كل شيءٍ قدير»**[١]. وبأي دعاءٍ دعوتَ سواءٌ من حفظك أو من كتاب معك أو مع الآخرين أجزأكَ.

أما الحِكَم الجليلة في هذا اليوم؛ فإن القلم لا يُحصيها، والفكر لا يُحيط بها، فهو الحجُّ بذاته، واعلم أن ما قبلَه كله تهيئة له، وما بعده كله تتمة له. ولم يشهد التاريخ مثله يُجدِّد الماضي من عالم الذرّ، ويُصوِّرُ المستقبل لعالم البعث، مشهدٌ تذوب فيه الفوارق، وتُرفع فيه الحواجز؛ فتتوحد الأجناسُ، وتتحد الأقطار، فلا ارتفاع لِغنًى ولا انخفاض لفقْر.

يتهيأ الحاجُّ لهذا اليوم تهيئة روحية، منذ أن يخرج من أهله يؤمُّ بيت الله. فإذا وصل إلى الميقات تجرَّدَ عن مظاهر الحياة، وخرج بلباس الفطرة، وأقبلَ على الله ملبِّياً حتى يهرعَ حول الكعبة ضارعاً مُنيباً، مرتبطاً بالماضي البعيد منذ أذَّن الخليل بالحج، متطلعاً إلى المستقبل البعيد، ثم يأتي إلى الصفا والمروة، وقد صفت نفسه من كل علائق المخلوقين، وتوجه بكليته إلى الله بقوة التوكل واليقين. فيأتي إلى عرفات وهو حري أن يباهي الله به ملائكة السماء. كما في الحديث: **«إذا كان عشية يوم عرفة ينزل ربنا إلى سماء الدنيا فيباهي بأهل الموقف ملائكة السماء، يقول: يا ملائكتي انظروا عبادي جاؤوا شُعثاً غُبراً من كل فج عميق، ماذا يريدون؟ فتقول الملائكة: يا رب أنت أعلم بما جاؤوا إليه؛ يرجون رحمتك ويخشون عذابك. فيقول تعالى: أشهدكم يا ملائكتي أني قد غفرت لهم، أفيضوا مغفوراً لكم ولمن شفعتم فيه»**[٢].

= عشر ذي الحجة للطبراني (٣٤)، ومجمع الزوائد (٣/ ٢٥٣).

(١) أخرجه مالك (٩٦٣) من طريق طلحة بن عبيد الله بن كريز، وإسناده مرسل صحيح، وأخرجه الطبراني في فضل عشر ذي الحجة (٥١)، من حديث علي، وصححه بشواهده الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٠٣) من دون قوله «بيده الخير» فضعّفها.

(٢) لم أقف عليه كاملاً بهذا اللفظ؛ ولكن:

أ ـ أخرج مسلم (١٣٤٨) من حديث عائشة مرفوعاً: **«ما من يوم أكثر من أن يعتق الله** =

فأي فضل ونبل يسمو إليه الحاج مثل هذا؟! فيسمو عن مستوى البشرية، ويرقى إلى أعلى درجات الإنسانية، فيباهي به الله ملائكته. وهنا يستعيد التاريخ ماضيه عن بداية تاريخ الإنسان، لما قال تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فهاهم الخلفاء في الأرض يأتون من كل فج عميق شعثاً غبراً؛ ليقضوا تفثهم، وليوفوا نذورهم، وليطوفوا بالبيت العتيق. لقد كفوا أيديهم عن كل إفساد، بل وعن الحلال، فسلم منهم الصيد، وكبحوا أنفسهم عن كل شهوة حتى عن الزوجات، وكفوا ألسنتهم عن كل لغو ورفث، وصانوا جوارحهم عن كل فسوق وجدال؛ فهم بحق أناس في طبائع ملائكة. وكانوا ـ بذلك ـ جديرين بأن ينزل ربنا إلى سماء الدنيا وأن يباهي بهم ملائكته، ويمنَّ الله تعالى عليهم: بأن يفيضوا مغفوراً لهم، ولمن شفعوا فيه؛ زيادة في إكرامهم.

وهنا أيها الحاج، تذكر عظيم هذا الفضل، واحفظ عليك آثاره، فاقصد هذا اليوم مجتهداً باذلاً أقصى جهدك في ذكر الله والدعاء، ضارعاً عليك آثاره، فاقصد هذا اليوم مجتهداً باذلاً أقصى جهدك في ذكر الله والدعاء، ضارعاً لجلاله، خاضعاً لسلطانه، متعرضاً لإحسانه. إنه يوم الحياة كلها، إنه اليوم الذي لا تدري هل تعود لمثله أم لا؛ فلا تشغله في لهو ولا تضيعْه في لعب، إن لحظاته أغلى ما تكون على اللعب واللهو.

= فيه عبيداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو، ثم يباهي بهم الملائكة فيقول: ما أراد هؤلاء؟».

ب ـ أخرج ابن حبان (٩٦٣ ـ موارد) والبزار (٧٣٠ ـ مختصر زوائده) من حديث ابن عمر مرفوعاً: «... **إن الله ﷻ ينزل إلى سماء الدنيا فيقول: انظروا إلى عبادي شعثاً غبراً، اشهدوا أني قد غفرت لهم**...». وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١١٥٥).

جـ ـ عزا السيوطي في الجامع الكبير (كنز العمال/ ١٢١٠٣) من حديث أنس مرفوعاً: «**... فيقول: هؤلاء عبادي جاؤوني شعثاً يرجون رحمتي، فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل وكعدد القطر والشجر لغفرتها لكم، أفيضوا عبادي مغفوراً لكم ولمن شفعتم له**».

ثم اعلم: أن أرض عرفات التي ستراها محيطة بها الجبال من بداية الوادي، كلها موقف. إذا اجتزت بطن الوادي فوقفت في أي مكان أجزأك. كما قال ﷺ: **«وقفت ها هنا وعرفة كلها موقف**[(١)]**، وارتفعوا عن بطن عرنة»**[(٢)]. يعني بطن الوادي الذي على حافته المسجد الذي هو مسجد نمرة. فإن حافته من جهة قبلته تعتبر في الوادي ومن منتصفه إلى مؤخرته معتبرة من عرفات. ففي أي مكان وقفت، أو قضيت وقتك تمشي أو في سيارة تطوف بأرجائه، اعتُبر لك وقوفاً. أما مجيء الناس إلى الصخرات، وجبل الرحمة فليس بلازم.

وقد وقف النبي ﷺ هناك وعلى ظهر ناقته طيلة نهاره بعد صلاته الظهر والعصر جمع تقديم؛ لأنه صلوات الله وسلامه عليه قد آذن الناس بالحج معه، ليأخذوا عنه المناسك، ويعلمهم أحكام الإسلام. ومنهم من سمع به وآمن بالدعوة ولم يلقه، فيرغب في لقائه ورؤيته لتثبت له الصحبة؛ فكان لا بد من مكان معهود يقصده الناس لذلك. أما اليوم فإن هذا الموقف من حق أمير الحج أو مفتي الحجيج، أما عامة الناس فلا موجب للتزاحم عنده. ثم إنه لم يصعد الجبل كما يفعل العوام، بل كان على ظهر ناقته. فانظر إلى أي حد تستطيع الناقة أن تصل من الجبل. فلا تكلف نفسك عناء الصعود، واجتهد في الدعاء، وذكر الله تعالى، والتعرف على إخوانك المسلمين، وإرشاد الجاهل، ومساعدة الضعيف. إنه يوم التسابق إلى الخير، والمسارعة إلى المغفرة. وما رؤي الشيطان أحقر ولا أصغر منه في ذلك اليوم؛ لما يرى من كثرة تنزل الرحمات على أهل الموقف[(٣)].

وعليك بالرفق والسكينة عند الإفاضة وذلك بعد أن تغرب الشمس، فتتوجه إلى المزدلفة، كما فعل ﷺ. لحديث جابر وغيره: «إنه ﷺ بعد أن

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨/١٤٩).
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٢٢٨٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٢٢٢): فيه شرقي بن قطامي وهو ضعيف.
(٣) أخرجه مالك (٩٦٢) من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز مرسلاً، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٧٣٩).

غربت الشمس أفاض إلى المزدلفة، أخذ بزمام ناقته، يردها عن الزحام، وينادي في الناس عن يمينه وعن يساره: **«أيها الناس السكينة السكينة»**، فإذا وجد فرجة أرخى لها زمامها[١]. وكذلك أنت اليوم، إن كنت في سيارة فاحذر الزحام ما استطعت، وإن كنت من المشاة فجنب عن طريق السيارات حفظاً لسلامتك، وتيسيراً لأصحاب السيارات في المسير.

وبعد أن عبر ﷺ الوادي، نزل لإراقة الماء. وقيل له: الصلاة يا رسول الله ـ يعنون المغرب ـ فقال لهم: **«الصلاة أمامكم»**[٢]. يعني بالمزدلفة جمع تأخير مع العشاء.

وهنا نلحظ في تشريع الجمع: أولاً: جمع تقديم في أول الوقت، قدمت العصر مع الظهر. وثانياً: جمع تأخير، أخرت المغرب إلى وقت العشاء؛ فانفسح الوقت أمام الحاج من منتصف النهار إلى مؤخرة الليل ليتفرغ لعمل هذا اليوم العظيم. وهذا الجمع مع القصر مجمع عليه عند الأئمة الأربعة وغيرهم؛ لأن حق هذا اليوم عظيم، والعمل فيه جليل، فتيسر له كل الإمكانيات للوفاء بحقه، والإرفاق بأهله. ويكفي ما قال فيه ﷺ: **«الحج عرفة»**[٣].

وقد توج فضل هذا اليوم بفضل ما أنعم الله به، وأنزل فيه وحيه في قوله تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وفي فضل نزولها جاء في الصحيح: أن يهودياً جاء إلى عمر رضي الله عنه فقال: إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا نزلت ـ معشر اليهود ـ لاتخذنا يوم نزولها عيداً. فقال: وأي آية هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . . .﴾ إلى آخرها. فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ،

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٦٦٩)، ومسلم (١٢٨٠).

(٣) تقدم تخريجه (ص٢١٦).

والساعة التي نزلت فيها؛ عشية عرفة في يوم جمعة[١].

الإفاضة من عرفات

بعد الوقوف بعرفات حتى غروب الشمس من ليلة العيد، أفاض ﷺ إلى المزدلفة، وهي الإفاضة المعنية في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩]. أي من عرفات؛ لأن قريشاً كانت في الجاهلية تفيض من المزدلفة وتقف بها، ولا يقفون مع عامة الناس بعرفات، ويقولون: نحن أهلُ بيت الله فلا نخرجُ عن حدود الحرم. وقد حدث أن النبي ﷺ كان قد حجَّ قبل البعثة فلم يقف مع قريش بالمزدلفة، بل ذهب ووقفَ بعرفات مع الناس، ثم جاء الإسلام وأمر بالإفاضة من عرفات. وفي طريقه ﷺ من عرفات إلى المزدلفة أخذ طريق المأزِمين وأردفَ أسامةَ بن زيد ﵁ معه، ونزل في أثناء الطريق فبال وتوضأ، فقال أسامة: الصلاة يا رسول الله؟ فقال له: «**المُصَلَّى أمامَك**». ثم سار فأتى المزدلفة، فتوضأ ثم أمر المؤذن فأذَّن وأقام، فصلَّى المغرب، ثم أقام فصلَّى العشاء[٢]، وذلك قبل حطِّ رَحْله وقبل طعام العشاء، ثم نام حتى أصبح. ولم يحيِ تلك الليلة ﷺ إشفاقاً على الأمة؛ لما قاموا به من مجهود في الموقف، وما ينتظرهم من أعمال بمنى وطواف بالبيت، مما يتطلب توفر الراحة للقيام بذلك، وقد أذن للضَعَفة بالنزول إلى مِنى من بعد منتصف الليل[٣]، وبقي هو ﷺ وغير الضعفة حتى صلى الصبح، وأتى المشعر الحرام ودعا، ثم خرج من المزدلفة إلى مِنى قبل طلوع الشمس.

أحكام هذا المبيت:

يتفق الأئمة الأربعة أن هذا المبيت من واجبات الحج، ينبغي الحفاظ عليه والبقاء حتى الصبح، لحديث ابن مُضَرسْ الذي جاء إلى النبي ﷺ تلك الليل وهو في مُصَلَّاه للصبح، فقال: يا رسول الله جئتُ من طيّ فأتعبتُ نفسي

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧).
(٢) أخرجه البخاري (١٦٦٩)، ومسلم (١٢٨٠).
(٣) أخرجه البخاري (١٣٥٧)، ومسلم (١٢٩٣).

وأكللتُ راحلتي، فما تركت جبلاً إلا قطعته، ولا وادياً إلا هبطته، أليَ حجّ؟ فقال ﷺ: **«مَنْ شهدَ صلاتَنَا هذه، فوقفَ معنا حتى ندفعَ، وكان قد وقفَ بعرفةَ قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تمَّ حَجُّه»**[١].

ولكن لما وقع منه ﷺ أن أرخص للضعفة بالنزول بعد منتصف الليل، ولم يُصلُّوا معه تلك الصلاة، وأمرهم أن لا يرموا الجمرة حتى يُصبحوا. قالوا: إن المبيت ليس لازماً كلّه لأنه لو كان متحتماً لما سمح لأحد بتركه، وهنا حملوا الحديث على الأفضل لما فيه من قوله ﷺ: **«فقد تمَّ حجُّه»** ثم اختلفوا في أقل ما يُجزئ من هذا المبيت، ودعا إلى هذا البحث أن ظروف الإفاضة قد تعيق البعض، فلا يصل إلى المزدلفة إلا في وقت متأخر من الليل، فيرى البعض: أن النزول بالمزدلفة للصلاة وتناول العشاء والتقاط الجمار والمكث قليلاً يُجزئ، ويرى البعض أن أقل ما يجزئ: هو الحدُّ الذي أذن فيه النبي ﷺ للضعفة، وهو منتصف الليل. ولكن إذا كان ﷺ أرخص للضعفاء وبقي هو؛ فمما لا شك فيه أن الكمال في فعله، ولا ينبغي النزول قبل ذلك إلّا للضعفاء ومن يلزم مرافقة الضعفاء؛ وذلك لتلافي زحام الرمي مع الناس.

ثم أتى ﷺ المَشْعر الحرام بعد أن صلّى الصبح، فوقف عنده ـ وهو محل المسجد الموجود الآن بالمزدلفة ـ فدعا الله طويلاً وكبَّرَ وهلَّل ووحَّد. ولم يزلْ واقفاً حتى أسفرَ جداً. ودفَع قبل أن تطلعَ الشمس. وقد أجمع المسلمون أن هذا الوقوف عند المشعر الحرام سُنّة. فمن بات ونزل ولم يقف به أجزأه، وفي أي مكان نزل بمزدلفة أجزأه، لقوله ﷺ: **«نزلتُ ها هُنا وجُمَعُ كُلُّها منزلٌ»**[٢].

يعني بجُمَعَ: المزدلفة. ولك أن تذكرَ الله وتدعوه وتشكره وتثني عليه في

---

(١) أخرجه أبو داود (١٩٥٠)، وابن ماجه (٣٠١٦)، والنسائي (٣٠٣٩ ـ ٣٠٤٣)، والترمذي (٨٩١) ـ وقال: حديث حسن صحيح ـ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٧٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨)، بلفظ: **«وقفت هاهنا، وجمع كلها موقف»**.

مكانك الذي نزلت به؛ لأن الله تعالى قال: ﴿عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾. و﴿عِندَ﴾، تحتمل جمعاً كلَّها. وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

فهناك، أولى ما يُذكر فيه الله ويُشكر، وخاصة على أعظم نعمته علينا، المنوَّه عنها بقوله: ﴿كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾؛ لأن الهدى هدى الله، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وفي الآية التي بعدها يقول تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة: ٢٠٠ ـ ٢٠٢].

يقول علماء التفسير: إنهم كانوا في الجاهلية يهتمون بسؤال الدنيا؛ كطلب المطر، وإنبات العشب، وتناسل بهيمة الأنعام. فوجَّههم الله إلى حسن الطلب؛ في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة.

وكانوا كذلك بالمزدلفة لهم سوق من أسواق العرب كشحر وعمان وذي المجاز، وكان لهم عكاظ، فكانوا بالمزدلفة يتناشدون الأشعار، ويتفاخرون بذكر الآباء وما لهم من أمجاد ومفاخر، فوجَّههم الله تعالى إلى ذكر الله كما يذكرون الآباء، بل أشد من ذكر آبائهم، ويتركون عنهم مفاخر الآباء وأمجاد الجاهلية، ويذكرونه كما هداهم للحق، وإن كانوا من قبله لمن الضالين.

وبعد المشعر الحرام اتجه ﷺ إلى مِنى وأردف الفضلَ بن العباس، ولما وصل إلى وادي مُحَسِّر ـ وهو ما بين المزدلفة ومِنى ـ قال: «**عليكمُ بحصَى الخَذَفِ الذي تُرمى به الجمرة**». وحَرَّكَ ناقته في بطن الوادي قدر رمية حجر، ولم يزل يلبي حتى رمى الجمرة[1]، وجاء رجل يسألُ النبيَّ ﷺ عن الحج ومعه ابنته شابَّة، فأخذ الفضل ينظرُ إليها، فحوَّل وجهه إلى الجهة الأخرى، ومضى حتى رمَى جمرةَ العقبة[2].

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٨٢).
(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨).

وفي هذا المسير بيان لنوع الحصى: أن لا يكون كبيراً فيؤذي، ولا صغيراً فلا يُجزئ. قال العلماء: حصى الخذف مثل حبة الفول. ويأخذ الحاج إن شاء سبعَ حصيات لجمرة العقبة، وإن شاء سبعين لجميع الجمرات، ولا يغسل الحصى، ولا يكسر الجبل، ولا يُجزئ الفَخّار، ولا الإسمنت، ولا غيره.

وبيان حكم المرور من مواطن (الخسف) لأن وادي مُحَسِّر هو المكان الذي حَسَرَ الله فيه الفيل مع أبرهة لما جاء به لهدم الكعبة، وأنزل فيه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ ...﴾ إلى آخر السورة، والسُّنّة أن يُسرَع المارُّ من تلك الأماكن تنفيراً من الوقوع في سبب ما وقع به، وهنا درس للحجاج في عواقب الظلم لأن أبرهة ـ وهو نصراني وعلى دين سماوي ـ جاء ليهدمَ الكعبة ظلماً، انتقاماً من العرب لأجل كنيسته (القليس). ومع كون العرب وثنيين فإن الله قد خذل الظالم، وانتصر للمظلوم.

وكما جاء في الحديث: «**إنِّي لأنصرُ المظلومَ ولو كان كافراً**[(١)]، **علمَ أنَّ له ربّاً فدعاه**»[(٢)]. وكان في ذلك إرهاصاً لمولد النبي ﷺ، وحماية لأهل بيته سبحانه، فإذا كنت تمشي فلتسرع حتى تقطع الوادي، وإذا كنت في سيارتك وأمامك متسع فلتسرع بها، فإذا وصلتَ إلى مِنى كان أول عمل لك هو رمي جمرة العقبة على ما سيأتي بيانه إن شاء الله في بيان أعمال مِنى.

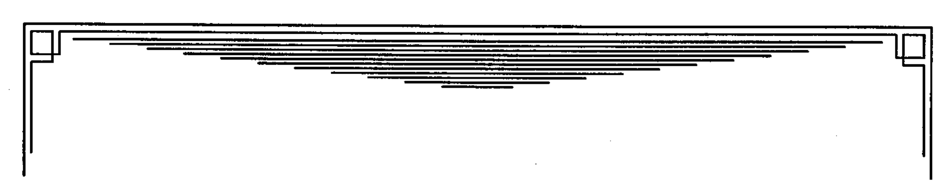
---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ؛ ولكن:

أ ـ أخرج الطبراني في المعجم الكبير (٤/ ٨٤/ ٣٧١٨) من حديث خزيمة بن ثابت مرفوعاً: «**اتقوا دعوة المظلوم، فإنها تُحمل على الغمام، يقول الله جل جلاله: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين**». وحسنه بشواهده الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٧٠).

ب ـ وأخرج أحمد (٣/ ١٥٣) من حديث أنس مرفوعاً: «**اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً، ليس دونها حجاب**»، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٣١): حسن لغيره.

(٢) لم أقف عليه.



أعماله ﷺ بمِنى أول يوم العيد

وصلَ ﷺ مِنى يومَ عيد الأضحى ضُحًى. وأول ما بدأ به جمرة العقبة ـ وهي التي تلي مكة ـ جاء إليها من بطن الوادي، وجعل مكة عن يساره ومنى عن يمينه، ورماها بسبع، وهو على راحلته يُكَبِّرُ مع كل حَصَاة، وقال: **«اللهم اجعلْه حجًاً مَبْرُوراً وذَنْباً مَغْفُوراً»**[١]. وقال للناس: **«خُذُوا عني مَنَاسِكَكُم لَعَلّي لا أَلْقَاكُم بعدَ عَامي هذا»**[٢]. ثم انصرف، فأتى إلى منزله بمنى، ثم أتى المنحرَ ونحرَ، ثم قال للحلّاق: **«خذ»**. وأشار إلى جانبه الأيمن ثم الأيسر ثم جعل يُعطيه الناسَ[٣]. وعن ابن عباس أنه ﷺ قال: **«إذا رَمَيْتُم الجمرةَ فقد حَلَّ لكم كلُّ شيءٍ إلا النساء»**[٤]. ثم ركب فأفاض إلى البيت فصلَّى بمكة الظهرَ[٥]، وقيل: رجع إلى مِنى وصَلَّى الظهر بها ولم يسعَ.

وهذه الأعمال في هذا اليوم هي الواجبات والأركان الباقية من أعمال الحج: الرمي، النحر، الحلق، الإفاضة، السعي؛ لمن لم يكن سعى للحج، ولكلِّ عمل أحكامُه وحِكَمُه، نُجملها في الآتي:

أولاً: رمي جمرة العقبة:

فحكمها: الوجوب، لا تتركُ بدون عذر، ومن تركها فعليه دم، وتُرمى من بطن الوادي، بحيث تكون مكة على اليسار ومنى على اليمين، وتُرمى بسبع حَصيات، ولا يُجزئ إلا الحصا، فلو رَمَاها بقطع من حديد أو نحاس أو أي

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٥/ ١٢٩).
(٢) تقدم تخريجه (ص١٨٥). (٣) أخرجه مسلم (١٣٠٥).
(٤) أخرجه أبو داود (١٩٧٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٣٩).
(٥) أخرجه مسلم (١٢١٨).

معدن آخر، أو بخشب، أو بمأكول، أو بطين جامد أو مطبوخ، كالفخار أو الجبس والإسمنت، فلا يُجزئ.

والسنة في حجم الحصاة، ما يمكن أن تجعلَ بين الأصابع السبابة والإبهام من اليد اليسرى، ويحذف بها بالسبابة من اليد الأخرى. وهي ما بين الحمّصة والفولة. وأن تُرمى رمياً في الهواء لتسقط في الحوض، ولا يجزئ وضعها باليد وضعاً، ولا دحرجتها على لوح مثلاً، يرفع يدَه وهو يرمي بها حتى يُرى بياضُ إبطه، والعبرة سقوطها في الحوض ولو لم تُصب الشاخص الذي فيه، يكبر مع كل حصاة ويقول: طاعةً للرحمٰن ورجماً للشيطان، فإذا أصابت الشاخص، وارتدت فسقطت خارج الحوض فلا يُعتد بها، ويرمي بدلاً منها، وإذا كانت انتهت حصياته، أخذ من غيره، ولا يأخذ من أرض المرمى مما سبق أن رمي به.

وإن كان مُوكلاً ليرمي عن غيره، أو معه طفل وسيرمي عنه، فليبدأ بالرمي عن نفسه أولاً، ثم ليرم عن غيره، ولا تصح النيابة إلا عند العجز لمرض أو كبر، ولا شيء على من أناب غيره عنه في الرمي إلا عند المالكية فإنهم يُشدِّدون في ذلك، ولو خافَ الزِّحامَ وأخّرَ إلى آخر الوقت فلا مانع.

ووقت الرمي لجمرة العقبة وقتان:

وقت اختيار، وهو الذي رمى فيه النبيُّ ﷺ وهو من بعد طلوع الشمس إلى قبل غروبها من يوم العيد.

أما **وقت الاضطرار**: فاختُلف في أوله، فقيل: بعد منتصف ليلة العيد، حيث رخص ﷺ للضعفة بالنزول من مزدلفة[١]، وقيل: بعد صلاة الصبح لأن النبي ﷺ قال لمن رخص لهم بالنزول: «**ولا ترموا إلا بعد أن تطلع الشمس**»[٢]. وعن ابن عباس قال: إن النبي ﷺ بعث به مع أهله إلى منى يوم

(١) أخرجه البخاري (١٦٧٦)، ومسلم (١٢٩٥).

(٢) أخرجه أبو داود (١٩٤٠، ١٩٤١)، وابن ماجه (٣٠٢٥)، والترمذي (٨٩٣) ـ وقال: حديث حسن صحيح ـ، والنسائي (٣٠٦٤، ٣٠٦٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٧٠٩).

النحر فرموا الجمرة مع الفجر[١]، وحديث عائشة: أن النبي ﷺ أرسل بأم سلمة ليلة النحر فرمت الجمرة قبل الفجر ثم مضت فأفاضت ورجعت إلى منى[٢]، وكان ذلك اليوم الذي يكون عندها ﷺ.

فهذه أوقات الاضطرار. أما آخره، أي آخر وقت الاضطرار: فعند الجمهور إلى قبيل طلوع فجر اليوم الثاني من العيد، فيمتد زمن الرمي عندهم طيلة يوم العيد والليلة التي تليه. وعند أحمد رحمه الله لا يرمى بليل؛ فإن غابت الشمس يوم العيد ولم يكن رمى فليؤجله إلى الغد ويقضيه ولا دم عليه.

تلك هي أحكام جمرة العقبة في اليوم الأول وهو يوم العيد، ولا يرمى معها في ذلك اليوم غيرها.

ثانياً: نحر الهدي للمتمتع أو القارن: فقد أهدى ﷺ مائة بدنة وكان قارناً، فنحر بيده الشريفة ثلاثاً وستين وأوكل إلى علي رضي الله عنه أن ينحر الباقي وأن يأتي بالجزارين فيسلخوا ويقطعوا ويعطي الجزارين أجورهم، وأن يفرق لحومها ويأخذ من كل بدنة بضعة لحم. فطبخ الجميع وشرب من المرق وأكل من اللحم[٣]، ونحر عن زوجاته بقرة وأرسل إليهن من لحمها[٤].

وأحكام نحر الهدي كالآتي:

١ ـ النحر للإبل: وهو الضرب في اللبة مؤخر العنق من جهة الصدر، ليكون أقرب إلى القلب، فيندفع الدم كله إلى الخارج، والذبح هو من طرف العنق من جهة الرأس وهو للغنم. والبقر يجوز فيه الأمران.

٢ ـ أقل ما يجزئ في الهدي كما قال تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

واتفقوا على أنه شاة أو سُبع بدنة أو سُبع بقرة، والسنّة أن يأكل الحاج

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٧)، ومسلم (١٢٩٣).
(٢) أخرجه أبو داود (١٩٤٢)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (٤٢٣).
(٣) أخرجه مسلم (١٢١٨).
(٤) أخرجه البخاري (١٧٢٠)، ومسلم (١٢١١/١٢٥).

من هديه كما فعل النبي ﷺ، وذلك أدعى لأن يحسن الاختيار لما سيذبحه ويطعمه للفقراء، ولا يجزئه أن يريق دمه ويتركه، بل يلزمه سلخه وتقطيعه وتفريقه، فإن وجدت جهة مسؤولة تتولى ذلك عنه واطمأن لصحة ذلك فلا مانع، إذ المهم أن يصل إلى المساكين.

والحذر من دعاة دفع القيمة أو التصدق بها؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ ولم يقل: القيمة. مع أنه في جزاء الصيد ذكر البديل عن مثل ما قتل من إطعام أو عدل ذلك صياماً، ولم يذكره في الهدي، ولأن إراقة الدم عبادة لما فيه من ذكر الله عليها، ولقوله ﷺ: «**الحَجُّ عَجٌّ وثَجٌّ**»[1]. فالعج: هو رفع الأصوات بالتلبية والإهلال والتكبير. والثج: إراقة الدماء. وقد قال تعالى في هذا الموضوع:

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج: ٣٦ ـ ٣٧].

فالبدن التي تقدم في الهدي هي من شعائر الله، وشعائر الله حقها التعظيم ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. ولذا فهي مواطن ذكر الله والتكبير عليها، وهي طعام للقانع ـ وهو المتعفف ـ والمعترّ ـ وهو الذي يدور بين البيوت يطلب من يطعمه ـ وبيَّن تعالى أنه لا يناله من الهدي لحوم ولا دماء. فاللحوم نأكلها، والدماء نريقها. ولكن تناله التقوى من المتقين، وذلك بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، فأين هذا كله ممن يخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فيقول بالتصدق بالقيمة؟! فليتق الله في نفسه وفي حجاج بيت الله.

وفي كونه ﷺ يهدي مائة بدنة، وينحر منها بيده الشريفة ثلاثاً وستين؛ مغزى عظيم، وإشارة كل منهما لمعنى جليل، الأول: وهو الإهداء مائة بدنة،

---

(١) أخرجه الترمذي (٨٢٧)، وابن ماجه (٢٩٢٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٦٦١).

وكان يكفيه شاة أو سُبع بدنة. هو رد على مائة من الإبل ذبحت في نذر جده مفاداة لأبيه في الجاهلية فكأنه يردُّها خالصة لله تعالى. وذلك أن جده عبد المطلب كان قد رأى أنه يحفر زمزم ـ وكانت زمزم مطمورة لا يعلم مكانها ـ فأُتي في النوم فقيل له: حيث الغراب يبحث في الأرض. فشرع يحفر، فكانوا يسخرون منه، ولما وصل في البئر قاموا ينازعونه، ويقولون: لا تنفرد بها عنا، وغلبوه عليها، فنذر لله إن هو رُزق عشرة أولاد وكبروا حتى يحملوا السلاح ويقفوا معه ليذبحنَّ منهم واحداً لله، فلما اكتمل له عشرة أولاد كبار أخبرهم، فقالوا: أَوْفِ بنذرك. فأقرع بينهم فخرجت القرعة على عبد الله والد النبي ﷺ، وكان أحبهم لقريش ولم يكن تزوج بعد، فوقفت قريش دونه، فكان من أمره أن قدم عشرة من الإبل فداء لولده وزاد عشرة عشرة بالقرعة حتى اكتملت الإبل مائة، فكانت القرعة عليها، فقدمها بدلاً من عبد الله فداءً له. وكان ﷺ يُقال له: يا ابن الذبيحين[1]. وهنا ﷺ يقدم مائة من الإبل خالصة لله تعالى، أما نحره بيده ثلاثاً وستين فهو رمز لعدد سنيِّ عمره فقد كان سنه إذ ذاك ثلاثاً وستين سنة، وقد أظهر هذا المعنى بقوله: «**لعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا**» ﷺ[2].

ثالثاً: الحلق:

كان عمله ﷺ فيه أن دعا الحلاق بعد أن فرغ من النحر، وذلك لقوله تعالى ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٦]. أي إحلاله بالنحر، فناولَ الحلَّاق الشقَّ الأيمنَ فقسمه على الناس، ثم ناوله الشقَّ الأيسرَ، ثم قال له: «**خذ هذا لك**»[3]، وذلك لإكرام شعره أن يُهان بالأرض والوطء عليه، وهي السُّنّة في شعور كل الناس، لإكرام أصحابه بفضل شعره ﷺ.

وهذا من خصائصه صلواتُ الله وسلامه عليه، فلم يفعلْه أحد خلفائه من بعده، فهو مستثنى من التأسي به، وقد كان عند بعض زوجاته بقية من ذلك

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٥٤)، وقال الذهبي في تلخيص المستدرك: إسناده واهٍ. وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١/ ٥٠١).

(٢) تقدم تخريجه (ص١٨٥).

(٣) أخرجه مسلم (١٣٠٥).

الشعر تحتفظ به في جلجل فتموصه في الماء وتسقيه للمحمومين.

وهذا كما تقدم من خصائصه صلوات الله وسلامه عليه، ولا يحق لأحد أن يضع نفسه موضع رسول الله، ولا لأحد أن يرفع قدر أحد إلى رفعة قدر رسول الله ﷺ. وكفى بالخلفاء الراشدين اقتداءً فلم يفعلوا شيئاً من ذلك مع غير رسول الله.

وأحكام الحلق:

أنه أولاً واجب من واجبات الحج وركن من أركان العمرة، والسنّة فيه حلق كامل الرأس وهو أفضل من التقصير، كما جاء تقديمه في الذكر في قوله تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]. وقال ﷺ في عمرة الحُديبية: «**اللهم ارحم المُحَلِّقينَ**». قالوا: والمُقصِّرين يا رسول الله؟ قال: «**اللهم ارحم المُحَلِّقينَ**». قالوا: والمُقصِّرين يا رسول الله؟ ثلاث مرات، ثم قال: «**والمُقصِّرين**». فقالوا: ما بال المحلقين يا رسول الله؟ قال: «**لم يَشكُّوا**»[(١)]. والتقصير مُجزئ، لكن فيه تقصير في العمل. وفي المقدار المجزئ في ذلك من حلق أو تقصير اختلف فيه قول الأئمة كاختلافهم في القدر المُجزئ في المسح في الوضوء ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾، فعند الشافعية أقل ما يصدق عليه مُسمَّى الحلق والتقصير، وعند غيره ربعُ الرأس، عند الثالث أكثر شعر الرأس، وعند الرابع جميع الرأس. ومع هذا كله، نذكرك أيها الحاج أننا التزمنا العمل بما عمله رسول الله ﷺ، وأجمعوا على أنه الأكمل، ثم لا يفوتك أن لك بكل شعرة حسنة، ويحط لك بها خطيئة، ويرفع لك بها درجة، فهل تُفوِّت على نفسك هذا الفضل كله وأنت ما جئت إلا لتحصيل هذا الفضل العظيم؟!

رابعاً: طواف الإفاضة:

وبعد الحلق ركب ﷺ، ونزل إلى مكة لطواف الإفاضة. قال ابن كثير:

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٢٧)، ومسلم (١٣٠١)، وأما قوله: فقالوا: ما بال المحلّقين...، فأخرجه ابن ماجه (٣٠٤٥)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (٤/ ٢٨٥).

لبس ﷺ ثيابَه وتطيَّب بعدما رمى جمرة العقبة، ونحر هديه قبل أن يطوف بالبيت.

وفي حديث جابر[١]: أنه ﷺ صلّى الظهر بمكة، فأتى بني عبد المطلب وهم يسقون زمزم، فقال: «**انزعوا بني عبد المطلب فلولا أن يغلبَكم النَّاسُ على سقايتكم لنزعتُ معكم**». فناولوه دلواً فشرب منه. وجاء عنه ﷺ أنه أفرغ على نفسه منه. ورواية ابن عباس: فشرب، ثم مج فيها ثم أفرغناها في زمزم ـ يعني مجَّ في الدلو من فمه ـ ثم أفرغ الدلو في زمزم.

وفي رواية: ثم شربَ من ماء زمزم ومن نبيذ تمر من ماء زمزم.

وفي رواية: أنه ﷺ أتى زمزم على راحلته وخلفه أسامة. فأُتي بإناء فيه نبيذ فشرب وسقى فضلَه أسامة، وقال لهم: «**أحسنتم وأجملتم هكذا فاصنعوا**»[٢].

وفي رواية لابن عباس: أنه ﷺ أتى إلى السقاية فاستسقى، فقال العباس: يا فضلُ اذهب إلى أمك فأت رسول الله ﷺ بشراب من عندها. فقال: «**اسقني**». فقال: يا رسول الله إنهم يجعلون أيديهم فيه. قال: «**اسقني**». فشرب منه، ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها. فقال: «**اعملوا فإنكم على عمل صالح**»[٣]. وفي رواية: فقال: «**اسقوني**». فقالوا: إن هذا يخوضه الناس ولكنا نأتيك به من البيت. فقال: «**لا حاجة لي فيه اسقوني مما يشرب الناس**»[٤]، ثم رجع إلى منى وبات بها أيام التشريق.

والأحكام في ذلك:

أولاً: هذا الطواف ـ طواف الإفاضة ـ ركن من أركان الحج لا يتم إلا به، والعمل فيه كالعمل في الطواف الذي سبق أن بيناه عند أول دخول مكة، من طهارة واستلام الحجر الأسود والركن اليماني وصلاة ركعتي الطواف والشرب من زمزم.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).
(٢) أخرجه مسلم (١٣١٦).
(٣) أخرجه البخاري (١٦٣٥).
(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤ ـ ٢١٥)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٢/ ١٦٩).

أما **وقته**: فإنه يصح من بعد منتصف ليلة العيد على قول لمن رخَّصَ للعجزة، وكما فعلتْ سَوْدةُ رضي الله عنها[١]، حيث استأذنت رسول الله بالمزدلفة فنزلت ورمت وطافت ورجعت إلى منى قبل الظهر.

وقال الجمهور: لا يكون إلا بعد الفجر. أما آخر وقته، فعند مالك: إلى نهاية شهر ذي الحجة، وعند الشافعي ولو أخَّرَه سنين فسافر ثم جاء فطافَ تمَّ حجُّه، ولكن يبقى ممنوعاً عن النساء حتى يطوفَ.

والذي عليه العمل هو: إن شئت نزلت يوم العيد فطفت ورجعت يومك هذا، وإن شئت أخَّرته إلى الغد أو إلى ما بعد أيام التشريق كلها. وعند سفركَ لبلدك فلا مانع، ولو أخرته إلى اليوم الذي تسافر فيه فطفت وسافرت أجزأك عن طواف الوداع. وتطوفه وأنت لابس ثيابك أو وأنت بلباس الإحرام سواء، وقد علمت أنه ﷺ لبس ثيابه بعد أن نحر وحلق، وقبل أن يطوف.

حكم ترتيب أعمال يوم النحر:

وبهذه المناسبة فإن ترتيب أعمال يوم العيد كلها والتي هي الرمي والنحر والحلق واللبس والطواف بعد الرمي فقط ليس بواجب، وإنما هو للأفضلية، فإذا رميت جمرة العقبة جاز أن تحلق قبل أن تنحر، وأن تنحر قبل الحلق أفضل، وجاز أن تطوف قبل أن تنحر أو تحلق، وأن تطوف بعد النحر والحلق أفضل، وجاز أن تقدم أو تؤخر ما شئت إلا لبس الثياب لا يكون إلا بعد الحلق. وذلك أنه ﷺ لما رمى جمرة العقبة كانوا يسألونه، فيقول القائل: يا رسول الله لم أشعر، نحرت قبل أن أرمي. فيقول: **«ارمِ ولا حرج»**. ويقول الآخر: لم أشعر حلقت قبل أن أنحرَ. فيقول: **«انحر ولا حرج»**. وما سُئل عن شيء قُدِّمَ ولا أُخِّرَ في ذلك اليوم إلا وقال: افعلْ ولا حرج[٢].

وعليك العودة إلى منى للمبيت فيها، وقد اختلفت الروايات في صلاته ﷺ الظهر ذلك اليوم، في مكة أم في منى، وجمع بعض العلماء بأنه

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٨١)، ومسلم (١٢٩٠).
(٢) أخرجه البخاري (٨٣)، ومسلم (١٣٠٦).

صلّى الظهر بمكة حين أدركته الصلاة، فلما رجع إلى منى وجد الناس ينتظرونه فصلَّى بهم أيضاً، ولا مانع في ذلك.

أما نحن - اليوم - فلم ترتبط بنا كأفراد صلاةُ الناس، فإن أدركنا الظهر بمنى فلا بأس، وإن تأخرنا لحاجة إلى العصر فلا بأس، والمهم العودة إلى منى، والمبيت واجب مستقل كما سيأتي.

ولم يسعَ ﷺ ذلك اليوم بين الصفا والمروة، مكتفياً بسعيه الذي سعاه عند قدومه من المدينة؛ لأنه كان قارناً والقارنُ يكفيه سعي واحد كما هو قول الجمهور، وعند الإمام أبي حنيفة يعيد سعيَه.

وعلى هذا فكل من كان مفرداً أو قارناً وطاف أول ما جاء، فإن طوافه طواف قدوم، فإذا كان قد سعى للحج أو للحج والعمرة وبقي محرماً حتى وقف بعرفات ثم أفاض فإنه يطوف طواف الإفاضة فقط ولا يسعى.

وأما من كان متمتعاً وطاف عند مجيئه فإن طوافه ذلك طواف عمرته وسعيه سعي عمرته، فتحلل ثم أحرم للحج فإن عليه أن يطوف للإفاضة ويسعى للحج.

وهكذا تنتهي أعمال يوم العيد ما بين منى ومكة، فيرجع ويستقر بمنى لتتمة أعمال أيام التشريق.



أعماله ﷺ بمِنى أيام التشريق

بعد أن طاف ﷺ طواف الإفاضة، وشرب من زمزم على ما تقدم، رجع إلى منى فنزل حيث المسجد اليوم فيما يقال، وأنزل المهاجرين يمنته، والأنصار يسرته، والناس حولهم من بعدهم، وقيل له: ألا نبني لك يا رسول الله بناء يظللك؟ قال: «لا، مِنى مناخُ مَنْ سَبَقَ»(١). وكان ﷺ يصلي بمنى بأصحابه ركعتين، وكان يرمي الجمرات الثلاث أيام مِنى بعد الزوال، ويذهب إليها ماشياً، وكان يُكَبِّر مع كل حصاة؛ يبدأ بالأولى التي تلي مسجد الخيف، ويقف عندها ويطيل المقام ويتضرع، وكذلك عند الثانية، وهي الوسطى، ثم يرمي الثالثة التي هي جمرة العقبة ولا يقف.

وفي حديث ابن عمر: أنه ﷺ كان يرمي الجمرة الدنيا بسبع حصيات يكبِّر على إثر كل حصاة، ثم يتقدم ثم يهلُّ فيقوم مستقبل القبلة طويلاً ويدعو ويرفع يديه، ثم يرمي الوسطى، ثم يأخذ ذات الشمال فيهلُّ فيقوم مستقبلاً القبلة ويدعو ويرفع يده ويقوم طويلاً، ثم يرمي جمرة العقبة من بطن الوادي ولا يقف عندها ثم ينصرف(٢). وهكذا في كل يوم من الأيام الثلاثة بعد يوم العيد، يبيت ويرمي ـ بعد الزوال ـ الجمرات الثلاث.

وقد استأذن العباس رضي الله عنه أن يبيت بمكة ليالي منى من أجل سقايته فأذن له(٣)، وكذلك أرخص لرعاء الإبل في البيتوتة بمنى، فرموا يوم النحر وذهبوا ولم يأتوا من الغد أول أيام التشريق، وجاؤوا بعد غد ثاني أيام التشريق فرموا

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٠١٩)، وابن ماجه (٣٠٠٦، ٣٠٠٧)، والترمذي (٨٨١) وقال: حديث حسن، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٣٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٧٥١).

(٣) أخرجه البخاري (١٧٤٥)، ومسلم (١٣١٥).

عن اليوم الأول ثم عن اليوم الثاني ثم رموا يوم النفر الثاني ثالث أيام التشريق[١].

وأحكام هذه الأيام: كلها من باب الواجبات، وليس فيها عمل يعد من أركان الحج، وقد قال عنها ﷺ: «**أيامُ مِنى أيامُ أكلٍ وشرب وبعال، وذكر الله تعالى**»[٢]. وأهم أعمالها: الرمي والمبيت، وكلٌ منهما عمل مستقل عن الآخر، أما الرمي فالجمهور على ترتيب الرمي كما تقدم؛ يبدأ بالأولى التي تلي مسجد الخيف - وتسمى الصغرى - ثم بعدها الوسطى، ثم جمرة العقبة. والكيفية كما تقدم بيانها في جمرة العقبة. وعلى من سينوب عن غيره في الرمي أن يبدأ فيرمي عن نفسه أولاً ثم عن غيره واحداً كان أو أكثر. وكيفية ذلك على الأصح أن يرمي الأولى عن نفسه ثم وهو في موقفه يرمي عمن أنابوه، ثم يتحول عن مواطن الزحام ويستقبل القبلة ويدعو بما يسر الله له وألهمه إياه من خيري الدنيا والآخرة بدون حد ولا حصر، وقد قام ﷺ بقدر ما يقرأ سورة البقرة، ثم ينتقل إلى الثانية فيفعل مثل ذلك، ثم إلى الثالثة فيرمي وينصرف. وإذا أعوزه شيء من الحصا لأيام التشريق كله أو بعضه فإن شاء أخذه من غيره ممن جاء بزيادة من المزدلفة، وإن شاء التقطه من أي مكان في منى، إلا مكانين فقط المساجد والجمرات، فلا تُخرجنَّ حصاة من المسجد، ولا تأخذن حصا من عند الجمرات؛ لأنها مظنة الرمي بها من غيرك.

وأول وقت الرمي أيام التشريق: تقدم لك فعله ﷺ أنه ما رمى الأيام الثلاثة إلا من بعد الزوال، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: كنا نتحيّن فإذا زالت الشمس رمينا[٣]. وبهذا أخذ الأئمة الأربعة أن رمي الجمرات لا يصح إلا بعد الزوال، والأفضل أن يكون قبل الصلاة، فيرمي بعد الزوال ثم يرجع ويصلي الظهر.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٩٧٥) وابن ماجه (٣٠٣٧)، والنسائي (٣٠٦٩)، والترمذي (٩٥٥) وقال: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في إرواء الغليل (١٠٨٠).

(٢) أخرجه مسلم (١١٤١، ١١٤٢)، وأما قوله: «**وبعال**» فأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ١٨٥/ حـ ١١٥٨٧)، وضعفه الألباني في تمام المنة (ص٤٠٢ - ٤٠٤).

(٣) أخرجه البخاري (١٧٤٦).

ونص الحنابلة وغيرهم: على أن من رمى أيام التشريق قبل الزوال يجزئه، وعليه قضاؤه، وقول عند الأحناف في اليوم الثالث لمن لا يتعجل أن له الرمي قبل الزوال وأُجيب عن ذلك بأن الأحاديث تردُّه.

أما آخر وقت الرمي في أيام التشريق: فعند الحنابلة آخر كل يوم على الاستحباب هو غروب شمس ذلك اليوم، وعلى الاضطرار إلى آخر أيام التشريق، فلو لم يرم الجمرات الثلاث أيام التشريق ورماها كلها في اليوم الثالث أجزأه، ولكن بشرط الترتيب، يبدأ من الأولى فالوسطى فالعقبة بنية أول أيام التشريق، ثم يرجع، فيبدأ بالأولى فالوسطى فالعقبة عن ثاني أيام التشريق، وهكذا يفعل لثالث أيام التشريق.

فإن خرج اليوم الثالث ولم يرم الجمرات كلها سواء أداءً أو قضاءً فعليه دم عنها كلها، وإن كان ترك جمرة واحدة في يوم واحد فعليه دم لها. أما إذا نقص بعض الجمرات سهواً حصاة أو حصاتين فحفنة من طعام عن كل حصاة.

ومن خاف الزحام نهاراً فله الرمي ليلاً عند غير أحمد، فعنده: يؤجله إلى الغد فيقضيه وبعد الزوال، فيقضي رمي الأمس على الترتيب، ثم يرجع ويرمي رمي اليوم الذي هو فيه، ولا شيء عليه في ذلك، ولا تشترط الطهارة ولكنها أفضل.

أما **المبيت** فإنه عمل مستقل، فمن حضر إلى منى ورمى الجمار ولم يبت ليلة أو ليلتين فعليه لكل ليلة دم، وقال النووي: عليه دم واحد لليالي منى كلها.

ومدة المبيت كامل الليلة من قبل الغروب إلى ما بعد طلوع الفجر وقيل: يجزئه أكثر الليل من آخره. أي أن يدركه الفجر الأول بها ومن فاته شيء من أوائل الليل فلا شيء عليه، وقد استثني من وجوب المبيت ولزوم الدم ما تقدم من أهل السقاية والرعاة.

ويجب أن يعلم أن كلّاً من السقاية ورعاية الإبل عمل في مصلحة عامة لخدمة الحجاج، وعليه فإننا اليوم نجد السقاية قائمة، وهم الذين يعملون على سقيا الحاج من زمزم، وهم مئات الأشخاص، وذلك بإعداد الماء والثلج

وتوزيعه في المسجد الحرام، وهو جهد كبير وعمل متواصل. فيقال لهؤلاء: إذا لزم مبيتكم بمكة لعمل السقاية فلا مانع، وتأتون إلى منى للرمي نهاراً فقط أو تنيبون من يرمي عنكم.

وكذلك كل من كان في خدمة عامة كهذه ـ وإن لم تكن موجودة في الزمن الأول ـ كأطباء المستشفيات ومن يعاونهم من مساعدين وممرضين وخدم وغير ذلك، ومثلهم عمال المخابز الذين يهيئون الخبز للحجاج إذ إن الخبز اليوم جزء من حياة الحجاج بخلاف الزمن الأول كان كلٌّ يقوم بعمل طعامه بنفسه كاملاً.

بل إن عمال الكهرباء والإطفاء وكل رجال الدفاع المدني إذا لزم مبيت أحدهم بمكة فلا بأس، أما الرعاة فلم يعد رعاة. وقد جاء عنه ﷺ قوله: «**لا تقومُ السَّاعةُ حتى تُتركَ القَلُوص**»(١) يعني الإبل، ولكن يوجد سائقو السيارات إذا تركوا سياراتهم بمنى زاحمت الحجاج فإذا هُيِّء لها أماكن، وقيل لهم: اذهبوا بها إلى تلك الأماكن وتعذر مجيئهم للمبيت فلا مانع من الترخص لهم، وإذا لم يلزم مبيتهم عند سياراتهم فعليهم المجيء للمبيت.

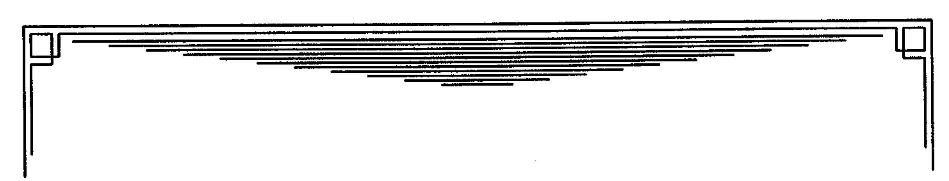
وفي هذه الآونة يشتكي بعض الناس الزحام أو الضيق في الأماكن فينزلون بخيامهم وعوائلهم خارج حدود منى، أو ينزلون إلى مكة أو إلى العزيزية بعذر عدم الحصول على أماكن لهم، وهؤلاء يجب عليهم إذا قضوا نهارهم بمنازلهم جاؤوا إلى الرمي ونزلوا فإن عليهم المجيء إلى منى في منتصف الليل الأخير إلى الفجر، مما يجزئهم عن المبيت كما تقدم. ثم يذهبون إلى منازلهم يقضون نهارهم هناك ويأتون للرمي في أي وقت ما بين الزوال والغروب. أي إن اتخاذ منزل خارج منى لضرورة الزحام، فلا مانع إذا أدى واجب المبيت، ولو أقل ما يجزئ، وأدى واجب الرمي في الوقت المستحب.

أما عدد الليالي فكما قال تعالى:

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ اتَّقَىٰۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

---

(١) لم أقف عليه.



تحليقة عبر التاريخ
في مشروعية الرمي والنحر والتجمع في منى

لا يُبعد من يقول: إن التجمع في منى لم يشهد له التاريخ مثيلاً، لا في جاهلية ولا في إسلام. ولا يعادله اليوم تجمع مثله، وإن ساواه في العدد فلن يساميه في الهدف.

إنه تجمع الأمة الإسلامية ماثلاً في وفودها للحج، يتحقق فيه ما ينادىٰ به اليوم باسم التكامل الاجتماعي والتضامن الإسلامي، فهي ثلاثة أيام، وهي أيام الضيافة على فضل الله، إنها أيام الغار للنبي ﷺ حين كان في عناية الله ورعايته، وقد نوه القرآن بهذا الفضل وبالضيافة والتكافل في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾، فهذا بيان تفضل الله على العباد.

﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ شكراً لهذا التفضل، ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾. وهذه هي الضيافة على مائدة الإنعام من الله ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾، وهذا هو التكافل الاجتماعي يفيض الأغنياء بطعام الهدي على من لا هدي معه أو لا يستطيع تقديم الهدي. فيجتمع التجمع الإسلامي كله على مائدة واحدة. فلا يشبع الغني ويجوع الفقير، ولا يتطاول الواجد على المحروم، بل تنازل الغني من علياء غناه، وارتفع الفقير من حضيض فقره، وتلاقوا على مائدة الإكرام والطاعة.

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٦]، تذكير بالنعمة وحث على شكرها. أيام هي الغرة في جبين الزمن. يقضونها في إخاء وصفاء ومودة ورحمة، أيام تكامل وتضامن حين يتعرف كل حاج على أخيه، ويتدارس كل وفد قضاياه، منه انطلاقة التضامن الإسلامي وتعاون الدول الإسلامية.

أما أعمالها المشروعة فيها: وهي الرمي والنحر فإن لها تاريخاً بعيداً، وهي اليوم تتجدد في كل عام، وستظل ذكراها متجددة حية في النفوس على الدوام.

إنها ذكرى عطرة، ومواقف فريدة، تعجز الأيام عن الإتيان بمثلها. فيها مناهج الإيمان والطاعة وذروة الإحسان. استسلام وانقياد، ومرضاة لرب العباد. وهلم معي نستذكر شريط الأيام، ونسترد عجلة الزمان من أول يوم عمر هذا الوادي، ونزلته أكرم أسرة، جاءت من بلاد تجري أنهارها وتفيض ثمارها، ونزلت بواد غير ذي زرع. طفل رضيع وأمه معه يودعهما شيخ وديع ويرجع عنهما. شيخ لم يرزق هذا الطفل إلا عن كبر، فلم يمهل عليه تقرّ عينه به، فيؤمر بإقصائه عنه، فيأتي به كما أُمر.

ثم هو بعد أن شب الغلام واستوى، يقف مع أبيه يساعده في بناء البيت؛ فيستشعر رجولته، ويحس بيده معه. فلم يمهل عليه يجني ثماره ويشد ساعده، فيؤمر بذبحه، فيأتي البلاء ويجري القضاء فيصارح الأب ابنه، ويتقبل الابن قضاء ربه. استمع إلى قول الله تعالى وتأمل بعين بصيرتك تجد صورة حية كأنك تعايش أحداثها وتشهد مشاهدها، فتأخذك روعتها، فينخلع لها قلبك، وتخور أمامها قواك، وينشلّ تفكيرك. يقول تعالى عن إبراهيم في سورة الصافات: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات: ٩٩ ـ ١١٢].

انظر إلى قصر الآي وتقارب الفواصل، لكأنها تتجاوب مع وجيف القلب وخفقانه، وإلى وضوح العرض وبيانه يصور الصدق وإيمانه.

انظر إلى الشيخ الكبير؛ بإحدى يديه سكين، ويده الأخرى على عنق ولده، كيف قويت على حمله قدماه؟ كيف استطاع صبراً أن تراه عيناه؟ كيف

أمسك السكين بقبضته برضاه؟ لقد علم الله صدقه حين أقدم باليقين، فأخذه وتلَّه للجبين، حتى لا تلتقي العينان بالعينين، وأهوى عليه بالسكين. ولكن عناية الله كانت أسرع، ورعايته كانت أسبق. ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ قد ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾. وصدقت مع ربك فأحسنت أيما إحسان. بل بلغت الذروة في إحسانك. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ . . . ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾﴾ ونزل جبريل عليه السلام بكبش الفداء. وقيل: هو الكبش الذي قدمه هابيل في قضيته مع قابيل وتقبله الله منه. وقيل: من دواب الجنة. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ فيه بيان أن التكاليف ابتلاء، وأن إمامة الخليل عليه السلام بعد الابتلاء. كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقوله: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧]، أي بما كلفه الله به.

وهنا أيها الحاج الكريم إنك إما أن تكون أباً أو ابناً فهل تطيع الله إلى هذا الحد؟ إنه درس لأفراد الأسرة كلها. الأب يضحي بولده لمرضاة ربه، والولد يبرُّ أباه طاعة لربه، والأم تستسلم لأمر الله في طاعة زوجها. إنها أسرة كريمة، أعطت المثال الأمثل لمناهج الأسر في منهج الطاعة لله. وها أنت اليوم تهدي وتضحي وتخلد تلك الذكرى عملياً.

أما الرمي فهو وإن كان المشروع فيه الطاعة والامتثال كالطواف والسعي وتقبيل الحجر، وكما قال النووي: أصل العبادة الطاعة، وكل عبادة لها معنى قطعاً؛ لأن الشرع لا يأمر بعبث، ثم معنى العبادة قد يفهمه المكلف وقد لا يفهمه. وذكر من المفهوم حكمته: الصلاة بالخشوع، والصيام كسر الشهوة، والزكاة مواساة الفقير. . . إلخ، ومما لا تفهم حكمته السعي والرمي. فكلف العبد بها ليتم انقياده، ثم ساق ما رواه البيهقي عن الجمرات الثلاث ما يعتبر حلقة في قصة النحر التي قدمناها من أن إبراهيم عليه السلام لما أتى المناسك عرض له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض، ثم عرضَ له عند الثانية فرماه بسبع حتى ساخ في الأرض، وهكذا الثالثة.

وفي البيهقي ٥/ ١٥٣: أن الشيطان عرضَ لإبراهيمَ عليه السلام حين ذهبَ بإسماعيلَ ليذبحَه. وفيه رواية: أن جبريلَ ذهب بالنبي ﷺ ليريَه المناسكَ

فعرضَ له إبليس. . . إلخ والصحيح أنه كان مع الخليل عليه السلام.

ومهما يكن من شيء فينبغي أن تعلم أن اليوم لن ترى إبليس، ولن يعرض لأحد اليوم، ولن يكون مجنوناً ليقفَ للناس يرجمونه. ولكنك كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: الشيطان ترجمون، وملة أبيكم تتبعون. أي في هذه المشروعية، لتستشعرَ العداوةَ لعدو طالما سالمته، بل واستسلمتَ له، وقد توعد بين يدي رب العزة بإغواء عباده؛ كما قال تعالى:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٨].

إنها عداوة من لدن أبينا آدم كما بين تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦٢ ـ ٦٥].

وقد بذل كل جهده في ذلك ووصل إلى بعض ما أراد كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سبأ: ٢٠].

وأنت أيها الحاج، جئتَ إلى الحج مثقلاً بالذنوب، مكبَّلاً بالقيود، فأفضت من عرفات وقد فُكَّ قيدك وحُطَّ عنك ذنبك، فأحبطت عمله، وأبطلت كيده، وبعد أن كنت مغلوباً أصبحت غالباً، وصرت من ضعف إلى قوة، ومن ذلة إلى عزة، ومن غواية إلى هداية. تفيض من عرفات إفاضة المنتصر، فتأتي عدوك وتعلن الحرب وتبادر بالضرب: باسم الله، الله أكبر، رجماً للشيطان وطاعة للرحمٰن، ومن ثم فلن تهادنه بعد اليوم.



الإِبداعُ فيما أُثِرَ من خُطَبه ﷺ في حَجَّة الوداع

مما استفاضت به كتب التاريخ والسير والحديث والفقه أنه ﷺ خطب في حجة الوداع أربع خطب: الأولى: عصر اليوم السابع من ذي الحجة، وقيل: كان يسمى يوم الزينة ونفاه النووي. الثانية: خطبته بنمرة يوم عرفة قبل الصلاة. والثالثة: يوم النحر ضحىً. والرابعة: يوم النفر الأول وهو ثاني أيام التشريق.

والنظر في تلك الخطب حول منهجها وموضوعها. أما **منهجها** كلها، فتعددها في أوقات مختلفة ومراعاة الزمان والمكان وحاجة المخاطبين على أساس البلاغة «لكل مقام مقال».

أما **الموضوع** فلكل خطبة موضوعها المناسب لزمانها ومكانها والحاجة إليها.

فالأولى: التي في اليوم السابع بيَّن كيفية الطلوع إلى منى، والصلاة فيها، والمبيت فيها، ومتى الذهاب منها، وعدم الصوم في الغد، ومتى يكون الوقوف.

والثانية: في مسجد نمرة اليوم، قبل الصلاة، بيَّن لهم أعمال الموقف وما بعده مع قصر مدتها.

والثالثة: يوم النحر وهي المشهورة عند الجمهور، بيَّن لهم فيها أعمال يوم العيد من رمي ونحر وحلق وأجاب على أسئلة السائلين.

والرابعة: يوم النفر الأول وبيَّن لهم ما بقي عليهم وودّع الناس فيها.

وهكذا كان لكل خطبة موضوعها الذي تختص به نظراً للزمان والمكان.

وهناك قدر مشترك بين الجميع هو ما حفلت به كتب الحديث رواية، وكتب الفقه دراية، وكتب التاريخ إخباراً، وكتب الأدب اعتباراً.

والظاهر أن بعضها قد تداخل في بعض، وخاصة يوم النحر ويوم النفر الأول. وسنورد مجموع ما أثر في كتب الحديث والتاريخ والفقه بقدر المستطاع؛ لأن الغرض هو الدراسة والتوجيه، ولنعتمد خطبتَي منى:

روى ابن كثير عن الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال: **«يا جرير استنصت لي الناس»**[(١)]. وعند أبي داود: أن علياً يبلِّغ عنه والناس بين قائم وقاعد[(٢)]، وعنده أيضاً: عن عبد الرحمٰن بن معاذ التيمي قال: خطبنا رسول الله ﷺ ونحن بمنى ففُتحت أسماعنا حتى كنا نسمع ما يقول ونحن في منازلنا فطفق يعلمهم مناسكهم. . . إلخ[(٣)].

أما الصيغة فأقواها ما رواه البخاري رحمه الله[(٤)] في خطبته ﷺ يوم النحر فقال: **«أتدرونَ أيّ يوم هذا؟»** قلنا: الله ورسولُه أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: **«أليس هذا يوم النحر؟»** قلنا: بلى. قال: **«أيّ شهر هذا؟»** قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: **«أليس ذو الحجة؟»** قلنا: بلى. قال: **«أيّ بلد هذا؟»** قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: **«أليس بالبلد الحرام؟»** قلنا: بلى. قال: **«إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغت؟»** قالوا: نعم. قال: **«اللهم فاشهد فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فربّ مبلَّغ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفّاراً يضربُ بعضُكم رقابَ بعض»**. وعند غير البخاري[(٥)]: افتتحها بحمد الله والثناء عليه وبالاستغفار والتوبة والشهادتين ثم قال: **«أيُّها الناس: أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته واستفتح بالذي هو خير أما بعد: إن دماءكم...»** ثم

---

(١) أخرجه أحمد (٤/٣٥٨)، والبخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥).
(٢) أخرجه أبو داود (١٩٥٦)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٧٠٩).
(٣) أخرجه أبو داود (١٩٥٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٧١٠).
(٤) أخرجه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩).
(٥) انظر تخريج خطبة حجة الوداع في: رسالة (أصول الخطابة والإنشاء) للمؤلف.

قال: «فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن ربا الجاهلية موضوع وإن أول رباً أبدأ به ربا العباس بن عبد المطلب. وإن دماء الجاهلية موضوعة وأن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية، والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكن قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس: إنما النسيء زيادة في الكفر، يُضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً، ليوطئوا عدة ما حرم الله. وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض. وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض، منها أربعة حرم؛ ثلاثة متوالية وواحد فرد؛ ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس، إن لنسائكم عليكم حقاً، ولكم عليهن حقاً، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم، فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد. فلا ترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده؛ كتاب الله وسنتي، ألا قد بلغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد. قال: فليبلغ الشاهد الغائب.

أيها الناس: إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارث وصية، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث. والولد للفراش وللعاهر الحجر.

ومن ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه صرف ولا عدل، ولا تنفق امرأة من بيت زوجها إلا بإذنه». فقيل: يا رسول الله ولا الطعام. قال: «**ذاك أفضل أموالنا**». ثم قال: «**العارية مؤداة والمنحة مردودة، والدين مقضيّ، والزعيم غارم**».

أخي الحاج، أيها القارئ الكريم، هذا غاية ما استطعت جمعه إليك. وأنت ترى أن فيه منهج حياة الأمة الفاضلة استوصت بتقوى الله وبالسمع والطاعة، واعتنت بحفظ الضروريات: الدين والأنفس والأعراض والأموال. ورسمت منهج التعامل مع النساء شقيقات الرجال، وصححت المفاهيم حولهن، وأرست قواعد قسمة المال، ووثقت روابط الإخاء بوحدة الأبوين ووحدة رب العالمين، وحذرت من طاعة الشيطان ودعت إلى أداء الأمانات ونحوها.

ولو أن الأمة الإسلامية تعاهدت على عقد الندوات أو مؤتمر في كل سنة بمنى لتدارس ما جاء في تلك الخطب مجموعة، لوجدوا المنهج الأفضل للحياة الفاضلة. ولو أن كل حاج وعى ما جاء فيها، لكان خيراً له من الدنيا وما فيها وكفاه منافع في حجه.

والذي يهمنا أن النبي ﷺ قد حمّل الحاضر السامع عهدة التحمل والبلاغ للغائب.

فأنت أيها الحاج الكريم مدعو للمساهمة في العمل في مجال الدعوة إلى الله وإبلاغ من وراءك بما وعيت من وصايا رسول الله ﷺ. فكن خير وافد، لقومك، وخير مبلِّغ عن نبيك.



نزوله ﷺ من منى وطوافه للوداع

في ثالث أيام التشريق نزل ﷺ من منى بعد أن رمى الجمرات بعد الزوال، ووجد القبة ضربت بالأبطح ـ وهو المحصب ـ فنزل وبات به. وقيل: صلى الظهر بمنى، وقيل: بالمحصب، وصلّى العصر والمغرب والعشاء، ثم رقد رقدة، ثم نزل إلى البيت وطاف الوداع بعد أن صلّى الصبح ثم خرج إلى المدينة. وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «أُمِرَ الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت، إلا أنه خُفِّف عن الحائض والنفساء»(١). وفي تلك طلبت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن تعتمر، فأمر أخاها أن يعمرها من التنعيم، فقضت عمرتها سحراً(٢). وفي تلك سأل عن صفية، وكانت ثوبة عندها، فقيل: إنها حائض. فقال: «**عقرى حلقى، أحابستنا هي؟**» فقالوا: إنها قد أفاضت. فقال: «**انفروا إذاً**»(٣).

وفي هذه الأحداث من المباحث الآتي:

أولاً: أول نزوله ﷺ ثالث أيام التشريق. تقدم قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [البقرة: ٢٠٣].

والأيام المعدودات: هي أيام التشريق الثلاثة، والأيام المعلومات: هي أيام التشريق بضميمة يوم العيد إليها. وأجمعوا على جواز التعجل بيومين من أيام التشريق، وليس يوم العيد محسوباً فيها. واتفقوا على أن الأفضل للإمام أن يتأخر لأن الناس تبع له. وهو الأكمل كما فعل ﷺ.

ثانياً: النزول بعد منى بالمحصب. وهو المكان الفسيح بعد منى جهة

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٥٥)، ومسلم (١٣٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٥٦٠)، ومسلم (١٢١١).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٠١)، ومسلم (١٢١١).

مكة. وقد شغل بالبيوت اليوم، ولكن البحث: هل كان نزوله ﷺ فيه عادة أم عبادة؟ يعني هل نزله بدون قصد، حيث وجد القبة قد ضربت له؛ أم نزله بقصد؟ والصحيح الثاني. وقيل: ليكون أيسر لخروجه من مكة. وقيل: أيسر لعمرة عائشة رضي الله عنها. ولكن جاء النص على أنه أخبرهم في منى أنه سينزل بالمحصب. لحديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ من الغد يوم النحر بمنى ـ: «**نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة، حيث تقاسموا على الكفر**». وخيف بني كنانة والأبطح هو المحصب[1]. وعند الإمام أحمد أنه ﷺ قال: «**نحن نازلون غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة، حيث قاسمت قريشاً على الكفر**». يعني تحالفهم مع قريش على بني هاشم في كتابة الصحيفة ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يؤوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ[2].

قال ابن كثير رحمه الله: وفي هذا مراغمة لما كان تمالأ عليه كفار قريش لما كتبوا الصحيفة. وهذا يشبه إهداءه ﷺ مائة بدنة رداً على المائة في المفاداة.

أما اعتمار عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، فكانت عمرة زائدة، حيث كانت قارنة ويكفيها القران للحج والعمرة، وذلك بسبب حيضتها وهي في طريقها إلى مكة، وكانت متمتعة فحاضت بسرف، فبكت فقال لها ﷺ: «**ما يبكيك لعلك نفست، أدخلي الحج على العمرة...**» إلخ[3]، ولكنها أرادت عمرة مستقلة كما حصل لبقية زوجات رسول الله ﷺ كن متمتعات ولم تدركهن الحيضة. وأخذ من عمرتها مسألتان عظيمتان:

الأولى: جواز الاعتمار من أدنى الحِلّ وهو التنعيم.

الثانية: أن من كان بمكة ـ سواء من أهلها أو قادم عليها ـ وأراد العمرة أن عليه أن يخرج إلى الحل ليحرم ثم يدخل الحرم محرماً فيجمع بين الحل والحرم. وفيه أيضاً جواز العمرة في السنة أكثر من مرة، خلافاً لمالك رحمه الله.

أما قول ابن عباس رضي الله عنهما: «أُمِرَ الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت، إلا أنه خفف عن الحائض والنفساء»[4]. فأخذ منه الجمهور:

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٣٧)، والبخاري (١٥٩٠)، ومسلم (١٣١٤).
(٢) أخرجه أحمد (٢/٢٣٧)، والبخاري (١٥٩٠)، ومسلم (١٣١٤).
(٣) أخرجه البخاري (١٥٥٦)، ومسلم (١٢١١)، بلفظ: «**أهلّي بالحج ودعي العمرة**».
(٤) تقدم تخريجه ص٢٤٦.

وجوب طواف الوداع، وأن يكون هو آخر أعمال الحج.

وعند الجمهور ما عدا مالك: أن فيه دماً لمن تركه بغير عذر. وجاء عن عمر رضي الله عنه: أنه كان يردّ الناس لأجله إذا كانوا قريباً من مكة. ومأخذ الجمهور قوله: «أُمِرَ الناس» والأمر للوجوب. ومن قوله: «خفِّف عن الحائض».. أي وغيرها لم يخفّف عنها.

وينبغي أن يعلم: أن أولئك الذين ينزلون من منى أول أيام التشريق لمكة ويطوفون طواف الوداع ويرجعون إلى منى لرمي ما بقي من الجمرات ليكون سفرهم، من منى رأساً، أنه عمل غير صحيح لأنهم بذلك يكون آخر عهدهم بمنى لا بالبيت.

وأما تخفيفه عن الحائض والنفساء، فإن فيه رحمة من الله تعالى بهن وبمن معهن. وفي قوله ﷺ: «**عقرى حلقى أحابستنا هي**»[1] أي لما قيل له: إنها حاضت؛ ليلة نزولهم من منى، وظن أنها لم تطف طواف الإفاضة الذي هو ركن الحج. فجعل العلماء يبحثون قضية الحيض في الحج ونحن نورد مجمل القول في هذه القضية.

الواقع إنها قضية تهتم لها كل امرأة نظراً لظروف سفرها وأداء مناسكها، كما يهتم لها كل رجل لارتباطه بمن معه من النسوة. ويكفي أنه ﷺ يتلفظ بتلك العبارة على زوجة (**عقرى حلقى**). ومن حكمة الله ولطفه أن تقع مسائل الحيض والنفاس في حجة الوداع مع أقرب الناس لرسول الله ﷺ، وفي أول الرحلة وفي وسطها وفي نهايتها.

ففي أولها وقبل انعقاد الإحرام وفي ذي الحليفة نفست أسماء زوج الصدّيق وسأل عنها رسول الله ﷺ فقال له: «**مرها فلتغتسل ولتهلّ ولا تطوف بالبيت حتى تطهر**»[2].

---

(١) تقدم تخريجه ص٢٤٦.

(٢) أخرجه مسلم (١٢٠٩) من حديث عائشة، و(١٢١٠) من حديث جابر ولفظه أن النبي ﷺ أمرها أن تغتسل وتُهل. أما قوله: «**ولا تطوف بالبيت حتى تطهر**»، فأخرج البخاري (٣٠٥)، ومسلم (١٢١١)، أن النبي ﷺ قاله لعائشة حين حاضت.

فعلمنا أن الحائض والنفساء لها أن تهل وتأتي بما يتطلبه الإهلال قبل مكة على ما سيأتي.

وفي وسط الرحلة وفي سرف قبيل مكة حاضت عائشة رضي الله عنها، أي وهي متلبسة فعلاً بالإحرام وكانت متمتعة والوقت قصير لا يسعها أن تطهر من حيضتها وتكمل عمرتها قبل عرفة ولذا بكت، فقال لها ﷺ: «**إنه أمرٌ كتبه الله على بنات حواء، فلا عليك، أدخلي الحج على العمرة، قولي: لبيك اللهم حجاً وعمرة**»(١). فأتت مكة ولم تطف بالبيت لحيضتها وبقيت على إحرامها حتى وقفت بعرفة، وطهرت قبل يوم العيد فطافت طواف الإفاضة عن حجها، وعمرتها، وسعت بين الصفا والمروة عن حجها وعمرتها، وقصرت من شعرها عنهما معاً.

والثالثة: هي قضية صفية حاضت في نهاية الرحلة ليلة السفر وظنها ﷺ لم تطف طواف الإفاضة. فقال: «**أحابستنا هي؟**»(٢)، أي تحبسهم مدة حيضتها حتى تطهر ثم تطوف بالبيت.

ومن هذا الحديث أخذ الأئمة الثلاثة مالك والشافعي وأحمد: أن من حاضت قبل أن تطوف طواف الإفاضة لا يحق لها السفر إلا بعد طوافها بعد أن تطهر. اللهم إلا إذا كانت تذهب ثم تعود إلى مكة في طهر لتطوف طواف الإفاضة ولا يسقط عنها أبداً، وعند الإمام أبي حنيفة أنها تطوف وعليها بدنة. وهذا مبني على مذهبه في الطواف لا تشترط لصحته الطهارة. وللمشقة التي تلحقها في انتظارها وحبس رفقتها ولخطر سفرها ثم العودة فإنها لا تزال في حكم الإحرام وقد تكون ذات زوج فتظل ممنوعة عليه حتى تطوف. ثم إنها لو سافرت ثم رجعت فعلى حساب من؟ وإن جلست فعلى نفقة من؟ وهذه كلها مخاطر.

وقد بحث هذه المسألة الإمام ابن تيمية رحمه الله من الحنابلة فوافق أبا

---

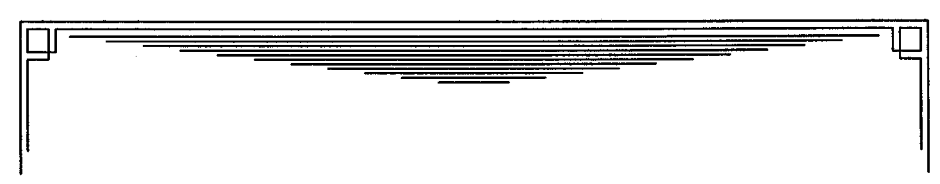
(١) أخرجه البخاري (١٥٥٦)، ومسلم (١٢١١)، وفيه أن النبي ﷺ قال لها: «**أهِلِّي بالحج ودعي العمرة**».
(٢) تقدم تخريج ص٢٤٦.

حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ رفعاً للحرج وقبولاً للعذر. وهذه قضية تتطلب حلاً على نطاق واسع لأن النبي ﷺ حين قال: «**أحابستنا هي؟**»، كان هو ﷺ له إمرة الحجيج وفي قدرته الانتظار وقد سمح للناس بالرحيل. وهذا إذا تيسر لكل رجل معه امرأة واستطاع الانتظار معها فلا إشكال، ولكن اليوم سفر الحجاج رحلات منتظمة، ونفقاتهم محدودة، بل إن أكثر النسوة يأتين بدون محرم لهن، فمع من ستقعد؟ ومع من ستسافر إذا ذهبت رفقتها؟

ويؤكد إلحاح هذه القضية لطلب حَلٍّ لا يخلو منه وفد من وفود الحجاج، وإلى أن يتوفر الحل السليم فإن على كل امرأة حاضت قبل الإفاضة واستطاعت الانتظار أو تيسر لها السفر، كأن كانت مقيمة قريباً فلا يحل لها الطواف حتى تطهر. ومن تعذر عليها ذلك، وخشيت الضياع بالانتظار، أو إفساد حجها بالسفر؛ فلها الرخصة مضطرة.

وكان نسوة مع ابن عمر فأخذن ماء الأراك ليحبسن حيضتهن تفادياً لهذا الإحراج.





رحلة العودة

كانت عودته ﷺ إلى المدينة بعد أن قضى حجه حالاً. وذلك أنه نزل من منى ثالث أيام التشريق الموافق الثلاثاء الثالث عشر من ذي الحجة وبات بالمحصب؛ وهو المعروف بخيف بني كنانة، ولم يكمل مبيته بل رقد رقدة ثم نزل إلى المسجد الحرام وطاف طواف الوداع قبل صلاة الصبح ثم خرج إلى المدينة. وكانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قد رغبت في عمرة فأعمرها مع أخيها عبد الرحمٰن ليلاً وخلصت في السحر. كل ذلك تعجيلاً في العودة.

وقد جاء عنه ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**السفر قطعة من العذاب يمنع أحدكم نومه وطعامه وشرابه، فإذا قضى أحدكم نهمته من وجهته فليعجل إلى أهله**»(١). وقال في خصوص سفر الحج في حديث عائشة رضي الله عنها: «**إذا قضى أحدكم حجة فليعمل الرحلة فإنه أعظم للأجر**» رواه البيهقي(٢).

وأنت أيها الحاج الكريم قد قضيت حجك متتبعاً آثار نبيك ﷺ، وقضيت تفثك ووفيت نذرك، ولم يبق إلا أن تتأهب للعودة إلى بلدك، وأولادك؛ لأنهم في انتظار عودتك ولهم حقوق في ذمتك، وإنك ليدعوك الحنين إلى وطنك والحنان إلى ولدك والشوق إلى أهلك. ولا تنس أن تهاديهم ولو بماء زمزم كما أخذ معه منه ﷺ(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٠٤)، ومسلم (١٩٢٧).

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٤٧٧)، والبيهقي (٥/ ٢٥٩)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٧٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٩٦٣) وقال: حديث حسن غريب، وصححه بشواهده الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٨٣).

ولما دنا ﷺ من المدينة ووصل إلى ذي الحليفة ـ وتبعد عن المدينة ستة أميال ـ نزل وبات بها. فهو وإن كان على مشارف المدينة فإنه لا يحب أن يفاجئ بقدومه. فبات هناك ليسبق الخبر إلى بيوت المدينة ولا يفاجئ من معه أهاليهم ليلاً، وقد أخبر ﷺ: «أن المسافر إذا قدم لا يطرق أهله ليلاً، ولا يقدم عليهم حتى يخبرهم. وبيَّن الحكمة في ذلك فقال: «**لترجع الغائبة وتحتد الشعثاء**»[1]. حتى لا يدخل على الرجل شك في أهله فقد يباغتها بعودته وتكون في حاجتها عند أهلها مثلاً، فيظن بها الظنون أو تكون غير مبالية بنفسها لغيبة زوجها فيقع نظره منها على ما لا يرضاه.

وهنا ننبه الحاج عند العودة: لا يفاجئ ولا يباغت، بل يقدم الإخبار قبل قدومه هاتفياً أو برقياً أو أحد زملائه ممن سبقه بالسفر إلى بلده. وكذلك الزوجة إذا علمت بمقدم زوجها عليها أن تتهيأ لاستقباله والحفاوة به. وهكذا حقوق وآداب اجتماعية كريمة ترسم لنا منهج الحياة الفاضلة وتضع قواعد المروءة والإنسانية السامية.

والآن وقبل أن نغادر مكة أقدم إليك أثمن هدية تكشف لك ببعض ما خفي عليك وما هو مدخر لك، وما جنيت من ثمار رحلتك هذه المباركة، فيما يرويه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «كنا جلوساً عند النبي ﷺ بمسجد الخيف بمنى، إذ جاء رجلان ثقفي وأنصاري فقالا: يا رسول الله جئنا نسألك. فقال ﷺ: «**إن شئتما سألتما فأجبتكما، وإن شئتما أمسكتما فأخبرتكما عما جئتما تسألان عنه**». فقال الثقفي للأنصاري: سل. فقال: بل أخبرنا أنت يا رسول الله. فقال ﷺ: «**جئتني تسألني عن مخرجك من بيتك، تؤم البيت الحرام وما لك فيه، وعن ركعتيك بعد الطواف وما لك فيهما، وعن طوافك بين الصفا والمروة وما لك فيه، وعن وقوفك عشية عرفة وما لك فيه، وعن رميك الجمار وما لك فيه، وعن نحرك وما لك فيه مع الإفاضة**»، فقال: والذي بعثك بالحق لعِنْ هذا جئت أسألك.

قال: «**فإنك إذا خرجت من بيتك تؤمُّ هذا البيت الحرام لا تضع ناقتك**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٤٦)، ومسلم (٧١٥).

خفاً ولا ترفعه إلا كتب الله لك به حسنة ومحا عنك خطيئة.

وأما ركعتاك بعد الطواف: فكعتق رقبة من بني إسماعيل، وأما وقوفك عشية عرفة؛ فإن الله يهبط إلى سماء الدنيا فيباهي بكم الملائكة يقول: عبادي جاؤوني شعثاً من كل فج عميق يرجون جنتي فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل أو كقطر المطر أو كزبد البحر لغفرتها، أفيضوا عبادي مغفوراً لكم ولمن شفعتم فيه.

وأما رميك الجمار؛ فلك بكل حصاة رميتها تكفير كبيرة من الموبقات.

وأما نحرك؛ فمدخر لك عند ربك. وأما حلاقك رأسك؛ فلك بكل شعرة حلقتها حسنة ويمحى عنك بها خطيئة.

وأما طوافك بالبيت بعد ذلك؛ فإنك تطوف ولا ذنب لك، يأتي ملك حتى يضع يديه بين كتفيك فيقول: اعمل فيما تستقبل فقد غفر لك ما مضى». وفي رواية **«فصحيفتك بيضاء نقية»**[(١)].

إنه مصداق ما قاله ﷺ: **«من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»**[(٢)]. أي لا ذنب له.

وها أنت أيها الحاج تعود بصحيفة نقية لا ذنب فيها وإنما تعمل فيما تستقبل من عمرك من عمل صالح تزين به تلك الصحيفة النقية. ولقد شهدت المشاهد والمشاعر، وجددت العهد مع الله في كل نسك من المناسك، ولكأنك تصغي لسماع آية الكمال والإتمام، إكمال الدين وإتمام النعمة حيث أنزلها الله على رسوله في الموقف: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

والدين الكامل لا يقبل زيادة، والنعمة التامة لا يجوز نقصانها وما ارتضاه لنا لا بديل عنه أبداً.

فالزم أخي الحاج منهجه وسر على سنته. وكما قال ﷺ: **«تركتكم على**

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١١١٢): حسن لغيره.

(٢) أخرجه البخاري (١٨١٩)، ومسلم (١٣٥٠).

المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك»[١].

وقال ﷺ: **«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»**[٢].

بل الأمر أعظم من ذلك بالنسبة إليك أيها الحاج، لأنك وأنت في منى قد حملت أمانة التبليغ عن رسول الله، والدعوة إلى دين الله، فأنت وافد أهلك من بيت الله. وقد خطب ﷺ ما سمعت من جوامع الكلم ومجامع الحكم؛ أصول الدين ومحاسن الإسلام. وقال ﷺ: **«ليبلغ الشاهدُ منكم الغائبَ»**[٣]. وأنت إن لم تشهد وقت الخطبة وزمانها فقد شاهدت مكانها، وسمعت مضمونها، فبلِّغ عن رسول الله ﷺ وليكن بلاغك قولاً وعملاً.

واعلم يا أخي الحاج أنه ﷺ لما دخل المدينة قال: **«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، لا إله إلا الله، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»**[٤].

وإذا لقيت أهلك دعوت لهم بالخير ودعوا لك بالقبول. كما جاء عنه ﷺ أنه قال: **«اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج»**[٥].

وختاماً تقبَّلَ الله منا ومنك، وغفر الله لنا ولك، ووفقنا وإياك لما يحبه ويرضاه، وجعلنا وإياك دعاة خير، وجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب. وصلّى الله وسلّم وبارك على أفضل خلقه وخاتم رسله نبينا محمد صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٣)، من دون قوله: «**المحجة**»، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٣٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، وابن ماجه (٤٢، ٤٤)، والترمذي (٢٦٧٦)، وقال: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢٤٥٥).

(٣) تقدم تخريجه (ص١٨٥).

(٤) أخرجه البخاري (١٧٩٧)، ومسلم (١٣٤٤).

(٥) أخرجه الحاكم (١/ ٤٤١)، والبيهقي (٥/ ٢٦١)، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٦٩٤).

آدابُ زيارة المسجد النبوي
والسَّلَامُ عَلى رَسُولِ اللّهِ ﷺ



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمَة المؤلّف

تحية واستقبال

أيها الحاج الكريم، أيها الوافد الفاضل إلى طيبة الطيبة، طبت وطاب مقامك، وأهلاً بك في دار الهجرة هجرة حبيبك والمهاجرين الأوّلين، وديار الأنصار الذين تبوؤا الدارَ والإيمان من قبلهم يُحبون من هاجر إليهم.

أهلاً بك أخي المسلم، قدمت خير مقدم، ونزلت أرحب منزل، وحمداً لله على سلامة وصولك، وشكراً لله على بلوغك مأمولك، وسدَّد الله خطاك، ووفّقك لكل خير في مقدمك ومسعاك.

وبعد أيها الوافد الفاضل، إن رحلتك هذه السعيدة ليسعى إليها كل محب، ويتطلع إليها كل مشتاق، ليمتع أنظارَه بطيب مناظرها، ويسعى بأقدامه في أرجاء مآثرها، يستعيد التاريخ من مطلع البدر عليها، ويستذكر تنزل الوحي إليها في المسجد الذي تُشدُّ الرحال إليه، وتتنزّل البركات عليه، تتضاعف فيه الصلاة بألف فريضة وسنّة، وتعطره روضة من رياض الجنة، وبجانبها حجرة الصديقة أم المؤمنين، سمت على الفردوس في عليين لما اختارَها الله لخاتم المرسلين، وجاوره بها من الخلفاء الراشدين أبو بكر الصديق نعم الوزير ونعم الرفيق، لم يفارقه ليل نهار، وهو ثاني اثنين إذ هما في الغار، وأبو حفص عمر الفاروق، أعزَّ اللهُ به الإسلام وقام في الأمة خير قيام.

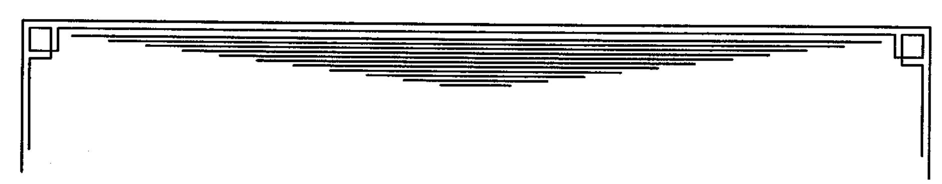
مواطن تورث البهجة، وتثير الدهشة، وتجعلك أيها الزائر الكريم في حاجة لمن يصحبُك مدة إقامتك يرشدك إلى ما تريد، ويوضح لك ما يخفى

عليك، مما تحب أن تقف عليه وتلم به مما ينفعك في عاجل أمرك وآجله، وتحظى بطيب الجوار وفضل المقام.

وقد رافقناك في أداء مناسك الحج نقتفي آثار المصطفى ﷺ في حجة الوداع سائلين الله أن يجعلها حجة مبرورة ومساعي حميدة مشكورة.

وها نحن بالمدينة المنورة نتلقاك لنرافقك مدة إقامتك وسنرافقك برفق ونصحبك بلطف ونوجهك بنصح، لما لك علينا من حق، وعلينا في ذلك من واجب، فهَلمَّ معنا على بركة الله.





منزلة هذه الزيارة

أولاً: لنتحدث معك عن منزلة هذا العمل وثمرة هذه الرحلة المباركة لتكون على بيّنة منها وتوطن نفسك عليها.

فاعلم أولاً أنها ليست فرضاً عليك، ولكنها فضل من الله ساقه إليك، وإن مقدمك إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام لفضل الصلاة في مسجده ﷺ، وشرف السلام على سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه وعلى صاحبيه الصديق والفاروق رضوان الله تعالى عليهما ورحمته وبركاته، وعلى آل بيته وصحابته الطيبين الطاهرين؛ لهي من أعظم القرب إلى الله تعالى باتفاق المسلمين. سواء كانت مع رحلة الحج أو كانت في رحلة مستقلة فإنها لتشد إليها الرحال، وينفق فيها اليسير والكثير من المال، كما قال ﷺ: «**لا تشدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الأقصى، والمسجد الحرام**»(١) وفضلُ الصلاة في مسجده ﷺ بألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام(٢)، والفضل الذي لا يسامى، والشرف الذي لا يدانى في كرامة الله للزائرين الذين يُسَلِّمون على النبي ﷺ فيردّ الله تعالى عليه روحه فيرد عليهم السلام.

ثم إنك بمقدمك هذا تجدد عهدك بسلف الأمة الذين آووا ونصروا. وتخطو بأقدامك في ربوع تلك الديار التي جمعت خير أمة أخرجت للناس، من المهاجرين الأولين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون. وتشاهد منازلَ وديارَ الذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في

---

(١) أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (١١٩٠)، ومسلم (١٣٩٤).

صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون.

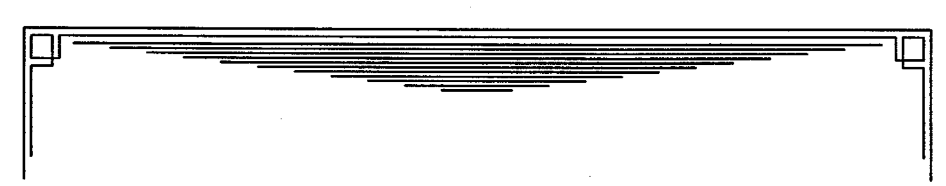
هذه هي ديار أولئك الأبرار، فلتكن خطواتك فيها ائتناس، وخطراتُ نفسك فيها اقتباس، ومدارستك فيها إحياء لما اندرس عندك من سنّة نبيك ﷺ، وتجعل ما استطعت سيرة أهلها الأولين نهج حياتك الأفضل، وتعود إلى أهلك ما استطعت المسلم الأمثل.

ولنا معك جولة في رحابها، ومواقف على معالمها، مما ثبت أنه ﷺ قد أتاها، وسنتحدث معك عن كل موطن عند الوصول إليه إن شاء الله.

ثانياً: اعلم أن لهذه الزيارة آداباً بها تتحقق أهدافك وتصل إلى غايتك.

نقدم لك أهمها فيما يأتي بعون الله.





عند مقدمك إلى المدينة

نبدأ معك من حين وصولك إلى المدينة المنورة:

قبل أن تطأ قدماك أرض المدينة تتراءى لك معالمها، سواء كنت في الجو بالطائرة أو بالبر بالسيارة ولا شك أن أول مشاهدتك لتلك المعالم تثير شعورك وتزكي شجونك، فتتملكك العاطفة وتود لو طرت إليها بجناحي الشوق والاشتياق.

ولم تكد تصبر حتى تصل فلربما تطغى عليك العاطفة فلا تلام ولا تعاتب على ذلك، فلربما كان ﷺ إذا دنا من المدينة أسرع المسير إليها، ولكن يجب أن لا تترك للعاطفة العنان كما يفعل بعضُ العوام فيصفق أو يُهلل والنسوة يزغردن، وكل ذلك مغاير لما يجب، بل تُكبر وتسبح، وتحمد الله وتصلِّي وتسلِّم على رسول الله ﷺ.

وبعد دخولك المدينة

هل تعمد إلى المسجد النبوي للسلام على رسول الله ﷺ أم إلى منزلك لتؤمن متاعك وتصلح من شأنك بعد طول سفر؟

لقد حدث هذا وذاك من وفد عبد القيس إلى المدينة سنة تسع عام الوفود فيما تحكيه كتب السيرة:

بينما رسولُ الله ﷺ يُحدِّث أصحابه إذ قال لهم: «**سيطلعُ من هاهنا ركبٌ هم خيرُ أهل المشرق**». فقام عمر فتوجَّه نحوَهم، فتلقى ثلاثة عشر راكباً، فقال: من القوم؟ فقالوا: من بني عبد القيس. قال: فما أقدمَكم هذه البلاد؟ التجارة؟ قالوا: لا. قال: أما إن النبيَّ قد ذكركم آنفاً، فقال خيراً. ثم مشوا معه، حتى أتوا النبيَّ ﷺ، فقال عمر للقوم: وهذا صاحبُكم الذي تُريدون، فرمى القومُ بأنفسهم عن رِكابِهم، فمنهم من يمشي، ومنهم من يهرول، ومنهم

من يسعى، حتى أتوا رسول الله ﷺ، فأخذوا بيده فقبَّلُوها.

وتخلّف الأشجُّ في الركاب حتى أناخَها، وجمع متاعَ القوم، ثم أخرجَ عيبتَه، وأخذ ثوبين أبيضين فلبسَهما، ثم جاء يمشي حتى أخذَ بيد رسول الله ﷺ فقبَّلها. فقال له رسول الله ﷺ: «**إن فيك خِلّتين يحبُّهما اللهُ ورسولُه: الحِلْمُ والأناة**». فقال: جبل جبلت عليهما أم تخلقا مني؟ قال: «**بل جبل**». فقال: الحمد لله الذي جبلني على ما يُحبُّ الله ورسوله(١).

وفي بعض الروايات: «أن النبيَّ ﷺ لما رآه مقبلاً أفسحَ له مكاناً بجانبه وأدناه منه، ثم قال له ذلك».

فهذا الوفد حملَه الشوق على أن ألقوا بأنفسهم عن رواكبهم وتركوها غير معقلة، وتركوا أمتعتهم غير مرتبة، وأسرعوا إلى رسول الله ﷺ ما بين مهرول وماش، ومن يسعى سعياً، فما لامهم ولا عتب عليهم. ولكن أفهمهم بلطفٍ في ملاطفته لصاحبهم وامتداحه على الحلم والأناة.

وهذا الأشجُّ كبحَ جماح العاطفة، والتزمَ الحِلْمَ والأناة، فعقل الإبلَ حفظاً من التسيب، وجمع متاع أصحابه ورتَّبه حفاظاً عليه من الضياع، وعمد إلى ما يجمله ويذهب عنه وعثاء السفر وتفثه، ليقدم على رسول الله ﷺ بكل حفاوة وإجلال، فاستخرج خير ثيابه وبالتالي اغتسل أو تغسل، ثم مشى مشية الحليم المتأني حتى أتى مجلس رسول الله ﷺ وهو على أحسن ما يستطيع لذلك، فكان منه ﷺ أن أشار بعمله هذا أو أثنى عليه أمام رفقائه بما يوضح لهم المنهج الأفضل في ذلك.

وهكذا أنت أيها الزائر الفاضل أولى لك أن تبدأ بمنزلك ومحل سكنك،

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٨٧) ـ مختصراً ـ والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٣٤٥/ ح٨١٢) ـ مطولاً ـ، وضعّفه الألباني في تعليقه على الأدب المفرد وقال: في سنده جهالة وفي متنه نكارة.
ولكن أخرج البخاري في الأدب المفرد (٥٨٤ ـ ٥٨٥ ـ ٥٨٦) قول النبي ﷺ للأشج: «**إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**» من طرق أخرى، وصححها الألباني.
وأخرج البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧) قصة لقاء النبي ﷺ بوفد عبد القيس.

وتؤمن متاعك وتبدل ثيابك، وتأتي إلى المسجد النبوي الشريف، وأنت على أحسن ما يتيسر لك من حسن الهيئة وحسن السمت.

عند دخول المسجد

فإذا وصلت إلى باب المسجد، فإنَّ السنة أن تقدمَ رجلك اليمنى(١)، وتقول: بسم الله والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنبي وافتح لي أبواب رحمتك. وإذا خرج قال: بسم الله والسلام على رسول الله اللهم اغفر لي ذنبي وافتح لي أبواب فضلك(٢). ولمسلم والنسائي ما يبين أنها سنة الدخول لكل مسجد، لما روي عنه ﷺ أنه قال: **«إذا دخلَ أحدُكم المسجدَ فليقلْ: اللهم افتحْ لنا أبوابَ رحمتِك، وإذا خرج قال: اللهم إني أسألُك من فضلِك»**(٣) والأفضل أن يجمعَ بين التسمية والصلاة والسلام على رسول الله.

وجاء أيضاً أنه ﷺ كان إذا دخلَ المسجد قال: **«أعوذ بالله العظيم ووجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم»**، وقال: **«فإذا قال ذلك، قال الشيطان: حُفظ مني سائر اليوم»**(٤).

مجمل الدعاء عند دخول المسجد هو: بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك. أعوذ بالله العظيم ووجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

---

(١) أخرج الحاكم (١/٢١٨) عن أنس بن مالك أنه كان يقول: من السنة إذا دخلت المسجد أن تبدأ برجلك اليمنى، وإذا خرجت أن تبدأ برجلك اليسرى. وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٤٧٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٧٧١ ـ ٧٧٢ ـ ٧٧٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١/١٢٨ ـ ١٢٩).

(٣) أخرجه مسلم (٧١٣)، والنسائي (٧٢٩).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٦٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٩١).

بعد الدخول إلى المسجد تأتي بتحية المسجد

عملاً بقوله ﷺ: **«إذا أتى أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يُصلِّي ركعتين»**(١) وهذه سنّة لكل مسجد، فإذا صادف دخوله وجود صلاة فريضة فصلَّى الفريضة أجزأته عنها.

والداخل إلى المسجد النبوي للسلام على رسول الله ﷺ وإن كان لن يقعد إلا بعد أن يُسلِّمَ فلا يذهب للسلام حتى يُصلِّيَ التحية، لحديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه، أنه دخلَ المسجدَ فوجدَ النبيَّ ﷺ جالساً بين أصحابه، فجلسَ معهم، فقال له النبيُّ ﷺ: **«ما منعكَ أن تركعَ ركعتين قبلَ أن تجلس؟»** قال: رأيتُك جالساً والنَّاسُ جلوس. فقال ﷺ: **«إذا دخلَ أحدُكم المسجدَ فلا يجلسْ حتى يُصلِّيَ ركعتين»**(٢). وقد أمرَ النبيُّ ﷺ الرجلَ الذي دخلَ والنبيُّ يخطبُ فجلسَ قبلَ أن يُصلِّي فقال له: **«قم فاركعهما وتجاوز فيهما»**(٣).

وجاء عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قدم من سفر فجاء إلى رسول الله ﷺ يُسلِّمُ عليه وهو بفِناء المسجدِ، فقال: **«أدخلتَ المسجدَ فصليتَ فيه؟»** قال: قلت: لا. قال: **«فاذهبْ فادخلِ المسجدَ وصلِّ فيه ثم ائتِ فسلِّم عليَّ»**(٤).

ولهذا كانت تحية المسجد قبلَ السَّلام على النبيِّ ﷺ ولو لم يجلس قبلَها، وأكَّد العلماءُ ذلك بأن تحيَّةَ المسجد حقٌّ لله تعالى، والسلام على النبي حقٌّ للنبي ﷺ، وحق الله مقدم على حق غيره.

أين يُصلِّي تحيّة المسجد؟

كلُّ قادم إلى المسجد النبوي تدفعُه الرغبة إلى الصلاة في الروضة المطهرة، وهذا واضح، فإن كانت خالية ولا زحامَ فيها فلا مانع من ذلك،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٤)، ومسلم (٧١٤).

(٢) أخرجه مسلم (٧١٤).

(٣) أخرجه مسلم (٨٧٥).

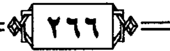
(٤) أخرجه البخاري (٢٠٩٧)، ومسلم (٧١٥) بنحوه.

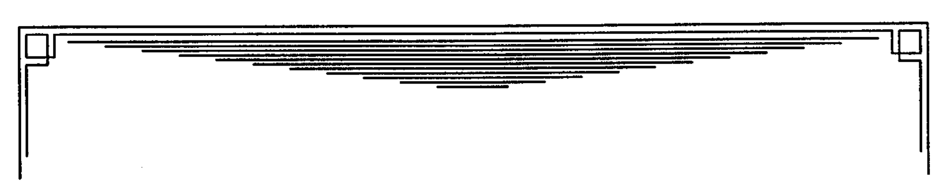
أما إذا كانت مزدحمة ولا تتأتى الصلاةُ فيها إلا بمزاحمةِ المصلين والمرور بين أيديهم ومدافعة بعضهم لبعض، وبخاصة مع وجود النساء فلا ينبغي أن يزاحمَ عليها، وليصلِّ تحية المسجد في أي مكان تيسر له منه، وقد ذكرتُ في ركعتي[1] الطواف أن السُّنة فيها خلف المقام، فإذا كان زحاماً صلَّاهما حيثُ أمكن من المسجد، فهكذا هنا، بل هنا أولى، لعدم التنصيص على مكان معين.

فإذا صلَّاهما مشى بسكينةٍ ووقار إلى جهة المواجهة للسَّلام على رسول الله ﷺ وعلى صاحبيه الكريمين رضوان الله تعالى عليهما وعلى صحابته أجمعين، ملتزماً آداب الزيارة على ما سنوضحه لك إن شاء الله.



(١) انظر ص٢٠٧.





آداب الزيارة

وكيفية السَّلام على رسول الله ﷺ وعلى صاحبيه

أولاً: أين وكيف يقف للسَّلام على رسول الله ﷺ؟

أما أين يقف فقد اتفقوا على أن من أراد السَّلامَ على رسول الله ﷺ وصاحبيه فليأت إلى المواجهة الشريفة سواء جاء من جهة باب السلام أو من جهة باب جبريل، فيقف مستقبلاً الحجرة الشريفة في مقابلة النبي ﷺ، وذلك في منتصف الشباك الأوسط، جاعلاً القبلة خلفَه على الأصل في آداب المحادثة، غير ملاصقٍ للشبك ولا مجافياً له. فإن كان الزحام شديداً فليؤخر إلى ساعةٍ أقل زحاماً.

أما كيف يقف فليس هناك كيفية منصوصة، إلا الكيفية التي تتم عند التوقير والإجلال، بدون أن يكونَ في هيئة ما هو من هيئات الوقوف بين يدي الله، فلا ينحني كهيئة الراكع ولا شبهه، ولا يضعُ يدَه اليمنى على يده اليُسرى كهيئة الصلاة، لأن ذلك كله لله تعالى، وما كان للهِ فلا يصحُّ لغير الله، ولا يرضاهُ رسولُ الله ﷺ.

ثانياً: ماذا يقول في السَّلام على رسول الله ﷺ؟

الأصلُ في ذلك ما جاء في تحيّة الإسلام: السلام عليكم ورحمةُ الله وبركاته، وقد جاء في آداب السَّلام عامة أن رجلاً جاء إلى الرسول ﷺ وهو مع أصحابه، فقال: السَّلام عليكم. فقال ﷺ: **«عَشْرٌ»** ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله. فقال ﷺ: **«عشرون»** فجاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فقال ﷺ: **«ثلاثون»**[1]، فقالوا: يا رسول الله ما

---

(١) أخرجه ـ إلى هذا الموضع ـ أبو داود (٥١٩٥) من حديث عمران بن الحصين، والبخاري في الأدب المفرد (٩٨٦) من حديث أبي هريرة. وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٧١٠، ٢٧١٢).

عشرٌ؟ وما عشرون؟ وما ثلاثون؟ فقال: «**الأول قال: السلام عليكم، فهي كلمة، وهي حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، والآخر زاد ورحمة الله فكان له عشرون، والآخر زاد ثالثة، فكان له ثلاثون**»[١].

وأورد النووي أن عبد الله بن عمر كان يقتصرُ على ذلك[٢]، ونحن في التشهد في صلاتنا نقول: السلام عليك أيُّها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاته، ولا تنسَ ما تقدَّم من أن الواجب علينا الآن هو ما كان واجباً على أصحابه معه، ولم يكونوا يزيدون على ذلك.

ولكن كما أسلفنا أيضاً أن للقادم فرحة وفي نفسه بهجة وفي قلبه تلهف كمن لقي غائباً طالت غيبته، فإن سلامه عليه لن يكون كسلامه على من لم يغب عنه، ولذا فإن البعض يزيد عبارات مقبولة كقولهم: السلام عليك يا خيرَ خلق الله، يا خاتم رسل الله، أشهدُ أنك بلَّغت الرسالة وأديت الأمانة، وجاهدت في الله حقَّ جهاده، اللهم آتِه الوسيلةَ والفضيلةَ والدرجةَ العالية الرَّفيعة، ونحو ذلك مما هو حق وثابت له ﷺ، والتأسي بالسلف كله خير وبركة.

السلام على أبي بكر رضي الله عنه:

ثم ينتقل إلى اليمين قدر ذراع فيسلم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يُسلِّم فيقول: السلام عليكَ يا أبا بكر الصديق ورحمة الله وبركاته[٣].

وبعض الناس يزيد قوله: يا خليفةَ رسول الله، يا من أنفقت مالك كلَّه

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٦/ ٧٥/ ح٥٥٦٣) بنحوه من حديث سهل بن حنيف. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٧١١): صحيح لغيره.

(٢) أخرجه إسماعيل القاضي في (فضل الصلاة على النبي ﷺ، ص٨٢) عن نافع: أن ابن عمر كان إذا قدم من سفر دخل المسجد، ثم أتى القبر فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه. وقال الألباني: إسناده موقوف صحيح.

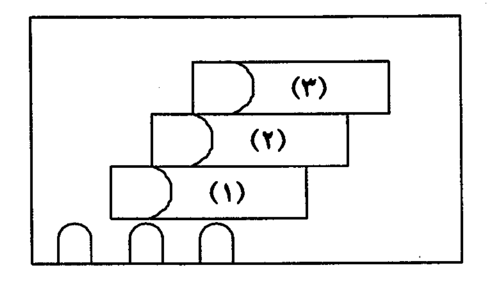
(٣) انظر الحاشية السابقة.

في سبيلِ الله، يا ثاني اثنين إذ هما في الغار، أشهد بأنك نصحتَ للأمة، ونحو ذلك.

السلام على أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه:

ثم تنتقلُ قدر ذراع إلى اليمين وتسلِّم على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وكان ابن عمر إذا سلَّم عليه يقول: السلام عليك يا أبتي(١). وبعضُهم يزيد فيقول: السَّلامُ عليك يا أميرَ المؤمنين عمر بن الخطاب يا من نطقت بالحق والصواب، يا من سويت بين الرعية، وقسمت بالسوية، أشهدُ أنك أديت الأمانة وأرضيت ربَّك، ونحو ذلك.

وسبب الانتقال إلى اليمين ذراعاً ثم ذراعاً هو وضع الخلفاء مع النبي ﷺ هكذا:



رأس أبي بكر عند كتف رسول الله ﷺ، ورأسُ عمر عند كتف أبي بكر رضي الله عنهما، وأنت تقفُ أولاً تجاه رسول الله ﷺ في محاذاة الوجه الشريف، ثم تنتقل إلى اليمين قدرَ ذراع ليكونَ موقفك تجاه وجه أبي بكر رضي الله عنه وهكذا.

الموقف للدعاء:

يعتبر العلماء سلامك هذا على الرسول ﷺ وصاحبيه من أفضل القرب إلى الله، يكون الدعاء عقبها مظنة الاستجابة، فإذا اجتمع فضلُ السلام وفضيلة المكان كان أعظم في الرجاء، ولكن للدعاء آدابه لأنه توجه إلى الله تعالى بالسؤال والطلب، وأهم آدابه استقبال القبلة، لأنها سنّة العبادات كلها،

---

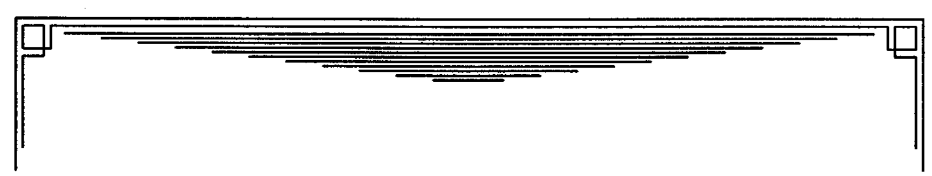
(١) انظر الحاشية السابقة.

والدعاء مخ العبادة، وكذلك الإخلاص والإنابة إليه سبحانه والإلحاح في الطلب، وتدعو وأنت موقن بالإجابة. ولهذا عليك بعد الفراغ من السلام كما تقدم أن تتجه إلى القبلة وتتخيَّر مكاناً خالياً من الزحام، أهدأ لنفسك وأجمعُ لفكرك وأكثر طمأنينة لقلبك، ثم ترفع أكف الضراعة إلى مولاك، وتسأل كل ما ترجوه وتؤمله، ولا تستعظم على الله شيئاً، ولا تستح أن تسألَ الله القليل والكثير، فقد جاء عن نبي الله موسى: أنه قال: يا ربِّ إنه لتبدو لي الحاجة وأستحي أن أسألَك، فقال الله له: يا موسى! سلني كل شيء، سلني مِلْحَ عجينك، وعَلَفَ دابَّتِك، وشِراكَ نعلك. وليس الأمر مرتبطاً بما تقرأ من كتاب الدعاء، ولا ما تردده وراء دليل من الأدلاء، بل انظر حاجتك من حوائج الدنيا والآخرة، وأعظمها الشفاعة وورود الحوض. فتقول: اللهم ارزقني شفاعة نبيك محمد ﷺ، وأوردني حوضه واسقني من يده شَربة هنيئة لا نظمأ بعدَها أبداً، اللهم وفقنا لاتباع سنته وأحينا وأمتنا على مِلّته، واهدنا صراطَك المستقيم، حتى نلقاك وأنت راضٍ عنا.. إلى آخر ما هناك من دعوات صالحة لك ولأحبابك وأهلك وأولادك وعموم المسلمين.

ولا تنسَ أن تختم دعاءَك بالصَّلاة على النبيّ ﷺ فإنه حري أن يُستجاب لك(١).



(١) يشير المؤلف رحمه الله إلى قوله ﷺ: «كل دعاء محجوب حتى يُصَلَّى على النبي ﷺ»، وصححه بمجموع طرقه وشواهده الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٣٥).



إبلاغ السلام لرسول الله ولصاحبيْه

وهو أن بعض الناس لفرط اشتياقهم لرسول الله ﷺ إذا رأى إنساناً امتن الله عليه بالسفر إلى المدينة سواء سفراً مستقلاً أو مع الحج. قالوا له: سلِّم لنا على رسول الله ﷺ أو «أبلغه عنا السلام» فهل يقوم الإنسان بإبلاغ السَّلام أم لا؟

يرى كثير من العلماء أنه يبلِّغه، وأن عمر بن عبد العزيز كان يُرسل البريدَ بالسلام على رسول الله ﷺ.

وعليه فبعد أن تسلِّم على رسول الله ﷺ وقبل أن تنتقل للسلام على أبي بكر تقول: السَّلامُ عليك يا رسول الله من فلان بن فلان، السَّلامُ عليك ورحمةُ الله وبركاته.

ثم بعد أن تُسلِّمَ على أبي بكر تقول: السَّلامُ عليك يا أبا بكر الصديق من فلان بن فلان ورحمة الله وبركاته، وهكذا عمر رضي الله عنه.

وبعض العلماء لا يرى ذلك، ويقول: صحَّ الحديث عنه ﷺ بأنه قال: **«صَلُّوا عليَّ حيثُ كنتم**(١)**؛ فإن لله ملائكة سيَّاحين يبلغونني عن أمتي السلام»**(٢).

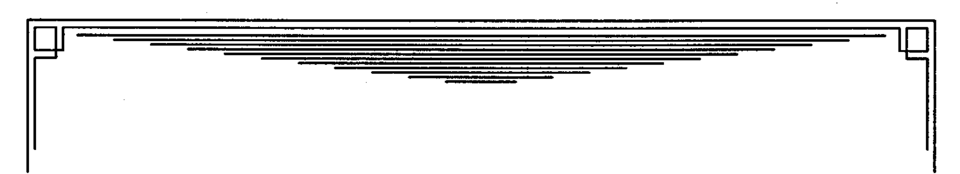
فقالوا: من أراد الصلاة والسلام عليه ﷺ فليصلِّ وليُسلِّم حيث هو، فإن الملائكة المختصين بذلك سيبلِّغونه، والراجح الأول إن شاء الله.



---

(١) أخرجه إسماعيل القاضي في (فضل الصلاة على النبي ﷺ، ص٣٤)، وصححه الألباني بطرقه وشواهده في تعليقه على رسالة إسماعيل القاضي.

(٢) أخرجه إسماعيل القاضي في (فضل الصلاة على النبي ﷺ، ص٣٤)، والنسائي (١٢٨٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢١٧٤).



التردد على المواجهة وتكرار الزيارة

ينقسم الناس في ذلك إلى قسمين: قسم مقيم ومواطن في المدينة، سواء كان من أهلها أو ساكن فيها لغير الزيارة، وقسم وافدٌ إليها مدة يسيرة ويرحل عنها.

وقد نقل عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة رَحِمَهُ الله التفصيل والتفريق بين القسمين؛ فكره لأهل المدينة أنه كلما دخل أحدُهم إلى المسجد أن يقف ويُسلِّم، أي في المواجهة، وقال: إنما ذلك للغرباء. وقال: لا بأس لمن قدم منهم، أي من أهل المدينة من سفر أو خرجَ إلى سفر أن يقفَ عند قبر النبيِّ ﷺ فيُصلِّي عليه، ويدعو لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، نقل ذلك النووي في منسكه.

وقال الباجي: فرّق مالك بين أهل المدينة والغرباء لأن الغرباء قصدوا لذلك وأهل المدينة مقيمين فيها.

ونقل القاضي عياض في «الشفاء» قول مالك في كتاب محمد: ويُسلِّم على النبي ﷺ إذا دخل وخرج يعني في المدينة، وفيما بين ذلك. وقال مالك في «المبسوط»: وليس يلزم من دخل المسجد وخرج منه من أهل المدينة الوقوف بالقبر، وإنما ذلك للغرباء. وقال فيه أيضاً: لا بأس لمن قدم من سفر أو خرجَ إلى سفر أن يقف عند قبر النبي ﷺ فيصلِّي عليه، ويدعو له ولأبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

فقيل له: إن ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يُريدونه، ويفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر، وربما وقفوا في الجمعة أو في الأيام الأخرى المرة أو المرتين أو أكثر عند القبر فيسلِّمون ويدعون ساعة. فقال: لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا وتركُه واسع، ولا يصلح آخر هذه

الأمة إلا ما أصلح أوَّلَها، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك، ويكره إلا لمن جاء من سفر أو أراده.

ونقل عن الشافعي: قال ابن عجلان لبعض الأمراء: إنك تطيل ثيابك، وتطيل الخطبة، وتكثر المجيء إلى قبر رسول الله ﷺ. وسئل عن القريب فقال: قد أكثر الناس من هذا فإذا لم يمر عليه فهو في سعة من ذلك. وسئل عن القريب يأتي قبرَ النبي ﷺ كلَّ يوم، فقال: ليس من الأمر، ولكن إذا أراد الخروج، أي: يأتي للوداع عند الخروج.

والخلاصة:

والخلاصة أن العلماء يفرقون في تكرار الزيارة للموجود بالمدينة بين المقيم الساكن بها، وبين الوافد القادم إليها، وحكم كل منهما هو عدم استحباب التكرار والتزامه، وأن للمقيم عند السفر وعند العودة من سفر.

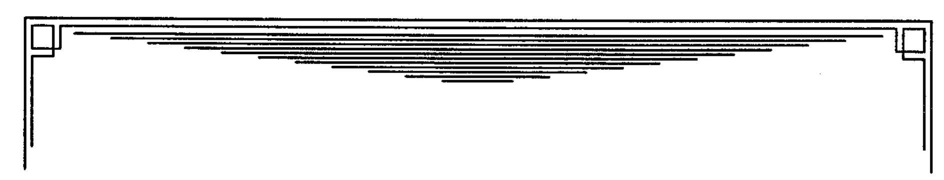
وللقادم عدم الإكثار كل يوم، وله في الأمر سعة.

وللجميع من مقيم وقادم أنه إذا مرَّ من المواجهة في طريقه إلى الصلاة أو خروجه من المسجد، أن كلَّ من مَرَّ من هناك فإنه يُسَلِّم عند مروره، ولو لم يقف في المواجهة.

والأصل في ذلك هو فعل ابن عمر رضي الله عنهما، كان إذا أراد سفراً أو قدم من سفر جاء فوقف في المواجهة وسلَّم.

وكذلك نقل عن مالك في شرح «العتبية» لابن رشد أنه سئل عن المار بقبر النبي ﷺ أترى أن يُسلِّم كلَّما مرَّ قال: نعم، أرى ذلك عليه أن يُسلِّم كلما مرَّ به، وقد أكثر الناس من ذلك، فإذا لم يمر به فلا أرى ذلك.





فصل في
آداب عامة أدَّب الله بها المؤمنين
في حق رسول الله ﷺ

لقد أدَّبَ الله تعالى المؤمنين في حق رسول الله ﷺ آداباً عامة أينما كانوا، وفي حالات متعددة لرسول الله ﷺ، وجوانبه المتعددة التي هي:

١ ـ جانب الرسالة والتبليغ عند الله تعالى.

٢ ـ جانب النبوّة وكرامته عند الله.

٣ ـ جانب بيته كربِّ أسرة.

٤ ـ جانب غيبته عنهم.

وكل هذه الجوانب مع تعددها فقد اشتملت عليها أوائل سورة الحجرات التي تُعدُّ بحق سورة الآداب، آداب المؤمنين مع الله، ومع رسول الله، ومع الناس جميعاً حاضرهم وباديهم. نسوق مجملها تتمة لآداب الزيارة، وبياناً لعموم التأدب معه ﷺ. والسورة الكريمة، سورة الحجرات بدأت بحق الله تعالى وعطفت عليه حقَّ الرسول ﷺ، وهو ما نعنيه بجانب الرسالة، لأن الرسالة إبلاغ عن الله تعالى.

١ ـ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ①﴾ [الحجرات: ١].

فنهى المؤمنين أن يقدِّموا بين يدي الله في التشريع، وبين يدي رسولِه في التبليغ بأي أمر كان في الدين سواء على ما جاء في كتاب الله أو في سنّة رسول الله ﷺ، وألزمَهم بالاتباع ونهاهم عن الابتداع. وقد بيَّن في آية أخرى أن من تقدم بأمر في الدين لم يشرعه الله أنه يكون كمن نصبَ نفسَه شريكاً

مع الله، لما في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] لأن أمر الخلق إنما هو للخالق وحده، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] فلا يحق لأحد قط أن يشرِّع للخلق ولا يدّعي أن له حقاً في ذلك.

أما الرسول ﷺ فهو مبلِّغ عن الله وما أمر به فهو عن الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣ ـ ٤] ولذا ألزم الأمة بالأخذ بما جاء به والكف عما نهى عنه كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧] ولذا قال ﷺ: **«كل أمر ليس عليه أمري فهو رد»**[1]. أي مردود وهذا الباب هو أصل الاتباع وعنوان المحبة الصادقة وبه حفظ الدين وعليه قوله ﷺ: **«عليكم بسنتي وسنّة الخلفاءِ الراشدين عَضُّوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكُم والمحدثات في الدين، فإنَّ كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»**[2].

وعلى الأمة كلها عند التنازع فيما بينها أن تردَّ الأمر لله ولرسوله. ورده لله إلى كتابه الذي قال تعالى عنه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وإلى رسوله ومن بعد حياته إلى سنته. وقد قال ﷺ: **«تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً؛ كتابَ الله وسنتي»**[3]. وقال ﷺ: **«ألا إنه قد أُوتي كلُّ نبي ما على مثله آمنَ البشرُ**[4]**، وقد أُوتيت الكتابَ ومثلَه معه»**[5] يعني سنته، وهي المفسرة والمبينة لما أُجمل في كتاب الله تعالى.

٢ ـ ثم يأتي كالأدب في حقه ﷺ في جانب النبوة، وهذا الجانب شديد الارتباط بموضوع الزيارة، فقال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، وابن ماجه (٤٢)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢٤٥٥). وأما قوله ﷺ: **«وكل ضلالة في النار»** فأخرجه النسائي (١٥٧٨) وصححه الألباني في خطبة الحاجة (ص٣٠).

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٩٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٣٧).

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

(٥) أخرجه أبو داود (٤٦٠٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٤٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات: ٢].

وهذا الأدب عام في الزيارة وغيرها، فكانوا لا يرفعون أصواتهم حين التحدث معه، ولو كان بالسلام أو الكلام، بل ولا يرفعون أصواتهم بحضرته ولو بتلاوة القرآن، فكان عمر إذا حدّث رسول الله ﷺ يكون حديثه أخو السِّرار[1]، أي كأنه يُفضي إليه بسر، حتى إن رسول الله ﷺ ليقول له: «**ارفع صوتك أسمع قولك**». وذلك مخافةً منه أن يحبطَ عمله برفع صوته عند رسول الله.

فكذلك اليوم عند السلام عليه ﷺ، بل وعند مجالس دروس أحاديثه الشريفة توقيراً لها، وفي مسجده لئلا يدخل في مضمون هذه الآية.

وقد جاء عن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلين يتحدثان بصوت مرتفع، فقال: عليَّ بهما. فجيء بهما ترعد فرائصهما خوفاً من عمر. فلما رآهما، قال: أغريبان أنتما؟ قالا: نعم، من أهل الطائف. فقال: لو كنتما من أهل هذه البلدة لأوجعتكما ضرباً، أترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ[2]؟!

وجاء عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة رحمه الله، أنه لما كثر الناس في المسجد حوله في الدرس، قيل له: اتخذ مبلِّغين يُبَلِّغون عنك ما تقولُ لمن في أطراف المجلس. قال: لا، إني لأخشى أن أدخلَ في هذه الآية ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ الآية.

وكان يقول: إن حرمته ﷺ ميّتاً كحرمته حيّاً.

ولهذا فإن على كل من أرادَ أن يُسلِّم على رسول الله ﷺ في المسجد أن يأتي إلى المواجهة ويُسلِّم بصوت يُسمع نفسَه فقط، ولا يرفعُ صوتَه مخافة أن يحبطَ عملُه وهو لا يشعر.

٣ ـ ثم بيَّن سبحانه أن غضَّ الصوت عند رسول الله ﷺ من تقوى القلوب، وما لهم في ذلك عند الله، فقال:

---

(١) أخرجه البزار (١٥٠٥ ـ مختصر زوائده)، وفيه أن القائل هو أبو بكر وليس عمر. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٨/٧): رواه البزار، وفيه حصين بن عمر الأحمسي، وهو متروك، وقد وثقه العجلي، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٠).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحجرات: ٣].

٤ ـ ثم جاءَ الأدب معه ﷺ في بيته مع أسرته، وحرمة بيته صلوات الله وسلامه عليه، فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [الحجرات: ٤ ـ ٥].

والحجراتُ جمع حجرة، وهي ما بُني على وجه الأرض بدون تكرار، والغرفات جمع غرفة وهي ما بني فوق الحجرة، أي الطابق العلوي. فإذا كان البيت من طابقين قيل للطابق السفلي حجرات وللطابق العلوي غرفات. فكان مسكن رسول الله ﷺ حجرات، أي طابقاً واحداً. مع أنه كان بالمدينة بعض البيوت من طابقين، كما جاء في بيت أبي أيوب رضي الله عنه لما نزل عندَه رسول الله ﷺ في أول مجيئه في الهجرة، وقبلَ أن يبنيَ مسكنَه(١).

وسبب نزول الآية الكريمة أن قوماً أتوا المسجدَ ساعة القيلولة بين الظهر والعصر، فلم يجدوا رسول الله ﷺ بالمسجد، ولم يصبروا حتى يخرج من بيته فنادوه من وراء الحجرات: أن اخرجْ إلينا نحادثك. فعاب الله عليهم ذلك وعاتبهم فيه(٢). لأنه ﷺ لم يكن يحتجبُ عن الناس في الأوقات العادية، ولأنه يخرج لزوماً للصلوات الخمس. ووقتُ القيلولة حق له ولآل بيته، كما هو حقٌّ عام لكل إنسان، فما كان لهم أن يُنادوه فيما ليس ملجئاً لذلك، حيث كان مجيئهم لمفاداة أُسارى لهم عند المسلمين، ولكنهم كما وصفهم الله أكثرُهم لا يعقلون، والله يدافع عنه في حق بيته، ومثلُه ما جاء في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣ ـ ٥٤].

أي: لا في داخل بيته ولا في خارجه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٥٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٦/ ١٤٠).

ومعلوم أن من وافر الأدب أن لا تنادي إنساناً من وراء مسكنه، بل إذا كانت لك إليه حاجة جئت إلى الباب وطرقت برفق فإن أذن لك دخلت وإلا رجعت، مع مراعاة الأوقات المناسبة لذلك. وهذا في حق عامة الناس فما بالك مع سيّد الخلق ﷺ.

ولهذا يخشى على أولئك الذين يقفون من بعيد، ويتجهون إلى جهة الحجرة، ويُسلِّمون على رسول الله ﷺ لتفريطهم في حقه ﷺ بعد الحضور إلى المواجهة ويُسلِّمون كما تقدم.

٥ ـ ثم يأتي الأدب في حقه ﷺ حال غيبته عنهم، حيث أن الله سيخبره بما يكون منهم فكأنه حاضر عندهم.

وذلك في قوله:

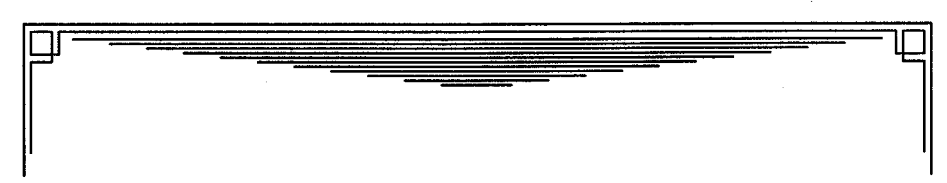
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٦ ـ ٧].

فالنداء الأول عام لجميع المؤمنين بالتثبت في الأخبار، ولكن سبب النزول خاص لحادثة وقعت زمن النبي ﷺ كانت تقتضي تأديب جماعة نقلت عنهم أخبار غير صحيحة، ثم جاء إعلامهم بوجود الرسول ﷺ فيهم، وبيان ما لو أطاعهم في كثير من الأمر، للحقهم من العنت ما يندمون عليه.

ويلاحظ أنه قال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: نبيّ الله، لأنّ الرسول هو موضع الرسالة والتبليغ، يتلقن الوحي ولن يتركه الله سبحانه من أن يخبره بما يقع منهم في غيبته.

ثم مضت السورة في آداب المجتمع الإسلامي كله في السلم والحرب جماعات وأفراداً، مما يطول إيراده هنا، وقد أفردنا السورة بمبحث في رسالة خاصة بها بتوسع، ويهمنا منها هذا القدر في عموم الأدب مع الله ومع رسول الله ﷺ.

وهذه الآداب هي التي ارتفعت بالأمة حتى أصبحت خيرَ أمة أخرجت للناس.



ما لا يجوز فعله في المسجد النبوي الشريف

أخي الحاج والزائر الكريم لقد صحبناك في هذه الرحلة المباركة وأرشدناك إلى ما ينبغي فعله والآداب التي أدّبنا الله بها.

وقد تعاهدنا على الصدق والنصح، فمن تمام النصح لك والصدق معك أن نبيّن لك ما لا يجوز فعله أثناء وجودك في المسجد النبوي الشريف لتحاذر منه وتبتعد عنه لتسلم لك رحلتك ويحفظ الله لك عملك ويعظّم لك أجرك.

وذلك نتيجة سنوات عديدة عاشرنا الحجاج والزوار فيها، وقد لمسنا أثر العاطفة عليهم، وتأثيرها في سلوكهم، فقد تدفعهم إلى فعل ما لا يجوز بنيّة حسنة وحسن مقصد، ولكن ذلك لا يعفيهم من المسؤولية أمام الله ولا يعفي طلبة العلم من واجب الإرشاد والنصح.

ولا يعفي العاطفة نفسها من المسؤولية، لأن عاطفة المسلم محكومة باتباع سنّة رسول الله ﷺ تابعة لها لا خارجة عليها كما في الحديث: **«والله لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»**[1].

وقد ذمَّ الله من اتخذ هواه قائداً له، فقال: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣].

ولهذا وجب نصحك بتجنب الآتي:

١ ـ نذكرك بعدم رفع الصوت عند السَّلام على رسول الله، والتحذير فيه من إحباط العمل كما تقدم.

٢ ـ الانحناء عند السلام، وكل هيئة من هيئات الصلاة.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب «السنة» (١٥)، وضعفه الألباني في ظلال الجنة.

٣ ـ استقبال الحجرة عند الدعاء لأن الدعاء قبلته الكعبة.

٤ ـ التمسح بالجدران والشباك والمنبر والأبواب التماساً للبركة. وهنا نقول لك: هذا الالتماس للبركة دعاك إليه نص من كتاب الله، أو سنّة رسوله ﷺ، أم العاطفة؟ إنها العاطفة.

٥ ـ المزاحمة عند السلام أو في الروضة أو عند المحاريب.

٦ ـ الجري عند الدخول من الأبواب، وخاصة لصلاة الصبح عند فتح باب السلام.

٧ ـ عدم المبالاة بالمرور بين يدي المصلين.

٨ ـ تقطيع الصفوف في الجماعة.

٩ ـ تخطي الرقاب للوصول إلى أوائل الصفوف أو المسجد القديم.

١٠ ـ الجلوس في مداخل المسجد مع وجود السعة في الداخل.

١١ ـ ومن أخطر ذلك الطواف بالحجرة كالطواف بالكعبة.

وإليك أقوال العلماء في ذلك:

الانحناء عند السلام

أولاً: الانحناء عند السلام. نقل السمهودي عن ابن جماعة أنه قال: قال بعض العلماء: إنه بدعة ويَظن من لا علم له أنه من شعار التعظيم، وأقبح منه تقبيل الأرض للقبر، لم يفعله السلف الصالح، والخير كله في اتباعهم.

ومن خطر بباله أن تقبيل الأرض أبلغ في البركة فهو من جهالته وغفلته، لأن البركة إنما هي فيما وافق الشرع وأقوال السلف وعملهم.

تنبيه:

الانحناء هنا يصدق بثني الرقبة وخفض الرأس، كما نبَّه صاحب نزهة الناظر. أما الركوع فمحرَّم وقد يفضي إلى الشرك في العبادة، عافانا الله وإياك.

التمسح بالجدران وبالشبك والأبواب والمنبر... إلخ

أخي الحاج، أخي الزائر.. لعله عالق بذهنك ما تشاهده في بعض المواطن من بعض العوام وبدافع من العاطفة، ومظنة في التماس البركة كثرة من يتمسح بالجدران ونحوها، ولا يشكُّ مسلمٌ قط في أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يلتمسون منه البركة سواء من شخصه بدعائه، أو لمسات يده، أو بإثارة من سؤره في طعام أو شراب، أو حتى عرقه أو شعره، كما حدثَ في حلق رأسه بمنى، وتقسيم شعره على الناس[1]. ونحن نقول: إننا لو وجدنا أي أثر منه ﷺ حقيقة لاكتحلنا به في أعيننا ملتمسين منه البركة، ونعبّر بصدق عن مدى محبته، وعاطفتنا إليه ﷺ.

ولكن لنحكّم العقل مع العاطفة، ونأتي إلى هذه الآثار الموجودة من جدران وشباك وباب وعامود ومنبر، ونتساءل هل لامست رسول الله ﷺ أو هو ﷺ لامسها، أو كانت من وضع يده، أو عاصرته، أو حتى عاصرت أصحابه.

إن الواقع لينادي بكل صراحة: إنها كلُّها وُضعت من بعده ﷺ لا بعشرات السنين بل بمئاتها.

وقد كان سلفُ الأمة رضوان الله تعالى عليهم أشدُّ حباً وأقوى عاطفة، وأحرص على التبرك به ﷺ، ولم يُنقل عن واحد منهم شيء من ذلك.

ومع هذا الشوق إليك نماذج من أقوال العلماء الأجلاء لتقف على الحقيقة: من ذلك ما جاء عند النووي رَحِمَهُ اللهُ في «المجموع» وفي منسكه قال: فرع: لا يجوز أن يُطافَ بقبره ﷺ وغيره. قالوا: ويُكره إلصاقُ الظهر والبطن بجدار القبر، قاله أبو عُبيد الله الحليمي وغيره.

قالوا: ويُكره مسحُه باليد وتقبيلُه. بل الأدبُ أن يبعد منه كما يبعد منه لو حضره في حياته ﷺ، هذا هو الصوابُ الذي قاله العلماء وأطبقوا عليه.

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٠٥).

ولا يُغتر بمخالفة كثيرين من العوام وفعلهم ذلك، فإن الاقتداء والعمل إنما يكون بالأحاديث الصحيحة وأقوال العلماء، ولا يلتفت إلى محدثات العوام وغيرهم وجهالاتهم.

وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: **«من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد»**[١]. اهـ.

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: اتبع طريق الهدى ولا يضرك قلّة السالكين، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين. ومَنْ خطرَ بباله أن المسحَ باليد ونحوه أبلغ في البركة فهو من جهالته وغفلته، لأن البركة إنما هي فيما وافق الشرع، وكيف تبتغي الفضل في مخالفة الصواب.

فهذا من أئمة الشافعية ومن علماء السلف يُحَذِّرُ من ذلك كله ويُبيِّن أن هذا هو قول العلماء، وأنهم مطبقون، أي متفقون عليه.

وقال ابن حجر الهيتمي: كما أجمعوا علىٰ تحريم الصلاة لقبره، (أي: متجهين ومستقبلين القبر الشريف) إعظاماً، كذلك أجمعوا على حرمة الطواف بقبره، لأن الطوافَ بمنزلة الصلاة.

وقال ابن قدامة، وهو من أئمة الحنابلة: «فصل» ولا يستحب التمسح بحائط قبر النبي ﷺ ولا تقبيله. قال أحمد: ما أعرف هذا. قال الأثرم: رأيتُ أهلِ العلم من أهل المدينة لا يمسُّون قبرَ النبي ﷺ، يقومون من ناحية فيُسَلِّمون. قال أبو عبد الله: وهكذا كان ابن عمر يفعل[٢].

قال: أما المِنبر فقد جاء فيه ـ يعني ما رواه إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن عبد القارئ ـ أنه نظر إلى ابن عمر، وهو يضعُ يدَه على مقعد النبي ﷺ من المنبر، ثم يضعُها على وجهه[٣]. المغني (٣/ ٥٦).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

(٢) تقدَّم تخريجه في فصل (ماذا يقول في السلام على رسول الله ﷺ).

(٣) ذكره ابن حبان في الثقات (٤/ ٩) في ترجمة إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن عبد القاري وقال عنه: يروي عن ابن عمر، روى عنه حمزة بن أبي جعفر. ولم يذكر فيه جرحاً أو تعديلاً. وكذلك قال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٢/ ١١١). فالرجل مجهول والقصة ضعيفة لا تصح.

فنراه ينقل لنا وبوضوح ما كان عليه أهل العلم بالمدينة في خصوص القبر، ولم يكن عليه آنذاك هذا الشبك الموجود حالياً، بل كان جدار حجرة عائشة رضي الله عنها، والجدار الذي بناه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وهو من وراء هذا الشبك الموجود بعدة أمتار، أما هذا الشبك فقد وضع بعد ذلك بمئات السنين.

وكذلك الحال فيما نقله عن ابن عمر من تبرُّك بمقعد النبي ﷺ على المِنبر، فإن ذلك كان بالنسبة للمنبر الذي كان ﷺ يخطبُ عليه مباشرة، وكان من الخشب، وكان ثلاث درجات، درجة يصعدها، ودرجة يضع قدميه الشريفتين عليها، والثالثة يقعد عليها، وقد احترقَ في حريق المسجد كما هو مبين في تاريخ المسجد النبوي الشريف، أما المنبر الموجود حالياً فهو من الرخام، ووُضع بعد عهد النبي ﷺ وبعد حريق المنبر الأول بمئات السنين.

ومع ذلك، فاستمع إلى ما نقله الإمام ابن تيمية من أئمة الحنابلة، إذ يقول: تنازع الفقهاء في وضع اليد على منبر سيدنا رسول الله ﷺ لمّا كان موجوداً، فكرهه مالك وغيره؛ لأنه بدعة. وذُكر، أي نُقل، أن مالكاً لما رأى عطاء فعل ذلك لم يأخذْ عنه العلم. ورخَّص فيه أحمد ـ يعني ابن حنبل ـ وغيره، لأن ابن عمر رضي الله عنه فعلَه[1]. وأما التمسح بقبر النبي ﷺ وتقبيله فكلُّهم كرهَ ذلك ونهى عنه، وذلك لأنهم علموا ما قصدَه ﷺ من مادة حسم الشرك وتحقيق التوحيد وإخلاص الدين لرب العالمين.

وأحسبك ستقول: أقبل ذا الجدار وذا الجدار ـ وما حُبُّ الديار شغفنَ فؤادي، ولكن حبُّ من سكنَ الديار، فأذكرك بأن هذه مقالة عاشق مادي، وأنت حبُّك لرسول الله ﷺ روحي.

وإن حقيقة محبتك إياه إنما هي في اتباعه ﷺ.

الزحام على المحاريب في المسجد النبوي

المحاريب جمع محراب وهو التجويف الذي يوجد في جدار المسجد من جهة القبلة علامة عليها، وهذه العلامة لم تكن موجودة زمن النبي ﷺ،

(١) لم يصح عنه. انظر الحاشية السابقة.

لأنك تعلم أن المساجد لم تكن موجودة إلا في الإسلام والنبي ﷺ لم يتخذ المحراب علامة للقبلة، وإنما اصطلح على هذه العلامة من بعده ﷺ بزمن.

وحيث تعين بهذه المحاريب موقف الإمام في الصلاة، فإن كل مسلم قدم إلى المدينة ودخل المسجد النبوي يسعى جاهداً ليصلي في موضع كان قد صلى فيه رسول الله ﷺ، وأقرب ما يصدق عليه ذلك هو المحراب الموجود الآن.

ولكنهم حفاظاً على سنّة رسول الله ﷺ وضعوا اللوحة على جهة اليمين من المحراب، مكتوب عليها هذا مُصلى رسول الله ﷺ، أي موضع صلاته.

فإذا حرصت على صلاتك في مصلى رسول الله ﷺ، فلا يكون بصورة مزاحمة بل ومخاصمة ومدافعة، بل إن النسوة قد يزاحمن الرجال عنده بما لا يقبله أحد قط.

أما بقية المحاريب فلا علاقة لها بشيء من ذلك، لأنها كلُّها في مواضع لم تكن في المسجد النبوي حال حياته ﷺ. حيث إن المحراب الموجود الآن في قبلة المسجد النبوي، وهو المحراب المسمى بمحراب عثمان، كان بسبب زيادة أمير المؤمنين في المسجد من جهة القبلة، ثم زيادة عثمان كذلك، ولم يضعوا محراباً في تلك الزيادة.

وكذلك المحراب غربي المنبر ما بين المنبر وباب السلام، والمسمى بالمنبر السليماني أُنشئ بعد عصر الخلفاء الراشدين بمئات السنين.

وحتى لو سلَّمنا بصحة الصلاة، وأن الأرضَ كلها مسجد وأن هذا موقع من مسجد رسول الله ﷺ، فإننا نُحَذِّر من الصور التي تتنافى مع تعاليم الإسلام وآداب الصلاة مما يذهب الخشوع المطلوب فيها.

الزحام في الروضة

لا شك أن كلَّ إنسان يهفو قلبه وتتوق نفسه للصلاة بالروضة المطهرة، كيف لا وهي من رياض الجنة، ولكن كيف تدخل إلى الجنة بالمعصية، وهي إيذاء الخلق بالمدافعة، وبتخطي الرقاب، ومضايقة المصلين، ومخالفة سنّة رسول الله ﷺ.

إن من يرغب الجنة يتقدم إليها ويبكر قبل الزحام.

ومن الخطأ إيثارُ الروضة على الصفوف الأولى، فقد تقدم الخلفاء في الجماعة أما في النافلة فحيث تيسر، والروضة أفضل بقعة بدون شك.

مخالفات لا تجوز في أي مسجد من المساجد، وبخاصة في المسجد النبوي:

أ ـ منها الجري عند الدخول من الأبواب، وبخاصة قبل الفجر لصلاة الصبح، وبالأخص عند باب السلام مسابقة لأوائل الصفوف أو السلام على النبي ﷺ.

وقد جاء النهي عن الإسراع المخلّ بالمروءة عند الإتيان إلى الصلاة، حتى ولو عند قيام الجماعة في الصلاة، لقوله ﷺ: **«فأتوها وعليكم السكينة والوقار، فما أدركتم فصلُّوا وما فاتكم فاقضوا»**[(١)].

ولأن في هذه الأماكن لكثرة الحجاج وشدة الرغبة قد يكون بين الداخلين من هو ضعيف فيكون خطراً عليه، أو تكون من بينهم النسوة فيكون امتهاناً لهن.

ولا تنس حرمة المكان وشرف الجوار ووجوب التزام كمال الآداب.

ب ـ ومنها عدم المبالاة بالمرور بين يدي المصلِّين ظناً بأن المسجد النبوي مثل المسجد الحرام بمكة، ولكن يجب عليك أن تعلم أن الرخصة جاءت في حرم مكة ولم تأت في حرم المدينة. وأن النبي ﷺ رَدَّ (السخلةَ) ـ وهي نتاج الغنم الصغيرة ـ من أن تمر من بين يديه[(٢)].

وموضع المرور بين يديْ المصلي مسؤوليته على الطرفين، المصلِّي أولاً والذي يمر ثانياً.

أما على المصلِّي فمسؤوليته بأن يُصلِّي إلى سترة، وأما على الذي يمر فمسؤوليته بأن لا يمرَّ بين المصلي وسترته.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٦)، ومسلم (٦٠٢).

(٢) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٨٢٧)، وصححه الألباني في صفة الصلاة (ص٨٣).

فإذا فرَّطَ المصلِّي ولم يتخذ سترة، فهو مُفَرِّط، وإذا مرَّ إنسان بينه وبين سترته فالذي يمرُّ متعدٍّ.

وحينئذ تشترك المسؤولية، فعلى المصلِّي أن ينبِّهَ المارَّ بين يديه فإن تنبّه ورجع فبها ونعمت وإن سبقه أو غلبه فاجتاز فلا يرده ويمضي، وهو أَثِم بسبب مروره مع تنبيهه، ولا شيء على المصلِّي لعدم تفريطه.

ولعل من المناسب لفت النظر للآتي:

وهو أن الناس في المسجد النبوي عند الزحام في المواسم يأتون مبكرين وقد يكون من حين صلاة العصر فالمغرب فالعشاء حرصاً على المكان أو لبعد المسكن. وبعضهم لا يستطيع الصبر طيلة هذه المدة عند تجديد وضوئه إلا بتكلف، فإذا ما انتهت الصلاة ضاق ذرعاً وأسرع إلى الخروج، وهذا مما يدعو إلى تقدير ظروفهم، وهو وإن لم يكن مسقطاً لحق المصلِّين من منع المارين بين أيديهم، إلا أنه قد يدعوهم إلى إعطاء الفرصة لأصحاب الأعذار في الخروج حالاً، فلا يسرعون في الدخول في الصلاة النافلة بعد الفريضة حالاً.

وينبغي أن يعلم أن المرور بين الصفوف أثناء صلاة الجماعة قد رُخِّص فيه، لأن سترة الإمام سترة للمأموم، مع أن مالكاً كره ذلك لغير حاجة لعدم التشويش على المصلِّين.

وينبغي أن لا يبعد المصلِّي أكثر من ثلاثة أذرع من أصابع قدميه[1].

جـ - ومنها تقطيع الصفوف في صلاة الجماعة: وذلك في صورتين:

١ - تباعد ما بين الصفوف مما يسع صفاً أو أكثر، وهو مقدر بثلاثة أذرع.

٢ - تخلل الفجوات في الصف ووجود فضاء بين المصلِّي والذي يليه يميناً أو يساراً، فيجب على جميع المصلِّين أن يصِلوا الصفوف بعضها ببعض وأن يوالوا فيما بينهم في كل صف.

---

(١) أخرج البخاري (٥٠٦) أن ابن عمر كان إذا دخل الكعبة... فمشى حتى يكون بينه وبين الجدار الذي قِبَل وجهه قريباً من ثلاثة أذرع صلّى.

فإذا وجدت فرجة بعد التكبير في الصلاة، فعلى من بحذائها من الخلف أن يتقدم لسدها، ولا يُبدأ في صف حتى يكتمل الذي قبله، وبداية الصف الجديد من محاذاة الإمام يميناً ويساراً.

وقد قال ﷺ: «**ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربِّها؟**» قالوا: وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «**يتمون الصف الأول فالأول**»(١) ولأن وحدة الصفوف مظهر لوحدة القلوب، ولذا قال ﷺ: «**لا تختلفوا فتختلف قلوبكم**»(٢)، وقال: «**إن الله لا ينظرُ إلى الصف الأعوج**»(٣).

د ـ ومن ذلك تخطي الرقاب ممن جاء متأخراً ليصل إلى أوائل الصفوف أو إلى المسجد القديم من المسجد النبوي، وقد رأى النبي ﷺ رجلاً يفعل ذلك، وكان ﷺ يخطب على المنبر، فقطع الخطبة وقال له: «**اجلس فقد أذيتَ وأنيتَ**»(٤). أي أذيت الناس بتخطي رقابهم، وأنيت: أي تأخرت في المجيء، وكان عليك إذا كنت ترغب في التقدم أن تبكر ولا تتأخر.

هـ ـ ومن ذلك الجلوس في مداخل المسجد عند الأبواب مع وجود السعة في داخل المسجد، لأن في ذلك مضرةً عليك وعلى غيرك، أما أنت فلتفويت الأفضلية في مقدمة الصفوف، وأما على غيرك فلمنعه من الوصول إلى الداخل إلا بمشقة، والرسول ﷺ يقول: «**لا ضرر ولا ضرار**»(٥).

ومما ينبغي أن تحفظ نفسك منه شغل وقتك في المسجد بأحاديث اللغو وما لا طائل تحته، لا في الدين ولا في الدنيا، بل تشغله بما تدخره عند الله من ذكر أو تلاوة ومجالس العلم، وبالله التوفيق.

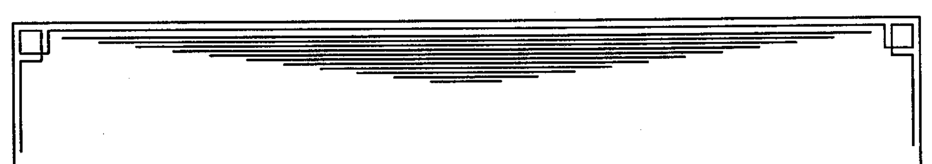
---

(١) أخرجه مسلم (٤٣٠). (٢) أخرجه مسلم (٤٣٢).

(٣) لا أصل له من حديث رسول الله ﷺ. وانظر: القول المبين في أخطاء المصلين لمشهور سلمان (ص٢١٤).

(٤) أخرجه أبو داود (١١١٨)، والنسائي (١٣٩٩) من حديث عبد الله بن بسر، وأخرجه ابن ماجه (١١١٥) من حديث جابر بن عبد الله، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٧١٤، ٧١٥).

(٥) أخرجه ابن ماجه (٢٣٤٠، ٢٣٤١) من حديث عبادة بن الصامت وابن عباس. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥٠).



مدة الزيارة وفضل الصلاة بالمسجد النبوي

ثم اعلم أن الزيارة لا ترتبط بأزمنة محدودة طويلة أو قصيرة، ولا بصلوات معدودة قليلة أو كثيرة. وإنما تتأدى بصلاة ركعتي تحية المسجد، ثم السلام على النبي ﷺ وصاحبيه، ثم الدعاء بخير لك وللمسلمين. فإنْ شئتَ سافرت وعدت من حيث أتيت أجزأك ذلك.

أما الإقامة بالمدينة فبحسب ظروفك وما يتيسر لك وتسمح به نظم السفر، وكلما صليت في المسجد فلكل صلاة أجرها بألف صلاة، فريضة كانت أو نافلة على الصحيح عند الجمهور.

وعند الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ فإن المضاعفة خاصة بالفريضة، أما النافلة فهي في البيت أفضل، لحديث: «**خيرُ صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة**»[1].

وعند الجمهور صلاةُ المرأة في بيتها أفضل منها في أي مسجد، لحديث المرأة التي جاءت إلى رسول الله ﷺ وقالت: إني أحبُّ الصلاة معك، قال: «**قد علمتُ ذلك، ولكنَّ صلاتَكِ في مسجد قومك خيرٌ من صلاتك معي، وصلاتك في بيتك خيرٌ من صلاتك في مسجد قومك**»[2].

وليُعلم أن مضاعفة الصلاة إلى ألف إنما هو في الأجر لا في العدد، ولهذا لو كان عليك فوائت عدة صلوات، بل ولو صلاة واحدة، وصليت الفريضة فإنها مع مضاعفتها لن تسقط تلك الفائتة عنك.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣١)، ومسلم (٧٨١).

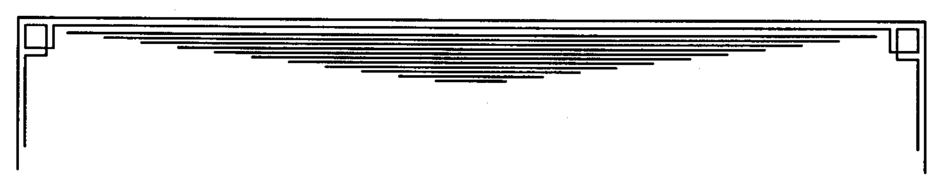
(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٧١)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٤٠): حسن لغيره.

موضوع الأربعين صلاة:

إن ما وردَ في فضل أربعين صلاة بالمسجد النبوي[١] إنما هو من فضائل الأعمال، بل وكلما زادَ عددُ الصلوات زاد الجزاء والثواب. وفضائل الأعمال تكون حسب ما يتيسر للإنسان، ولا يجوز أن تتعارض مع الواجبات.



(١) يشير المؤلف كَلَّلهُ إلى الحديث الذي أخرجه أحمد (٣/ ١٥٥): **«من صلى في مسجدي أربعين صلاة لا يفوته صلاة، كُتِبت له براءة من النار، ونجاةٌ من العذاب، وبرئ من النفاق»**، وحكم عليه العلّامة الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٦٤)، بأنه ضعيف سنداً منكر متناً.



ماذا يُزار في المدينة سوى المسجد النبوي الشريف؟

إن كل حاج ليتطلع إلى كل أثر من آثار المدينة المنورة مما يتوقع ارتباطه بالرسول ﷺ، ولذلك يسعى لكل ما قيل له إنه مزار أياً كان نوعه أو جنسه من المساجد أو غيرها.

وقد يتكلف كثير من الناس الذهاب إلى كثير من الأماكن تحقيقاً لهذا الغرض، بل وقد يظن البعض أن تلك المزارات تابعة وتتمة لزيارة المسجد النبوي والسلام على رسول الله ﷺ.

ولو رجعنا إلى تاريخ المدينة لحكمنا أنه قلَّ أن توجدَ جهة بها إلا وقد كان لها يوماً ما صلة برسول الله ﷺ، ولكن كان ذلك بحكم الاستيطان والإقامة، ولن يستطيع أحد أن يُحدِّد موضعاً بالذات إلا ما جاءت الأخبار به.

ولم يكن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ولا التابعون رحمهم الله يتتبعون كلَّ ذلك، إلا ما جاء عنه ﷺ أنه كان يزوره، وله فيه سنّة منقولة وعمل متوارث، وهذا الذي لا بأس بالإتيان إليه، بل تنتهز الفرصة لزيارته لمن وسعه ذلك، على أنه عمل مستقل بذاته، سواء كان لتحصيل الفضيلة، أو للدراسة، أو للعبرة من كل مقصد مشروع، وعليه شوق لتلك الأماكن التي يصدق عليها ذلك.

مسجد قباء: ويقع جنوباً من المدينة.

شهداء أحد: وموقعهم شمالاً عن المدينة.

أهل البقيع: ويقع شرقي المدينة.

وقد تواصلت المباني لهذه الأماكن تقريباً.

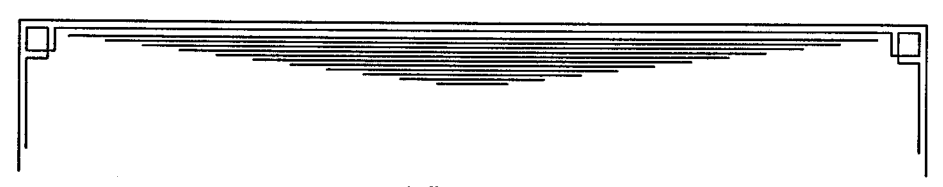
تلك الأماكن الثلاث ثبت عنه ﷺ أنه جاءها قصداً[١] واتفق المسلمون على أن المجيء إليها مشروع على ما سنبينه في كل منها على حدة.

أما ما عداها فهي مآثر تاريخية لم يُنقل أنه ﷺ كان يتردد إليها أو يقصد الإتيان إليها، من ذلك موقع غزوة الأحزاب، ومواقع حصار بني قُريظة، ومسجد المصلى المعروف الآن بمسجد الغمامة.

وسنلم بها أيضاً من الناحية التاريخية إن شاء الله.



(١) أ ـ مسجد قباء: أخرج البخاري (١١٩٤)، ومسلم (١٣٩٩) عن ابن عمر أن النبي ﷺ كان يأتي قُباء راكباً وماشياً فيصلّي فيه ركعتين.
ب ـ شهداء أحد: أخرج البخاري (١٣٤٤)، ومسلم (٢٢٩٦) عن عقبة بن عامر أن النبي ﷺ خرج يوماً، فصلّى على أهل أُحُد صلاته على الميت.
ج ـ أخرج مسلم (٩٧٤) عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع.



مسجد قباء

من أهم مآثر المدينة المنورة بعد المسجد النبوي إنما هو مسجد قباء، ذلك المسجد الذي كان سبب نزول قوله تعالى:

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨][1].

وكان تأسيس هذا المسجد في أول يوم من مقدم رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة، وقد وصل أول ما وصل إلى قباء، وكان وصوله يوم الاثنين، ومكث بها إلى يوم الجمعة، فبنى هذا المسجد في تلك الفترة.

وقد شارك المسجدين الشريفين (المسجد الحرام ومسجد المدينة) في كيفية اختياره ونوعية بنائه وذلك أن المسجدَ الحرام كان كما قال تعالى:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦].

والمسجدُ النبوي حيث كانت ناقته ﷺ تسير به، ويناديه أهل كلُّ حي لينزل عندهم، فيقول: دعوها فإنها مأمورة، حتى أناخت بمكان المسجد، فقال ﷺ: «**إنه المنزل إن شاء الله**»[2].

فكذلك مسجد قباء، لما أراد ﷺ بناءَه أمر أحد الحضور أن يركبَ الناقة ويرخي لها الزمام وقال: خطوا على آثارها للمسجد. ثم شرعَ ﷺ في البناء، وشاركَ مشاركة فعلية في بنائه، كما شاركَ مشاركة فعلية في بناء مسجده بالمدينة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٤)، وابن ماجه (٣٥٧)، والترمذي (٣١٠٠) وقال: هذا حديث غريب، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٤٧٦).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٢٣٦) وفي إسناده الواقدي وهو متروك. وأخرجه ابن سعد (١/ ٢٣٧) من حديث شرحبيل بن سعد مرسلاً؛ فالحديث ضعيف.

ولفضل سبق بنائه السبق الزمني كان له فضلٌ لم يُشاركه غيرُه فيه. ومما جاء في فضله عند الترمذي، قوله ﷺ: **«الصلاة في مسجد قباء كعمرة»**[(١)].

وأخرجَ ابن ماجه وابن شبه، بسند جيد، عن سهل ابن حُنيف، قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ تطهَّرَ في بيته ثم أتى مسجدَ قباء فصلَّى فيه صلاةً كان له كأجر عمرة»**[(٢)] وعليه فإذا كان قد صحَّ عنه ﷺ قوله: **«مَنْ تطهَّرَ في بيته ثم أتى مسجدَ قباء فصلَّى فيه ركعتين كنَّ له كأجر عمرة»**. فالراغب في الخير لا يُفوِّت ذلك على نفسه، والمتأمل في هذا التاريخ المجيد لهذا المسجد، والدارس لأحداث السيرة النبوية يجد مصداقَ ذلك في كون هذا المسجد التعبير الصادق لانطلاقة الدعوة الإسلامية إلى الآفاق، بعد أن كانت حبيسة بمكة، ويجده التعبيرَ العملي عن دعوة الإسلام بناية وهداية، وكان هو المعقل الأول لتجمّع المهاجرين الذين تأسست الدولة الإسلامية الجديدة بهم، وبالأنصار الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم يُحبُّون من هاجر إليهم.

وقد كان ﷺ يأتيه كلَّ سبت راكباً أو ماشياً[(٣)]، وليس يوم السبت هو المخصوص بذلك؛ ولكنه ﷺ كان يتفقَّدُ أخوالَه بني النجار يوم الجمعة، فإذا افتقد أحدَهم ذهبَ هو إليهم يوم السبت، وينبغي أن تتحرَّى بالذهاب إليه الأوقات التي تصحُّ فيها النافلة أو تُصادف فريضة.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٤١١)، والترمذي (٣٢٤) وقال: حديث حسن غريب. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١١٨٠): صحيح لغيره.

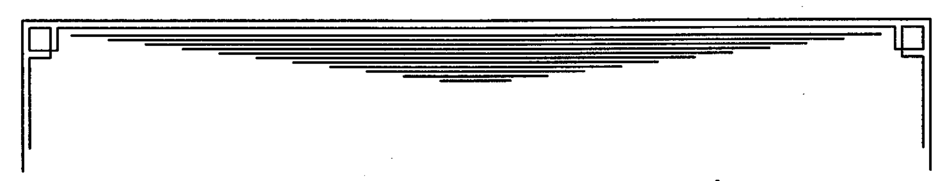
(٢) أخرجه ابن ماجه (١٤١٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١١٨١).

(٣) أخرجه البخاري (١١٩١)، ومسلم (١٣٩٩). ونقل الألباني في (الثمر المستطاب في فقه السنة والكتاب/ ص٥٧٦ ـ ٥٧٧) عن بعض العلماء تفسيرهم لهذا الحديث أن النبي ﷺ كان يزوره في كل أسبوع، وعبّر [أي: الصحابي] بالسبت عن الأسبوع كما يعبّر عنه بالجمعة، ونظيره ما في الصحيحين من حديث أنس... قال فيه: فلا والله ما رأينا الشمس سبتاً.

ويتجنب أوقات النهي، وأهمها عند طلوع الشمس بازغةً، وعند قائم الظهيرة، وعند تضيُّفها للمغيب. وما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس، وما بين صلاة العصر وغروبها، حيث نهى ﷺ عن النافلة في تلك الأوقات[١]، وبه أخذ الأئمة الثلاثة، وأجاز الشافعية النوافلَ ذوات الأسباب.



(١) أخرجه البخاري (٥٨١)، ومسلم (٨٢٦) من حديث عمر.
وأخرجه البخاري (٥٨٢)، ومسلم (٨٢٨) من حديث ابن عمر.
وأخرجه البخاري (٥٨٦)، ومسلم (٨٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري.
وأخرجه البخاري (٥٨٨)، ومسلم (٨٢٥) من حديث أبي هريرة.



زيارة أهل البقيع والسلام عليهم والدعاء لهم «وهو بقيع الغرقد»

والبقيع هو مدفن أهل المدينة منذ زمن النبي ﷺ والذي به آل بيت رسول الله ﷺ، وكثير من أصحابه، نحو مائتي صحابي وأكثر، وفيه من التابعين والعلماء، بل ومن الشهداء أعداد كثيرة.

وقد جاءت في فضله وفضل زيارته والسَّلام على أهله والدعاء لهم آثار عديدة صحيحة، منها: **«أنه أوَّلُ مقبرةٍ تنشَقُّ عنهم الأرضُ يومَ القيامة»**[(١)].

وأنه ﷺ كان يزورُه ويُسَلِّم على أهله ويدعُو لهم[(٢)].

وأنه ﷺ قال: **«أتاني جبريلُ وأمرني بزيارةِ البقيع»**.

وفي صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ قال لها: **«إن جبريلَ عليه السلام أتاني فقال: إنَّ ربَّك يأمرُك أن تأتي أهل البقيع فتستغفرَ لهم»**[(٣)].

وفي رواية مالك في «الموطأ» لعائشة رضي الله عنها قال لها رسول الله ﷺ: **«إني بُعثتُ لأهلِ البقيعِ لأُصلِّي عليهم»**[(٤)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٩٢) وقال: حديث حسن غريب، وضعفه، الألباني في السلسلة الضعيفة (٢٩٤٩).

(٢) أخرجه مسلم (٩٧٤).

(٣) أخرجه مسلم (٩٧٤).

(٤) أخرجه مالك (٥٧٣)، والنسائي (٢٠٣٨)، وقال الألباني في ضعيف سنن النسائي (١١٧): ضعيف الإسناد، ولكن قال في السلسلة الصحيحة (١٧٧٤): هذا إسناد لا بأس به في الشواهد، وكذلك حسّنه في أحكام الجنائز (ص٢٤٦). وعلة الاختلاف في الحكم على الحديث راوية الحديث عن عائشة وهي مرجانة (أم علقمة) فتارة يجهّلها الشيخ وتارة يقبل حديثها. انظر ترجمتها في: تهذيب الكمال (٨٥٢٣)، ووثقها العجلي في كتابه «الثقات».

وجاء عنه ﷺ: **«مَن استطاعَ أن يموتَ بالمدينة فليمتْ بها، مَنْ ماتَ بالمدينة كنتُ له شفيعاً أو شهيداً يومَ القيامة»**(١).

وأحاديث الزيارة لعموم القبور كثيرة، وللزيارة آداب يلزم مراعاتها، وهي: إذا أتى البقيع أو أي مقبرة للمسلمين في أنحاء العالم فليُسلِّم على أهلِها ويدعو لهم، على نحو ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رسولُ الله ﷺ فقال: **«السَّلام عليكم دارَ قومٍ مؤمنين وإنَّا إنْ شاءَ اللهُ بكم لَاحِقُون»**(٢).

وعند أحمد بزيادة في حديث عائشة رضي الله عنها: **«اللهم لا تحرمنا أجرَهم ولا تَفْتِنَّا بعدَهم»**(٣).

وكان ﷺ يُعلِّم أصحابه كيفيةَ السلام على أهل المقابر أن يقولوا: **«السلام عليكم أهلَ الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون، نسألُ الله لنا ولكم العافية»**، وهو في صحيح مسلم(٤).

وكان ﷺ يقول: **«اللهم اغفرْ لأهلِ بقيعِ الغرقد»**(٥).

تخصيص البعض بالسلام:

فإذا دخلت البقيعَ وعرفتَ قبرَ الإنسان بعينه، فتُسلِّم عليه باسمه، مثل زوجات رسول الله ﷺ أو بناته، أو قبر عثمان بن عفان، أو مالك بن أنس، أو غير ذلك من آل البيت أو عموم الصحابة أو من بعدهم، حتى من أهل العصر الحاضر، فتذكره باسمه وتدعو له، لحديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: **«ما من أحدٍ يمرُّ بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه فيُسلّم عليه إلا**

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣١١٢)، والترمذي (٣٩١٧) وقال: حديث حسن صحيح غريب، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣٠٧٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٩). وأخرجه مسلم (٩٧٥) من حديث بريدة.

(٣) أخرجه ابن حبان (٧٥٦ ـ موارد) من حديث أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح موارد الظمآن (٦٢٨). وأخرجه أبو داود (٣٢٣٧) من حديث بريدة.

(٤) أخرجه مسلم (٩٧٥).

(٥) أخرجه مسلم (٩٧٤).

عرفَه وردَّ عليه السلام»[١].

محظورات تلك الزيارة:

من محظوراتها أن تطأ قبراً أو تجلس عليه، وإن استطعت أن تخلع نعليك كان أفضل، لحديث: «**لأن يجلسَ أحدُكم على جمرةٍ فتحرقَ ثيابَه وتخلصَ إلى جلده خيرٌ من أن يجلسَ على قبر**» رواه مسلم[٢].

وأشدُّ المحظورات اللغط بأمور الدنيا، والغفلة عما هم فيه ومآلك إليه، أو أخذُ شيء من التربة، أو التمسح بالقبور، أو نحو ذلك.

ما يتعلق بزيارة النساء للمقابر:

جاءت النصوص بالمنع، كقوله ﷺ: «**لعن الله زائرات القبور**» وفي رواية: «**زَوَّاراتِ المقابر**»[٣] بصيغة المبالغة.

وجاءت الإباحة: «**كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها، فإنها تُذَكِّرُ بالآخرة وتزهِّدُ في الدنيا**»[٤]. فاختلف العلماء في زيارتهن لذلك، فمن منعَ نظرَ للزجر، ومن أباحَ نظرَ للإذن، وحمل الزجر على المكثرات «زوَّارات». وادَّعى أن واو الجماعة في قوله ﷺ: «**فزوروها**» شاملة للنساء مع الرجال، ولهم أدلة أخرى. واستدلوا بحديث عائشة المتقدم الذي قال لها ﷺ: «**أتاني جبريلُ فقال لي...**» إلخ. قالت: فقلت له: ماذا أقولُ إن أنا زرتُ المقابرَ. فقال قولي: «**السَّلام على أهلِ الديار من المؤمنين والمسلمين، يرحم الله**

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «شرح الموطأ» (١/١٤٧/١)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٩/ ٤٧٥).

(٢) أخرجه مسلم (٩٧١).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٥٧٦)، والترمذي (١٠٥٦) ـ وقال: حديث حسن صحيح ـ من حديث أبي هريرة.
وأخرجه ابن ماجه (١٥٧٤) من حديث حسان بن ثابت.
وصححه بشواهده الألباني في أحكام الجنائز (ص٢٣٥).

(٤) أخرجه مسلم (٩٧٧).

المستقدمينَ منَّا والمستأخرين، وإنا إن شاءَ الله [بكم] للاحقون» رواه مسلم والنسائي[١].

واتَّفقوا جميعاً على أن المرأة إذا كانت مارةً في طريقها بالمقبرة فسلَّمت على أهلها واستغفرت لهم فلا مانع.

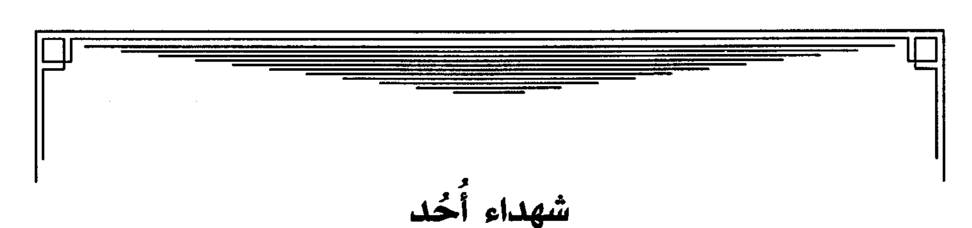
ولهذا فإن النسوة لا يُسمح لهن بدخول البقيع ومسموحٌ لهن أن يُسلِّمن من وراء السور.

ثم اعلم أنه إذا أتيت إلى باب البقيع فسلَّمت على جميع من فيه جملة ودعوت واستغفرت لهم أجزأ، وإن دخلتَ وسلَّمت على كل من تعرف قبره بالبقيع فلا بأسَ، وليكنْ بحسب ما يتيسر لك.

ودعك من كثرة العبارات أو الجمل التي يردِّدها البعض، وعليك بما وردت به السنّة من السلام والدعاء.



(١) أخرجه مسلم (٩٧٤)، والنسائي (٢٠٣٧).



شهداء أُحُد

وهم شهداء معركة أحد رضوان الله تعالى عليهم، وكانت غزوة أحد في شوال سنة ثلاث من الهجرة، كانت رد فعل من المشركين على ما أصابهم في غزوة بدر من قتل وأسر، ما كانوا ليصبروا عليه فجاؤوا إلى المدينة قريشٌ وأحلافُها.

وخبر تلك الغزوة يطولُ، وقد فصَّلناه في غير هذا الموضع، والذي يهمنا أن هؤلاء الشهداء ضحوا بأنفسهم لإعلاء كلمة الله والحفاظ على دين الله، والدفاع عن رسول الله ﷺ، حتى أتمّ الله دينَه وأعلى كلمتَه، ووصلتنا رسالة الإسلام بفضل من الله، ثم بفضل من دمائهم الزكية وأرواحهم الطاهرة وقلوبهم المؤمنة، فما من مسلم قال: لا إله إلا الله محمد رسولُ الله، إلا ولهم في ذمته فضل، فأقلُّ ما يؤدِّيه هو السلام عليهم والدعاء لهم.

وقد كان ﷺ يأتيهم بعد المعركة، ويزورهم، ويُصلِّي عليهم، ويستغفرُ لهم، ويأتيهم من بعده أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ، بل ومعاوية لما حجَّ في خلافته أتى إليهم، وهكذا المسلمون إلى اليوم، وقد جاءت في أخبارهم آثارٌ يطولُ إيرادها.

كيفية السلام عليهم:

جاء في صحيح البخاري أن النبيَّ ﷺ أتاهم بعد المعركة بثمان سنوات وصلَّى عليهم كالمودع لهم(١).

وجاء عند البيهقي، أنه ﷺ أتاهم فقال: **«اللهم إن عبدَك ونبيَّك يشهدُ أن هؤلاء شهداءُ وأنَّهم من زارَهم أو سلَّم عليهم إلى يوم القيامة رَدُّوا**

(١) أخرجه البخاري (٤٠٤٢).

عليه السَّلامَ»[١].

وكان ﷺ يقول: «سلامٌ عليكم بما صبرتُم فنعمَ عُقبى الدار»[٢]. ولما زارَهم معاويةُ قال: وكان ﷺ إذا واجهَ الشِّعبَ قال: «سلامٌ عليكم بما صبرتُم فنِعمَ أجرُ العاملين»[٣].

وروي أنه ﷺ وقفَ على قبر مُصعبَ بن عُمير ﷺ وقرأ:

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣][٣].

وعند أبي داود أنه ﷺ أخبرَ أصحابَه بقوله: «إن إخوانَكم لما أُصيبوا بأحد جعلَ الله أرواحَهم في جوفِ طيرٍ خُضْرٍ تردُ أنهارَ الجنة، تأكلُ من ثمارهَا وتأوي إلى قناديلَ من ذهبٍ معلّقةٍ في ظلِّ العرش، فلما وجدوا طيبَ مأكلهم ومشربهم ومقبلهم، قالوا: مَنْ يُبلغ عنا إخوانَنا أنَّا أحياءُ في الجنة نُرزقُ لئلا يَزهَدُوا في الجهاد، ولا يَكلُّوا عن الحرب، فقال تعالى: أنا أبلغُهم عنكم» فأنزلَ ﷻ:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠][٤].

وسيد الشهداء حمزة عمُّ رسول الله ﷺ موجود الآن، معروف قبره، وقد شهدت المدينة مصداق الآية في حياة الشهداء بعد أربعين سنة من المعركة حين جاءَ السَّيْلُ واجترفَ الأرضَ عن بعض قبور الشهداء، فانكشفتْ أجسامُهم، فوُجدت كما هي، وكأنهم دُفنوا بالأمس، لم يتغيَّرْ منها شيء[٥]، ونُقلوا إلى المرتفع الذي هم فيه الآن، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

---

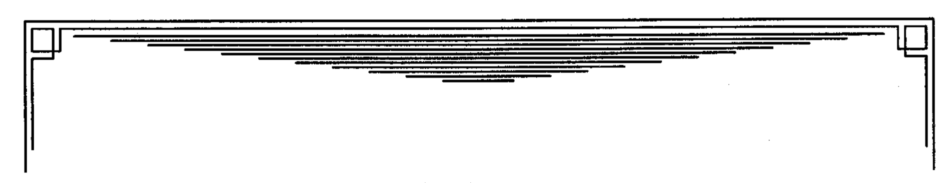
(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٩)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣٠٧)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١١/ ٣٦٧).

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣٠٦)، وفي إسناده عباد بن أبي صالح، قال ابن حجر في تقريب التهذيب (٣٣٩٠): لين الحديث. انظر ترجمته في: تهذيب الكمال (٣٣٢٦).

(٣) لم أقف عليه.

(٤) أخرجه أبو داود (٢٥٢٠)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٣٧٩).

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨)، وصححه الألباني في أحكام الجنائز (ص١٧٥).



مسجد القبلتين

معنى مسجد القبلتين من وقوع صلاة فريضة إلى القبلتين، نصفُها إلى بيت المقدس ونصفُها إلى الكعبة:

ومعلوم أن النبي ﷺ أوّل ما فُرضت الصلاة كان يُصلِّي بمكة مستقبلاً الكعبة جاعلاً إياها بينَه وبين بيت المقدس، أي كان يصلي بين الركنين، فلما هاجرَ إلى المدينة أخذ يُصلِّي مستقبلاً بيت المقدس لمدة ستة عشر شهراً[(١)]، ولعلها كانت تأليفاً لليهود، كما أنه صامَ يومَ عاشوراء، وكانوا يصومونه ويقولون: هو يومٌ نجّى الله فيه موسى من فرعون، فصامه موسى شكراً لله، فصاموه، فقال ﷺ: «**نحنُ أحقُّ بموسى منكم**» فصامَه وأمرَ النَّاسَ بصيامه[(٢)].

وقد كان في استقباله ﷺ بيتَ المقدس في صلاته إعلان أنه ﷺ ما كان بدعاً من الرسل، وأنه على منهج رسالات الله إلى رسله في الأمم قبلَه، ولكن اليهود اتخذوا هذا على العكس، فقالوا في أسلوب السفسطة وتضليل العامة: لو كان ديننا باطلاً ما تبعَ محمدٌ قبلتنا، فكان ﷺ يُصلِّي إلى قبلتهم، وهو ينتظرُ أن يوجهه الله عنها. يُطيل تطلُّعَه إلى السماء حتى نزلَ قوله تعالى:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

فتحوَّلَ ﷺ إلى الكعبة.

وهنا تتعدد الروايات في أي صلاةٍ تحوَّل، وهل تحوَّل أثناء الصلاة، أم بعدها لصلاة جديدة، وفي أي مسجد كان التحوّل.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٨٦، ٤٤٩٢)، ومسلم (٥٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠).

فرواية البخاري[١] لم تعين مسجداً ولا صلاة، والروايات الأخرى منها أنه ﷺ أُنزل عليه قرآن بالليل فصلَّى صبحَ يومِها في مسجده إلى الكعبة، فمرَّ رجلٌ ممن صلَّى مع رسول الله ﷺ على قوم وهم يصلُّون الظهر في قباء إلى بيت المقدس على ما كانوا عليه، فأخبرهم بما نزل من الوحي وبتحوّله ﷺ، فاستداروا وهم في الصلاة وأتمُّوا صلاتَهم إلى الكعبة[٢].

ورواية أن ذلك كان في صلاة العصر[٣]، وفي مسجد بني سليم المسمى اليوم بمسجد القبلتين[٤].

ورواية أنه ﷺ زارَ أمَّ بشر بن البراء في بني سلمة وصنعتْ له طعاماً وحانتْ صلاةُ الظهر، فصلَّى رسول الله ﷺ بأصحابه ركعتين، ثم أُمرَ فاستدارَ إلى الكعبة واستقبل الميزاب[٥].

ورواية رافع بن خديج: أتانا آتٍ ونحنُ في بني عبد الأشهل، فقال: إن رسولَ الله ﷺ قد أُمرَ أن يُوجَّهَ إلى الكعبة. قال: فأدارَنا إمامُنا إلى الكعبة ودُرْنَا معه[٦].

ورواية ثويلة بنت أسلم، قالت: صلَّيْتُ الظهر والعصر في مسجد بني حارثة، فاستقبلتُ مسجدَ إيلياء فصلَّيْنا سجدتين، أي: ركعتين، ثم جاءنا من يخبرنا أن النبي ﷺ قد استقبلَ البيت الحرام، فتحوَّلَ النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء، فصلَّيْنا السجدتين الباقيتين إلى البيت الحرام[٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٨٨).
(٢) أخرجه البخاري (٤٠٣)، ومسلم (٥٢٦)، وفيهما أن أهل قباء كانوا يصلّون الصبح.
(٣) أخرجه البخاري (٤٠).
(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٢٤٢)، وفي إسناده الواقدي وهو متروك. فالحديث ضعيف جداً.
(٥) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٢٤١ ـ ٢٤٢)، وفي إسناده الواقدي وهو متروك. فالحديث ضعيف جداً.
(٦) لم أقف عليه.
(٧) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٥/ ٤٣/ حـ٨٢)، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (٥٦٥٥): موضوع.

ولعل ظانٍ يظن التعارض في هذه الروايات، فالواقع أنها كلُّها صحيحة، لأن حدث تحويل القبلة كان لا شكَّ متوقعاً للجميع، بل إن بعض الأنصار وهم في طريقهم إلى الحج قبل هجرة النبي ﷺ، وقبل تحويل القبلة ممن ذهبوا لمبايعةِ رسولِ الله ﷺ عند العقبة، كان يُصلِّي مستقبلاً القبلة، وكان يقول: لا تطاوعني نفسي أن أستدبرَ هذه البنيّة.

فلما نزل الوحي بالتحول، لم يكن ليبلغ قبائل الأنصار كلّهم في وقت واحد، وأولى ما يُقال في ذلك: إن كل أهل مسجد بلغهم الخبرُ تحوّلوا، فمن بلغَه الخبر في غير وقت الصلاة بدأ صلاته إلى الكعبة، ومن لم يبلغه الخبر إلا وهو في الصلاة فبادروا بالاستدارة حالاً. وتكرر ذلك في عدة مساجد: مسجد بني حارثة، ومسجد قباء، ومسجد بني عبد الأشهل، ومسجد بني سُليم. إلا أن مسجد بني سُليم اشتهر من بينها، لعلَّه للرواية التي ذكرت صلاته ﷺ فيه، وأنه تحوَّلَ وهو يُصلِّي فيه الظهر بعدما صلى ركعتين إلى بيت المقدس، فأتمَّ صلاتَه إلى الكعبة، لأن سواه من المساجد لم تأت الرواية بأنه تحول أثناء صلاته فيه[1].

ولم يأت أنه تحول أثناء الصلاة إلا في رواية مسجد بني سلمة المسمى اليوم بمسجد القبلتين[2].

ويهمنا هذه الطاعة المطلقة والسرعة الفائقة إلى المبادرة بالتحول أثناء الصلاة دون أن يقطعوا صلاتهم، أو أن يترددوا في امتثال ما بلغهم، ويُؤخذ من هذه الحالة أنه من بدأ صلاته إلى جهة غلبت على ظنِّه أنها القبلة بعلامات يعرفها وبعد اجتهاد منه ثم تبيَّنَ له أثناء الصلاة أنه على غير اتجاه القبلة، كأن أخبره عالمٌ بالجهة، فإنه ينحرف إلى القبلة ويتم صلاته، لأن أولئك الذين لم يأتهم الخبر إلا ظهراً أو عصراً، بينما الوحي قد كان نزل بالليل فما صَلُّوه كان صحيحاً.

أما متى كان تحويل القبلة؟ قيل: في يوم الثلاثاء النصف من شعبان من السنة الثانية، وقيل: في جمادى، وقيل: بعد غزوة بدر، وقيل: في نصف

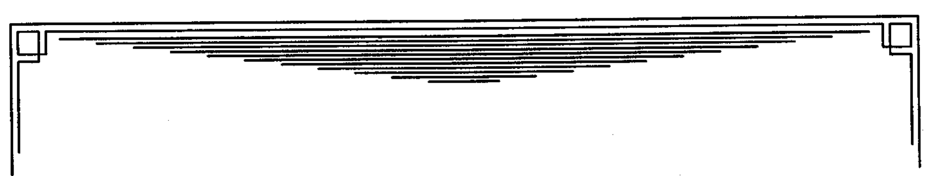
---

(١)(٢) تقدم تخريجه.

رجب. ومهما يكن من وقت، وفي أي زمان أو في أي مسجد من أي مكان، فإن هذا التحوّل إلى الكعبة يعتبر من قبيل التكامل في الإسلام، والارتباط بأول بيت وُضِع للناس، وهو البيت الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً، وفيه عودة بالارتباط بالخليل عليه السلام في تسلسل الرسالات ومنهج الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وفي الختام يلزم التنبيه على كل حَاجٍّ وزائر أن لا يقعَ في جهالة العوام، فيعمدون إلى صلاة رباعية يُصلُّون منها ركعتين إلى بيت المقدس وركعتين إلى الكعبة. فقد نُسخ استقبالُ المسلمين لبيت المقدس من ذلك التاريخ، ولله الحمد والمِنَّة.





مُصلى العيد أو مسجد الغمامة وغيره

ويقع غرب جنوب المسجد النبوي.

المسجد المعروف لدى العامة بمسجد الغَمامة، يعنون المعجزة لرسول الله ﷺ أثناء سفره إلى الشام قبل البعثة في تجارة لخديجة بنت خويلد رضي الله عنها قبل أن يتزوجها، وكان معه غلامها ميسرة، فكان إذا اشتد الحر جاءت غمامة تُظَلِّل رسولَ الله ﷺ، فذكر ذلك ميسرةُ لسيدته خديجة، فرغبت في الزواج منه[(١)].

ومعلوم أن حادثة الغمامة كانت بطريق الشام، ولكن أُطلق هذا الاسم تخليداً لذاك الحدث.

والحقيقة التاريخية لهذا المسجد أن النبي ﷺ كان في صلاة العيدين والاستسقاء يخرجُ بالمصلين إلى مكان فسيح حيث كان يخرج معه النساءُ والصِّبيان حتى الحُيَّض من النساء، يلتمسن بركة ذلك اليوم ويجتنبن المصلى، وكان أقربُ فضاء للمسجد النبوي هو مكان هذا المسجد، ويبعد عن المسجد النبوي ١٠٠٠ ذراع (٧٥٠ متراً).

وكانوا يضعون منبراً لرسول الله ﷺ يخطب عليه هناك، وهذا المسجد كان في موقع مُصلَّاه ﷺ من المكان الفسيح. فجاء أيضاً عمرُ بن عبد العزيز

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ١/١٨٨ ـ ١٨٩) ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٦٦ ـ ٦٧) من دون إسناد؛ فالحديث معضل ضعيف. وفيه أن ميسرة كان يرى ملَكَين يظلّانه.
وأما حديث الغمامة التي أظلّته فأخرجه الترمذي (٣٦٢٠) وقال: هذا حديث حسن غريب. وقد اختلفت أقوال العلماء في هذا الحديث. وللعلامة ابن القيم بحث نفيس حول حديث الغمامة في كتابه (فوائد حديثية/ ص٢١ ـ ٥٣/ ط. دار ابن الجوزي).

وأقام فيه مسجداً حِفاظاً على معالمه. وبالتالي فإن كلَّ المساجد بالمنطقة التي هي:

١ ـ مسجد أبي بكر، ٢ ـ مسجد عمر، ٣ ـ مسجد عليّ.

كلُّها من هذا القبيل، إلا أن هؤلاء الخلفاء رضوان الله تعالى عليهم لم يكونوا ليقوموا في مكان قيامه ﷺ تأدباً منهم، فوقف أبو بكر عن يمين موقف رسول الله ﷺ، ووقف عمر عن يسار موقف رسول الله ﷺ، ووقف عليٌّ ما بين موقف رسول الله ﷺ وموقف أبي بكر متأخراً إلى الشمال.

وهكذا أُقيمت تلك المساجد لهذه الغاية، وقيل: إن رسول الله ﷺ كان قد صلَّى بها، ثم استقرت صلاتُه بمصلَّى العيد هذا إلى وفاته ﷺ.

ومعلوم أن الخلفاء الراشدين ما كانوا ليتفردوا بمساجد، ويَدَعوا مسجدَ رسول الله ﷺ لا في حياته ﷺ ولا من بعده.

وعليه فالمجيء إلى تلك المساجد يكون من هذا المنطلق، وبالله تعالى التوفيق.



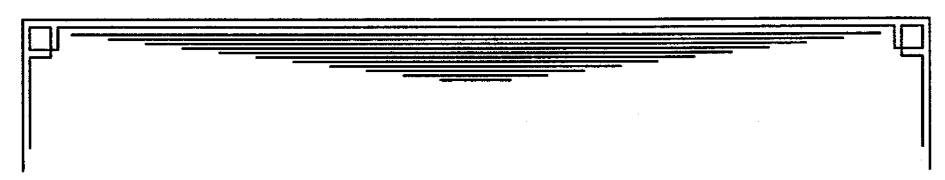
ما يُسمَّى بالمساجد السبعة

وحقيقتها موقع غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب وكانت في السنة الخامسة من الهجرة، لما علم ﷺ بتجمع قريش وأحلافها من غطفان، ومَنْ تابعها لغزو المدينة واستئصالها. وأشار عليه سلمانُ الفارسيُّ بحفر الخندق. وكانت المدينة محاطة بحرارٍ من الحجارة لا تستطيع الجيوش اجتيازها، ولا يوجد مدخل لها إلا بطن الوادي، فقام ﷺ بحفر الخندق في المدخل ليكمل تحصين المدينة، فجاء الأحزابُ ووجدوا الخندقَ أمامَهم فصدَّهم عن الوصول إلى المدينة، فسُمِّيَت غزوة الأحزاب، وقد كان فيها من الأحداث والمعجزات الشيء الكثير.

وكان موقع الخندق ومساره يَصل ما بين طرفي الحرة، وكان وضعُ الحرة حول المدينة كالهلال، فوصل الخندق ما بين طرفيه، فاستكملت الدائرة حول المدينة، وكان يبدأ من طرف الحرة الشمالي الشرقي إلى طرفها الشمالي الغربي ومسافته نحو خمسة كيلو مترات ويقع خلف سلع.

وقد كان معسكر المسلمين ونزولهم أثناء العمل في حفر الخندق في محل المساجد السبعة الموجودة حالياً، ولم تكن آنذاك مساجد، ولكن بعد أن أعزَّ اللهُ دينه، ونصرَ عبدَه، وهزمَ الأحزاب وردَّهم بغيظهم لم ينالُوا شيئاً، وكفى اللهُ المؤمنين القتال، حفظ عمر بن عبد العزيز رحمه الله تاريخ تلك الوقعة ببناء تلك المساجد في مواطن بعض الخيام على سبيل التقدير والتقريب، لأن الخندقَ قد اندثر وضاعتْ معالمُه، فجعلَ المساجدَ كرمز لموقع المعسكر.

وعليه فإن المجيءَ إليها لا ينبغي أن يكون على أنها مزاراتٍ ولا موطنَ عبادة، ولكن إن يكن فعلى أنها معاهدُ دراسة وتحقيق تاريخي، أو استطلاع عسكري، أو استخلاص العبرة، وموجب الترضي على هؤلاء الكرام الذين أكرمَهم الله بهذه المشاهد والمشاركة في تلك الوقائع، وليرجع المسلمون لدراسة تاريخهم والاستفادة مما فيه من خطط وعبر، وبالله تعالى التوفيق.



ما بعد الزيارة

بعد إتمامِكَ الزيارة ونيلِك شرفَ هذه الرحلة المباركة، التي جدَّدْتَ فيها العهد بموطن الدعوة الإسلامية، وشاهدت المآثر النبوية، وعشت بفكرك حقبة التاريخ الإسلامي كلّه، وتزودت بكل ما كانت تتوق إليه نفسك.

وها أنتَ تتأهبُ للعودة إلى أهلك، والرجوع إلى بلدك، فلا تغلبك فرحة الصورة ودهشة المفارقة عن آداب الصورة، وهي كالآتي:

أولاً: ليكن آخرَ عهدك بالمدينة صلاةٌ بالمسجد النبوي وسلام على الرسول ﷺ وصاحبيه، كما بدأت به أوَّل ما جئت. فقد روي عنه ﷺ أنه كان إذا نزلَ منزلاً ودَّعَه بركعتين. وتقدَّمَ لك من فعل ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان إذا قدم من سفرٍ أو أرادَ سفراً عن المدينة سَلَّم على النبي ﷺ.

ثانياً: توثيقُ العهد مع الله على التوبة الصادقة والتزام سنّة المصطفى ﷺ، متذكراً ومستحضراً بيعة أصحابه في حياته على السمع والطاعة، وكانت سنته ﷺ مع الوفود أن يوصيَهم بتقوى الله والمخالقة بالحسنى والرفق.

ثالثاً: توديعُ من عرفت من صالح المؤمنين، ويزودونك بصالح الدعوات.

رابعاً: لا تخرج من المسجد بظهرك تمشي القهقرى إلى باب السلام أو دونَ ذلك، زعماً أنه الأدبُ مع رسول الله ﷺ، لأن حقيقة الأدب معه ﷺ هو اتباع سنته والاستنان بعمل أصحابه من بعده، وما كان أحدٌ من السلف يفعل ذلك.

ونحن نعلم أن كل مسلم لا يرغب فراق رسول الله ﷺ، ولا ترك المقام بجواره، ولكن مصالح المسلمين في أقطار العالم الإسلامي، وقد خرجَ الصحابةُ رضوانَ الله تعالى عليهم من المدينة إما في جهاد أو غيره، ونفع الله بهم العالمَ، وانتشرَ معهم الإسلام.

خامساً: اختيار الرفقة الصالحة إن أمكن سواء كان سفرك براً أو بحراً أو جواً.

سادساً: لا تنقل شيئاً من تربة الحرمين عنها، لأنها تنازعُك في ذلك يوم القيامة، حيثُ أخرجتها من الفاضل إلى المفضول، ولأنه جماد لا ينفعُ ولا يضرُّ، ولم يفعله السلف.

سابعاً: تقدم الإعلام لأهلك بمقدمك.

ثامناً: وأهم شيء نؤكد عليك فيه أن تتذكر أنك في هذه الرحلة ورحلة الحج بمثابة وافد القوم، فلتكنْ سيرتَك فيهم نموذجاً يُحتذى فيما يرضي الله ورسوله، ونسأل الله لنا ولك القبول والتوفيق، وفي أمان الله ووداعته، وصلى الله وسلّم وبارك على عبده ورسوله محمد ﷺ.

وختاماً: لا تنس أهلك وأحبابك بما يتحفهم من الهدايا بقدر ما يسعك، بدون مغالاة ولا تقتير، فالهدايا تُورث التآخي والمحبة. قال ﷺ: «**والله لا تدخلوا الجنة حتى تُؤمنوا ولا تُؤمنوا حتى تحابُّوا، ألا أدلُّكم على ما إذا فعلتموه تحاببتُم، تهادُوا تحابُّوا: أفشوا السَّلام بينكم**»(١). جعلنا الله من المتحابين في الله، وبالله تعالى التوفيق.



(١) أخرجه مسلم (٥٤). وأما قوله: «**تهادوا تحابوا**»، فأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٩٤)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (١٦٠١).

أصول الخطابة والإنشاء



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة المؤلّف

الحمد لله ذي الجود والإحسان، خلقَ الإنسان وعلَّمه البيان، أكرمه بالعقل وميَّزه بالقول وفضَّله على كثير من خلقه، واستخلفه في الأرض، فكانت نشأته قدرةً وإنشاؤه عبرةً، وقد اشتملهما قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمٰن: ١ ـ ٤].

فتَمَدَّح تعالى بخلق الإنسان، وامتنّ عليه بتعليمه البيان.

وفي جمعهما مع تعليم القرآن في موطن واحد، لفتٌ للأنظار إلى أنه فضلٌ عظيم، وامتنانٌ جسيم، وكأنَّ فيه إيماءً إلى ارتباط علم البيان برسالة القرآن، كوسيلة لفهمه، وأداة لإفهامه، ولا شك أن الناس متفاوتون في ذلك إلى حد بعيد، وتفاوتهم أمر طبيعي لا بد منه.

مدى تفاوت الناس في ذلك: من الناس من أعطاهم الله فصاحة وبلاغة، فمنحهم قلباً عَقُولاً، ولساناً قؤولاً تفيض من قلبه الحِكَمُ، وتتناثر عن لسانه الدررُ. إن تكلَّم أسمعَ، وإن حادَثَ أمتعَ، يمتلك شعورَ السامعين، ويتحكم في عواطف الحاضرين، فيثير شعورهم إلى ما أراد، يعمل بيانه في الآذان عملَ السحر في الأذهان، يَصدقُ عليه قوله ﷺ: «**إنَّ من البيان لسحراً**»[1].

ويصدقه قول الشاعر:

وحديثُها السحرُ الحلالُ لو أنه ... لم يجنِ قتلَ المسلمِ المتحرِّزِ
إن طالَ لم يُمللْ وإن هي أوجزَتْ ... ودَّ المحدِّثُ أنها لم تُوجِزِ

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٦) من حديث ابن عمر، وأخرجه مسلم (٨٦٩) من حديث عمار بن ياسر.

شَرَكُ العقول ونُزهة ما مثلُها للمطمئن وعُقْلَةُ المستوفز

فهذا لا يعُوزه إلا التنسيق والتخطيط، وهو أحق بمنصة الخَطابة وتوجيه الحديث، ومن الناس من لا يتجاوز بيانه الإفصاح عن رأيه، وربما أعوزه التعبير عما يريد، وهذا في أمس الحاجة إلى العلم بقواعد الخطابة، وأساليب البيان، وطرق التعبير، وأخذِ نفسه بكثرة المران؛ ليستفيد إلى حد بعيد، فقد يصبح في طليعة البيانيين، وقدوة الخطباء والداعين.

ولهذا اشتدت الحاجة إلى وضع مبادئ لأسس الخطابة، التي هي مفتاح الدعوة، وسلاح الإصلاح، وأداة التوجيه، في كل زمان ومكان، وصالحة لكل ميدان.

ويتحتم على طلاب الجامعات الإسلامية عامة أن يُلموا بكل مقومات الخطابة؛ ليساعدهم على أداء مهمتهم، والقيام بواجبهم.

محتويات هذه الرسالة:

وقد عُنيت هذه الرسالة، بتعريف الخطابة، وبيان نشأتها، وخصائصها وأهميتها، ودواعي قوتها، ثم بيان ما يلزم الخطيب من إعداده للخطابة، وبيان العيوب التي ينبغي تجنبها، ثم تقسيم الخطبة إلى أجزاء رئيسية، ورسم الخطة للتخطيط السليم للخطابة الناجحة.

ثم إيراد نماذجَ خطابية، لمواضيع مختلفة، من العصرين: الجاهلي والإسلامي، مدروسة ومحللة دراسة وافية وتحليلاً فنياً.

ثم إيراد عدة نصوص للدرس، تحلل أثناء الدراسة تطبيقاً لما مضى، كدراسة عملية، ثم نماذج للتحضير، اشتملت على العناصر اللازمة لتكوين الخطبة، يترك للطالب إتمامها، ويعمل على منوالها. وقد ذيلت هذه الرسالة بخاتمة ناقشت بعض الكتابات حول هذا الموضوع، مبينة ما ينبغي اختياره، وما يجب اجتنابه في فن القراءة عامة، وموضوع الخطابة خاصة، مما لا بد للطالب من الوقوف عليه، ويجب على الكاتب التنبيه عليه، وقد توخيت في عرضها السهولة والإيضاح.

فإن جاءت وافية بالغرض فهذا هو المطلوب وبفضل الله كان، وإن

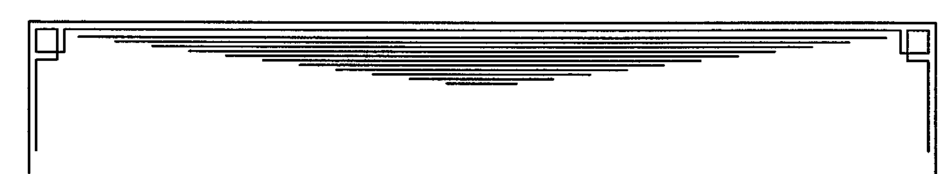
جاءت دون ذلك فلن نعدمَ بإذن الله مَن يصل بها إلى الغاية المرجوة تعاوناً على أداء الواجب العام الذي تفرضه رسالة التعليم.

والله أسأل أن ينفع بها كل طالب، ويوفق لتدعيمها كل أستاذ، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المؤلف

عطية محمد سالم





تعريف الخطَابة ونشأتها

تعريفها:

هي نوع من أنواع المحادثات، وقسم من أقسام النثر، ولون من ألوانه الفنية تختص بالجماهير بقصد الاستمالة والتأثير، وعليه؛ فأتم وأسلم تعريف لها هو أنها: «**فن مخاطبة الجماهير للتأثير عليهم واستمالتهم**».

وقد يزيد بعض الناس كونها بكلام بليغ، إلا أن هذا القيد شرط كمال يكون حسب حالة المخاطَبين، لأن حقيقة البلاغة في الكلام إنما هي مطابقة الكلام لمقتضيات الأحوال، وقد يقتضي الحال أحياناً أن يتخلى الخطيب عن الأساليب البلاغية الصناعية.

أركانها:

ومن هذا التعريف الموجز «فن مخاطبة الجماهير للتأثير عليهم» نستخلص عناصر الخطبة وأركانها، فنجد ضرورة وجود الآتي:

١ ـ فن: أي خبرة ومعرفة ومرانة وملكة.

٢ ـ مخاطبة: أي مشافهة، ومواجهة.

٣ ـ خطيب: أي لا مقرئ أو مُلْقٍ يقرأ كتاباً أو يلقي موضوعاً.

٤ ـ جمهور: أي جمع كثير من المستمعين.

٥ ـ تأثير: أي إثارة عواطف وتنبيه شعور.

وإذا ما انعدم عنصر أو ركن من الخمس افتقدت الخطابة جزءاً هاماً منها. ولا ينبغي أن تسمى خطابة للآتي:

أ ـ لأنه إذا انعدم الفن والخبرة: كان الكلام تهريجاً.

ب ـ وإذا عُدمت المخاطبة كان تلاوةً أو ترديداً.

جـ ـ وإذا لم يوجد جمهور كان الكلام حديثاً أو وصية.

د ـ وإذا لم يوجد خطيب كان إلقاءً وقد يكون بالنيابة عن غيره.

هـ ـ وإذا لم يحصل تأثير كانت عديمة الثمرة ومضيعة للوقت.

نشأتها:

بما أن الخطابة لون من المحادثات، فالمحادثات رافقت الإنسان منذ وجوده على التحقيق، ولكن الخطابة تميزت بحقيقتها عن مطلق محادثة إلى فن، واختصت بالجماهير دون الأفراد، وقصد بها التأثير والاستمالة، لا مجرد التعبير عما في النفس. . .

إذاً فلا بد أن تكون في نشأتها قد خطت خطواتِ تطورٍ وتخصصٍ من حديث إلى فن، ومن أفرادٍ إلى جماهير. وكانت نشأتها استجابة لما دعت إليه حاجة الجماهير بعد توسع ميادين الحياة وتعدد اتجاهاتها، وما يصحبه من اختلافات تدعو إلى توحيد فكر، أو إقناع برأي، والتأثير على المخاطبين. وإذا لاحظنا الأديان والرسالات السابقة أدركنا مقتضيات وجودها ونشأتها كفن متميز.

فهي إذاً وليدة رقي فكري، وتقدم اجتماعي، قضت زمناً حتى ارتفعت وتميزت أولاً بالجماهير، وثانياً اختصت بأغراض خاصة ومواقف معينة، وثالثاً اتسمت بأسلوب وهيئة حتى وصلت إلى عصور التاريخ والتدوين على الحالة التي وصلت إليها من حقيقة مميزة عن غيرها. ولم تزل في رقي وتقدم حتى أصبحت عنواناً على منزلة الأمم ومكانتها كما في وفد العرب على كسرى.

الفرق بينها وبين غيرها من فنون النثر:

لا يخلو الكلام مع الناس من كونه مع أفراد أو جماهير، فالكلام مع غير الجماهير إن كان للإفهام والبيان فهو حديث، وإن كان لحثٍّ على مصلحتهم شفقةً بهم فهو وصية.

والكلام مع الجماهير، إما أن يكون لشرح حقيقة علمية، أو لبيان

نظرية، فهو محاضرة، وإما أن يكون لإثارة الشعور، وبث الحماسة، وتحريك العواطف، واستمالة المخاطبين، فهو خطابة.

وعليه فالخطابة، والمحادثة، والوصية، والمحاضرة، تشترك كلُّها في فن النثر. وتختص الخطابة والمحاضرة بالجماهير.

الفرق بين الخطابة والمحاضرة:

أ - المحاضرة هي القصد إلى حقيقة علمية أو نظرية تُلِمُّ بأطرافها، وتُظهر غامضها، وتُزيل لبسها، وعليه فهي تعتمد الحقائق لا الخيالات، وتخاطب العقول لا العواطف، وتستهدف العلم، لا الإثارة، وتخص غالباً المثقفين.

ب - أما الخَطابة فهي القصد إلى فكرة ورغبة تزين أوضاعها وتحسن أهدافها، وقد تكون معلومة من قبل فهي تعمد إلى الإثارة والإقناع، وتخاطب العواطف والشعور وتستهدف الاستمالة، وتعمُّ المثقفين وغيرهم.

ويلاحظ أن الخطابة بالنسبة إلى المحاضرة قد يجتمعان وقد يفترقان. وأن المحاضرة تكون موضوعاتها دائماً وأبداً علمية، دينية كانت أو دنيوية، كأن يأتي مهندس زراعي يشرح نظرية تلقيح النبات وعوامل نقل اللقاح من الذكور إلى أزهار الإناث عن طريق الحشرات أو الماء أو الرياح، أو يأتي طبيب يبين مراحل الحمل من حيوان منوي وبويضة إلى علقة ومضغة ووسائل تغذيته إلى بروزه طفلاً.

أو يقوم عالم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فيتناول ركن الزكاة: متى شرعت، وعلى من، ونوع المال الذي تجب فيه، وشروط وجوبه، ومصارفه، وما وراء ذلك من حِكَم ومصالح.

أما الخطابة فقد تكون موضوعاتها معلومة بالفعل، كما في خطب الجمع مثلاً إذا تناول الخطيب موضوع الصدق والأمانة، يحث عليهما، أو موضوع الربا وحذَّر منه، فإن جميع السامعين يعلمون وجوب الصدق ولزوم الأمانة، كما يعلمون تحريم الربا.

إلا أن الخطيب حينما يتكلم عن المعلوم فإنما يريد إثارة العواطف والشعور بما علمت ويؤثر على السامعين بما يلقيه عليهم، ويصل بهم إلى العمل بالفعل.

فلا يعدم من السامعين من يعزم على تحري الصدق، أو من يندم على التعامل بالربا، وقد يوفق بالتزام هذا وإقلاع ذاك، وهذه هي الغاية من الخطابة الناجحة. ومن هذا تظهر خصائصها.

خصائص الخطابة:

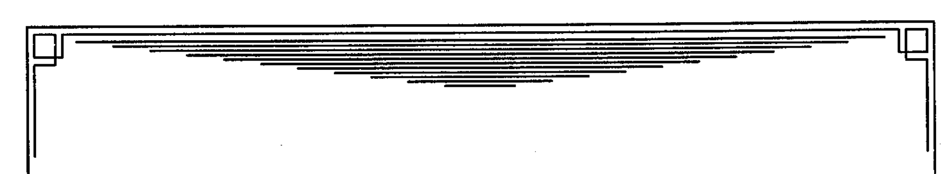
بالنظر إلى أنواع النثر من حكم وأمثال ووصايا ومفاخرات ونحوها وخطابة ومحاضرات، نجدها كلها ما عدا الخطابة والمحاضرة تسير في مجال فردي، ويتسم أغلبها بالاختصار والإيجاز، وتؤدى بأي أسلوب، ويؤديها أي إنسان.

أما الخطابة فهي تخص الجماهير، والخطيب قد يواجه جمهوراً مختلف الطبقات، متنوع المشارب، مختلف المسالك، وقد يشتمل على من لا يعرفهم ولا يعرفونه.

ثم هو يتقدم إليهم موجهاً ومرشداً وقد يكون آمراً ناهياً، فعليه أن يستميلهم إلى جانبه ويقنعهم بمذهبه ويقودهم إلى مسلكه.

وقد تكون الفكرة جديدة عليهم، أو ثقيلة على نفوسهم، مما يؤدي إلى تردد أو امتناع، ومن ثم فعليه أن يروض نفوسهم وإن كانت جامحة، ويقنع أذهانهم وإن كانت معاندة، فيصبح قائداً للجماهير الأبية، ومحققاً لرغباته من كافة سامعيه، على اختلاف وجهاتهم، وليس هذا بالأمر الهيِّن، فقد يقدر الإنسان على ترويض الوحوش الكاسرة وتذليل الحيوانات النافرة، ويعجز عن استمالة بعض النفوس، لأنها فوق هذا وذاك كما شبههم عمر رضي الله عنه: الناس كجمل أنِف.

ولعل من جميع ما تقدم من تعريف الخطابة، ونشأتها، وخصائصها، تكون قد ظهرت لنا أهميةُ الخطابة وآثارها، ووجوب العناية بها.



أهمية الخَطابة وآثارها

تعتبر الخطابة أثراً من آثار الرقي الإنساني ومظهراً من مظاهر التقدم الاجتماعي، ولهذا عني بها كل شعب، واهتمت بها كل الأمم في كل زمان ومكان، واتخذتها أداة لتوجيه الجماعات، وإصلاح المجتمعات.

وقد كان للعرب في ذلك الحظ الأوفى، فحفلوا بها في الجاهلية، وساعد عليها وجود عدة أسباب اجتماعية أدت إلى ازدهارها ورفعة شأنها، فوصلت إلى القمة وتوجت بالشرف والاعتزاز. من تلك الأسباب ما يأتي:

١ - طبيعة مواضيع الخطابة: وهي إما حث على حرب، أو حض على سلم، وبطبيعة الحال لا يتعرض لهذه المواضيع إلّا من كان سيداً مطاعاً لأنه الذي يُسمَعُ قولُه ويُطاعُ أمرُه في مثل تلك المواقف، وهو الذي يملك إعلان الحرب وقبول الصلح.

٢ - التهاني أو التعازي، وإذا أرادت قبيلة أن تهنئ قبيلة أخرى بمكرمة، كظهور فارس أو نبوغ شاعر أو غير ذلك، فإنها ستوفد من طرفها من يؤدي ذلك عنها، وبطبيعة الحال أيضاً لن تختار إلا من أشرافها ليمثلوها ويعبروا عنها.

٣ - المفاخرات والمنافرات. ومن عادة هذين الغرضين ألا يقعان إلا بين قبيلين عظيمين يرى كل قبيل منهما أنه أعلى وأعظم من القبيل الآخر فيرفع من شأنه ويحط من قدر من يقابله. وعليه فلن يتقدم لتعداد المفاخر إلا الفضلاء. كل ذلك يجعل مهمة الخطابة فاضلة نبيلة، ويرفعها إلى المكانة العالية.

ثانياً: ما حدث للشعر من ابتذال وتدن بناء على الأسباب الآتية:

١ - وجود بعض المتكسبين به مما يلحق جنسه عيب التكسب به، وإذا ما

عيب الشعر بالتكسب، وسلمت الخطابة من ذلك، كان رفعة لشأن الخطابة برفعة شأن الخطباء.

٢ ـ الشعر من حيث هو عند القائلين له سليقة ميسرة للصغير والكبير والشريف والدنيء، والرفيع والوضيع، بل والرجال والنساء، بينما الخطابة لا تسند إلا للسادة والنبلاء.

٣ ـ إن الشعر من حيث الموضوع يتناول الجد والهزل، فيكون في الغزل وفي اللهو والطرب والتشبيب والنسيب والمجون، وفيه الصدق والكذب، وقد يكون أعذبه أكذبه.

بينما مواضيع الخطابة، كما علمنا، لا تنزل إلى تلك المستويات الاجتماعية ولم تسند إلى تلك الطبقات الشعبية، بل كانت لمهام الأمور يقوم بها أشراف الناس. ومن هنا عني بها السادة واهتم لها الأشراف. من ذلك:

أ ـ قول قيس بن سنان المنقري التميمي رضي الله عنه وكان سيداً في قومه:

إني امرؤ لا يعتري خُلقي ... دنس يفنده ولا أَفَن
من منقر في بيت مكرمة ... والغصن ينبت حوله الغصن
خطباء حين يقول قائلهم ... بيض الوجوه أعفة لسن
لا يفطنون لعيب جارهم ... وهم لحسن جوارهم فُطن

فقد جعل الخطابة واللسن مع العفة وطهارة الخلق من الدنس كما جعلها لبيض الوجوه في بيت المكرمات وهذا القائل بنفسه سيد في قومه كما قيل في رثائه:

فما كان قيس هُلْكُه هُلْكُ واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدَّما

ب ـ ومن ذلك قول عمرو بن الإطنابة في أبيات له:

إني من الذين إذا انتدوا ... بدؤوا بحق الله ثم النائل

إلى قوله:

والقاتلين لدى الوغى أقرانهم ... إن المنية من وراء الوائل
والقائلين فلا يعاب كلامهم ... يوم المقامة بالمقال الفاصل

فقد جعل كلامهم الفاصل السالم من العيب بجوار قتل الأقران يوم الوغى.

إلى غير ذلك من العناية والحفاوة بالخطابة وإكبار أهلها وارتفاع شأنهم.

وقد كانوا كذلك يُعَوِّلون عليها في أشد المواقف خطورة كما فعل هانئ بن قبيصة يوم ذي قار من تحريض بني بكر على القتال وكان لهم النصر على الفرس، وعنه تطاول فخرهم كما قال الشاعر:

ولو أن كل معدٍّ كان شاركنا يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف

عناية الإسلام بالخطابة:

ثم جاء الإسلام فكانت عنايته بها أشد واهتمامه بها أقوى، كيف لا ورسالته كلها مبناها على وحي يوحى وقرآن يتلى وقراءته عبادة. وكانت كبرى المعجزات إنما هي فصاحة وبلاغة. تحدث الفصحاء والبلغاء في صميم لغتهم وفي عقر ديارهم، فتراجع أمامها فرسان البلاغة، وتراجع دونها أئمة البيان، واستسلموا لسلطانها وسجدوا لسحر بيانها. ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ . . .﴾ [الزمر: ٢٣].

وقد نوه القرآن الكريم عن مدى عظم الخطابة والبيان وصلتهما بالرسالات والدعاة في غير ما موطن. فعن أصل الرسالة يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، أي البيان الذي يصحبه الإقناع ويثمر الاستجابة كما عاب العجز عن الإبانة في مقام الخصومة وإثبات الحجة في قوله تعالى عن النساء: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الزخرف: ١٨]، أي لعجزهن عن مواجهة الخصم وإقامة الحجة.

ونوه عن مساندتها للرسالة في قصة بعثة موسى عليه السلام ومساندته بأخيه هارون كما في قوله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٤، ٣٥]، فكانت فصاحة أخيه من عوامل ترشيحه للرسالة وشد عضد أخيه.

وفي مقدم وفد بني تميم على الرسول ﷺ صورة واضحة لعظم أثر

الخطابة في الدعوة الإسلامية. وقد ساقها المفسرون والمؤرخون: أنهم قدموا عام الوفود واجتمع الناس في المسجد، ونادوا رسول الله ﷺ ليخرج إليهم وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ [الحجرات: ٤].

فلما خرج إليهم قالوا: جئنا نفاخرك ونشاعرك بخطيبنا وشاعرنا، فقال ﷺ: **«ما بالشعر بُعثت ولا بالفخار أمرت ولكن هاتوا»**.

فقال الزبرقان بن بدر لشاب: افخر واذكر فضل قومك، فقال: الحمد لله الذي جعلنا خير خلقه، وآتانا أموالاً نفعل فيها ما نشاء، فنحن من خير أهل الأرض، من أكثرهم عدداً ومالاً وسلاحاً، فمن أنكر علينا فليأت بقول هو أحسن من قولنا، وفعلٍ هو أحسن من فعلنا.

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس ـ وكان خطيبه ـ: **«قم فأجبه»**، فقال: الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، دعا المهاجرين من بني عمه أحسن الناس وجوهاً وأعظمهم أحلاماً فأجابوه، والحمد لله الذي جعلنا أنصار دينه ووزراء رسوله، وعزاً لدينه فنحن نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، فمن قالها منع نفسه وماله، ومن أباها قتلناه وكان غرمه علينا هيناً، أقول قولي هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات.

ثم قام شاعرهم فأنشد، ثم أجابه حسان رضي الله عنه. فقال الأقرع بن حابس ـ رئيس الوفد ـ: والله ما أدري ما هذا الأمر، تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولاً، وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر وأحسن قولاً، ثم دنا من رسول الله ﷺ وقال: أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأنك رسول الله[1].

ففي تلك الواقعة بالذات ومثيلاتها، تسجيل لأهمية الخطابة ودورها الفعال في خصوص الدعوة، حيث نلمس النقاط الآتية:

١ ـ تخصيص خطيب للرسول ﷺ، من قوله: فقال ﷺ لثابت بن قيس ـ وكان

---

(١) قال السيوطي في الجامع الكبير (كنز العمال/٣٠٣١٦): [رواه] الروياني وابن منده وأبو نعيم وقال: غريب تفرد به المعلى بن عبد الرحمٰن بن الحكيم الواسطي. قال الدارقطني: هو كذاب. [ورواه] ابن عساكر.

خطيبه ـ: «**مع أنه ﷺ أعطي جوامع الكلم وأفصح العرب والعجم**».

٢ ـ كون الخطابة سلاحاً للدفاع عن الدعوة لقوله ﷺ لثابت: «**فأجبه**». ومعلوم أن الإجابة دفاع كما قال حسان لأبي سفيان في أول الأمر: «هجوت محمداً فأجبت عنه»[١] فالإجابة دفاع عن النبي ﷺ.

٣ ـ أن قوة الخطابة مدعاة للإقناع والاستمالة، ومن ثم الاستجابة للدعوة، لقول الأقرع بن حابس بعد سماعه خطابة ثابت بن قيس وتأثره بها قال: والله ما أدري ما هذا الأمر، إلى أن قال: فكان خطيبهم أحسن قولاً، وكان شاعرهم أشعر وأحسن قولاً، ثم دنا من رسول الله ونطق بالشهادتين وأعلن إسلامه.

فكان للخطابة أعظم الأثر في الدفاع عن الإسلام، وفي الدعوة إليه.

وكذلك كان لها الحظ الأوفى في قتال الأعداء كما روى ابن إسحاق في غزوة بدر: ثم خرج رسول الله ﷺ فحرضهم على القتال وقال: «**والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة**»، فكان لكلماته ﷺ أقوى تأثير على نفوسهم جعل أحد المقاتلين عمير بن الحمام يستعجل الموت، ويستطيل الحياة فيقول: بخ، بخ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، وكان بيده تمرات يأكلهن، فقذف بهن وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل[٢]، وبهذه الروح اندفع المؤمنون إلى قتال العدو ونصرهم الله تعالى. وهكذا كان في عهد الخلفاء والفتوحات الإسلامية؛ كانت الخطابة تسبق القتال، وكذلك في السلم فقد عُني بها كل العناية حتى أصبحت جزءاً من العبادة فنُصبت لها المنابر في المساجد وجُعلت في مقدمة الجمع والأعياد، واختص بها أفاضل الناس وأئمتهم في مهام الأمور، للأمر والنهي والتوجيه والبيان.

وكان ﷺ إذا أراد بيان أمر، أو جَدَّ جديد يحتاج إلى بيان، صعد المنبر

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩٠).

(٢) ذكره ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ٢/ ٦٢٧) بدون إسناد، وأخرجه مسلم (١٩٠١) من حديث أنس بن مالك.

وخطب الناس، كما في قصة بريرة لما اشترط أهلها على عائشة ﵂ أن تعتقها ويكون الولاء لهم، خطب رسول الله ﷺ وبيَّن أن كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل: الولاء لمن أعتق(١).

وقد كانت خطبته في حجة الوداع، خلاصة عامة جامعة شاملة لمهام الدين، وأسس التعامل، منها: «**أي يوم هذا في أي شهر هذا في أي بلد هذا**»، وفي كلها يجيبون بأنها أوقات وأماكن محرمة فيقول ﷺ: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذه**»(٢)، انظر إلى قوة التأكيد في التحريم، ثم يوصي بالنساء خيراً إلى غير ذلك مما اشتملت عليه من البيان والبلاغ في أعظم جمع للمسلمين.

وكذلك خطبته بعد صلاة الصبح إلى الظهر، ومن بعد صلاة الظهر إلى العصر، ومن بعد صلاة العصر إلى المغرب(٣)، ما ترك شيئاً إلا وعرض له في مقامه ذلك، حفظ من حفظ ونسي من نسي(٤).

ثم من بعده خلفاؤه الراشدون ﵃ وفي أحرج المواقف وأخطرها كيوم وفاته ﷺ فذهل الكثيرون وأخذ الناس يدوكون وعمر يهدد من يقول: مات محمد.

وما كشف عن وجه الحقيقة المذهلة إلا أبو بكر ﵁ بخطبته على منبر رسول الله ﷺ بعد حمد الله والثناء عليه: أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. ثم تلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ . . .﴾ الآية [آل عمران: ١٤٤]، فهدأت عاصفتهم وثاب إليهم رشدهم

(١) أخرجه البخاري (٢٥٦٣)، ومسلم (١٥٠٤).
(٢) أخرجه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة.
وأخرجه البخاري (١٧٣٩) من حديث ابن عباس.
وأخرجه البخاري (١٧٤٢) من حديث ابن عمر.
وأخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر.
(٣) أخرجه مسلم (٢٨٩٢).
(٤) أخرجه البخاري (٦٦٠٤)، ومسلم (٢٨٩١).

حتى قال عمر: والله لكأني لم أسمعها إلا الآن. وكأنها الآن أُنزلت[١].

ومثل ذلك يوم السقيفة، لما تنازع الناس أمر الخلافة، والتبس عليهم الموقف، وما أزال اللبس، ومهد الطريق، وثَبَّت الحق وجمع الشمل، إلا أبو بكر ﷺ بخطبته حين قدم عليهم ومعه عمر ﷺ وقد زوَّر كلمات يُلقيها، قال عمر: والله لقد أتى عليهن كلهن أبو بكر ﷺ.

وما أنهى أبو بكر ﷺ خطبته، حتى بويع بالخلافة، بدأه بها عمر، وتتابع عليه الحاضرون، وتمت له البيعة خليفةً لرسول الله ﷺ[٢].

وهكذا كل من جاء بعده من الخلفاء والأمراء والولاة، إلى أواخر العصر العباسي، ظلت الخطابة موضع العناية وأداة التوجيه إلى أن أصيب العالم الإسلامي بما يسمى الانحطاط الأدبي، فأهملت الخطابة، واقتصرت على الجُمَع والأعياد، في شكليات وتقاليد حتى أصبحت خطبة الجمعة تعاد وتكرر في كل جمعة من موعدها في السنة التي تليها، ووضعت دواوين لهذا الغرض، وصارت مهمة الخطيب أن يتلو ما كتب غيره، فضعفت الملكات الخطابية وماتت القدرة الإنشائية.

إلى أن وجدت دعوات التحرر في كثير من البلاد الإسلامية ودعاة الإصلاح فحرروا الأفكار وهذبوا العقائد وتنشطت الأذهان بالدعوة أو مناقشتها فنشطت وانتعشت الحركة العلمية والأدبية، ونهضت الخطابة حين تنبهت الملكات.

والذي نشاهده اليوم، من الحركات الكلامية والمساجلات الخطابية، إنما هو أثر من آثار تلك النهضة وإن اختلفت مجالاتها.

والذي يهمنا كمسلمين أولاً وقبل كل شيء في مشارق الأرض ومغاربها، ودعاة إلى الله بوجه خاص، أن نعنى بالخطابة عناية فائقة، ولا سيما الخطابة الدينية على سعة مدلولها، من وعظ وإرشاد وتوجيه وتثقيف وبيان لتعاليم الإسلام في أصول الدين وفروعه ومحاسنه في العبادات

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٥٤).
(٢) أخرجه البخاري (٣٦٦٨).

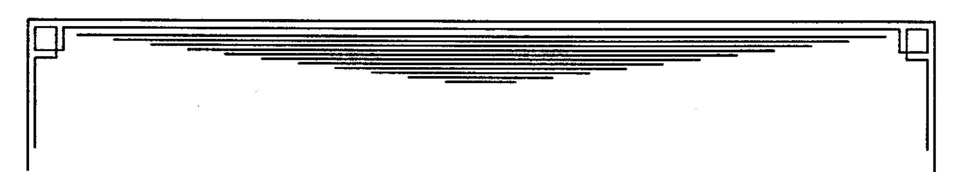
والمعاملات والاجتماعيات وكافة نظمه العامة والخاصة للأفراد والجماعات.

ولئن كانت هذه مهمة طلاب العلم في كل بلد وفي كل مدرسة أو جامعة، فإن مهمة طلاب الجامعة الإسلامية بالمدينة أعظم، وهي بهم ألصق، لما تتاح لهم فرصة اجتماع بكافة أبناء العالم الإسلامي في مواسم الحج سواء في مكة أو المدينة.

ولهذا وجب أن يُعنى بالخطابة والإنشاء والبحث والتوسع في هذا المجال فوق ما يتخيل للبعض، لأننا في أمس الحاجة إلى دعاة خطباء بلغاء، ولأننا نجزم بحاجة كل داعية إلى قوة الخطابة بالقدر الذي يُقنِع من يدعوهم أو يُتخذ خطيباً لبعض المواقف. وكذلك القائد مع جنده بالقدر الذي يبث فيهم روح الحماسة والشجاعة والتضحية.

ولا يتم ذلك لمن شاء النجاح فيها والوصول إلى غايته عن طريقها إلا عن طريق أسس الخطابة وعوامل قوتها ونجاحها.



دواعي قوة الخطابة

من أهم دواعي قوة الخطابة العوامل الآتية:

١ ـ قوة الخطيب.

٢ ـ أهمية الموضوع.

٣ ـ حسن الإعداد.

٤ ـ وجود الفرصة المناسبة زماناً ومكاناً.

٥ ـ توفر الحرية، والتطلع إلى مُثُل عليا في الحياة.

دواعي قوة الخطيب:

تنقسم دواعي قوة الخطيب إلى قسمين: أساسي وفرعي.

القسم الأساسي منها كالآتي:

١ ـ استعداده الفطري، ويمكن له أن يقوي هذا الاستعداد وينميه بالتدريب، وكثرة مزاولة الخطابة.

٢ ـ اللَّسَن والفصاحة: ومنه حسن المنطق، وصحة إظهار الحروف، ثم قوة التعبير، واختيار الألفاظ.

٣ ـ التزود بالعلوم من شتى الفنون. وهذا يساعده على الذي قبله ويمده في كل موقف وعلاج كل موضوع.

٤ ـ حضور البديهة: وهي التي تعينه على مواجهة الطوارئ حسب مقتضيات المواقف المختلفة.

٥ ـ معرفة نفسية السامعين، ليتجاوب معهم ما أمكن: ولهذا العنصر مدى أهميته لأنه مفتاح آذان السامعين، والنافذة التي ينفذ منها إلى القلوب.

٦ ـ العواطف الجياشة بمعاني الموضوع الذي تتناوله الخطبة، وإيمان الخطيب بفكرته، وثقته بنجاحه.

والعاطفة خاصة هي الطاقة التي تحركه، والقوة التي تدفعه، كما أن إيمان الخطيب بفكرته هو الأساس الذي يرتكز عليه، والدعامة التي يقوم عليها بين الجماهير، وثقته بالنجاح هي الرابطة بين موضوعه وشعور الجماهير.

أما العوامل الفرعية فهي عوامل شكلية تكسب الخطيب هيبة ووقاراً تدعم موقفه منها:

١ ـ حسن سمته: مما يلفت الأنظار إليه ويعلي قدره قبل تحدثه.

٢ ـ روعة إلقائه: وتكييف نبرات صوته، وحسن جرسه مما يستولي على أسماع الحاضرين.

٣ ـ حسن إشاراته ومجيئها في مواضعها عند الحاجة.

٤ ـ إخلاصه، سمو أخلاقه، وحسن سيرته، وخاصة في الخطابة الدينية، وقد سمع الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ خطيباً، ولم يتأثر به فقال: يا هذا إن بقلبك لشراً أو بقلبي.

وأخيراً مراعاة كل ما يلزم قبل الإقدام على الخطابة.

عيوب الخطابة وما ينبغي للخطيب تجنبه:

تنقسم العيوب في الخطابة إلى قسمين:

١ ـ قسم خَلْقي في الخطيب يتعلق بالنطق، كاللُّثْغ، والفأفأة، والتأتأة.

أ ـ واللُّثْغُ: هو تغيير بعض الحروف كالراء ينطقها غيناً أو ياء أو بينهما، ويرى كبار العلماء أنه أخفها بل ويستعذبها بعض الناس ويعدها الجاحظ من محاسن النبلاء والأشراف. وواصل بن عطاء من كبار الخطباء وكان ألثغ في الراء فكان يحاول مجانبتها باستعمال كلمات خالية من الراء بدلاً مما هي فيها.

ومن طريف ما ينقل عنه في بشار بن بُرْد يردّ عليه قال: أما لهذا الأعمى الملحد المشنف المكنى بأبي معاذ من يقتله، أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه، ويقتله في جوف منزله

أو في حفله. فتراه قد جانب الراء في (بشار)، وفي (المرعث) وفي (ابن برد) واستبدلها بأوصافه المشنف، أبي معاذ، واستعمل الملحد بدلاً من الكافر، واستعمل بعثت بدلاً من أرسلت، ويبعج بدلاً من يبقر، ومضجعه بدلاً من فراشه، ومنزله بدلاً من داره.

ومثل ذلك ما حكي من أن بعض الناس أراد إحراجه وهو يخطب فناوله ورقة مكتوب فيها:

أمر أمير المؤمنين بحفر بئر على قارعة الطريق ليرده الجائي والرائح.

فتناولها وعلم المقصود منها لكثرة الراء فيها. فقال: حكم الخليفة بشق جب على جانب السبيل ليتزود منه الجائي والغادي. ومثل ذلك وإن كان لا يخلو من الصنعة إلا أنه يعطي صورة لمحاولة تجنب اللثغة في الخطابة.

ب ـ والفأفأة: كثرة ظهور الفاء في الكلام لثقل في اللسان. ومثلها التأتأة وبعض الناس يظهر ذلك في نطقه العادي فإذا أخذ في الخطابة، قلَّ ظهوره في كلامه، إما لحماسه، أو لسرعة إلقائه، أو لشدة عنايته.

٢ ـ وقسم عارض أثناء الخطابة: كالحصر، والإعياء، والاستعانة.

أما الحصر: وهو احتباس اللسان عن الكلام. فقد يطرأ على الخطيب بسبب الدهشة مما يفجأ نظره أو سمعه أو بالحيرة مما يواجهه أو يتوهمه. قال أبو هلال العسكري: الحيرة والدهشة، يورثان الحبسة والحصر. وهذا من أخطر المواقف على الخطيب، سرعان ما تظهر آثاره على وجهه، فيشحب لونه، ويتصبب عرقه، ويجف ريقه، وربما دارت رأسه، وطنت أذنه، وخارت قواه، وقل أن يوجد لهذه الأزمة حلاً إلا جلَدَ الخطيب وقوة شخصيته، وخير وسيلة لتدارك موقفه، إما بالجلوس وتناول شيء من الماء، أو طلبه إن لم يكن موجوداً، ولو لم تكن لديه شدة حاجة. وإما بتناوله كتاباً أو جريدة أو أوراقاً يقلب صفحاتها، أو قلماً يتأمل فيه، أو أي شيء يتشاغل به نسبياً، حتى تذهب عنه الدهشةُ، وهو في أثناء ذلك يعالج بفكره افتتاح الكلام، ولو أن يقرأ فاتحة الكتاب. ومن هنا كانت قوة شخصية الخطيب وإعداده للخطبة أقوى عدة لنجاح الخطابة.

وقد يُسعف الخطيب عبارة موجزة تغطي الموقف فيكتفي بها وكأنه ما أراد إلا هي فيحسن التخلص من المأزق بها.

صور من ذلك:

١ ـ في أول خلافة عثمان ﷺ صعد المنبر ليخطب الناس فأرتج عليه فقال: أيها الناس إن أول مركب صعب، وإن أعش تأتكم الخطب على وجهها، وسيجعل الله بعد العسر يسراً[١]. (هكذا يروي علماء الأدب. وابن كثير يقول: لم أجد ذلك بسند تسكن النفس إليه)[٢].

٢ ـ ما ينقل عن ثابت بن قطنة على منبر سجستان يوم الجمعة وقد أحصر فقال: سيجعل الله بعد عسر يسراً، وبعد عي بياناً، وأنتم إلى أمير فعال أحوج منكم إلى أمير قوال.

فإن لا أكن فيكم خطيباً فإنني　　　بسيفي إذا جد الوغى لخطيب

فكان اعتذاره أبلغ من خطابة غيره، حتى قال خالد بن صفوان لما بلغه خبره: والله ما علا ذلك المنبر أخطب منه في كلماته هذه.

٣ ـ وقال المبرد: حُدِّثت أن أبا بكر ﷺ، ولّى يزيد بن أبي سفيان ربعاً من أرباع الشام، فرقي المنبر فتكلم فأرتج عليه فاستأنف فأرتج عليه فقطع الخطبة فقال: سيجعل الله بعد عسر يسراً، وبعد عي بياناً، وأنتم إلى أمير فعال أحوج منكم إلى أمير قوال. فبلغ كلامه عمرو بن العاص فقال: هن مُخرجاتي من الشام، استحساناً لكلامه.

٤ ـ وقد يسعف الخطيب نفسه بحسن تصرفه في مال أو نحوه كما فعل عبد الله بن عامر بالبصرة لما أرتج عليه يوم العيد فقال: والله لا أجمع عليكم عياً ولؤماً، من أخذ شاة من السوق فهي له وثمنها عليّ.

وعلى الخطيب أن يحتال ليخلص نفسه ولا يرمي بما يجري على لسانه بدون أن يزنه فقد يوقع نفسه في أسوأ مما هو فيه، كما وقع من مصعب بن

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٦٢)، وضعفه مشهور سلمان في كتابه (قصص لا تثبت ٢/ ٧٢) بأن في إسناده الواقدي وهو متروك.

(٢) البداية (٧/ ١٤٨). (حاشية في الأصل).

حيان، دُعي ليخطب في نكاح فأرتج عليه فقال: لقنوا موتاكم لا إلٰه إلا الله. فقالت أم الجارية: عجَّل الله موتَكَ، ألهذا دعوناك.

وقريب منه ما وقع لعبد الله العشري لما أرتج عليه وهو على المنبر فقال: أطعموني ماء، فعُيِّر بذلك لاستعماله أطعموني بدل اسقوني.

أما الاستعانة فهي: ما يتحيل به الخطيب لاستجداء فكره وكلامه. وقد يصبح عادة وهو لا يدري.

من ذلك أن يعبث بأصابعه أو مسبحته أو أنفه أو لحيته أو عمامته... إلخ. أو أن يأتي بعبارات ليست ذات معنى جديد، إما إعادة لعبارات مضت أو قوله لمثل: علمتم أيها الناس، اسمعوا ما أقول، أفهمتهم ما مضى. قال رجل للعتابي: ما البلاغة؟ فقال: كل من أفهمك حاجته من غير إعادة، ولا حبسة، ولا استعانة. فهو بليغ، قال: قد عرفت الإعادة والحبسة، فما الاستعانة؟ قال: أن يقول عند مقاطع كلامه: يا هناه، ويا هذا، ويا هيه، واسمع مني، واستمع إليّ.

قال المبرد (١/١٩): أما ما ذكرناه من الاستعانة فهو: أن يدخل في الكلام ما لا حاجة بالمستمع إليه ليصحح به نظماً أو وزناً إن كان في شعر، أو ليتذكر به ما بعده إن كان في كلام منثور، كنحو ما تسمعه في كثير من كلام العامة مثل قولهم: ألست تسمع، أفهمت، أين أنت. وما أشبه هذا، وربما تشاغل العيي بفتل أصابعه، ومس لحيته، وغير ذلك من بدنه، وربما تنحنح، وقد قال الشاعر يعيب بعض الخطباء:

مليء ببهر والتفات وسعلة ... ومسحة عثنون وفتل الأصابع

وقال رجل من الخوارج يصف خطيباً منهم بالجبن وأنه مجيد لولا أن الرعب أذهله:

نحنح زيد وسعل ... لما رأى وقع الأسل
ويلمه إذا ارتجل ... ثم أطال واحتفل

قوله: ويلمه، أي ويل لأمه عبارة تعجّب، أي إذا ارتجل كان فصيحاً أطال واحتفل ولكنه نحنح وسعل لما رأى وقع السلاح.

وقد يتعود الخطيب بعض تلك الأشياء، فتصبح ملازمة له بدون حاجة، فليحذر المتكلم التعود عليها.

وأحسن طريق لتجنب هذه العيوب، هو حسن التحضير، والإيجاز في التعبير، والتمهل في الإلقاء، حتى يكون كلامه بقدر ما يسعفه تفكيره.

ما يلزم إعداده للخطبة قبل إلقائها:

يلزم للخطبة قبل إلقائها الخطوات الآتية:

١ ـ الإعداد لها من تحضير مواد أساسية لموضوعها.

٢ ـ التخطيط لإلقائها وترتيب نصوصها لحسن عرض موضوعها.

٣ ـ تقسيمها في بنائها إلى مقدمة، وموضوع، وخاتمة.

التحضير للخطابة

تعتبر الخطابة كأي صناعة فنية، والخطبة في ذاتها تعتبر في وجودها كأي كائن فني له عوامل إيجاد تسبق وجوده، وهي في نظري أشبه ما تكون ببناء بيت ثابت الأركان محدد الجوانب، كما قاسوا بيت الشِعْر ببيت الشَعَر، تماماً بتمام. وعليه، فكما أن إقامة بيت للسكنى يحتاج إلى تحضير سابق يبدأ من اختيار المكان ثم تجهيز المواد الأساسية ثم الزمن الملائم لبدء البناء.

فهكذا التحضير للخطبة لا بد من اختيار المكان أو مراعاة ملائماته، ومثله الزمان كذلك. أما المواد فلا بد من استحضارها وهي النصوص والشواهد والأدلة فمثلاً يريد الحديث عن الاستقامة: فعليه أن يستحضر أولاً وقبل كل شيء النصوص التي لها صلة بالموضوع كقوله ﷺ: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»[1]، وقوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [فصلت: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿... وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨).

بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقول ابن مسعود رضي الله عنه: «خط لنا رسول الله ﷺ خطاً مستقيماً ثم قال: «**هذا سبيل الله مستقيماً**»، وخط يمينه وشماله خطوطاً ثم قال: «**هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه**» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]»[١].

التخطيط للخطبة

فإذا استكمل استحضار تلك النصوص وما يماثلها لأي موضوع، بدأ يفكر ويخطط ويرتب ويختار بأي هذه النصوص يبدأ كلامه؟ وأيها يكون ختامه؟ وأيها يكون كأصل؟ وأيها يكون كالمتمم والمبين؟ وهذا التخطيط لغرض النصوص هو كالتخطيط تماماً لإقامة البيت، أين يكون مدخله وأركانه ومجالسه ونوافذه؟ فكما أن تخطيط الأرض للبناء، يحدد معالمها، ويسهل بناءها، فكذلك التخطيط للخطبة، يساعد على حسن تنسيقها، وقوة عرضها، وسهولة فهمها للسامعين.

تطبيق ذلك على ما تقدم من نصوص الاستقامة:

١ ـ لو اعتبرنا آية الاستقامة هي أساس في الموضوع وقدمناها وتكلمنا على أولها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، وبينا معاني الربوبية وتوحيد الربوبية كاملاً قدر الإمكان، ثم انتقلنا إلى ﴿ٱسْتَقَٰمُوا﴾ فجعلناها مجملة، وقلنا: إن معنى الاستقامة هنا عام يحتاج إلى تفسير كما في الحديث: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»[٢]، وجعلنا قوله ﷺ: «**قل آمنت بالله**»، مثل مقدمة: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، فتكلمنا أيضاً على معنى آمنت بالله وجئنا بمعاني توحيد الألوهية، وبمقدمة كل من الحديث والآية وجدنا مناسبة للكلام على قسمي التوحيد وليكن بالقدر الذي يجعله كأساس للاستقامة مبتدئاً من العقيدة.

٢ ـ ثم نأتي إلى الاستقامة كما قلنا فنجدها عامة وفي حاجة إلى بيان

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٥ و٤٦٥)، وحسنه الألباني في ظلال الجنة (١٧).

(٢) أخرجه مسلم (٣٨).

فنأخذ الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣].

فستجد مطلع الآيات متفقاً مع ما قبله ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ فتشير إلى هذا الربط وهذه المشاركة بدون إطالة وإعادة مملة، ثم تمضي تعدد الأوامر والنواهي المذكورة كلها وتبين شمولها لشتى مرافق الحياة وتنبه على أن هذا هو تفسير الاستقامة المجملة في تلك النصوص مستشهداً بنهاية الآية ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ أي المذكورات ﴿صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ وأن ما عداها سبل ضلال. ونأتي بالحديث: «**خط لنا خطاً**»!!... إلخ مبيناً خطر السبل الأخرى.

٣ ـ ثم تشير إلى عناية الإسلام بالاستقامة وعظم شأنها بما تعبدنا الله تعالى من سؤالها في آية ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) ...﴾ إلى آخر السورة.

٤ ـ ثم تعود إلى نهاية آية الاستقامة التي بدأت بها مبيناً ما أعد الله للمستقيمين من حسن الجزاء معجلاً في الدنيا ومؤجلاً في الآخرة.

أ ـ ففي الدنيا: تنزل عليهم الملائكة عند النزع ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

ب ـ وفي الآخرة: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

تنبيهان:

الأول: يلاحظ عند عرض جزئيات الآية السابقة ضرورة مراعاة الزمن

وظروف السامعين فيمكن له أن يطيل في بعض النقاط ويقتصر في بعضها الآخر حسب ما يلحظه في مجتمع السامعين.

الثاني: إن عمل التخطيط المشار إليه من الأهمية بمكان، كما يُفهم من تصريح عمر ﷺ يوم السقيفة حيث قال: «لقد زوَّرت كلمات أعجبتني»، أي حضَّرتها وأعددتها، فقال لي أبو بكر: على رِسلك يا عمر، فوالله لقد جاء عليها كلها[١]. فهذا عمر الملهم، وعمر سفير قريش في الجاهلية. سفير في الجاهلية وملهم ومحدث في الإسلام، يزوِّر[٢] كلمات يواجه بها الموقف. فمن لم يبال بهذا العمل فإنه لا يسلم من الفشل. وقد قال الجاحظ: إنما يجترئ على الخطبة الغِرُّ الجاهل الماضي الذي لا يثنيه شيء، أو المطبوع الحاذق الواثق بغزارته واقتداره.

وقال بشار يصف جلة من الخطباء، واصل بن عطاء، وخالد بن صفوان، وشبيب بن شيبة، والفضل بن عيسى، يوم خطبوا عند عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بقوله:

تكلفوا القول والأقوامُ قد حفلوا   وحبَّروا خطباً ناهيك من خطب

فنص على عنايتهم بخطبهم وتحضيرهم إياها إلى حد التكلف، والتحبير أي التجويد.

هذه نبذة من عناية الخطيب بخطبته وتحضيره موادها وتخطيطه لموضوعها، والموضوع جزء أساسي منها حيث أنها تبنى من أجزاء ثلاثة كالآتي، يتوقف على ترتيبها حسن نتائجها.

أجزاء الخطبة

اتفق علماء البيان وفن الخطابة، على أن الخطبة تبنى من أجزاء ثلاثة هي:

١ ـ المقدمة، ٢ ـ الموضوع، ٣ ـ الخاتمة.

ولكل جزء منها أهميته ومساهمته في إنجاحها.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٣٠).

(٢) زَوَّر الشيء تزويراً: حَسَّنه وقَوَّمَه. (حاشية في الأصل).

١ ـ المقدمة

هي عبارة عما يستهلُّ الخطيب كلامه، وأول ما يطرق آذان السامعين بادئ ذي بدء؛ فتنفتح له الآذان، وتتهيأ به الأذهان، فينتقل السامع بمقتضاه من جو اللامبالاة، إلى الاعتناء والانتباه، فيستيقظ شعوره لما سيلقى عليه. وكان يعمد الشعراء إلى الغزل في مطلع القصيدة لهذا الغرض.

ومن هذا القبيل إيراد الرسول ﷺ السؤال على معاذ قبل أن يبين له: «**أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟**»(١)، ففيه توعية له وانتباه لأهمية ما سيلقى عليه، بل وتطلع لما كان منصرفاً عنه.

إلا أن مقدمة الخطبة ينبغي أن تشتمل على أكثر من ذلك، وهو أن تشير إلى ما له صلة بالموضوع، حتى ليكاد الفَطِن أن يدرك ما سيتحدث عنه الخطيب، وهو المسمى ببراعة الاستهلال.

أنواعها: إذا علمنا أن المقدمة للخطبة بمثابة المفتاح للقفل، حيث إنها تفتح الآذان وتنبه الشعور ليعي القلب ما سيلقى عليه، فمن الضروري تنوع المقدمات بتنوع المواضيع.

أ ـ فقد تُستهل بحمد الله تعالى والثناء عليه، وهو الكثير الغالب.

ب ـ وقد تُستهل بالترحم على عظيم، كخطبة علي ﷺ، يوم وفاة أبي بكر ﷺ، حيث وقف على الباب الذي فيه الصديق ﷺ فقال: يرحمك الله أبا بكر، كنتَ إلف رسول الله ﷺ وأنسه وثقته، وموضع سره... واسترسل في تعداد مناقبه ﷺ فما قضى كلامه حتى أبكى الحاضرين وعلت أصواتهم. وقد فعل الحجاج لما مات ولده محمد

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠١)، ومسلم (٣٠).

وجاءه نعي أخيه محمد فقال: أيها الناس، محمدان في يوم واحد، وأما والله ما كنت أحسب أنهما معي في الحياة الدنيا لما أرجو لهما من ثواب الله في الآخرة. فقد بدأ باسمهما لعظيم فجيعته فيهما.

جـ - وقد تُبدأ ببيت شعر يتناسب مع موضوعها كما فعل الحجاج لما قدم العراق وصعد المنبر ضحوة نهار وصمت ساعة والناس ينظرونه وينتظرون ما يفعل حتى بدأهم بقوله:

أنا ابن جلا وطلّاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفوني

وكما على الخطيب أن يولي مقدمته عنايته، وأن يتخير ما يناسب موضوعه فإنه يجب عليه ألا يطيل فيها ويفرغ جهده في مقدمته. فيأتي إلى الموضوع الذي هو الأساس وقد أجهد فيقصر في عرضه، أو يكون السامع قد سئم فلا يستوعبه فتضيع الفائدة ولا تتحقق الغاية.

الاستغناء عن المقدمة: وقد يستوجب المقام ترك المقدمة بالكلية والاستغناء عنها في الحالات الآتية:

١ - إذا كان الموضوع واضحاً لا يحتاج إلى لفت الأنظار، أو كان سهلاً بسيطاً لا يستوجب شدة انتباه.

٢ - إذا كان الكلام في موضوع سبق أن تناوله متحدث قبله كالمشتركين في ندوة أو المتكلم الأول قدم للموضوع بما يكفي.

٣ - إذا كان الكلام عن جزئية في موضوع كتعليق على خطبة أو محاضرة أو نادي.

٤ - إذا كان الكلام في موضوع كثير التناول ولن يأتي المتحدث فيه بجديد.

٥ - إذا كان الوقت ضيقاً لا يتسع إلى مقدمة، والفرصة تفوت وتضيع الفائدة.

ففي هذه الحالات يعمد المتكلم إلى الموضوع مباشرة.

وقد يجتزئ الخطيب مقدمته ويأتي إلى الموضوع حالاً لخطورة الموقف، وشدة تطلع الحاضرين إلى الحقيقة المنتظرة، كما فعل الصديق ﵁ في خطبته عند وفاة الرسول ﷺ، حين كثر الكلام في المسجد واختلط الأمر على الناس فاستنصت عمر فلم ينصت فتركه وصعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم

قال: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت[١].

وفي مثل هذه الحالة يجب أن يدعم الخطيب كلامه بأقوى الأدلة المقنعة التي تثبت كلامه وتلزم السامعين به كما فعل الصديق ﷺ فتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ...﴾ [آل عمران: ١٤٤] إلى آخر السياق. فقد كان إلقاؤها عليهم آنذاك وحسن اختيارها بمثابة تجدد نزولها فما إن سمعها عمر حتى هوى إلى الأرض ما تقله رجلاه.

ومثلها خطبته ﷺ يوم بويع بالخلافة؛ حمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إني وليت عليكم ولست بأفضلكم، ولكن نزل القرآن وسن النبي ﷺ وعلمنا فعلمنا، إلى أن قال: أيها الناس أنا متبع ولست بمبتدع، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فردوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

وكلما كانت المقدمة مسلَّمة منطقياً كلما كانت أقوى أثراً وأدعى إلزاماً، وهذا يتحتم في معرض الإنكار والمكابرة، كما فعل النبي ﷺ عند بدء إعلان الدعوة؛ جمع قومه ثم قدم لهم بقوله بعد حمد الله والثناء عليه فقال: «**إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم، ولو غررت الناس ما غررتكم والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم حقاً، وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون...**» إلخ[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٥٤).

(٢) ذكره ابن الأثير في الكامل في التاريخ (١/ ٥٨٤) فقال: وقال جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم، ولم يسق إسناداً.

قال الألباني في فقه السيرة (ص١٠٥): لم أجد في الرواة هذا الراوي وإنما فيهم «جعفر بن عبد الله بن الحكم» وهو أنصاري دوسي تابعي صغير يروي عن أنس والتابعين، فإذا كان هو هذا، فالإسناد مرسل ضعيف، ولم أقف على إسناده فيه، وإن كان غيره فلم أعرفه.

فقد اجتزأ ﷺ المقدمة لكنه أتى بها قضية مسلَّمة «**إن الرائد لا يكذب أهله**» وأكدها في خصوص موقفه معهم: «**والله، لو كذبت الناس ما كذبتكم**» مع أنه الصادق الأمين عندهم. ثم أتى موضوعه حالاً بإعلان رسالته إليهم وإلى الناس. ثم دعم مقالته ووعده بالبعث بصور مسلَّمة أيضاً لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون.

ومن هنا نعلم مدى أهمية المقدمة ومتى تجتزأ ومتى يمكن الاستغناء عنها وكيف نكيفها حسب الموقف. وهذا يرجع إلى تقدير الخطيب نفسه. للموقف الذي يواجهه والموضوع الذي سيلقيه ونفسيات السامعين الذين سيخاطبهم.



٢ ـ الموضوع

موضوع كل خطبة هو الجزء الرئيسي فيها، وهو المعنى الذي يعمد الخطيب إلى بيانه وهو الدافع له على أن يقوم خطيباً، كما في خطبته ﷺ يوم جمع قومه عند الصفا وخطبهم فقد بدأ خطبته بحمد الله والثناء عليه ثم قال: «**إن الرائد لا يكذب أهله. والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ولو غررت الناس ما غررتكم أترون لو أني أنذرتكم جيشاً فقلت مسّاكم وصبّحكم أكنتم تصدقوني؟ قالوا: نعم، قال: والله إني لرسول الله إليكم حقاً وإلى الناس أجمعين**»[(١)].

فموضوع الخطبة هو تبليغه ﷺ قومه أنه رسول الله إليهم. وما سبق هذا الجزء من المعاني إنما هو مقدمة يهيئ بها الأذهان ويستوثق بها منهم في صدق حديثه. فهو أمر جانبي بالنسبة إلى الموضوع ولهذا انفلت لسان أبي لهب وعبر عن سخطه: ألهذا جمعتنا؟!.. فموضوع الخطبة هو الذي أثار حميته وأنطقه بالسخط.

وكذلك موضوع خطبة الصديق رضي الله عنه في المسجد يوم وفاة النبي ﷺ إنما هو إبلاغ الناس بحقيقة وفاة رسول الله ﷺ، وكل ما جاء قبلها فمقدمة.

وموضوع خطبته يوم السقيفة إنما هو اختيار الخليفة، وكل ما جاء قبلها فمقدمة لها، فالموضوع في الخطبة هو المقصود بالذات. ومن هنا عظمت أهميته واستوجب الاهتمام به.

أهم متطلبات الموضوع:

لكي ينجح الخطيب في تقديم موضوعه يجب عليه الاهتمام بالآتي:

---

(١) انظر تخريجه في الحاشية السابقة.

أولاً: وقبل كل شيء، اختياره اختياراً مناسباً للمقام، فلا يقدم موضوع حماسة وشجاعة عند تعزية في عزيز، ولا يقدم في معرض صلح بين متخاصمين موضوع حمية وعزة وإباء، بل في الأول يقدم عبارات الأسى والأسف والصبر. وفي الثاني موضوع العفو والإحسان والصفح والغفران. . . إلخ.

ثانياً: إفراد الموضوع، فلا يجمع بين عدة معان لعدة مواضيع في وقت واحد.

كما لو كان في موقف دعوة إلى صلح فيفرد موضوعه على طلب الصلح وقبوله ولا يُدخل في موضوعه أمور الصلح وما يصطلحون عليه ولا يقلب أسباب النزاع وغيرها.

ولا يمنعه في ذلك أن يعرض صوراً لنزاعات مماثلة اصطلح أهلها، وجنوا ثمار الصلح عاجلاً.

ويلاحظ أن بعض الأمور قد تشترك في أصل المعنى كموضوع تطفيف الكيل مع بخس الميزان فإنهما يشبهان الموضوع الواحد فلا مانع من جعلهما موضوعاً لخطبة واحدة.

وبجانب هذا أيضاً توجد معان متقاربة كالغش والتدليس في البيع فمن الممكن الإلمام بهما في موضوع تطفيف الكيل وبخس الوزن عَرَضاً لا قصداً. نظراً إلى اتحادهما في عموم الغبن في التعامل وإدخال الضرر على أحد المتعاملين. البائع والمشتري.

ولو أفرد كل منهما بخطبة تستوعب أطرافه وتلم بجزئياته وأنواع تفنن الناس في الغش عن طريقه وإيراد ما أمكن من نصوصه الخاصة به كان أولى وأجدى وأجمع لذهن السامع.

كذلك لا ينبغي للخطيب أن يجعل طول الخطبة وقصرها من مهام حسبانه بل المهم كل الأهمية إفهام السامعين وتأثرهم بموضوع الخطبة، وقد يكون قصرها أبلغ وأيسر كما قيل خير الكلام ما قل ودل. ومن وصايا الصديق رضي الله عنه الإيجاز لأن طول الكلام ينسي بعضه بعضاً. ولا سيما إذا كانت الخطابة في الوعظ والإرشاد وبالأخص للجُمع.

وفي الحديث: «**إن طول صلاة الرجل وقِصَرَ خطبته مَئِنَّةٌ**[١] **من فِقْه الرجل فأقصروا الخطبةَ وأطيلوا الصلاةَ وإن من البيان سحراً**». رواه مسلم وأبو داود[٢].

وعليه فلا مانع من أن يقصر الخطيب موضوع خطبته على معنى واحد يستوفي الكلام عليه ولو كانت خطبته قصيرة.

وقد يعدد المتكلم مواضيع مختلفة في بعض المواقف، وهذا أشبه بالبيان والبلاغ منه بالخطابة كما في خطبته ﷺ في حجة الوداع وكخطب الساسة والزعماء في بيان أعمالهم ومنجزاتهم، أو عرض خطة سياستهم، وهذا بيان لا خطبة.

ثالثاً: الترتيب والتنسيق: وفق ما سبقت الإشارة إليه في الكلام على التخطيط للخطبة فيرتب موضوعه ترتيباً منسقاً متوالياً ولا يقطعه باستطرادات تبعد السامع عن مجال الفكرة الأساسية، وتقطع استرساله في التفكير مع الموضوع الأساسي.

رابعاً: تكييف الأسلوب حسب اقتدار السامعين على الفهم، وكلما كان واضحاً مبسطاً كان أفضل، ويزيده وضوحاً إيراد الأمثلة والاستشهاد بالأدلة.

خامساً: التدليل وإيراد الأدلة من أقوى عوامل الإقناع وسياقها يحتاج إلى ترتيب خاص وهو أن يوردها في مناسباتها ومتفاوتة وتدريجياً يتدرج بها تدرجاً تصاعدياً يبدأها بالضعيف ويختمها بالأقوى، ليكون إيراد الدليل الضعيف أولاً بمثابة إيجاده انتباه وتفكر، ثم يأتي الدليل الذي بعده قوياً فيوجد تفكيراً وتردداً. ثم يأتي الدليل الأخير أقوى ليكون مقنعاً قاطعاً الترددَ وجازماً بالمطلوب. كما في نصوص الخمر مثلاً[٣].

---

(١) أي إن ذلك مما يعرف به فقه الرجل (النهاية لابن الأثير). (حاشية في الأصل).

(٢) أخرجه مسلم (٨٦٩)، وأخرجه أبو داود (١١٠٦) مختصراً.

(٣) بدأت أولاً بمقارنة بين إثمها ونفعها وترجيح الأول بدون نهي عنها. ثم جاء النهي عنها أوقات الصلاة فقط ليتعقلوها. فأوجد هذا تطلعاً لمصيرها وقال عمر رضي الله عنه: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً.
ثم جاء أخيراً التحذير من وقيعة الشيطان بينهم بالبغضاء، وختم بالاستفهام التهديدي =

وتعتبر الأدلة في الخطابة قسمين:

أ ـ أدلة منطقية: تقوم على ترتيب مقدمات تنتج قضايا مسلَّمة عقلاً، وهذه الأدلة لا تكون إلا في مستوى علمي وفي مواضيع علمية.

ب ـ أدلة خطابية ويمكن تقسيمها إلى نقلية وعاطفية.

فالنقلية: ما يكون من آية، أو حديث، أو حكمة مسلمة، أو كلام مشهور.

والعاطفية: ما كان مستنتجاً من شعور الناس وإحساسهم مما تعارفوا عليه وهذا القسم يحسن في المجالات العامة ويكون تأثيره أقوى على العوام، لأنه يثير شعورهم ويحرز إعجابهم ويسهل فهمه والتسليم به.

وكذلك ما يأتي من الآيات والأحاديث مناسباً مع الموضوع وصريحاً فيه.

تنبيه: قد يعمد بعض الخطباء إلى أدلة سفسطائية بقصد التمويه إذا كانت له حاجة كخطباء اللجان العامة أو السياسيين الذين يخططون للجماهير تخطيطاً مغايراً لما هم عليه ويريد أن يستميل العامة إلى جانبه. وكما يفعل المرشحون للانتخابات في البلاد النيابية. وهنا يجد الخطيب نفسه وسط وعود كاذبة والتزامات خيالية. وهذا النوع وإن أكسبه عدداً من العوام إلا أنه يفقده ثقة الجميع فيما بعد.

وعليه ينبغي على الخطيب أن لا يسرف في الوعود الكبيرة، ولا يمعن في مقام الزجر بإيراد النصوص التي هي الغاية في الوعيد، ولا يسمح لنفسه أن يورد كل ما سمع من أوصاف الهول والشدائد، رغبة في قمع النفوس، لأن الأذهان مهما كانت ستقيسها بما تستطيع تصوره، فقد يكون الإمعان في التهويل مدعاة للتشكك فيما يسمعون. وكما في الأثر: «حدثوا الناس بما يعقلون أتحبون أن يكذَّب الله ورسوله»[(١)].

= ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ حتى بادر عمر رضي الله عنه فقال: انتهينا يا رب. (حاشية في الأصل).

(١) أخرجه البخاري (١٢٧) من قول علي رضي الله عنه.

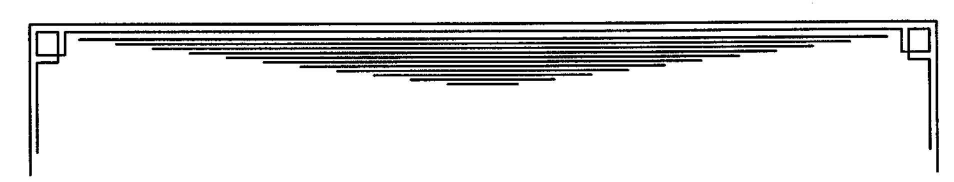
٣ ـ الخاتمة

خاتمة الخطبة عبارة عن خلاصتها يوجز فيها ما مضى ويستخلص فيها نتيجة ما قدم. وهي الطرف المقابل للمقدمة فكما أن المقدمة تنبه ذهن السامع للموضوع فالخاتمة تنهي أفكار السامع بخلاصة الموضوع كي تظل تلك الخلاصة ذات أثر في ذهنه يرن صداها في أذنه وتتراءى معانيها في مخيلته وتتردد عباراتها على لسانه.

ومن هنا وجب ألا تكون محل شرح أو نقاش أو تدليل بل تكون محض خلاصة؛ لو أراد السامع أن يعرضها على غيره سهل عليه ذلك؛ ولو أراد أن يصدر حكمه بناه عليها واستخلصه منها.

وبها يحصل الخطيب على مراده من الموضوع الذي عرضه فإن كان دعوة إلى مشروع نال التأييد، وإن كان وعظاً عاماً استمال القلوب، وإن كان تهنئة بجديد شاركه السامعون تهانيه، وإن كان تعزية في فقيد تجاوب معه السامعون في تعازيه، وهكذا في كل موقف مع الجماهير. ومن هنا تتنوع الخاتمة بتنوع المواضيع كما تنوعت المقدمة تماماً.

أنواع الخاتمة: كما تتنوع المقدمة حسب تنوع الموضوع فتأتي ملائمة له مُهَيِّئَة الأذهان إليه؛ فكذلك الخاتمة تتنوع حسب تنوع الموضوع فتأتي مستجمعة لأطرافه يسترد الذهن شوارده ويستجمع الفكر فيها، فإن كان الموضوع توجيهياً، كانت الخاتمة خلاصة موجزة لأهم نقاط التوجيه، وإن كان الموضوع مثلاً تحذيراً عن تعاطي المسكرات فيجمع في الخاتمة عناوين عامة: **فيذكر تحريمها والوعيد عليها ومفاسدها على الفرد وعلى الجماعة أدبياً واقتصادياً**، ويذيلها بمثل قوله: فعلينا أن نصون أنفسنا ومجتمعنا من هذه المفاسد، وبالله التوفيق.



نماذج خطابية للدراسة والتحليل
اشتملت على التقسيم السابق للخطبة

أولاً: من العصر الجاهلي

١ ـ خطبة في الرثاء:

خطب المهلب بن عوف يعزي الملك سلامة بن فاتش في ولد كان يرشحه لمنصبه فقال: أيها الملك إن الدنيا تجود لتسلب، وتعطي لتأخذ، وتجمع لتشتت وتحلي لتمُر. وتزرع الأحزان في القلوب بما تفجأ به من استرداد الموهوب، وكل مصيبة تخطأتك جَلَلٌ ما لم تُدنِ الأجل، وتقطعِ الأمل، وإن حادثاً ألمَّ بِكَ فاستبدَّ بأقلك وصفح عن أكثرك لمن أجلِّ النعم عليك، وقد تناهت إليك أنباءُ من رُزِئَ فصبر، وأصيب فاغتفر، إذا كان سوى فيما يرتقب ويحذر، فاستشعر اليأس عما فات، إذ كان ارتجاعه ممتنعاً، ومرامه مستصعباً فلشيء ما ضربت الأسى، وفزع أولو الألباب إلى حسن العزاء.

دراستها:

أولاً ـ موضوعها: ظاهر بها العزاء في عزيز.

ثانياً ـ جوُّها: لقد قيلت لملك أصيب في أعز أبنائه اشتد حزنه عليه حتى اقتصر عن الناس فالموقف رهيب والجو معتم قاتم.

ثالثاً ـ العرض: نلحظ حسن عرض الخطيب، وحسن تصرفه، ولطف مدخله، وسلامة تقسيمه.

أ ـ بدأ بمقدمة تلفت النظر وتفتح الآذان، وتنبه الشعور، حين بدأ بقوله:

أيها الملك إن الدنيا تجود لتسلب، فوصف الدنيا بصفات مسلَّمة وقضايا واقعية، أمس ما تكون بموضوع التعزية، وجمع بين متقابلات أصدق تصويراً لموضوع العزاء كذلك «تجود: تسلب»، «تعطي: تأخذ»، «تجمع: تشتت»، «تحلي: تمر» مما يوطنه القلب لاستقبال الأحداث وتحمل الحوادث.

ثم دخل إلى الموضوع بمدخل لطيف، فقال: وتزرع الأحزان في القلوب، بما تفجأ به من استرداد الموهوب فهذا الجزء من الخطبة، وإن كان مفهوماً ضمن عمومات لتسلب، ولتأخذ، ولتشتت إلا أنها هناك قضايا عامة تتصل بالموضوع من بعيد، وهنا قضية خاصة تقترب من الموضوع بلطف، ويشير إلى الأحزان وأسبابها.

الموضوع: ثم أتى الموضوع بقوله: وكل مصيبة تخطأتك جلل ما لم تدن الأجل، وتقطع الأمل، وإن حادثاً ألمّ بك فاستبد بأقلك، وصفح عن أكثرك لمن أجلِّ النعم عليك.

فقد قارن له بين مصابه في ولده، ومصاب الناس في شخصه، فكان مصابه في ولده مصيبة، وسلامة شخصه نعمة، ويهون المصاب عليه، ثم أخذ يواسيه بذكر نماذج وأمثلة.

فعرض عليه من أصيب بمصابه ليتأسى بهم فقال: وقد تناهت إليك أنباء من رزئ فصبر، وأصيب فاغتفر، وفي هذا كله عزاء وتسلية كما أشار القرآن الكريم بقصص الأنبياء عزاءً للرسول ﷺ وتأسّياً بالمرسلين السابقين مع أممهم.

الخاتمة: ثم انتهى إلى خاتمة تعتبر كنتيجة لمقدمة مسلمة فقال: فاستشعر اليأس عما فات، ثم أتاه بدليل ملزم إذ كان ارتجاعه ممتنعاً ومرامه مستعصياً، وأنهاه إلى ما يفزع إليه أولو الألباب من حسن العزاء. (فلشيء ما ضربت الأسى وفزع أولو الألباب إلى حسن العزاء).

تراه قدم لموضوعه بوصف الدنيا بقضايا مسلّمة، ثم دخل إلى الموضوع برفق ثم تلطف في عرضه للموضوع، وعقد المقارنة بين ما يهون الأمر، ثم ألزمه العزاء بصور الماضين وبهذا وصل إلى مطلوبه ونجح في مهمته وخرج الملك من عزلته وخالط الناس.

٢ ـ نموذج في خِطبة نكاح:

من أمثل الخطب في النكاح خطبة أبي طالب في زواج الرسول ﷺ بالسيدة خديجة، ولا يخلو منها كتاب أدب. قال:

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وجعل لنا بلداً حراماً وبيتاً محجوجاً، وجَعَلَنَا الحكامَ على الناس، ثم إن محمدَ بنَ عبد الله من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح عليه براً وفضلاً وكرماً وعقلاً وإن كان في المال قُلٌّ، فإن المالَ ظلٌّ زائلٌ، وعاريةٌ مسترجَعةٌ، وله في خديجةَ بنتِ خويلدٍ رغبةٌ، ولها فيه مثلُ ذلك وما أحببتم من الصداق فَعَليَّ.

دراستها:

أولاً ـ موضوعها: ظاهر فيه طلب النكاح من كريم إلى فاضلة.

ثانياً ـ جوُّها: لقد قيلت في خِطبة نكاح سيد قومه، ومن وُصف برجاحته بِراً وعقلاً وفضلاً وكرماً، من سيدة فاضلة من فضليات نساءِ قومها، فالموقف باسم والجو مشرق.

ثالثاً ـ العرض: لقد جاءت حديثَ شكر، واعترافاً بفضل، واعتزازاً بأصل، أجاد عرضَها، وأحسن تقسيمَها.

ابتدأ مقدمتها بحمد الله والثناء عليه مع بيان موجبات ذلك، متضمناً عراقة الأصل وبعد المنزلة فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل، وفي ذكر الذرية والزرع، إثارةُ الشعور وانتباه الذهن إلى اتجاه الموضوع، ومدى ارتباط النكاح بالذرية، والذرية بالزرع.

ثم جاء حسن الانتقال إلى حاضرهم في بلد حرام، وحول بيت محجوج في ملك أصيل مما يعلي شأنهم ويبين رفيع منزلتهم، مما يتناسب وموقف الخاطب بعرض ما يرغب فيه من مصاهرة أمثاله.

الموضوع: ومن هذا كله إلى الموضوع، ثم إن محمد بن عبد الله، وهو المعروف لديهم بشخصه ونسبه، ثم وصفه بصفات المعاني المحمودة، وقارن بينه وبين جميع فتيان قريش، ورجحه عليهم، مما يقوي الرغبة فيه، ويسرع



بالاستجابة إليه. «وله في خديجة بنت خويلد رغبة»، تعبير لطيف وأسلوب رفيع يحفظ الكرامة ويصون المروءة، «ولها فيه مثل ذلك» تقابل مقبول ورغبة متبادلة، يمنع التردد في الإجابة.

إن مما يستلفت النظر ما علم من أن خديجة ﵂ هي التي رغبت إليه وارتضته لنفسها، ولم نجد لسبق الرغبة هنا أثراً في هذه الخطبة. مما يعطينا صورة عن مقام الخطبة في النكاح أنها عامل تكريم، وكرامة المرأة في تمنُّعها وإبائها، وكرامة الرجل في تقدمه وإغلاء مطلوبه عنده، ولذا بدأ أبو طالب في تقديم إعلان رغبة محمد قبل رغبة خديجة. ثم أعلن استعداده لما أحبوا من الصداق فقال: وما أحببتم من الصداق فَعَلَيّ. فكان هذا العرض كالخاتمة، يشعر بأنهم قد استجابوا بالفعل وكأنه لم يبق إلا الصداق.

وقد اعتذر عن قلة مال ابن أخيه وتحمل عنه الصداق ولم يقصر لهذا السبب بل جعله وفق محبتهم هم لا مماكسة ولا مشارطة.

الخاتمة: ويمكن أن يقال: إن خاتمة هذه الخطبة مقتضبة. وهو كذلك لأن الغرض من الخاتمة إنما هو تلخيص ما سبق من عرض الموضوع ليلم به السامع في إيجاز.

وهنا لا حاجة إلى إلمام ولا إلى إيجاز لأن الغرض معروف والنتيجة واضحة، ولكأنه أشار إليها بأنها حاصلة ومنتهية، بأنهم أجابوا وتم الرضا والقبول لمجرد عرض الخطبة. ولذا بادر بالصداق مع أنه من المتعارف أنه لا يذكر الصداق إلا بعد إعلان الرضا والقبول. وهو هنا شعر بها واطمأن إلى إجابتهم، وبهذا الاطمئنان تنتهي المهمة فلا حاجة إلى خاتمة تستوعب ما فات أو توجزه لسامع ما دامت المهمة قد تمت وحصل القبول والموافقة. ولذا بادرهم بالصداق كما يحبون.

ومن هنا نعلم أنه كما يمكن في بعض الحالات ترك المقدمة أو إيجازها لوجود ما يغني عنها أو لضيق الوقت، فكذلك الخاتمة قد تترك أو توجز لانتهاء المهمة وحصول المطلوب.

بل قد تترك الخطبة كلها إذا انتهت مهمتها كما في أمثلتهم: قطعت جهيزة قول كل خطيب.

٣ ـ نموذج في الحماسة والقتال:

خطب هانئ بن قبيصة الشيباني يوم ذي قار ـ وكان من أهم أيام العرب في الجاهلية بين العرب والفرس، وقع إبّان مبعث النبي ﷺ ـ وسبب ذلك اليوم أن كسرى حقد على النعمان بن المنذر لما حبس عدي بن زيد، وكان زيد من المقربين لدى كسرى، فاستدعى النعمان إليه، وقتله غدراً. وكان النعمان قد أودع سلاحه وابنته هندَ عند هانئ، فخشي كسرى أن يُستعمل هذا السلاح ضده، فطلبه من هانئ وشدد عليه، فرفض تسليمه وأبى عليه، فاشتعلت الحرب بينهما.

وعندئذٍ نسي العرب ما بينهم من خصومات وتجمعوا لحرب عدوهم من الفرس فاجتمعوا على ماء يسمى ذي قار قرب البصرة. فقام فيهم هانئ قائلاً:

«يا معشر بكر، هالك معذور خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبرَ من أسباب الظَّفَر، المنيةُ ولا الدَّنيَّةُ، استقبالُ الموتِ خيرٌ من استدباره، الطعن في ثُغَر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر، قاتلوا فما للمنايا من بُد».

دراستها:

أولاً ـ موضوعها: ظاهر فيه الحث على القتال والدعوة إلى الثبات.

ثانياً ـ جوُّها: قد يكون هذا الموقف هو الأول من نوعه بالنسبة إلى العرب مع الفرس يلتقون وجهاً لوجه مع عدو أجنبي عنهم، طالما تطاول عليهم بماله وكاثرهم بعدده وتفوق عليهم بعُدده، وكم اصطنع منهم عمالاً، ونصب فيهم ملوكاً يحكمونهم باسمه.

والآن يقفون معهم وجهاً لوجه وقفة الند للند، والكفء للكفء، فلا شك أن يكونوا متهيبين عدوهم متخوفين قتالهم، فالجو مخيف والموقف رهيب ينتابهم القلق وتساورهم المخاوف. فلا بد من استبسال واستماتة، وهذا يتطلب شجاعة وثباتاً وإقداماً، وإثارة الحمية والاعتزاز والإباء.

ثالثاً ـ العرض: بالنظر إلى خطورة الموقف، وضيق الوقت نجد الخطيب قد أجاد كل الإجادة في عرضه الخطبة عرضاً يتناسب مع الموقف والزمن.

أ ـ استهلها بتفخيم المخاطبين: «يا معشر بكر»، لأن لفظ المعشر لا يستعمل إلا للتفخيم وللأشراف، ولضيق الوقت عمد إلى الموضوع مباشرة، واكتفاء بما يمليه الموقف المتوتر، وبناء على تهيؤ الأذهان، واستيقاظ المشاعر والأحاسيس لجو القتال، ولذا عمد إلى صميم الموضوع بقوله: «هالك معذور خير من ناج فرور»، فجاء بمقارنة بين موقفين متقابلين: رجل قاتل حتى هلك بعذره، ورجل فر ونجا بفراره، فجعل الهلاك بعذر خيراً من النجاة بفرار، وهذا كاف للثبات في أرض القتال والصمود أمام العدو. «إن الحذر لا ينجي من القدر»، وهذا رد منطقي على مضمون ما عساه أن يخالج النفوس بالفرار حذر الموت، فيقول لهم: إن كان الفرار يقع حذراً من الموت، فإن الحذر الذي يدفع صاحبه إلى الفرار لن ينجي من القدر، وفي هذا وَصْدٌ للباب أمام الفارين.

«وإن الصبر من أسباب الظفر»، إذا كان الحذر لا ينجي من القدر فلا داعي إلى الفرار ولا مناص من الصبر. فهنا جاء بيان نتائج هذا الصبر المنشود وأنه من أسباب الظفر الذي هو غاية مطلوبهم.

«المنية ولا الدنية»، رد على تساؤل أثارته الجملة السابقة لأن الصبر أمام العدو وإن كان من أسباب الظفر، فإنه مدعاة للموت، فأجاب حالاً بمقارنة أخرى بين الصبر والمنية، وبين الفرار والدنية فقال: المنية بسبب الصبر المطلوب، ولا الدنية بسبب الفرار المزعوم.

«استقبال الموت خير من استدباره»، توجيه بعد الإلزام، إذا كان الحذر لا ينجي من القدر، والمنية ولا الدنية، والموت لا مفر منه، فاستقباله خير من استدباره، فاستقباله بشجاعة وثبات، خير من استدباره في هزيمة وفرار.

«الطعن في ثُغر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور» تصوير محسوس لمشاعر وأحاسيس نفسية في استقبال الموت أو استدباره، معان يتصورها الذهن فجاء قوله: «الطعن في ثغر النحور خير منه في الأعجاز والظهور» إبرازاً لتلك الصور الذهنية إلى مناظر حسية (ثغر نحور)، (أعجاز وظهور). فقد جعل استقبال الموت غاية في الشجاعة والثبات وعدم المبالاة، ثغر يبتسم ووجه يتهلل. كأنما يستقبلون محبوباً طالت غيبته، وفي لفظه ثُغر جمع ثغر مجانسة لفظية بين ثغرة النحر وثغرة الفم.

وفي ذكره الأعجاز وإن كان يطلق على كل مؤخر من أي شيء إلا أنه بالعرف العام أصبح كالعَلَم على عجيزة المرأة، ففيه من التنفير والتقبيح ما يستحي الرجل من أن تكون إصابته في ظهره أو عجيزته بسبب فراره، فيحمله إباؤه على الإقدام، وتحميه أنفته من الفرار، فيحصل الصبر، وتتهيأ أسباب الظفر.

وبهذه المناسبة لعلنا بهذا العرض لهذه الخطبة الموجزة وبيان ترابط جملها، نلحظ قوة عرضها وقوة ترابطها ترابط النتائج بالمقدمات، مما يرد على نقاد الأدب في ادعائهم تفككه وتناثر جمله جاعلين من هذه الخطبة بالذات أقوى مثال يستدلون به.

ومن ناحية أخرى نلحظ جو هذه الخطبة وصورة عرضها وألفاظها وجملها مع الخطبة التي قبلها. فنجد كلاً منهما قد طابق مقامه وتلاءم مع جوِّه وناسب موضوعه إلى أبعد حد. فهناك في خطبة أبي طالب زواج وأفراح فكانت محامد لله وتعداد نعمه. وارتباط بإبراهيم وإسماعيل بزرع وغرس، وبيت محجوج وبذل من الصداق ما أحبوا. عبارات هادئة ومعان جميلة وألفاظ رشيقة، وكنايات سامية.

أما هنا: فقتال وطعان فجاءت ألفاظ عنيفة: هلاك، عذر، فرار، وطعن حذر، وقدر، منية ودنية، وجمل مقتضبة: الحذر لا ينجي من القدر، المنية ولا الدنية. مقابلات بين الجمل وكأنها كتائب جيش قابل بعضُها بعضاً للقتال، أو كتائبُ جيش تقتفي إثر كتائب.

فلا غَرْوَ أن تثير حميتهم وتشجع جبناءهم، وتدفع شجعانهم، فيكون لهم النصر ويسجل لهم الفخر، وقد أشادوا بذلك اليوم وتطاولوا به على طول الزمن.

فقال الأعشى يَفْتَخِرُ بذلك اليوم:

لو أن كل معدٍّ كان شاركنا ... في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف
لما أمالوا إلى النشاب أيديهم ... ملنا ببيض لمثل الهام تختطف

إلى قوله:

ما في الخدود صدود عن سيوفهم   ولا عن الطعن في اللبات منحرف

وبالإمعان في قول الشاعر أخيراً:

ما في الخدود صدود عن سيوفهم، «ولا عن الطعن في اللبات منحرف» نجد تسجيلاً لآثار المقطع السابق في الخطبة «الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور»، وقد وقع من النفوس موقعه فاستجابوا له وحققوا مقصد الخطيب منهم، فانطلقوا يستقبلون السيوف بالخدود بدون صدود عنها ويتلقون الطعن في اللّبات ولم ينحرفوا عنه.

فكانت النتيجة: إثارة الحماس والتثبيت في الميدان، والشجاعة في القتال، وكان لهم النصر والغلبة.

٤ ـ نموذج في التفكر والاتعاظ:

خطب قَسّ بن ساعدة بسوق عكاظ فقال:

أيها الناس اسمعوا وعُوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت، ليل داج، ونهار ساج وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة، إن في السماء لخبراً وإن في الأرض لعبراً.

ما بال الناس يذهبون ولا يَرْجِعون، أرَضُوا بالمقام فأقاموا، أم تُركوا فناموا؟ يقسم قس بالله قسماً لا إثم فيه إن لله ديناً هو أرضى له، وأرضى من دينكم الذي أنتم عليه، إنكم لتأتون من الأمر منكراً ثم أنشد:

في الذاهبين الأوليـ   ـن من القرون لنا بَصَائِرْ
لما رأيت موارداً   للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها   يمضي الأصاغر والأكابر
لا يَرْجِعُ الماضي ولا   يبقى من الباقين غابِرْ
أيقنتُ أني لا محا   لةَ حيث صار القوم صائر

دراستها: بالنظر في معانيها وإن اختلفت رواياتها فإنها تدور حول التفكر في الكون والاتعاظ بالموت واستنكار ما عليه الناس في الجاهلية ولفت

الأنظار إلى دين الله هو أرضى مما هم عليه، فهي اجتماعية عامة أكثر منها موضوعية.

موضوعها: تستطيع أن تستخلص عنوانها بأنها وعظ وإذكار.

جوُّها: لقد قيلت في سوق عكاظ وهي سوق تجارية وأدبية تجمع بين عَقْدِ الصفقات وعرض الكلمات فهي معرِض للإنتاج المادي والفكري، وهي ميدان التفاخر والتفاضل، فالجو جو لهو وتلاهٍ، وغفلة وتمادٍ، فإذا ورد هذا السوق رجل مثل قس، وهو رجل متحنث، لا بد أن يعرض ما عنده كما يعرض كل إنسان إنتاجه، فعرض قس هذه الخطبة يذكِّر أهل السوق ويعظهم.

العرض: لقد أوجز المقدمة بالدعوة الصريحة إلى السماع والوعي، (أيها الناس اسمعوا وعوا).

ثم عرض قضايا مسَلَّمة: من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. لينبه الأذهان وينتقل بهم مما تَعْلَمُهُ وَتُسَلِّمُ به بدون أن يعوزَها التفكير وتستعد لما بعده وإلى ما يحتاج إعمال الفكر وتسريح النظر فيما يلابس الحياة: ليل ونهار، سماء وأرض، جبال وبحار، نجوم وأبراج، لما فيها أيضاً من عظات وعِبَر كي يستنطق العقل بعد إعمال الفكر ـ إنْ كان إعمالاً قليلاً بغير بعيد ـ، لأنها موجودات ومسلمات، ولا تستدعي فكراً طويلاً، ولا استنتاجاً بعيداً، بل قليل من التأمل ينتج أن وراء هذه العوالم مَلِكاً قادراً، أوجدها ودبر أمرها. فَقَسٌّ حينما يربط وعظه وتذكيره بها إنما هو استنهاض للهمم نحو التفكير الجَدِّيِّ فيما وراءها من قدرة وسلطان.

وبعد الوصول إلى هذا الحد من التنبيه يعرض موضوعاً رئيسياً في صورة تساؤل: ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تُركوا فناموا؟ وهو وإن لم يتلق جواباً صريحاً، فكأنما استقر في أذهان السامعين تجاوباً أكيداً، أن الذاهبين لا يرجعون، وأنهم أمام أمر مجهول يقتضي التفكر والوصول إلى جواب مقنع، وأن ما هم عليه من اعتقاد بعدم البعث ليس مُجدياً، وأنهم يجب عليهم أن يعيدوا النظر. وهذا الموضوع من الخطبة، يعتبر مرحلة نفسية، لها ما بعدها، ذات أهمية عند الكُتَّاب والدعاة والخطباء. وهي أن الداعية أو الخطيب إذا تناول أمراً يخالف ما الناس عليه ودعاهم إلى

الأخذ بما يدعو إليه لا بد أن يحملهم على ترك ما هم عليه أولاً. ولا يمكن أن يتركوا ما هم عليه إلا إذا اقتنعوا بعدم صلاحيته، ولا يستطيع إقناعهم بعدم صلاحيته إلا بعد أن يشككهم فيه، فإذا وصل إلى مرحلة التشكيك، وقفوا عن المضي فيما هم عليه وبدؤوا يتساءلون عن الحقيقة وأين هي.

وإذا استطاع أن يصل بهم إلى ذلك الحد، كان قد وقف على أبواب النجاح، وعند مجيئه بالجواب على تساؤلهم وبيان الحقيقة لهم، كان أدعى إلى قبولها لشدة تطلعهم وتشوقهم إلى معرفتها.

وهنا نجد الخطيب جاء بسرعة بالجواب الذي يتطلعون إليه مؤكداً بالقسم الذي لا حنث فيه (إن لله ديناً هو أرضى لله)، أي: إن الله الذي لزمكم الاعتقاد به؛ لإيجاده تلك العوالم العظمى التي عددها في أول الخطبة، سماء بأبراجها ونجومها وأرض وجبال وبحار، لله رب هذه العوالم دين هو أرضى له من دينكم الذي أنتم عليه من معتقدات فاسدة ومعاملات باطلة، وأمور منكرة.

ثم أتاهم بما يروق لهم سماعه في أسلوب العرض بشعر ألفوا سماعه ليرسخ في أذهانهم لسهولة حفظه وخفة نظمه.

وفي الذاهبين الأولين ـ من القرون لنا بصائر.. إلى آخر الأبيات ضمنها مجمل ما تقدم في نثره.

النتيجة: لا شك أن لهذه الخطبة تأثيراً على النفوس، لما أثارت من وعي وتفكير. وخاصة ما لامست من جوانب الموت والفناء الذي تهتز له النفوس وتخشع له القلوب، بل وتفزع من رؤية صوره ولو في الحيوان، فلا بد أن يكون لهذه اللمسات من أثر في النفوس يجعلها تتطلع إلى كشف الحقيقة عما وراء الموت، والتشوف إلى الدين الذي هو أرضى لله مما هم عليه.

وهذا القدر من التأثير يعد نجاحاً عظيماً بالنسبة إلى الخطيب، وبهذا يكون قد وصل إلى ما أراد من عظة وتفكر وتطلع إلى دين جديد يكون أقرب إلى مرضاة الله تعالى.

٥ ـ نموذج في الدعوة إلى الإسلام عند ظهوره:

خطبة أكثم بن صيفي في أول مبعث النبي ﷺ.

لما ظهر النبي ﷺ ودعا الناس إلى الإسلام، بعث أكثم بن صيفي ابناً له اسمه حبيش إلى النبي ﷺ ليأتيَه بخبره، فلما رجع إليه جمع قومه من بني تميم فخطبهم خطبته المشهورة فقال:

يا بَني تميم لا تحضروني سفيهاً فإنه من يَسْمَعْ يَخَلْ، إن السفيه يوهن من فوقه ويثبط من دونه، لا خير فيمن لا عقل له، كبرت سني ودخلتني ذلة، فإذا رأيتم مني حسناً فاقبلوه، وإن رأيتم مني غير ذلك فقوموني أستقِم. إن ابني شافه هذا الرجل مشافهة وأتاني بخبره وكتابه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويأخذ بمحاسن الأخلاق، ويدعو إلى توحيد الله تعالى وخلع الأوثان، وترك الحلف بالنيران، وقد عرف ذوو الرأي منكم أن الفضل فيما يدعو إليه، وأن الرأي تركُ ما ينهى عنه. إن أحق الناس بمعونة محمد ﷺ ومساعدته على أمره أنتم، وإن يكن الذي يدعو إليه حقاً فهو لكم دون الناس، وإن يكن باطلاً كنتم أحق الناس بالكف عنه والستر عليه؛ وقد كان أسقُف نجران يحدّث بصفته وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبله، وسمى ابنه محمداً، فكونوا في أمره أوّلاً ولا تكونوا آخراً، ائتوني طائعين، قبل أن تأتوا كارهين.

إن الذي يدعو إليه محمد ﷺ لو لم يكن ديناً، كان في أخلاق الناس حسناً. أطيعوني واتبعوا أمري أسألْ لكم أشياء لا تُنزع منكم أبداً، وأصبحتم أعزَّ حيّ في العرب، وأكثرهم عدداً، وأوسعهم داراً، فإني أرى أمراً لا يجتنبه عزيز إلا ذلّ، ولا يلزمه ذليل إلا عزّ، إن الأول لم يدع للآخِر شيئاً، وهو أمر له ما بعده، من سبق إليه غمر المعالي، واقتدى به التالي. والعزيمة حزم، والاختلاف عجز. فقال مالك بن نويرة، قد خرف شيخكم، فقال أكثم: ويلٌ للشجيِّ من الخليِّ، والهفي على أمر لم أشهده ولم يسبقني.

دراستها:

أولاً ـ موضوعها: يدور موضوعها حول الدعوة إلى الأخذ بما يدعو إليه

محمد ﷺ: والمبادرة إليه وبيان نتائج ذلك من إصلاح مجتمعهم، فهي اجتماعية شاملة.

ثانياً ـ جوُّها: نكاد نحس عواطف الشيخوخة، ونصح المجرب، وخبرة الكهول، ومودة القرابة، وحب الخير للعشيرة، فالجو عائلي هادئ تحفه المودة، وتتخلله العواطف، ويدعمه النصح، وتسانده التجارب.

العرض: أ ـ الجانب النفسي: إن ما تصورناه من جو هذه الخطبة يجعلنا نحس بعوامل نفسية تجيش بخاطر الخطيب من قبل إلقائها، تنبعث تلك العوامل من أعماق شعوره وتتفاعل مع أحاسيسه، ونكاد نحس امتزاج عناصرها من عواطف الشيخوخة بمخاوف ظنون الشباب، ودقة نظر العقلاء بسطحية السفهاء، وتثبت الكهول بتعجل الأحداث.

تولدت هذه العناصر ووُجدت عند الخطيب من بعد عودة ولده إلى وقت دعوته لقومه يجتمعون إليه. وبرزت نتائج هذا التفاعل في مطلع خطبته وأوائل مقدمتها: في قوله: «لا تحضروني سفيهاً إن من يسمع يَخَلْ» كأنه قدر لهذا الموقف ثم يمضي في تحذيره من آراء السفهاء وتأثيرهم على العقلاء، وتحريضه على اتباع العقلاء بقوله: لا خير فيمن لا عقل له.

كما أننا نكاد نلمس تأهب الشيخ واستعداده لمواجهة قومه واستشعاره بمسؤولية ما سيلقيه عليهم وذلك من غضون اعتذاره بكبر سنه وتلطفه لهم (فإن رأيتم مني حسناً فاقبلوه وإن رأيتم غير ذلك فقوِّموني أستقم).

ب ـ الجانب الفني: ومن الجانب الفني نجده استهل خطبته بما يتناسب مع موقفه ويتجاوب مع عوامل نفسه: يا بني تميم لا تحضروني سفيهاً، ففيه إيحاء بخطورة ما سيلقيه عليهم وأهمية ما جمعهم إليه ثم احترز من تخيلات السفهاء ونبههم على ذلك بقوله: إنَّ من يسمع يخل. ودعم طلبه السابق لا تحضروني سفيهاً: ثم علل لِما طلبه منهم وحثهم على وحدة الكلمة: إن السفيه يوهن من فوقه، ويثبط من دونه، وكأن الجمع قد اكتمل من عقلاء كمل فقدر هذا وقدم اعتذاره، «كبرت سني ودخلتني ذلة» ثم أشركهم معه في المهمة وحثَّهم على التعاون معه: فإن رأيتم مني حسناً فاقبلوه وإن رأيتم غير ذلك

فقوموني أستقم. وفي هذا إنصاف من نفسه وفتح الأذهان إلى التطلع بدقة والتفكير البعيد والاستعداد للنقد والتحليل وليمكنهم الحكم على حسنه بالحسن وعلى غيره بما يصلحه.

ثم دخل إلى الموضوع بما يوجب الطمأنينة والثقة، إن ابني: أي ما لا يتهم ولا يخادع كما قالوا في أمثلتهم: «إن الرائد لا يكذب أهله»، ثم بين لهم صورة تلقي الخبر (إن ابني شافه هذا الرجل مشافهة) أي بلا واسطة فلا ريبة ولا مظنة.

الموضوع: ثم تناول الموضوع: وأتاني بخبره، وكتابه يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق، ويدعو إلى توحيد الله تعالى وخلع الأوثان، وترك الحلف بالنيران.

عدة مسائل تناولها يرتبط بعضها ببعض وتكون موضوعاً واحداً. أمر بمعروف. ونهي عن منكر: إصلاح للمجتمع، أخذ بمحاسن الأخلاق: رفع لمستوى الإنسانية، دعوة إلى توحيد الله: أداء لحق الربوبية، والتخلص من ذل العبودية، خلع الأوثان: تمام التوحيد على حد قوله تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ترك الحلف بالنيران: استقصاء لاستئصال أنواع الوثنية.

كل هذه النقاط تشكل موضوعاً واحداً، هو إخراج الناس من ظلام الجهل والضلالة إلى نور العلم والهداية، باتباع محمد ﷺ فيما يدعو إليه كتابه.

ثم بعد إيضاح موضوعه أخذ في إقامة الحجة عليهم وإلزامهم بوجوب الأخذ بما جاء به، وقد تفنن في عرض تلك الأدلة فبدأ بإثارة العاطفة الإنسانية التي يتطلع إليها الجميع ويتمناها لنفسه فقال: وقد عرف ذوو الرأي منكم أن الفضل فيما يدعو إليه، وأن الرأي ترك ما ينهى عنه.

ثم أتاهم من جهة العصبية المتمكنة في طبائعهم فقال: إن أحق الناس بمعونة محمد ومساعدته على أمره أنتم. فكأنه يقول لهم: إن لم تتبعوه رأياً وفضلاً فاتبعوه حمية وعصبية، كما قال صفوان بن أمية يوم حنين وهو على

دين قريش: لأن يربني رجل من قريش خير من أن يربني رجل من هوازن[١]. وأكد تلك الحمية منطقياً بقوله: إن يكن الذي يدعو إليه حقاً فهو لكم دون الناس، وإن يكن باطلاً كنتم أحق الناس بالكف عنه، والستر عليه. أي هو منكم وأنتم أهله، حسباً ونسباً تحرصون على سمعتكم وما يكون من أحدكم ينسب إلى مجموعكم فإن كان الذي جاء به خيراً فهو لكم، وإلا فاستروه وكفوا الناس عنه.

ثم انتقل إلى الدليل النقلي المسلم عندهم، والصادر ممن يصدقونهم فقال: إن أسقف نجران كان يحدّث بصفته ـ والحال أنكم تصدقونه ـ، وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبل. وهذا كاهن ينزلون على حكمه ويصدقون قوله. وزاد حديثه عنه ثقة أنه سمى ابنه محمداً. أي أنه علم أن نبياً سيبعث وأن اسمه محمد ـ وإن كان لم يعلم ممن سيولد ـ فسمى ولده باسمه انتظاراً لمبعثه آملاً أن يكون هو.

ثم بعد عرض الأدلة ـ عاطفية، ثم عصبية، ثم نقلية ـ عمد إلى التحريض والتحذير فقال: فكونوا في أمره أولاً ولا تكونوا آخراً. أي إذا أقيمت لكم الأدلة المتنوعة إنسانية، وعصبية، ونقلية. فما بقي إلا التقدم إليه والاستجابة لدعوته فكونوا أولاً ولا تكونوا آخراً. ثم أنذرهم مغبة التخلف: إيتوني طائعين قبل أن تأتوني كارهين.

ثم تدرج في الدعوة إليه كالآتي:

أ ـ عرض ما يدعو إليه محمد ﷺ وتحسينه عند ذوي الرأي منهم.

ب ـ تدعيمه بالأدلة: عقلية، عاطفية، نقلية.

جـ ـ تحريض على اتباعه بحسن العواقب، وتحذير من التأخر عنه بسوء العواقب.

د ـ إنذار ووعيد بالإكراه لهم على الاتباع.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٧٠٤ ـ موارد)، وحسنه الألباني في صحيح موارد الظمآن (١٤٢٤).

ثم عاد إلى الترغيب في تلطف فقال: إن الذي يدعو إليه محمد لو لم يكن ديناً كان في أخلاق الناس حسناً. فجمع بين الترغيب والترهيب كما في أمثال العرب: «ثمرة وسوطاً».

وبهذا استكمل عرض الموضوع من كل جانب فانتقل إلى الخاتمة يجني ثمرة عرضه في سهولة.

النتيجة: جاء إليها بعد عمل موفق وترتيب حسن. أطيعوني واتبعوا أمري أسأل لكم أشياء لاتنزع منكم أبداً وأصبحتم أعز حي في العرب، وأكثرهم عدداً، وأوسعهم داراً، فكأنه أراد أن يقابل كسبه منهم بكسب لهم، وقد افترض اقتناعهم ولم يبق إلا التساؤل عن نتائج ما يكون لهم من استجابتهم واتباعهم إياه. فبادرهم بما يستهويهم ويرضي أَنَفَتَهم ويساير عزتهم، وقابلها بأضدادها لتتضخم في أذهانهم فقال: فإني أرى أمراً لا يجتنبه عزيز إلا ذل، ولا يلزمه ذليل إلا عز. وهذا الرأي الذي أبداه إنما هو استنتاج الشيوخ وتجارب الأيام، وهم يقدرونها قدرها.

ثم دفعهم بقوة إلى التقدم ولم يدع لهم مجالاً في التردد أو التساؤل: إن الأول لم يدَعْ للآخر شيئاً، أي كونوا فيه أولاً فتقدموا إليه بسرعة، ولا تتوانوا وتأتون إليه آخراً، ونتائج هذا الإسراع والسبق تأتي في قوله: من سبق إليه غمر المعالي واقتدى به التالي، أي كان إماماً لا مأموماً وسيداً لا مسوداً وقدوة لغيره.

وبعض الكتاب يناقشه في قوله هنا: إن الأول لم يَدَعْ للآخِر شيئاً بأن الآخر قد جاء بما لم يوجد من قبل كالاختراعات الحديثة والصناعات المتنوعة. ولكن هذه المناقشة لا حاجة إليها ولا تتوجه إليه لأنها مبنية على التعميم في كل أول وكل آخر والجملة قيلت في قضية خاصة هي التي هو بصددها من الأخذ بما دعا إليه محمد ﷺ فحسب. وهو صادق في قوله وحكمه، لأن أوائل المهاجرين لم يدعوا للآخرين في منتهى الأزمان بل ولا لمن جاؤوا بعد الفتح، فقد فضل الله المهاجرين الأولين وجعل من أنفق قبل الفتح، وقاتل أعظم ممن أنفق بعد الفتح وقاتل. وكلّاً وعد الله الحسنى.

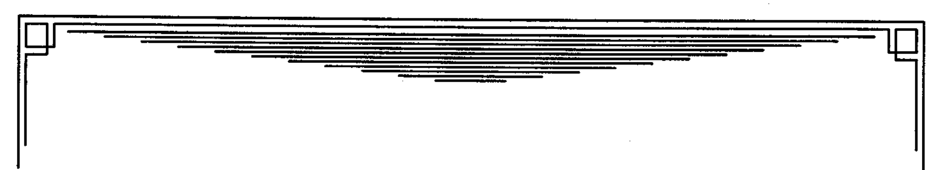
وبقوله: العزيمة حزم، والاختلاف عجز: ينفذ إلى أعماقهم ويصل إلى منتهى قوة الدوافع ويقضي على كل أثر للتردد.

وإلى هنا تعتبر الخطبة قد انتهت على أتم ما يكون، ووصل إلى أعظم نتائج، وقد جاءت كلمة مالك بن نويرة مصداقاً لما صدر الشيخ خطبته من إبعاد السفهاء خشية الوهن على غيرهم، وجاء جواب الشيخ عليه تحقير السفهة ونفثة من مصدور، ويل للشجي الذي امتلأت جوانحه بما يشجيه، ولا يعلم به من لم يعانيه، من الخلي الذي لا إحساس له كإحساسه أو لا يدرك إدراكه لخلو فكره وسطحية تفكيره. ثم أرسلها زفرة حارة، تحرق أوهام الجهال وتبدد ظنون السفهاء وتؤكد عزم الصادقين: والهفي على أمر لم أشهده، ولم يسبقني!

وفي النهاية نستطيع أن نقول: إن هذا الشيخ قد أعطى هذه الخطبة حقها: من إعداد تام، وتقديم قوي، وعرض متكامل فدعا قومه للاجتماع ثم خلّص المجتمعين من السفهاء ليكون الباقون على مستوى موضوعه رفعة واهتماماً. ثم تلطف في عرضه الموضوع وبيان محاسنه، ثم إقامة الأدلة الخطابية كلها من عاطفية عند ذوي الرأي، وعصبية عند ذوي الحسب، ونقلية عند ذوي العلم والخبرة، أي استخدم كل الوسائل لإثارة العواطف والإقناع. ثم التدرج من العرض بالأدلة إلى الحث والتحريض، ثم الإنذار والترغيب، ثم بيان النتائج العملية ثم المقارنة من المتقدمين إليه والمتأخرين عنه ثم دفعهم دفعاً حثيثاً إلى الإقدام وقطع عليهم طريق التردد.

وبهذا يكون قد وفق كل التوفيق في تقديم هذه الخطبة، وأعطانا أصدق صورة لتحضيرها وكيفية إلقائها وعرضها بما يفي بالمقصود ويوصل إلى النتيجة.





ثانياً: الخَطابة الإسلامية

عرفنا مدى عناية الإسلام بالخطابة، وإلى أي حد ساهمت الخطابة في نشر الدعوة، وبيان الرسالة.

ومن الطبيعي أن يكون بقدر ما تسهم الخطابة في نشر الإسلام، بقدر ما يعمل الإسلام على تقويتها والعناية بها، شأن الحكومات في الصحافة والإذاعة ووسائل الإعلام في وقتنا الحاضر.

وقد كان لأسلوب القرآن ومعانيه اليد الطولى على الخطابة في العصر الإسلامي حتى بلغت أقصى غايات الرقي والازدهار. كما كان للخلاف وتعدد الخلافة فيما بعد أثر بالغ في انفساح المجال أمام الخطباء للتسابق على نصرة كل خطيب لمن ينتمي إليه، فوجدنا صولة الخطابة مع جولة القتال جنباً إلى جنب بل كان السبق للخطابة، والكلمةُ للخطباء.

ولا يمكن تتبع كل ذلك في جميع العصور ولا في كل الأقطار الإسلامية، لطول مداه وبعد منتهاه.

أهميتها في صدر الإسلام: وبما أن الخطابة في صدر الإسلام هي المثال العملي وهي الأساس لكل ما بعدها فإننا سنكتفي بدراسة نماذج منه عوضاً عن كل العصور التي بعده، ولا سيما وأن الخطابة في هذا العصر أصدق ما تكون في جميع العصور الإسلامية من حيث الدعوة إلى الله تعالى وشرح معاني الإسلام وحسن عرضها وإيضاحها على الفطرة السليمة بخلاف الخطابة في بقية العصور، فقد دخلت الأغراض، ولعبت الأهواء، وظهرت السياسة، فتكدر صفاء النبع، وشوش اللغط هدوء الأمة، ودنس الدَّخَل سلامة الفطرة.

ومن هنا كانت دراسة الخطابة في صدر الإسلام هي أصل للخطابة السليمة التي تتمشى مع فطرة الدعوة وفطرة المدعوين.

الخطب الهامة: إن أهم خطب ألقيت في صدر الإسلام لهي من أهم خطيب بلا منازع، من أفصح الأمة وإمامها وقائدها ومرشدها هو النبي ﷺ؛ وللرسول صلوات الله وسلامه عليه مواقف عديدة، وخطب متعددة، لأن حياته كلها كانت دعوة وبلاغاً، وكلامه كله كان تعليماً وبياناً لما نزل إليه من ربه، ولهو أفصح العرب بيد أنه من قريش. وقال تعالى في بيان عمله في الأمة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

فهو التالي لكتاب الله، المعلم لخلق الله، وكان كلامه وحياً وتعليمه حكمة.

وعليه فإن الدارس له لا يدرسه كما يدرس غيره تحليلاً ونقداً، لأنه فوق التحليل وبعيد عن النقد. وإنما يدرسه تبياناً واستنتاجاً، ليأخذ منه ما يظهر له من توجيهات يترسم خطاها ويهتدي بهداه ويستن بسننه.

ومن هنا كانت نماذج الخطابة النبوية كافية للخطابة الإسلامية كلها.

ولن نستطيع أن نتتبع كذلك الخطب النبوية ولا أن نفاضل ونتخير بينها، ولكن سنأخذ ما يجمع طرفي الدعوة من أولها وآخرها وما تتجمع فيه أهم المسائل العامة. وعليه فنأخذ لهذا المقام الخطبة الأولى في الدعوة والخطبة الأخيرة فيها أي أوائلها وأواخرها على سبيل التقريب، لنرى مدى تطور الدعوة وأثر الخطابة وما آلت إليه في أقل من ربع قرن.

النص الأول: أول خطبة خطبها النبي ﷺ في مكة حين أُمر بإنذار عشيرته الأقربين على اختلاف الروايات والصور فإنها تتفق على غرض واحد فمن صورها أنه ﷺ جمع أهل مكة عند الصفا وبدأ بقوله:

«أرأيتم إن حدَّثتكم أن العدو مصبِّحكم أو ممسِّيكم أكنتم تصدقوني؟» قالوا: نعم، فقال: **«إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»**[1].

وفي بعضها: **«إن الرائدَ لا يَكْذِب أهلَه، والله لو كذبتُ الناس جميعاً ما كذبتكم، ولو غَرَرْتُ الناسَ جميعاً ما غررتكم.**

(١) أخرجه البخاري (٤٨٠١)، ومسلم (٢٠٨).

والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله لَتموتُن كما تنامون، ولَتُبعثن كما تستيقظون، ولتُحاسبُنَّ بما تعملون، ولَتجزَون بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وإنها لَلْجنة أبداً، أو النار أبداً»[١].

وعلى كلتا الروايتين، فإنه ﷺ في الرواية الأولى قد ألزم السامعين اعترافاً بصدقه قبل أن يلقي إليهم موضوعه ليقطع عليهم خط الرجعة في تكذيبهم إياه.

وهذا العمل يعطينا نتيجتين هامتين هما:

الأولى: مدى تأثير صدق الخطيب في نفوس السامعين ونجاح خطابته.

الثانية: ضرورة مراعاة نفسيات المخاطبين لأن الرسول ﷺ توقع منهم الإنكار لما سيلقيه عليهم ولا سيما مع غرابته، فاستوثق لنفسه أولاً وأقام الحجة عليهم بصدقه قبل إنكارهم.

ومن هنا وجب على الخطيب: تحريه الصدق واستيثاقه لنفسه من أول وهلة، وقد فعل نحواً من ذلك عروة بن مسعود الثقفي، حينما أرادت قريش إرساله إلى النبي ﷺ في الحديبية ليفاوضه على الصلح فقال لهم: يا معشر قريش إني قد رأيت ما يَلقى منكم من بعثتموه إلى محمد ـ إذ جاءكم ـ من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد وأني ولد، فقالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم[٢]. فقد استوثق لنفسه منهم واستخلص اعترافهم له أنه ليس بمتهم، وقد شاكل النبي ﷺ بين مقدمته وموضوعه، من ذكر العدو مصبح أو ممس بما فيه من إرهاب وإنذار واستنهاض همم والتأهب لملاقاته.

فكان في تلك المقدمة وهذا الاستهلال زيادة على إلفات الأنظار وتنبيه الأذهان، فيه تهييج إلى الحذر والاستعداد الكامل لطلب النجاة من مهلكة تهددهم، وفي هذا الجو الإرهابي جاء إلى الموضوع بسرعة وقوة وفي إيجاز. فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، وإنا لنحس موجب الإسراع إلى الموضوع وهو لكي يلقي إليهم وهم في انتباهتهم الفكرية تحت رهبة جيش

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

مصبح أو ممس وراء هذا الجبل القريب. ولكي يستوعبوها قبل أن ينفضوا أو تضيع في صخب الإنكار.

ونكاد نلمس كذلك القوة في قوله: «**إني نذير لكم**». قوة إيمانه بدعوته وثقته بمن كلفه بها وثباته على أمره.

أما الإيجاز فَلِتَوَقُّعِهِ انفجارهم في ثورة وغضب وسخط لأول وهلة من ذكر موضوعه، فأوجز عبارته كي يستوعبوها قبل انفضاضهم، ولئلا تضيع في لجة الصخب وهيجان الغضب، وقد كان ما توقعه منهم كما جاء من أبي لهب.

ومن هنا يجب على الخطيب دقة النظر والنفوذ إلى أعماق المخاطبين، وتكييف موضوعه حسب ما يتوقعه بناء على ملابسات الموقف.

وفي الرواية الثانية: سواء كانت جزءاً من الخطبة الأولى أو كانت خطبة مستقلة. فقد كانت نهاية في الدقة والعمق وكلها دروس وقواعد. بدأها ﷺ بنحو مما بدأ الأولى من إثارة معنى التصديق إلا أنه هنا، نبه العواطف الأخوية إلى الروابط الأهلية، «**إن الرائد لا يكذب أهله**»، أي أنتم أهلي وعشيرتي. وفي هذا من إصاخة السمع، وانشراح الصدر لتحمل واستيعاب ما سَيُلقى عليه. ثم أعقبه بما يدفع أي توهم أو يخالج النفوس من تهم مع التدرج نحو الموضوع بتهيئة الجو إليه، «**والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم**». فالإقسام بالله من الصادق الأمين بين يدي موضوع، يجعل السامع يتوقع أمراً هاماً، ويدفع احتمال الكذب منه عليهم خاصة ولو احتمل جدلاً حصوله على غيرهم، لبروز عنصر العواطف نحوهم والروابط بهم، والحرص على ما ينفعهم.

وقد رأينا المقدمة هنا أطول من ذي قبل، ومشتملة على مثيرات للشعور والتطلع أقوى، وهذا ما يتناسب مع أهمية الموضوع والعناية به.

كما أن أسلوب التوثيق والتقوية مستمر في عرض الموضوع حيث قال: «**والله الذي لا إلٰه إلا هو**». لما فيه من روعة في التقديم، وقوة في التركيب حيث جاء الإقسام بما يريد أن يحملهم عليه من توحيد الله تعالى، وكأنه واثق

من ذلك ومقدر ذلك منهم فيقسم لهم بما ينازعونه فيه، أما المقسم عليه فقوله: إني لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة. وفي تخصيصهم بمهمته وتعميم الناس بعدهم جانبان مهمان:

الأول: تركيز المسؤولية فيهم وتحميلهم أعباءها ليأخذوها ويبلغوها للناس عامة في حياته ومن بعده أي لا أتباع بل دعاة.

الثاني: تنبيه العواطف الأهلية في تخصيصهم بها. لما فيها من مصالح عامة وسعادة تامة، فأنتم أولى بالتقديم فيها على غيركم والناس عامة من بعدكم.

وبديهي أنهم سينكرون تلك الدعوة الجديدة بقلوبهم، وتثقل على آذانهم ويصعب تقبلها وتفهمها على عقولهم فكان لا بد من أدلة واضحة تساند الجوانب العاطفية أدلة قاطعة. فقدم ما يسلمون به من صدقه ودعمه بالعواطف الأهلية وانتقل إلى محسوس دائم. «**والله لتموتن كما تنامون**»، نعم إنهم لم ينكروا الموت لأنهم يعاينوه كل يوم، وإنما جيء به ليبني عليه ما بعده وهو المقصود له: «ولتبعثن كما تستيقظون»، فلئن عرفتم الموت كالنوم بجامع فقد الإحساس، ثم علمتم اليقظة منه بعودة الإحساس إليكم بالاستيقاظ، فكذلك البعث بعد الموت فهو كالاستيقاظ من النوم.

فإذا آمنوا بالبعث، أو تصوروه أو أُلزموا به جاءت النتيجة من هذا الإيمان، «**ولتحاسبن بما تعملون**» ولازم النتيجة كذلك: «**ولتجزون بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً**»، ثم بيان هذا الإحسان وذاك السوء وأنهما بالجنة أو النار.

وهنا نجد الخطبة اشتملت على الخطوات التسلسلية الآتية:

إثبات الرسالة ثم الإخبار بالبعث وما فيه. وهما مبدأ الدعوة وأساسها، فالإيمان برسالته من الله يستوجبه لزوم الأخذ بكل ما جاءهم به عن الله.

والإيمان بالبعث والجزاء، يبعث على فعل الإحسان، وتجنب الإساءة، وإثارة عوامل الرغبة والرهبة بالنسبة للجنة والنار.

وهذا القدر فيه الكفاية بالمقصود في بدء الدعوة، وإليه المنتهى عند نهايتها.

الاستنتاج: نستنتج من هذا النموذج النقاط الهامة التالية:

١ ـ أهمية الصدق للخطيب كعامل لنفي التهمة عنه.

٢ ـ استيثاق الخطيب لنفسه كعامل لإلزام المستمعين.

٣ ـ تقديره للموقف وتكييفه موضوعه بحسبه كعامل لتقويته وتمكنه من أدائه.

٤ ـ ربط المقدمة بالموضوع بما يجانسه من المحسوس.

٥ ـ استخدام وسائل الإثارة، أهلية أو شخصية.

٦ ـ زيادة التوثيق بالقسم إن لزم الأمر.

٧ ـ التدرج من المسلَّم به إلى المنازع فيه.

٨ ـ الانتقال من النتائج إلى لوازمها.

وكل هذه النقاط تعمل على نجاح الخطيب إذا راعاها أو أكثرها واهتم بها وهي كما نرى قواعد وأسس هامة للغاية.

النص الثاني: خطبته ﷺ في حجة الوداع:

اتفق المسلمون على أن النبي ﷺ خطب في حجة الوداع خطبة عظيمة، قال ابن كثير: وقد خطب رسول الله ﷺ في هذا اليوم الشريف (يوم العيد بمنى) خطبة عظيمة تواترت بها الأحاديث، وساق عن البخاري وغيره من المحدثين عن كل واحد طرفاً منها.

وقد أوردت كتب الأدب لها نصاً منتظماً يعتبر جامعاً لأكثر ما اشتملت عليه كتب الحديث، وقد وجدت بعض الزيادات في بعض المراجع. ولم يوجد نص شامل يمكن القطع به بأنه حكاية الواقع على ما جاء تماماً وهذا أمر طبيعي في المواقف العامة وبالأخص بالنسبة إلى خطبة طويلة فكل يروي حسبما سمع. وقد أراد النبي ﷺ إبلاغ الجميع نظراً لفرصة هذا الجمع فبلّغه الله ما أراد، قال ابن كثير بسنده إلى عبد الرحمٰن بن معاذ التيمي قال: خطبنا رسول الله ﷺ ونحن بمنى، ففتحت أسماعنا حتى كنا نسمع ما يقول ونحن في منازلنا، فطفق يعلمهم مناسكهم[1].

---

(١) أخرجه أبو داود (١٩٥٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٧١٠).

وقد جاء في بعض أجزاء الخطبة ما يدل على أنه ﷺ أراد تحميلهم أمانة الدعوة ومسؤولية التبليغ لقوله فيها: «**فليبلغ الشاهد منكم الغائب**».

ولا شك أن ذاك الجمع يعد أعظم جمع تنشر فيه الدعوة، وتبلغ له الرسالة ويحرص فيه الداعي على أن يبذل جهده في التوجيه، وقد عمل له ﷺ مسبقاً حيث أرسل رسلاً له في القبائل قبل أن يغادر المدينة يعلنون أن الرسول ﷺ حاج هذه السنة فمن أراد الحج معه فليوافه[١].

مما يجعلنا ننتهز فرصة التجمع ونستغل المجتمعات لنشر الدعوة والتوجيه.

وبهذه المناسبة ينبغي تنظيم مؤتمر لجمهرة من الخطباء المشهورين بالنشاط في الدعوة لمعالجة الكثير من قضايا العالم الإسلامي. كما فعل النبي ﷺ.

نص خطبة الوداع[٢]

إن أجمع نص لخطبة الوداع هو ما ساقه صاحب جمهرة خطب العرب الذي جمعه من عدة مراجع فنسوقه، ثم نأتي بعده بما يوجد من بعض الزيادات مما يستقل ببعض المسائل.

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، ومن يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته. وأستفتح بالذي هو خير، أما بعد.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨) بنحوه.

(٢) أخرجها البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة.
وأخرجها البخاري (١٧٣٩) من حديث ابن عباس.
وأخرجها البخاري (١٧٤٢) من حديث ابن عمر.
وأخرجها مسلم (١٢١٨) من حديث جابر.
وأخرجها الترمذي (٣٠٨٧) من حديث عمرو بن الأحوص، وحسنها الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٤٦٤).

أيها الناس: إن دماءَكم وأموالكم حرامٌ عليكم إلى أن تلقوا ربّكم كحرمة يومِكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلّغت؟ اللهم اشهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها.

وإن ربا الجاهلية موضوع وإن أول رباً أبدأ به ربا العباس بن عبد المطلب. وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. وإن مآثر الجاهلية موضوعةٌ غيرَ السِّدانةِ والسِّقاية. والعَمْدُ قَوَد، وشبهُ العمدِ ما قُتِلَ بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيُّها الناسُ: إن الشيطان قد يئس أن يُعبَدَ في أرضكُم هذه، ولكنه قد رضيَ أن يُطاعَ فيما سوى ذلكَ مما تَحقرون من أعمالكم.

أيها الناس: إنما النسيءُ زيادةٌ في الكفر يُضِلُّ به الذين كفروا يُحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدةَ ما حرم الله، وإن الزمانَ قد استدار كهيئتِهِ يومَ خَلَق الله السمواتِ والأرضَ. منها أربعةٌ حُرُم. ثلاث متواليات، وواحد فرد، ذو القعدة، وذو الحجة، ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا قد بلغت؟ اللهم اشْهَد.

أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقاً، ولكم عليهنَّ حقٌّ، لكم عليهن ألَّا يوطِئنَ فُرُشكُم غيرَكُم، ولا يُدخِلْنَ أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلنَ فإن الله قد أذن لكم أن تَعضُلوهُنَّ وتهجُروهن في المضاجع، وتضربوهنَّ ضرباً غَير مُبرِّح. فإن انتهينَ، وأطعنكُم فعليكم رزقُهُنَّ وكِسْوَتُهُنَّ بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيراً. ألا هل بلّغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس: إنما المؤمنون إخوةٌ، ولا يحِلُّ لامرئٍ مالُ أخيهِ إلا عن طيب نفْس منه. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. فلا تَرجعُنَّ بعدي كُفّاراً يضرب بعضُكُم رقابَ بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلُّوا بعده كتابَ الله. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. قالوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد الغائب.

أيها الناس: إن الله قد قسم لكل وارثٍ نصيبَه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصيةٌ، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر. من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبل منه صرف ولا عدل، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وقد جاء في بعض المراجع بعضُ النصوص تشتمل إمّا على مواضيع زيادة أو مغايرة في أسلوب العرض.

فمن الزيادة: «**لا تنفق امرأة من بيتها إلا بإذن زوجها**». فقيل: يا رسول الله ولا الطعام. قال: «**ذاك أفضل أموالنا**»[(١)].

ثم قال: «**العارية مؤداةٌ والمِنحة مردودة، والدَّين مَقْضِيٌّ، والزعيم غارم**»[(٢)].

ومنها: «**إنما هن أربعٌ لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا**»[(٣)].

ومنها: «**أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك**»[(٤)].

وأعتقد أنه لو تتبع إنسان مراجع السيرة والحديث، لوجد زيادة لما أسلفنا من أسباب، وفيما ذكر من النص والعرض فيه كفاية للصورة المطلوبة، والغرض المقصود من الدراسة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٦٥)، وابن ماجه (٢٢٩٥)، والترمذي (٦٧٠) وقال: حديث حسن. وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٥٣٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٦٥)، وابن ماجه (٢٢٩٥)، والترمذي (٢١٢٠)، وقال: هذا حديث حسن، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٧٢١).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٥٩).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٦)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٣/ ٣٢٢).

دراستها علمياً وأدبياً:

أما علمياً: فإنها حافلة بالتعاليم والتشريع والمبادئ العامة مما تتسع له كتب الحديث والفقه، وما ستظهر آثاره عند العرض الأدبي إن شاء الله.

وأما أدبياً: وهو المقصود الآن، فكالآتي: أولاً فكرة عن الخطب العامة في المجامع الكبيرة من القادة والزعماء: تكاد خطب المجتمعات العامة والمجامع الحافلة التي يلقيها الساسة والقادة والزعماء أن تكون إما بيانات رسمية وبلاغات عمومية فتأتي نظامية خالية من الإثارة والعواطف.

وإما أن تكون تهريجاً ومجاملات في المجتمعات التقليدية مثلاً، فتأتي خلواً من المبادئ والتوجيهات، فهي مشغلة للرأي العام مضيعة للوقت، وإن اشتملت على إثارة وعواطف فهي ذات تأثير مؤقت.

أما هذه الخطبة النبوية في هذا المجمع فقد ارتفعت عن مستوى التهريج، وحفلت بالمبادئ السامية، موشحة بالعواطف، تفيض بالأحاسيس والشعور بالمسؤولية، مُدعَّمة بإشهاد الله تعالى، مصونة بمراقبة الضمير ومخافة الله.

وإذا قلنا: قد جاءت تلخيصاً لدعوة ثلاث وعشرين سنة، وإرساء قواعد أمة إلى الأبد، وتوجيهاً لأجيال المستقبل مدى الحياة في منهج إسلامي فاضل. وقلنا: إنها فيض من عواطف مشفق رحيم ومودّع كريم، فإننا لا نبعد عن الواقع. ومن هنا فإنها جديرة بإفرادها بدراسة مستقلة.

أسلوبها: لم تأت على أسلوب الإثارة العاطفية ذات التأثير المؤقت، ولا في قالب النظاميات الجافة التي تتسم بطابع السلطة والتحكم، بل كانت على أسلوب حيوي جمع إلى التنظيم والعواطف، وعواطف إيمان لا إثارة، عواطف تثمر الالتزام، وفرق بين الإلزام الجبري والالتزام بالإيمان كفرق ما بين التسلط والتحكم وبين الامتثال والرضا. كما جاء أسلوبها سلساً مرسلاً بعيداً عن تعقيد التكلف، وافتعال الصناعة، من سجْع وجناس وغيره.

موضوعها: وقد تناولت هذه الخطبة عدةَ مواضيع وقضايا تتضمن كما أسلفنا خلاصة التشريع الإسلامي، من أحكام فقهية، وتوجيهات اجتماعية، وإرشادات إنسانية.

العرض: بالنظر إلى الخطبة الأولى وما افتُتحت به، وهذه الخطبة وافتتاحيتها، نجد بوناً بعيداً بعد ما بين الوقتين اللذين قيلتا فيهما. وفرقاً شاسعاً ما بين البدء والختام، مع تناسب كل منهما مع موقفه وظروفه.

فلئن كانت تلك موجزة معنية بالمخاطبين. فإن هذه هنا مسهبة متوجهة إلى الله رب العالمين.

وكأنها تشير إلى أن العالم قد عرف الله فبدأهم بحق الله، فحمد الله وأثنى عليه، واستعانه على أمره، واستغفره فيما يكون بينه وبين ربه، وتعليماً للأمة الرجوع إلى الله بالتوبة، واللجوء إليه فراراً من شر النفس وسيِّء العمل.

وهنا إشارة لطيفة جداً وهو أن العبد يستعيذ بالله من شر نفسه فكأنه يقول له: إن الله الذي خلقك هو أحق بك وأحن عليك من نفسك التي بين جنبيك، وكذلك سيئات الأعمال التي تصدر من الإنسان وفيها الجناية عليه يلجأ إلى الله فراراً منها. ومن ثم أعقب هذا بطلب الهداية مع إشعار أنها لا تكون إلا من الله تعالى، ثم الشهادة بوحدانية الله ورسالة محمد ﷺ، وفي قوله ﷺ: **«وأشهد أن محمداً»** بإظهار دون إضمار، والتصريح باسمه عن نفسه فيه تجريد لشخصية الرسول كأنها متميزة بالرسالة عما عداها. وهو كشخص في الأمة يشهد بالرسالة للشخص المرسل مع التعليم لغيره والالتزام بمنطوقه. ثم الوصية بتقوى الله والحث على طاعته. والاستفتاح بالذي هو خير.

فهي افتتاحية هادئة، موجهة، تتناسب مع عواطف المودِّع المشفق، الناصح الأمين.

وبعد هذه المقدمة والاستفتاح بالذي هو خير انتقل إلى الموضوع مبتدئاً بأخطر قضايا الإنسانية، وأعظم مشاكل المجتمعات: الدماء، الأموال، الأعراض، فصانها وحصّنها، لا بقوة السلطة وهيبة السلطان، بل بتقوى الله واستشعار حرمة البيت الحرام في الشهر الحرام في يوم الحج الأكبر.

ثم استتبع بقايا التشريع في التحريم للأصول الثلاثة بكل فرع لها كعملية تطبيق للأصل المتقدم، ففي الأموال: حرم الربا ووضع كل ربا كان في الجاهلية وقدم ربا عمه العباس، وفي الدماء: حرم كل دم كان في الجاهلية

وقدم دم قريبه عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. وفي تقديم كلٍّ من ربا عمه ودم قريبه، تنفيذ لقاعدة: ابدأ بنفسك، فإن عم الرجل صنو أبيه. ثم أسقط كل مأثرة بصفة عامة كانت في الجاهلية إلا السدانة والسقاية ولعل إبقاءهما لما فيهما من عمل الخير العام.

ويستتبع تحريم الدماء تحريم الاعتداء، وبيان الحدود، في العمد قود وشبه العمد الدية.

ثم أعقبه بالتحذير من مسببات التعدي وهي نزغات الشيطان: «**إنه قد يئس أن يُعبَد في أرضكم هذه ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك**».

ثم يمضي إلى ما بداخل البيوت، إلى نصف المجتمع، فيوصي بالنساء خيراً ويبين ما لهن وما عليهن إحاطة بالجانبين فإذا أخذن ما لهن أدَّين ما عليهن، كل ذلك بالمعروف من كِلا الطرفين، ثم يستشهد الناسَ على التبليغ ويُشهدَ الله عليهم.

ثم انتقل إلى حقوق الأخوة الإسلامية وما تستوجب من حفظ المال وصيانة الدماء وطهارة الأعراض.

ثم يحذر من الرجوع إلى الكفر، والوقوع في الفتن، وضرب بعضهم رقاب بعض، ويحثهم على التمسك بكتاب الله وسنة رسوله.

ثم ينبه على ما يجمع الشمل، ويوحد الوجهة بالرجوع إلى أب واحد ودين واحد ورب واحد.

ثم يصحح مقاييس التفاضل الحقيقية وهي تقوى الله تعالى.

ثم يعمد إلى ما يحمل الجميع مسؤولية التبليغ فيكلف الحاضرين إبلاغ الغائبين.

وبعد المسير مع المسلمين في طريق البيان إلى النهاية بين حالة الموت وحقوق الميت في الوصية وحقوق الحي في البقية، فأعطى الميت ثلث المال يوصي به، وترك للحي الثلثين للميراث.

ثم بين حقائق روابط النسب وقداسة الفراش وروابط الزوجية.

وهكذا إلى غير ذلك مما تناولته تلك الخطبة الجامعة الشاملة التي يجد

فيها كل كاتب ودارس بغيته ويستفيد منها كل فقيه وأديب في التشريعات وأساليبه وأوجه البيان وطرق التعبير وقوة الربط.

الترتيب وقوة الربط:

بالعودة إلى عرض هذه الخطبة نجد عاملاً هاماً وهو الترتيب الطبيعي وقوة الربط بين مواضيعها العديدة.

أولاً: بعد المقدمة الهادئة التي أوجبت حق الله تعالى وأرسى قاعدة التوحيد التي هي أساس الدعوة وغرض الرسالة، انتقل إلى حقوق الآدميين فيما يتعلق بأهم شؤونهم: الأموال والدماء والأعراض، وهذه الثلاثة هي التي تقيم الدنيا وتقعدها. ثم ينبه على ما هو السبب في إفسادها أو إثارة الفتن فيها وهو الشيطان فيحذرهم منه.

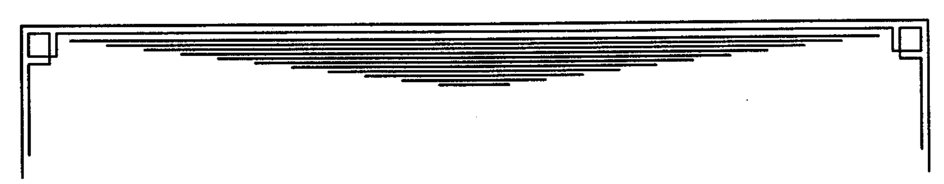
ثم بعد الحقوق العامة أو الأعم يأتي إلى الأسرة فينظم علاقة الزوجين ويوطد حقوق الزوجة على تقوى الله تعالى لا على مال ولا سلطان، **«أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله»**.

ثم ينتقل إلى حقوق الأخوة وكأنه يقول إن النساء بصفة خاصة لهن حقان: حقوق الأخوة وحقوق الزوجية فإذا لم يراع الزوجان حق الزوجية راعَين حق الأخوة، ومن جانب آخر إن مقتضى الأخوة أن يحسنَ كلٌّ من الزوجين عشرة صاحبه. وبمجيء ما بعده من التنبيه على وحدة الأصل ووحدانية الرب تعالى وضع دليلاً مادياً على موجب الوحدة، ولكأنه سلسلة من حلقات يرتبط بعضها ببعض. ومن ثم نفى التفاضلَ بغير التقوى كنتيجة للترتيب المتقدم.

ومن جانب الموتى والوصية، كأنها نهاية حياة الإنسان، فجاءت في نهاية الخطبة استتباعاً لترتيب شؤونه حتى الموت. ويجيء حق الفراش والتحذير من الانتساب لغير نسب حقيقي، إنما هو فرع عن الوصية والميراث لأن أصل الميراث مبناه على النسب ولواحقه.

وبهذا نجدها تشكل وحدة نظامية ومنهجاً تعليمياً وتشريعاً عاماً شمل وجمع وعم وخص، فكانت صورة صادقة لما أردنا من تصوير الخطابة الإسلامية التي تَعرِض الإسلام للمسلمين.

ولعلنا نكتفي بالدراسة والتحليل للنماذج الخطابية ونأتي بنماذج للتحضير ليكملها الطالب ويصوغها بنفسه.



نماذج للتحضير والإعداد

من المواضيع الهامة والتي يتناولها الجميع موضوع الحج، ولا سيما في هذه البلاد وأثناء الموسم. فكيف نحضّر لهذا الموضوع الهام؟

الواقع أن لهذا الموضوع عدةَ جهات، ويُنظر إليه من عدة زوايا. فلكي تلم بما تريد وتعد له إعداداً صحيحاً يجب أن تحدد الجهة التي تريد التحدث عنها.

نواحي هذا الموضوع:

١ - منها المشروعية، ومَنْ فرضه؟ وعلى من يجب؟ وهذه ناحية فقهية تستتبع شرح الوجوب والنيابة عن العاجز وشروط الإيجاب، وما هو موجود في كتب الفقه. وهذه الناحية لها حِلَقُ الدروس لا مواقف الخطابة، وعليه فهي تُحضَّر من كتب الفقه والحديث التي تعنى بالأحكام وتفسير آيات الحج. ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ . . .﴾ [آل عمران: ٩٧].

٢ - ومنها جهة الترغيب والترهيب، بخصوص المبادرة إلى أدائه ومراعاة آدابه وبيان فوائده وآثاره. وهذه الجهة لها الدروس العامة خطابة أو محادثة، ويحضَّر لها من كتب الرغائب والأحاديث العامة في هذا الموضوع.

٣ - ومنها الناحية الاجتماعية وما فيها من ارتباط الأمة وتحقيق مصالحهم، وتحصيل منافعهم، على حد قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨].

وهذه الناحية يمكن أن يدخل فيها الاقتصاد والسياسة والثقافة والصحة ونحو ذلك، وبما أن الناحيتين الأولى والثانية ظاهرة المعنى، سهلة التحضير، فندعهما للمجهود الشخصي.

أما الناحية الثالثة فهي أقل تناولاً وهي أهم علاجاً بالنسبة للعقليات الجديدة والاتجاهات المادية والمستحدثة، مما يشبع رغبات الناشئة فكرياً

وعلمياً، ويسد الفراغ في أذهانهم من أعمال الإسلام كمجرد طقوس دينية اعتادها الناس لا غير.

وعليه فيمكن أن نجعل العنوان كالآتي:

الحج مؤتمر إسلامي عام
فما هي طرق الاستفادة منه؟

فالخطابة في هذا الموضوع تحت هذا العنوان تكون من خطوات:

الأولى: كالمقدمة إثارة الشعور وإيقاظ العواطف إلى الموضوع وتحقيق ذلك بالآتي:

أ ـ الحديث عن مشروعية الحج من أنه متأخر عن كل الفروض الأخرى ليكون كخاتمة جامعة لأركان الإسلام. وينبه هنا بذكر ما يشتمل عليه الحج من عقائد سليمة في التلبية ونحوها.

ب ـ ثم من صلاة كركعتي الطواف امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

جـ ـ ثم الإنفاق الماثل في الاستطاعة التي فسرها النبي ﷺ بالزاد والراحلة[١] على أن تكون من حلال رجاء القبول.

د ـ ثم الصيام بدلاً عن دم الهَدْي، فهذا بيان شموله على أعمال الإسلام كلها ولهذا تأخرت مشروعيته ليكون تطبيقاً عملياً للجميع.

ثم من عوامل الإثارة له بيان وجوبه على خصوص المستطيع:

وهذا وإن كان إرفاقاً بالأمة، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. فهو يشعر بعظم أدائه وتميز من أدَّاه عن غيره.

ويمكن أن يستأنس لهذا المعنى بما يروى: أن إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة أُمر بالنداء إلى الحج. فقال: يا رب وأين يبلغ ندائي؟ فقال له: عليك النداء وعلينا البلاغ، فصعد أبا قبيس فقال: أيها الناس، إن الله ابتنى

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٤٤٢)، وضعفه الألباني في إرواء الغليل (٩٨٨).

لكم بيتاً فحجوه. فلبى كل من كتب له الحج. فمن لبى مرة حج مرة. ومن لبى مرتين حج مرتين. وعليه قول العلماء: الحج مأدبة الملك لا يجلس عليها فضولي. ويصدقه أو يقويه ابتداء الحاج عمله بقوله: لبيك اللهم لبيك. ولبيك إنما هي إجابة لنداء.

ثم تعرض آداب الحج في القرآن الكريم: على مبدأ قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ . . .﴾ [البقرة: ١٩٧].

فهذه المنهيات وإن كانت عامة في جميع أيام السنة إلا أن النهي عنها هنا بالخصوص يشعر بالاهتمام بالحج وقداسة أعماله وأيامه! وكأنهم مقدمون على مَلِك في ديوانه. فيعملون آداب القدوم عليه. ولله المثل الأعلى.

وبهذه النقاط سنكون أثرنا شعور المستمع إلى أهمية الحج وأوجدنا عنده تطلعاً إلى موضوعنا فنأتي إليه برفق.

عرض الموضوع: نأخذه على مبدأ: إن اجتماع الحجيج والعناية به لتحقيق منافع عاجلة كما فيه منافع آجلة ونجعل مبدأ هذه المنافع قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨].

ونعلق على مجيئها بصيغة الجمع (منافع) فنعدد ما يمكن أن نحصل عليه من منافع الحج التي هي صلب الموضوع الذي نريده فنذكر على سبيل الإجمال الآتي:

أ ـ في المجال الديني: فهو مؤتمر عام للوعظ والإرشاد وتدارس أمور الدين ودراسة القضايا المستحدثة من مجموعة علماء العالم الإسلامي. وشرح مبادئ الإسلام كل سنة لكل وفد كما فعل ﷺ من بيان وتبليغ وتكليفهم بإبلاغ مَنْ وراءهم.

ب ـ في المجال الاقتصادي: ونبين أنه يمكن تبادل السلع ودراسة وسائل الإنتاج في العالم الإسلامي، ونبني هذا على قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٩٨].

جـ ـ الفن: طب وهندسة على أساس أنهما من ضمن المنافع العامة.

النتيجة: ثم نأخذ ونعدد النتائج التي يحصل عليها العالم الإسلامي أفراداً وجماعات على النحو التالي:

أ ـ الأفراد: ستبدأ إفادة الفرد عند أول يوم يعزم فيه على جمع المال للحج لأنه سيتحرى طرق الحلال وبهذا يستفيد ويفيد. يفيد مجتمعه بتوفر الأمانة والصدق.

ب ـ ثم تأتيه الاستفادة من كل نُسُك من مناسك الحج على حدة، مما يليه عمل المناسك، فإذا كان الوقت متسعاً والمستمع مطمئناً ومتجاوباً، أخذنا نعرض مناسك الحج كل نسك على حدة، ونبين ما فيه من حكمة التشريع وفوائد معنوية تكسب القلب إيماناً والنفس إجلالاً.

وإذا كان الوقت لا يتسع أو المستمع قلقاً لظروف ما. أوجزنا الكلام عليها بدون إطالة.

كجعل الطواف التفاف المسلمين حول بعض والجميع في جوار الله.

وجعل السعي تحقيق اليقين والتوكل على الله كما فعلت هاجر عليها السلام. . . إلخ.

وجعل الوقوف تذكرة بالموقف العظيم والمساواة بين مختلف الطبقات. . . إلخ.

وجعل المزدلفة كفترة انتقال.

والرمي كإعلان الجهاد على العدو في رمي إبليس وإعلان الحرب عليه ومبادأته بالقتال لنحذره فيما بعد.

والنحر إحياء لسنة إسماعيل وبر الوالدين وتضحية الآباء في طاعة الله ولو بذبح الأبناء.

إلى مثل ذلك في سبيل الإيجاز أو الإطناب حسب المقام.

تحضير موضوع آخر بعنوان
«الاستقامة أساس كل خير»

الخطوة الأولى: استحضار النصوص التي لها صلة بالموضوع. مثل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ . . .﴾ [فصلت: ٣٠].

وقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة]، وقوله: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ . . .﴾ [الأنعام: ١٥٠ ـ ١٥٣].

ومن السنة: حديث: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»[١]. وحديث: «خط لنا رسول الله خطّاً مستقيماً. . .» إلخ[٢].

الخطوة الثانية: نرجع إلى تلك النصوص لنتخيَّر منها ما نجعله أساساً للموضوع وما نجعله بمثابة الاستشهاد والتوضيح. . . إلخ.

فسنجد في هذه المجموعة:

الآية الأولى والحديث الأول، متفقان في الإيمان والاستقامة والآية شاملة فتكون هي مع الحديث أساساً.

ثم نجعل آية الفاتحة لبيان منزلة الاستقامة والعناية بها ونأخذ ذلك من تكرارها في كل ركعة وما يتقدمها من معاني الحمد وما بعده في السورة.

ثم نجعل آية الوصايا ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ﴾، بياناً لمجمل ما تكون عليه الاستقامة.

مع عرض أقوال الأئمة والخلفاء في تفسير الاستقامة ومعناها كما رواه ابن كثير في تفسيره عند الآية الأولى.

ثم نأتي بالخاتمة: وهي أن نعود إلى آية الأساس ونستطرد في ذكر نتائج الاستقامة وما أعد الله لهم من الجزاء عاجلاً وآجلاً ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ . . . غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢]، بشيء من التفصيل حسب ما يقضي به المقام. . وهكذا في جميع المواضيع التي تعرض لي أو تطلب مني.

ثم لا مانع عرفاً ولا عقلاً ولا أدبياً أن نكرر موضوعاً واحداً في عدة أماكن أو أزمان مختلفة ما دام المستمع قد تجدد وتغير لأن المستمعين الأُوَل

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٥ و٤٦٥)، وحسنه الألباني في ظلال الجنة (١٧).

مضوا بما سمعوا وهؤلاء الجدد في حاجة إلى سماع مثل ما سمعه غيرهم كما لو تنقلتَ في عدة مساجد أو عدة بلدان، أو كنت في الحرمين وفي كل موسم تتكلم عن الحج لتغيرِ أفرادِ الحجيج.

ومثل ذلك تماماً ما هو واقع بالفعل في برامج الدراسة ـ ابتدائية أو جامعية ـ، فإن البرنامج يكرر كل سنة، لكل فصل، كلما تجدد الطلاب لأن المستجدين في حاجة إلى دراسة ما درسه الآخرون، وهكذا. . .

ومن الجدير بالداعي والخطيب والمصلح أن تكون له نظرات ثاقبة أو معرفة تامة لنفسيات الناس واستعداداتهم، فيتخير من رواده أو ملازميه مَن يغرس فيه أسس الخطابة وطريقة الإلقاء، أملاً في إيجاد خطباء يشتركون معه في تبليغ رسالته ويعاونونه في أداء مهمته.

ولهذا كلما كانت خطاباته مركزة، أمكنَ لمثل هذه العناصر أن تستوعبها وأن يظل تأثيرها في النفوس أمداً أطول.

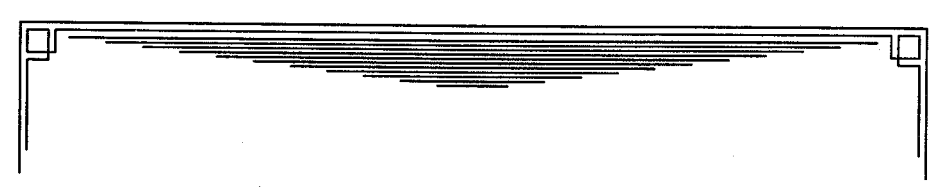
والخطابة بصفة عامة كالغذاء، فمن الغذاء ما تكون آثاره في وقته، ومنها ما يظل أثره في الجسم إلى زمن بعيد، ومثلها الدواء، فمنه (الإسبرين) كمسكِّن مؤقتاً، ومنها ما يظل أربعاً وعشرين ساعة.

فعلى الخطيب أن يكون طبيباً يراعي حالة المخاطَبين، وكلما عُني بتشخيص الداء وتحرِّي نوع الدواء، كلما كان أقرب إلى النجاح والوصول إلى مطلوبه.

وبالله التوفيق.

إذاً. . . رأينا مدى أثر الخطابة، وتتبعنا خطوات التحلل في نماذج عديدة، ورأينا كيفية التحضير، فنأتي بنماذج خطابية: يطلب تحليلها بإشراف من المدرس، سواء في الفصل أو خارج الفصل، ثم تناقش في الدرس.





نماذج من الخطب يطلب تحليلها

١ ـ خطبة للصدِّيق رضي الله عنه بعد البيعة:

حَمَدَ الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناسُ: إني قد وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم، ألا إنّ أقواكم عندي الضعيفُ حتى آخذَ الحقّ له، وأضعفكُم عندي القويُّ حتى آخذ الحق منه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الدراسة: في هذه الخطبة الموجزةِ رَسْمٌ لخطة الحُكْمِ وبيانٌ لموقِف الحاكم وفيها تحميلُ الرعية جزءاً من المسؤولية، وفيها بيان لحَقيقة الحاكم في نظر الإسلام وبم يجب طاعته.

بَيَّن كل ذلك في كلام فصيح وخَطابةٍ حماسيةٍ تناسب موقفَ الرئاسة، وعِظَم المسؤولية.

٢ ـ وصل إلى الصديق رضي الله عنه مال من البحرين، فساوى فيه بين الناس، فغضب الأنصار وقالوا له: فَضِّلْنَا؛ فقال: صدقتم، إن أردتم أن أفضِّلَكم صار ما عملتموه للدنيا، وإن صبرتم كان ذلك لله عز وجل، فقالوا: والله ما عملنا إلا لله تعالى، وانصرفوا. فرقي أبو بكر المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال:

«يا معشر الأنصار إن شئتم أن تقولوا: إنا آويناكم في ظِلالنا، وشاطرناكم في أموالنا، ونصرناكم بأنفسنا، قلتم؛ وإنَّ لكم من الفضل ما لا يُحصيه العددُ وإن طال به الأمد، فنحن وأنتم كما قال طفيل الغنوي:

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت　　　بنا نعلنا في الواطئين فزلَّت

أبوا أن يملونا، ولو أن أُمَّنا ... تلاقي الذي يلقون منا لملَّت

هم أسكنونا في ظلال بيوتهم ... ظلال بيوت أدفأت وأظلَّت»

الدراسة:

قابل الصدِّيق موقفاً حرجاً، فكيف تغلّب عليه؟ اعترف للأنصار بفضلهم مع أنه لم يزدهم شيئاً وانصرفوا راضين.

ـ بَيِّن المناسبةَ مع موقف الأنصار من المهاجرين، وموقف بني جعفر مع الغنوي. لمَ رقي الصديق المنبر وخطب هذه الخطبة، مع أن الأنصار قد انصرفوا راضين مقتنعين بالجواب؟ واذكر ما يحضرُك من موقف الرسول ﷺ مع الأنصار في غزوة حنين بعد تقسيم الغنائم.

نماذج لعمر رضي الله عنه

٣ ـ وخطب عمر رضي الله عنه إذ ولي الخلافة، صعد المنبر ثم قال:

ما كان الله ليراني أرى نفسي أهلاً لمجلس أبي بكر، ثم نزل عن مجلسه مرقاة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: اقرؤوا القرآن تُعْرَفوا به، واعمَلوا به تكونوا من أهله، إنه لم يبلُغ حقُّ ذي حقٍّ أن يُطاعَ في معصيةِ الله، ألا وإني أنزلتُ نفسي من مال الله بمنزلة وَالي اليتيم: إن استَغْنَيْتُ عَفَفْتُ، وإن افتقرْتُ أكلتُ بالمعروف تَقرُّم البَهْمَةِ الأعرابية. القَضْمَ لا الخَضْم[1]. اهـ.

يقال: تقرم الصبي: أكل أكلاً ضعيفاً، والبهمة: جمع بهم أولاد الضأن الصغار. القضم، والخضم: كلاهما القطع بالأسنان، غير أن أحدهما لليابس الشديد وهو القضم لشدة حرف القاف، والخضم للأخضر لخفة الخاء.

الدراسة: قارن بين هذه الخطبة وخطبة الصدِّيق في مثل ذلك الموقف وما وقع فيه اتفاق بينهما إجمالاً وما انفردت به هذه تفصيلاً.

---

(١) التقرُّم: الأكل أكلاً ضعيفاً.
القضم: الأكل بأطراف الأسنان.
الخضم: الأكل بأقصى الأضراس. (حاشية في الأصل).

٤ ـ وخطب مرة فحمد الله وأثنى عليه فقال:

الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام، وأكرمنا بالإيمان، ورحمنا بنبيه ﷺ فهدانا به من الضلالة، وجَمَعَنا به من الشتات، وألَّف بين قلوبنا، ونَصَرَنا على عدونا ومكَّن لنا في البلاد، وجعلنا به إخواناً متحابين، فاحمدوا الله على هذه النعمة، واسألوه المزيد فيها والشكر عليها، فإن الله قد صدقكم الوعد، بالنصر على من خالفكم، وإياكم والعملَ بالمعاصي، وكفرَ النعمة، فقلَّما كفر قوم بنعمة ولم ينزعوا إلى التوبة إلا سُلِبوا عِزَّهم وسُلِّط عليهم عدوّهم، أيها الناسُ: إن الله قد أعز دعوة هذه الأمة، وجمع كلمتها، وأظهرَ فَلْجَها ونصرها وشرَّفها، فاحمدوه عبادَ الله على نعمه، واشكروه على آلائه، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين.

الدراسة: اشتملت تلك الخطبة على عدة نقاط يرتبط بعضها ببعض، بيّن مدى هذا الترابط وحدد تلك المسائل.



خاتمة وتذييل

ولعل فيما قدمناه من بيان أصول الخطابة وعوامل تقويتها وخطوات تكوينها ما عرضناه من نماذجَ مدروسة، ونماذجَ للتحضير، وأخرى للدراسة، لعل في هذا كله تحقيقاً لما نرجوه من توجيه أدبي لعمل خطابي يساعد ويساند الراغب.

وقد توخينا فيه غاية سامية هي: توجيهات إسلامية، وتذوُّق أدبي لمحاسن الخطابة في عدة أغراض، مما يستدعي الملكات، وينمي الأذواق، ويوجد الشعور والاتجاه لدى الطالب، يتهيأ به لإعداد خطبه، وتحضير مواضيعه، ومواجهة مواقفه. بجانب ما لديه من رغبة أكيدة وتطلُّع بعيد لاعتلاء المنابر، ومخاطبة الجماهير وتوجيه الجماعات.

وبما أن هذا الفن يعتمد كل الاعتماد على المقومات الأدبية من مطالعات وتحليلات ومناقشات فإننا ننصح كل طالب أن يكثر قراءة الكتب الرئيسية في الأدب العربي والتي عنيت كل العناية بالعربية كلها والتي اعتبرها الأدباء أصولاً وأمهات، بجانب الكتب الأدبية الحديثة، ولا سيما الموضوعية أي التي عالجت فن الخطابة وفن الكلام الخطابي والإنشائي.

وبما أن المؤلفات الحديثة والقديمة على السواء بالنسبة إلى الطالب والقارئ على السواء غذاء روحيٌّ وأثرٌ فكريٌّ يتأثر بها من تناولها. وقد وجب علينا أن نتخير لأذهاننا ما ينفعها ولا يلبس عليها كما نختار لأبداننا من الأغذية ما ينفعها ولا يثقل عليها. فإننا نهيب بكل قارئ أن يحذر كل جديد مدسوس، أو قديم مغشوش.

أما القديم فقد ميَّزته أقلام النقاد، وعُرفت دخائله لدى الجميع، ولكن الخطأ يقع في الجديد المستحدث وعلى سبيل المثال وفي نفس الموضوع

نخص كتابين أو بالأصح كاتبين هما الدكتور طه حسين والأستاذ إيليا حاوي.

أما الأول فلِما وُجِد في بعض كتبه من جهة الأدب العربي عامة، والنثر والشعر في التاريخ بصفة خاصة. وأما الثاني فلكتابه (فن الخطابة) حيث شوه فيه الخطابة الإسلامية بل وعصر صدر الإسلام وإصلاحاته، ومن العجب أن يتعارضا في موضوع واحد هو الخطابة في الجاهلية.

فالدكتور طه حسين ينفي ما أُثر من شعر ونثر جاهليين، وإيليا حاوي يشيد بهما إلى الحد الذي جعل الإسلام أثراً من آثارهما. و«كلا طَرَفَيْ قَصْدِ الأمورِ ذَمِيمُ».

ولكي نؤكد موجب هذا التحذير ونوقفَ الطالب على تلك الأخطاءِ العديدة المتضمنة الأخطار الشديدة، نسوق الآتي ـ أداء لواجب العلم وتوخية للأمانة ونصحاً للناشئة، ولا سيما وقد تتأثر مسامعهم بسمعة بعض الكتّاب ـ:

مع الدكتور طه حسين

أما ما يتعلق بكتابات الدكتور طه حسين: فقد سبق له أن تكلم عن الشعر الجاهلي وعن القرآن الكريم، أثناء تدريسه الأدب عام ١٩٢٧م، وكان لكلامه أثر سيء تناوله الناس إلى أن وصل إلى مجلس النواب عام ١٩٣٢م، حين عرضه النائب المحترم الدكتور عبد الحميد سعيد قال: إن الدكتور طه حسين أملى على التلاميذ ما نصه: وصلنا في المحاضرة الماضية إلى موضوع اختلاف الأساليب في القرآن، وقررنا أنه ليس على نسق واحد، واليوم نوضح هذه الفكرة، فنقول: (لا شك أن الباحث الناقد والمفكر الجريء الذي لا يفرق في نقده بين القرآن وبين أي كتاب أدبي آخر، يلاحظ أن في القرآن أسلوبين متعارضين لا تربط الأول بالثاني صلة ولا علاقة، مما يدفعنا في الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة أو تأثر ببيئات متباينة... إلخ)، ويكفي منه جرأة قوله: (لا شك أن الباحث الناقد والمفكر الجريء الذي لا يفرق في نقده بين القرآن وبين أي كتاب أدبي آخر يلاحظ أن في القرآن أسلوبين متعارضين)، وقد جرَّته جرأته إلى أعظم من ذلك، لا إلى النقد والمقارنة والتهجم بالمعارضة بل بالاعتراض والنفي.

ففي كتابه (الشعر الجاهلي) نفى صحة قصة إبراهيم وإسماعيل وبنائهما للكعبة، وزعم أنهما خرافة اخترعها اليهود لغرض سياسي، حيث يقول: للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي.

وقد تتبعه الأستاذ محمد أحمد عرفة وكيل كلية الشريعة بالأزهر في كتابه بعنوان (نقض مطاعن في القرآن الكريم) طبعه وعلق عليه السيد رشيد رضا بمطبعة المنار عام ١٣٥١هـ.

رد المؤلف تلك المطاعن إلى الأصل المنقولة عنه من كتب المستشرقين، منها كتاب «ذيل مقالة في الإسلام» طبع للمرة السادسة في مطبعة النيل المسيحية وفيه الطعن على قصة إبراهيم وإسماعيل وبناء الكعبة في ص٣٥٢. وعليه فيكون الدكتور: إما مخدوعاً بمن كتب قبله أو مخادعاً لمن يكتب إليه من بعده.

ثم هو يعود عام ١٩٦٤م أي بعد سبع وثلاثين سنة يكتب في كتاب له بعنوان «في الأدب الجاهلي» فينفي كل ما نسب إلى خطباء العرب في الجاهلية ويقول في أخريات كتابه متسائلاً ومجيباً: لو تسألني عن كل ما جاء عن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي وغيرهما من وفود العرب عند كسرى فأقول: أرفض بدون تردد. ثم يقول: ولا أقول: إن العرب لم يعرفوا الخطابة ولكن لم يصل إلينا عنهم شيء بطريق قاطع ولك ما نقل عن هؤلاء عليه الصبغة الإسلامية، لهدوئه وتنظيمه، وقد انتُحل أكثره في القرن الثاني أو الثالث الهجري.

ثم هو يربط بين هذا المبحث الجديد أو القديم المتجدد وبين ما كتبه سابقاً في الشعر الجاهلي فيقول: والدوافع التي دعت إلى انتحاله هو عين الدوافع التي أدت إلى انتحال الشعر الجاهلي. ويجدد شوائب الطعن على القرآن فيقول: ولا يوجد نثر يُنظر إليه إلا القرآن الكريم. اهـ ملخصاً.

ونستطيع أن نقول: إن هذا الادعاء يجب أن يرفض بدون تردد. بل ويتوجه إليه عدة علامات استفهام:

ماذا وراء هذا كله؟ أهي أمانة العلم، ودقة التحري، أم هي نوازع أخرى؟

ثم ما علاقة ربط القرآن الكريم ـ كلام الله تعالى ـ بهذه المقاييس الأدبية وعرضه على الموازين النقدية؟ وهو الذي يقول عنه: إن القرآن ليس بنثر ولا شعر إنه قرآن فقط إنه كلام الله تعالى! ولكنها النوازع السابقة التي قالها من قبل: (إن الباحث الناقد والمفكر الجريء الذي لا يفرق بين القرآن وبين أي كتاب أدبي آخر)!؟

فمثل هذا الكاتب، لا ينبغي التعويل على كتابته في المبادئ الإسلامية، وإن بلغ شأواً في التنميق والتنسيق وتنوع الأساليب كما هو معروف له.

وقد تكون قوة الأسلوب أدعى لترويج الباطل وتمويه الحقائق. ولهذا أوردت هذا القدر ليتم التنبيهُ على ما أردنا التحذير منه.

مع إيليا حاوي

يقابل هذا ما كتبه «إيليا حاوي» في كتابه (فن الخطابة). فقد أفرط في علوِّه وإطرائه وتمجيده للشعر والنثر الجاهليَّيْن، حيث جعلهما أساسَ توجيهِ لإصلاح المجتمع، ومتنفَّساً للسادة الموجهين، وللقادة المصلحين، بل جعل الإسلام في إصلاحه إنما هو امتداد لتلك النهضة العربية الجاهلية؛ وتنفيذاً لما أسماه (الثورة الإصلاحية) وحقاً ما قيل: «كلا طَرَفَيْ قَصْدِ الأمورِ ذميمُ».

وقدَّم لفكرته بعرض أدبي وأثر اجتماعي، إن هو صحَّ في أوروبا والعالم الغربي، فهو بعيد كل البعد عن الإسلام والعالم الإسلامي.

قال في فصل الخطابة ودوافعها في العصر الإسلامي: إن من يمعن النظر في دراسة الأسباب التي تؤدي إلى الثورات، يتحقق له أن الثورة الفكرية تتقدم الثورة السياسية وبالأحرى يظهر له دائماً أن الثورة الثانية ليست في الواقع سوى امتداد للأولى ونتيجةٍ لها، فقبل السياسيين العظام يسبق عدد كبير من المفكرين العظام فيعدون النفوس، ويثيرون فيها الدوافع العميقة، لتبديل الأوضاع التي دأب عليها الإنسان منذ زمن طويل. فالمفكرون والخطباء اليونان والرومان هم الذين أعدوا النشأة (بريكليس) و(يوليوس قيصر)، وكذلك

فإن الثورة الإنجليزية والأمريكية كانت وليدة الأفكار والآراء والنظرات الجديدة إلى الحياة الجديدة والكون، أكثر مما كانت وليدة السلاح والاقتتال.اهـ.

ثم يستطرد في تعدد الثورات إلى عصرنا الحاضر متمثلاً بالحركة الشيوعية فربطها بأفكار ماركس ولينين.

ثم يقول: ذلك جميعاً يدفعنا إلى الاعتقاد بأن الثورة الاجتماعية والسياسية التي ظهرت معالمها في العصر الإسلامي لم تكن في الواقع وليدة اللحظة التي تفجرت فيها، بل إنها وليدة مقدمات بعيدة الغور في وجدان العرب الذين دأبوا على عبادة الأوثان، والإيمان بالخرافات الغيبية.

ثم يقول: إن الثورة التي طفرت في العصر الإسلامي كنا نستشفها في الشعر الجاهلي وبخاصة في شعر طرفة رسول الولادة الجديدة، حيث يظهر هذا الفتى متململاً هازئاً من الاعتقادات والمثل العليا الجاهلية، وظهرت في خطب أكثم بن صيفي وفي خطب قس بن ساعدة. . . إلخ.

انظر إلى طرفي التناقض بين الكاتبين، فالأول ينفي كل أثر جاهلي أو بالأصح الخطب الجاهلية. بينما هذا الثاني يجعل هذا التراث الجاهلي أساساً للنهضة الحديثة في صدر الإسلام ويغالي في أحد الشعراء الجاهليين «طرفة» فيسميه: (رسول الولادة الجديدة).

ولست أدري علام جعله رسولاً لولادة جديدة؟ وما نوع رسالته التي آمن له بها؟ أو على قوله:

ولولا ثلاثٌ هن من شيمةِ الفتى ... وجدِّك لم أحفلْ متى قام عُودي

فمنهن سبق العاذلات بشربة ... كميت متى ما تعل بالماء تزبد

وَكَرَى إذا نادى المضاف مجنباً ... كسيد الفضا نبهته المتورد

وتقصيري يوم الدجن والدجن معجب ... ببهكنة تحت الطراف المعمد

فتلك خلال ثلاث، الأولى: سبق العاذلات بشربة. والثانية: حماية المستجير. والثالثة: لهوه يوم الغيم. .

وهن ما عدا الوسطى لهو ولعب، والثانية منهن قد تكون حميَّة وفتوَّة. فهي من أحسن ما فيه.

أما الشرب واللعب وهما دأبه كما قال عن نفسه:

وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي

ولو وجد اليوم في أي مجتمع، لحكم عليه بالسفه، ولحجر عليه، وأودع مصحات الأحداث.

فأي رسالة يحملها من يبيع طريفه ومتلده، في ملذاته، ومعاقرته، اللهم إلا رسالة التحلل والتسول.

وأما عن دعواه: إن كل ثورة سياسية فهي امتداد لثورة فكرية فهذا إن صح في الأوساط الأوروبية وغير الإسلامية فلا يصح فيما جاء به الإسلام قطعاً.

ونحن نقول: إن هذه الدعوى تدور بين الجهالة والخيانة.

فإن كانت تجاهل العارف فهي خيانة.. وإن كان قاسها على الأوضاع الأوروبية فهي جهالة. ثم على كلا التقديرين فهي فرية عظمى، جهالة بطبيعة الخطابة، وفرية على الإسلام.

إيضاح تلك الجناية. ورد تلك الفرية.

أما إيضاح تلك الجهالة: فبيان سببها ذلك أنهم نظروا إلى الأوضاع الأوروبية وتأثروا بها وحاولوا تطبيقها على غيرها. ولم يراعوا طبيعة كل دعوة ومنهجها، فأوقعهم ذلك في هذا الخطأ. فلئن كان ما قالوه ينطبق على الثورات المدنية والتغييرات الاجتماعية وانتقالها من وضع إلى وضع كلاهما موضع اجتهاد ومرجع اختبار الشعوب. في ألوان حياتهم. فإنه لا ينطبق على الإسلام بحال من الأحوال لأن خطباء تلك المجتمعات وكتابها الذين يدعون القادة إلى التغيير وهم الذين يهيئون الشعوب للاستجابة، ثم هم الذين يرسمون خطة الإصلاح ويعرضون مناهج وبرامج لما يدعون إليه، فلا يكون دور القادة والمصلحين إلا التنفيذ وإلزام المعارضين.

ومن ثم تكون النتائج إيجابية من أول لحظة يعلن عن تلك المبادئ ولو من البعض إن لم يكن من الكل. والوضع مع الإسلام على العكس تماماً، من جهة الخطباء ومن جهة النتائج.

أ ـ أما من جهة الخطباء، فلم نجد ولا خطيباً واحداً دعا القادة إلى تغيير ما هم عليه أو رسم منهجاً للناس يسيرون عليه، وغاية ما وجد من أمثال قس بن ساعدة إنما هو قلق فكري، وتحير عقائدي، وتساؤل عن المغيبات، فهي لا تعدو أن تكون سخطاً على الحاضر، وتحيراً في المستقبل.

أما أكثم، فما تكلم إلا بعد أن ظهر النبي ﷺ وبدأ دعوته وظهرت مبادئُها فأرسل أكثم ولده إلى النبي ﷺ وشافهه ورجع إلى أبيه وأخبره عنه. فكان ما تكلم به أكثم من دعوة إلى الإصلاح تعبيراً عن واقع استنتجه من واقع الدعوة وحال الأمة.

أما طرفة «رسول الولادة الجديدة»، كما أسماه الكاتب، فقد رأينا نوع رسالته في شرابه ولذاته وبيعه طريفه ومتلده.

إذن فليست هناك دعوة أو نهضة خطابية سبقت الإسلام مهدت إلى الإصلاح الإسلامي وليست الإصلاحات الإسلامية وليدة مقدمات بعيدة الغور في وجدان العرب بل ولا قريبة في كلام خطبائهم.

ولكن الذي كان بالفعل إنما هو إساءة حالة الأمة العربية وقلقها واضطرابها وتناقضها في اتجاهاتها، سواء في المعاملات أو المعتقدات، حتى سئم عقلاؤها ما هم عليه من أوضاع، يصور ذلك حقاً ما جاء عن عمر رضي الله عنه: أنه كان في الجاهلية يصنع له إلٰهاً من تمر يضعه عند رأسه ليحرسه حتى الصباح فإذا أصبح معافى أخذ إلٰهه وأكله. فما هي قيمة حراسة مثل هذا الإلٰه؟

ويصوره أيضاً قول الشاعر لما رأى ثعلباً مر على بعض آلهتهم فبال الثعلب عليه فأنشد:

أربّاً يبول الثُّعلبانُ برأسه ... لقد خاب من بالتْ عليه الثعالبُ

وما قيمة إلٰهية من يبول الثعلب على رأسه. ومثله قول عمرو بن الجموح في شأن صنمه المشهورة.

وهي أنه كان له صنم وكان عمرو سيداً من سادات قومه وشريفاً من أشرافهم وقد اتخذ له صنماً من خشب وضعه في داره يقال له (مناه) كما كانت تصنع الأشراف. فلما أسلم فتيان من بني سلمة كانوا يدلجون بالليل

على صنم عمرو فيحملونه ويطرحونه في بعض الحفر وفيها النجاسات منكساً على رأسه فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم من عدا على آلهتنا ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه. ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه، فإذا أمسى ونام عمدوا وعدوا عليه. وهكذا حتى جاء يوماً بسيفه فعلقه عليه ثم قال: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى. فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك، فعدوا عليه أيضاً ليلاً وأخذوا السيف ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل وألقوه في بئر فيها نجاسة فخرج يطلبه فلما رأى حاله وأراد الله له الخير وأسلم قال يذكر حال صنمه ويشكر الله على نعمة الإسلام:

والله لو كنتَ إلٰهاً لم تكنْ ... أنتَ وكلبٌ وسطَ بئرٍ في قرن
أُفٍّ لملقاك إلٰهاً مستدن ... لأن مشتكاك عن سوء الغبن
الحمد لله العَليِّ ذي المِنَن ... الواهبِ الرزاقِ ديان الدينِ
هو الذي أنقذني من قبل أن ... أكونَ في ظُلْمَةِ قَبْرٍ مُرْتَهن

ومثل هذه الصور معتقدهم في المآل كما قال الشاعر:

أرانا موصفين لأمر غيب ... ونسحر بالطعام وبالشراب

فجعل انقضاء الأيام سيراً حسيساً إلى أمر غيب، وهو ما بعد الموت فلا يدري ما بعد الموت. من تعب وجزاء وجنة أو نار، ونظر إلى الحياة وكأنها لغز من ألغاز السحر وعبر عنه بقوله: ونسحر بالطعام وبالشراب.

وفي بعض العادات الاجتماعية نرى بعض العقلاء يتزمَّت من بعضها كشرب الخمر مثلاً فيقول:

رأيت الخمرَ صالحةً وفيها ... خِلالٌ تُفسدُ الرجلَ الحليما
فلا والله أشربها صحيحاً ... ولا أشفي بها أبداً سقيما
ولا أُعطي بها ثمناً حياتي ... ولا أدعو لها أبداً نديما
لأنّ الخمرَ تفضح شاربيها ... وتجنيهم بها الأمر العظيما

وهذا وضع فطري وفساد ملموس. تفضح شاربيها وتجنيهم بها الأمر العظيم.

فهذا كله انتقاد لوضع، وليس فيه دعوة لدين جديد ولا تفصيل لمنهج إصلاح.

أما خطبة قس بن ساعدة التي استدل بها الكاتب على دعواه، فقد تقدمت دراستها، ونحن نعيد النظر فيها هنا لننبه على بطلان دعواه.

فبالنظر فيها جملة: نجدها تعبيراً عن حيرته، وتطلعاً إلى أوضاع أحسن مما هم عليه. وبالنظر فيها تفصيلاً نجده في مقدمتها عني باستصغاء السامعين وأن يعوا فعاله. فكان موفقاً في استهلاله، ثم جاء بقضايا واقعية أي ليست بجديدة ولا مستنتجة: من عاش مات، ومن مات فات، وهذه بديهيات كما في قول الشاعر:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

ثم انعطف على ما حوله: ليل داج، ونهار ساج، ظلام الليل وضياء النهار وما فوقه من سماء وحوله من جبال، سماء ذات أبراج، وأرض بأنهارها وجبالها، والجديد فيها قوله: إن في السماء لخبراً وإن في الأرض لعبراً. وليس بجديد على قومه فكم تكلم به الكهان من قبله مثل «شق» و«سطيح» وغيرهما. فكأنه لا جديد فيها بالنسبة إلى السامعين.

ثم يعود إلى حيرته السابقة، فيقول صراحة: ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟!

ويتساءل بدون أن يجد الجواب: أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا؟ ثم يقسم قسماً يبر فيه أن لله ديناً هو أرضى له وأرضى من دينهم الذي هم عليه.

فهذا عين ما قلنا من السخط على الأحوال التي عليها قومه بصريح القول منه: إنكم لتأتون من الأمر منكراً. فلا يخرج في خطبته عن النقطتين اللتين أشرنا إليهما:

أ ـ السخط على الواقع.

ب ـ والحيرة في أمر المستقبل.

وجاءت أبياته خلاصة لخطبته. حيث قال:

فـي الـذاهـبـيـن الأوَّلِـيـنَ مـن الـقـرونِ لـنـا بَـصَـائـرْ

لـمـا رأيـتُ مـوارداً لـلـموتِ لـيـسَ لـهـا مـصـادرْ

ورأيـتُ قـومـي نـحـوَهـا يـمـضـي الأكـابـرُ والأصـاغـر
لا يَـرجـع الـمَـاضـي إلـيّ ولا مـن الـبـاقـيـن غـابـر
أيـقـنـت أنـي لا مـحـالـةَ حـيـثُ صـارَ الـقـوم صـائـرْ

فهي أيضاً تصوير لوضع واحد: هو ذهاب الأشخاص إلى المقابر بدون رجعة من سالف القرون إلى أفراد قومه. فكان استنتاجه عادياً وهو أن يصير إلى ما صار إليه غيره، الكبير والصغير، الماضي والحاضر.

ومن خلال هذا العرض نجدها لم تأت بجديد يمكن أن يكون دعوة لإصلاح أو تمهيداً لتغيير أوضاع.

ولم تعد، كما قلنا تصويراً لواقعهم وتعبيراً عن سخطه وحيرته.

وعليه فيكون مجيء الإسلام إن أردنا أن نعلل له؛ إنما جاء استجابة لرغبات إصلاحية لا نتيجة لدعوة فكرية.

جاء لإصلاح أوضاع أفسدتها الأهواء، جاء بمكارم الأخلاق ومحاسن العادات فضلاً عن أسمى معانيه من إخراج الناس من ظلمة الجهل وعبادة الأوثان إلى نور العلم وعبادة الله وحده.

وقد قال أكثم بعد أن سمع عنه من ابنه فدعا قومه وعرض عليهم اتباعه وقال لهم: إن كتابه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويأمر فيه بمحاسن الأخلاق، ويدعو إلى توحيد الله تعالى وخلع الأوثان، وترك الحلف بالنيران، وقد عرف ذوو الرأي منكم أن الفضل فيما يدعو إليه وأن الرأي ترك ما ينهى عنه.

وقال لهم: إن الذي يدعو إليه محمد لو لم يكن ديناً، كان في أخلاق الناس حسناً. فالنفوس إذن متطلعة إليه يأخذ به ذوو الرأي ويستحسنه الناس في أخلاقهم ومجتمعاتهم. فهم متطلعون إليه وليسوا دعاة له. وهذا التطلع وهذا الاحتياج لهذا الإصلاح أمر طبيعي إبان كل دعوة.

لأن كل دعوة إنما تأتي عند بلوغ الفساد أقصاه واشتداد حاجة الناس إلى من ينقذهم مما هم فيه من ظلم وضلال واضطراب وتفشي الأخلاق الفاسدة.

فعندما تشتد حلكة الظلام، وتعمي طريق الحق وسبل الخير، ويضل الناس ويتيهون في حيرة، آنذاك تطلع عليهم شمس رسالة جديدة فتخرجهم بنورها من الظلمات وتهديهم سواء السبيل.

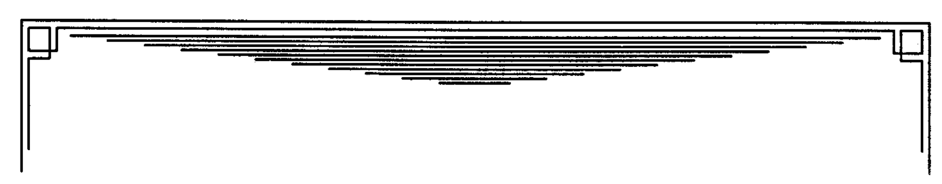
فهكذا كان مجيء الإسلام على فترة من الأديان، ومبعث الرسول ﷺ على فترة من الرسل بعد أن ساء الوضع وتطلعت النفوس إلى الإصلاح، ولم يكن امتداداً لفكرة سابقة ولا وليداً لما في نفوسهم.

وأما من جهة النتيجة وهو يؤيد ما مضى: فإن النتيجة كانت عكسية بالنسبة إلى ثورات أوروبا تماماً.

لأن الإسلام عند ظهوره والنبي ﷺ عند دعوته الناس إليه لم تكن النتيجة إيجابية ولا قريبة من الإيجاب كنتائج الثورات في أوروبا.

نتائج الثورات في أوروبا كانت إيجابية بنسبة عالية لا أقل من خمسين في المائة يستجيبون لها إثر ظهورها. ونتائج الدعوة الإسلامية كانت عكسية وسلبية إلى أبعد حدود السلبية بل تعدت السلبية إلى معاداة الداعي وإنكار ما يدعو إليه. ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ [ص: ٢]، ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥]، ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [ص: ٧]، فنفوا أن يكونوا سمعوا بهذا في الملة السابقة قبلهم بعد أن تعجبوا من أصل الدعوة.





للإسلام ذاتية مستقلة

فلو كان الإسلام وما جاء به امتداداً لدعوات سابقة والنفوس مهيأة إليه من قبل. لما عجبوا مما جاء به، ولما أنكروا سماع شيء من هذا في الملة الآخرة، ولما رموا بالاختلاق عليهم. وَلَوَجَدَ في اللحظة الأولى آذاناً صاغية، وعقولاً واعية، وقلوباً مفتحة إليه، ونفوساً متقبلة له، كما وجدتْ غيره من دعوات الإصلاح في أوروبا وغيرها.

وبما أن أوضاعه مغايرة، ونتائجه مضادة، علمنا خطأ من يجعله كغيره من الدعوات الإصلاحية في المجتمعات الأخرى. كما علمنا أن الذي دفع مثل هذا الكاتب إلى هذه الدعوى جهله بطبيعة الأوضاع، وعدم تفريقه بين المتغايرين. ومن هنا وأمثاله يكون الاندفاع إلى الافتراء على الإسلام.

أما كونه فرية على الإسلام فلأنهم جعلوه امتداداً لأفكار سابقة، وتتميماً لدعوات من قبل.

والإسلام بخلاف ذلك كله على خط مستقيم، فقد جاء من لدن حكيم عليم، وجاء بما نقض عليهم عقائدهم، وغيّر في شتى شؤونهم، ففي البيوت غيّر نظام الأسرة: في النكاح والطلاق والميراث. فبعد أن كان للنكاح صور عديدة حتى الاستبضاع[1]، قضى عليها الإسلام كلها إلا ما بقي اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل ابنته أو أخته فيزوجه إياها كما في حديث عائشة[2].

وبعد أن كان للرجل أن يطلق زوجته ويراجعها ما دامت في العدة ولو مائة مرة، فحدد بثلاث تطليقات.

وبعد أن كان الميراث لمن يحمي الذمار ويدفع العار فلا ميراث لأنثى، أصبح للذكر مثل حظ الأنثيين والأخت لأم كالأخ لها سواء.

---

(١) انظر: صحيح البخاري (٥١٢٧).
(٢) أخرجه البخاري (٥٠٨١).

وفي الأسواق عقود ومبيعات فحرم عقود الربا وأبطل عليهم أيما بيع مثل الربا. بقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾، وحرَّم البخس والبيع على بيع أخيه، وبيع الحصاة والعينة والعربون ونحو ذلك من العقود كما حرم عليهم الزنا والخمر والميتة، وغير ذلك مما نشأوا عليه وألفوه، وأتاهم بمعاملات وعادات لم يعرفوها ولم يألفوها.

فلو كان امتداداً لأفكار سابقة، لسايرهم في أفكارهم، ولو كان وليد مقدمات بعيدة الغور في وجدانهم لتجاوبوا هم معه. ولكن شيئاً من ذلك لم يكن. إنما هو رسالة من الله تعالى دعا إليه رسوله ﷺ جاء بالحق ليقضي على الباطل، وبالنور ليزيل الظلمة، وبالحياة ليحيي موات القلوب.

ولعلنا بهذا القدر من التنبيه، نكون قد أوجدنا وعياً لدى الطالب يسايره في مطالعته لبعض الكتب، ليأخذ منها ما ينفعه، ويعرض عما لا نفع فيه، بل ويكون فطناً لما يريد الكاتب، والله أسأل أن يوفق الجميع لما يحبه ويرضاه آمين.

ولما كان الغرض والغاية من فن الخطابة لدى المسلمين إنما هو العمل في مجال الدعوة إلى الله وبيان محاسن الإسلام وكشف حقائقه فلعل الله ييسر ملحقاً موجزاً لبيان أدب الداعي ومنهج الدعوة، رغبة في إتمام الفائدة إن شاء الله.

وصلى الله وسلم وبارك على سيد ولد آدم، من أُعطي جوامع الكلم، وعلى آله وصحبه وسلم.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة